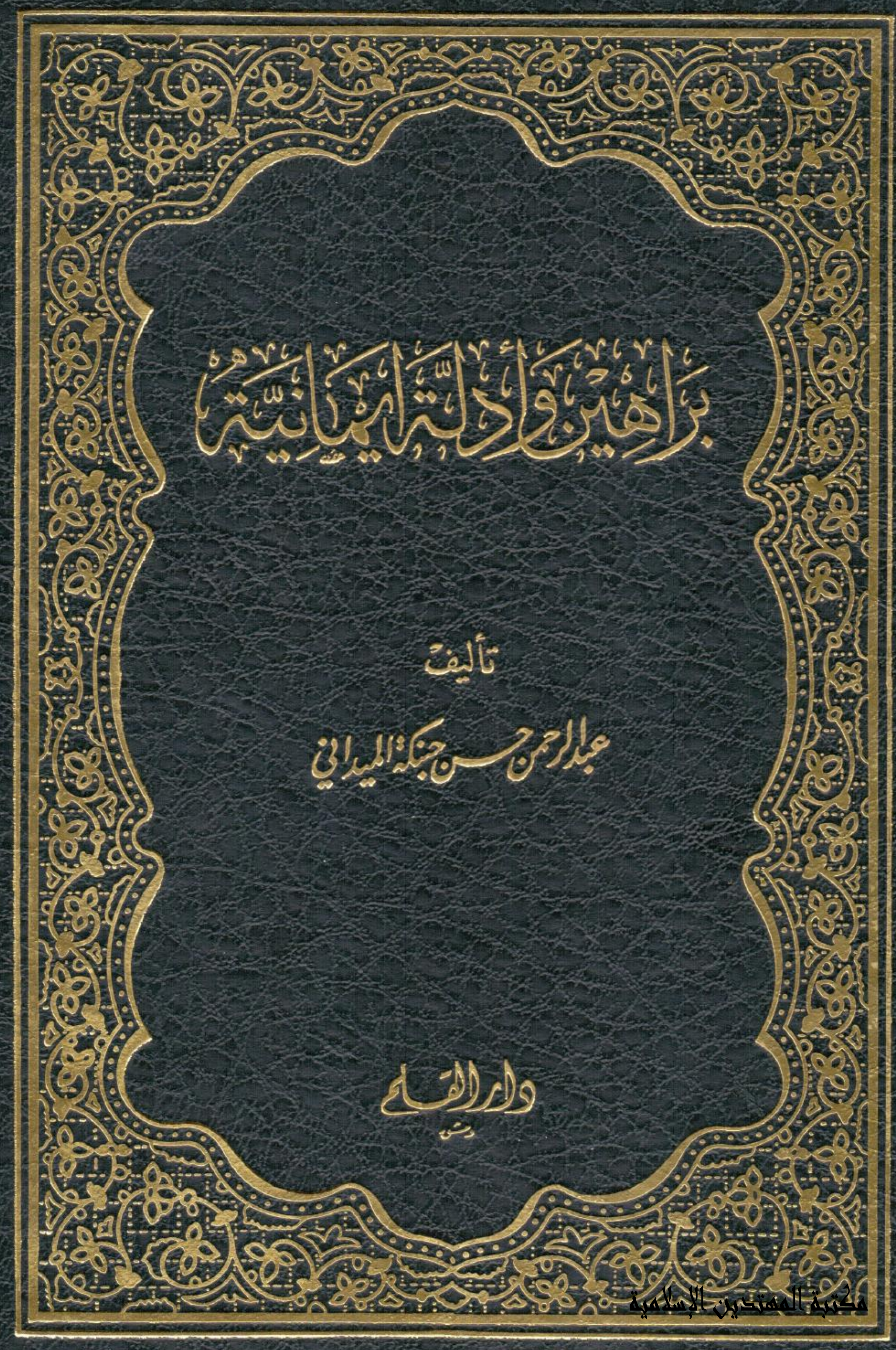
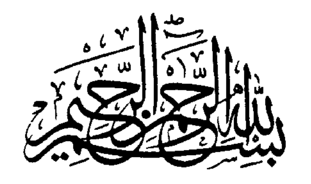

براهين وأدلة إيمانية
تأليف
عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني
دار القلم
دمشق




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

براهين وأدلة إيمانية

تأليف

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني



الطبعة الأولى

١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م





دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

بيروت - ص . ب : ١١٣/٦٥٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله الذي خضع لربوبيته كلُّ شيء، وأسلم له كلُّ شيءٍ طوعاً أو كرهاً، وأذعن لإلهيته الجبريّة كلُّ شيءٍ، ﴿وإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾.

فمن آمن بربوبيته وإلهيته وأسلم له عزّ وجلّ من ذوي الإرادات الحرّة، أَلْحَقَ ما هو مخير فيه، بما هو مجبور فيه، فتكاملت عبوديته لله الربّ الخالق، جبراً واختياراً، وتناسقت ذاتُه، دون انفصامٍ ولا تَعَانُدٍ مع الحقيقة والواجب، فكان من الموفّقين، واستحق مرتبة من خلقه الله في أحسن تقويم، وصار أهلاً للمنزل الكريم الذي أعدّه الله له في جنّات النعيم.

ومن كفر بربوبيته أو بإلهيته أو لم يُسْلم له فقد ناقض ما هو مخيّر فيه ما هو مجبور عليه، فأحدث له هذا التناقض مسخاً أخسّ من المسخ إلى قردة وخنازير، فعبد الطاغوت، وكان من المقبوحين، ومن الخزايا والنادمين، وَرُدَّ إلى أسفل سافلين، واستحق الخلود في دار العذاب التي أعدّها الله للكافرين والفاسقين والظالمين.

والصلاة والسلام على معلّم الناس الخير، والهادي إلى صراط الله المستقيم، نبيّنا ورسولنا محمد خاتم النبيّين والمرسلين، وعلى سائر الأنبياء والرسُل، الذين دعوا إلى الإيمان بالله وتوحيده والإسلام له، وإلى عبادته وحده لا شريك له، وعلى آل كلٍّ وصحب كلٍّ أجمعين، ثم من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: ففي سنة «١٣٩٥» هجرية قدّمت من إذاعة المملكة العربية السُّعوديّة، خلال دورتين إذاعيتين «ثمانية أشهر» حديثاً يومياً بعنوان «آمنت بالله» مررت فيه على جملة أدلّةٍ عَقْلِيَّةٍ وعلميّـة من مختلف مجالات الفكـر والعلم والمعرفة التجريبيّة، وعرضت بعضها بأسلوبٍ أدبيّ شعري، نظمت معظم قصائده مع إعداد الحديث اليومي، وطبعت هذه القصائد فيما بعد بديواني: «آمنت بالله».

ورأيت اليوم أن أرتّب هذه البحوث، وأنسقها، وأنقّحها، وربما أضفت إليها، ثم أقدِّمها للقراء، عسى أن ينتفعوا بشيءٍ منها، فهي بحوث طوّافة على أدلّةٍ إيمانية من كلّ مجال، وهي أشبه بالباقة من الزهور التي يقتطفها المولع بها من حدائق الزهور البديعة. وقد يوجد فيما تَرَكَ أو لم ينتبه إليه ما هو أحبّ إلى بعض النفوس ممّا جَمَع. بيد أنّ ما جمعته لم أجمعه كيفما اتفق، إنما جمعته انتقاءً.

وأنت خبير بأنّ أدلّة الإيمان منبثّة في كلّ ما خلق الله، فهي لا تنتهي تفصيلاتها وأمثلتها، وإن اجتمعت في أصولٍ وأمَّهَاتٍ كبرى، هي لها بمثابة جذوعٍ ضخمة أو أصولٍ عظيمة لشجرات، تفرَّعت منها فروع كثيرة جدّاً، ممتدة في أرجاء الأرض، وآفاق السماوات.

وأدلّة الإيمان المنبثّة فيما خلق الله من شيء، وفيما أنزل الله من كتاب، وفيما أوحى الله به إلى رسله وأنبيائه من بيانات، وفي كلّ ما ألهم الله الأفكار والعقول والقلوب من مدارك حقٍّ ومفاهيم وبصائر، هي حجج الله على عباده، وبراهينُ بَصَّرَهُمْ بها ليقطعَ بها أعذارهم إذا كفروا، ولم يطيعوا، ولم يستقيموا على صراطه.

فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكْفُرْ.

من آمن أسعد نفسه وكرَّمها. ومن كفر أشقى نفسه وأهانها. ولن يضرَّ الله بكفره شيئاً، ولن ينقلب الحقُّ باطلاً بجحوده، وجحود كلّ الجاحدين، ولن ينقلب الباطل حقّاً بكثرة متبعيه المؤمنين بأنّه حقّ.

إنّ الحق سيظلُّ حقّاً أبداً، وإنّ الباطل سيظلُّ باطلاً أبداً، ومصيرُ الحقّ إلى ظهورٍ واستعلاء، ومصير الباطل إلى زهوقٍ واستخذاء.

والإيمان بوجود الربّ الخالق الذي له العبادة وحْدَهُ، والذي يستعان به وحده، ويُخشى عقابه ويُرجى ثوابه على كلّ الأعمال الظاهرة والباطنة، ضرورة مُلحّةٌ في كيان الإنسان، وهو الذي يحلّ به الإنسان كلّ عقدة في حياته، وهو الذي يجيب به الإنسان على كبريات الأسئلة التي تلحّ عليه باستمرار، إذْ يتساءل عن مبدئه، وعن سبب وجوده في هذه الحياة، وعن الغاية منه، وعن المصير الذي هو صائر إليه.

اللّهمّ أرِنا الحقّ حقاً وارزقنا اتّباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، ووفقنا لما تُحبّ وترضى، واستعملنا في أحبّ الأعمال عندك، وأقربها منك، وأوصلها إليك، وأكثرها تحقيقاً لرضوانك، وبلوغ منازل الفردوس الأعلى في جنانك.

وقد قسمت الكتاب إلى ثلاثة أبواب:

فأوضحت في الباب الأول منه أمرين:

الأول: طريقة القرآن في إثبات العقيدة بالله، القائمة على الأسس الفكرية، وعلى دراسة كتاب الكون، للتعرّف من خلاله على آثار صفات الخالق البارىء فيه.

الثاني: عرض الإلحاد وأوهام الملحدين، مع كشف زيوفهم الفكرية، وخرافاتهم.

واشتمل هذا الباب على فصلين.

وسقت في الباب الثاني منه أدلة كلية مع أمثلة منها، وشهادات من علماء الكون حولها، وهي خمسة عشر دليلاً، عرضتها في خمسة عشر فصلاً.

وسقت في الباب الثالث منه آيات تفصيليّة من آيات الله في الكون، وقد عرضتها في سبعة فصول.

فتكاملت بذلك خطة العمل المقصود في هذا الكتاب، على أنّ آيات الله

في الكون لا تحصر في أسفار، مهما كتب الكاتبون، وتوسع في دراسة الكون الدارسون، وأشير إلى أنني لم أستوف أيضاً كلّ ما في القرآن من آيات تضمّنت لفت الأنظار إلى أدلة وجود الله وصفاته.

والحمد لله والصلاة والسلام على رسوله المجتبى.

صيف عام ١٤٠٦ هجرية

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

الباب الأوّل

طريقة القرآن حول العقيدة بالله وإلحاد الملحدين فيه

وفيه فصلان:

الفصل الأول : طريقة القرآن في إثبات العقيدة بالله جـل وعـلا.

الفصل الثاني : الإلحاد بإنكار وجود الرّبّ الخالق.

الفصل الأول

طَرِيقَةُ القُرآنِ في إثْبَاتِ العَقِيدَة باللهِ جَلّ وعَلا

(١)
الأسس الفكرية

إذا تتبّعنا القرآن العظيم للتعرّف على طريقته لإثبات العقيدة بالله للجاهلين أو المعرضين أو المنكرين أو الجاحدين، وجدنا أنّه يعتمد طريقة لفت أنظار الناس إلى الأدلة والحجج التي ترجع إلى ما يلي:

١ ــ حجج وأدلة تستند إلى ما تعطيه مناهج العلم التجريبي من حقائق، وإلى اللوازم العقلية الفكرية لها، وشواهد المعرفة الكونية، باعتبار أنّ الكون يشتمل على آيات دالاّت عليه وعلى صفاته العظيمة.

٢ ــ وحجج وأدلة تستند إلى ما تعطيه الأصول العقلية الصرف، والموازين الفكرية الثابتة والموجودة في فطر عقول الناس جميعاً، إذا كانت سويّة باقية على أصل فطرتها لم تُصَبْ بخلَل مَرَضِيّ، أو إفساد لآليّتها بالآراء الفلسفيّة ومذاهب الفلاسفة الضالّين والمضلين.

فأقام الأدلة على إثبات وجود الخالق جلّ وعلا، وعلى إثبات عدد كبير من صفاته العظمى وأسمائه الحسنى، وعلى أنّه الله المُبدع وأنّه لا خالق ولا ربّ غيره.

ولمّا عالج المشركين في قضيّـة توحيد الألوهيّة، ليوجّه عبادتهم لله وحده، فلا يعبدوا سواه، ناقشهم على أساس من القاعدة الأولى، وهي إثباتُ الربوبيّة لله عزّ وجل، وإثبات انفراده وتوحّده بها، وبنى الحجج المنـطقيّة العقليـة الصرف، والعقلية المستندة إلى ما تعطيه مناهج العلم التجريبي على هـذا الأساس، ثم لفت نظرهم إلى أنّ برهان العقل يقضي بأن من تفرّد بالربوبيّة فكان هو وحده الربّ الخالق، لا بدّ أن يكون هو وحده المتفرّد بالإلَهيّة، فلا يُعبَد معه سواه كائناً من كان، وكائناً ما كان، لأنّ العبادة والتأليه حقّ الرّب الخالق وحده، لا شريك له.

وسارت جدليات القرآن ومناقشاته وحججه وبراهينه وفق هذه الأسس العقلية العلميّة المنطقيّة لإثبات أكبر قضيتين أولَيَيْن من قضايا الإيمان.

بقي احتمال أن يكون أمر شرك المشركين في عبادتهم لغير الله من شركائهم مستنداً إلى أنّهم يعتقدون أنّ الله قد أمرهم بذلك، أو أذن لهم فيه.

وأمام هذا الاحتمال كان منطق الحجّة يقضي بأن يطالَبوا بعلم ثابت منصوص عليه في كتاب منزّل، أو على لسان نبيٍّ مرسل.

فإذا لم يكن لديهم شيءٌ من ذلك، فإن عقيدة الشرك وأعمال الشرك التي يعتقدونها ويعملونها فاسدة باطلة، ما أنزل الله صاحب الحقّ بها من سلطان.

ووفق هذا المنطق السليم المقرون بالحجّة الدامغة، أتمّ القرآن مناقشة المشركين ومحاجّتهم، ليحاصر أوهامهم من كلّ جانب، ويردّهم بالحجّة الدامغة إلى مواقع الحق، فيتحرّروا من كل شرك في عباداتهم، ويعلنوا أن لا إلَه إلاّ الله، ويعتقدوا أن لا إلَه إلاَّ الله، ويطبّقوا في واقع حياتهم العمليّة مضمون «لا إلَه إلاّ الله».

ومن هذا يتبينّ لنا أنّ كبريات قضايا الإيمان أسانيدها عقلية علميّة، وأنّ طريقة القرآن العظيم في إثباتها تعتمد على لفت نظر الناس إلى هذه الأسانيد والأدلة العقلية العلميّة، وعلى تكليف الرسُل وأهل العلم من المؤمنين مناقشة

المخالفين ومناظَرتهم ومجادلَتهم بالتي هي أحسن على هذا الأساس العقلي العلمي، لا على إيراد نصوصٍ منزّلة لا يؤمن المخاطبون بها، ولم تَتَحوَّلْ لديهم بَعْدُ إلى أيّة منطقة من مناطق الإيمان والتسليم الكلّي أو الجزئي.

وهذا أمر بدهيٌّ في منطق المناظرة المفيدة، والجدال بالتي هي أحسن.

كيف يقبل مِنّي من ينكر وجود الله الرّبّ الخالق، شاهداً قرآنياً من كلامه يخبر فيه بأنه موجود، أو أنّه يأمر بكذا وينهى عن كذا؟.

إنه قد أنكر صاحب الكلام أو جحد به، أو هو جاهل بحقيقة وجوده، يطلب الدليل على وجوده من خلال مسلَّماته التي يؤمن بها.

كيف يقبل منّي من ينكر القرآن وينكر رسالة الرسول شاهداً من القرآن، أو شاهداً من كلام الرسول، يثبت حقيقة من حقائق الربوبيّة أو حقائق الإلٰهيّة؟.

إنّ قضايا الإيمان بناء فكري بعضه فوق بعض، فلا تقوم لبنة عُلْيَا إلاّ على أساس وجود اللّبنة التي من دونها، وهكذا حتى الأساس الأول، الذي ينبغي أن يوضع على أرْضٍ تقبله من الفكر والنفس.

وأيّ خَلل يعتري الأسس الدنيا يكون سبباً في زلزلة ما فوقه، ثمّ سبباً في تدميره.

وأيّ خلَلٍ يعتري البناء من أعلاه، لا بدّ أن يُقوَّم وَيُصَحَّحَ ويُسوّى على دعائم ووشائج تُصحّح ارتباطه بما تحته، وثباتَه عليه.

وأيّ تصحيح للفروع دون النظر إلى الأصول، ومراقبة سلامة ارتباطها بها، تصحيح لا يجدي نفعاً، ولا يحقّق الغاية المنشودة.

لذلك نلاحظ أنّ القرآن العظيم كلّما عَالج المشركين في قضيّة توحيد الألوهية، رجع بهم إلى إثبات الربوبيّة لله وحده، إمّا بإقامة الدليل أو الأدلة عليها من حجج العقل ومن أسانيد مناهج العلم التجريبي، وإمّا بانتزاع

اعترافاتهم بربوبيّة الله الخالق، وتفرّده بهذه الربوبيّة. وعندئذٍ يُلزمهم بالحقيقة التي تقع ثانياً في بناء الفكر الإيماني، وهي توحيد الإلٰهيّة لله عزّ وجل.

وحين يلفت القرآن العظيم أنظار الناس إلى آيات الله في الكون، فهو في الحقيقة يلفت أنظارهم إلى مظاهر خلقه، إذ تبرز فيها لكلّ متفكّر متدبّر آثار صفاته.

ومن إدراك آثار الصفات تُدْرَك الصفات، وبعد إدراك الصفات تُدرك حقيقة وجود الموصوف، ولو حُجبتْ عن المدرِكِ ذَاتُه، فيؤمن به وهو غيبٌ في ذاته، قد عُلِمَتْ صفاتٌ له من آثارها في خلقه.

فيَصِل المتفكّر بخطوتين فكريّتين إلى الإيمان بالله من ظواهر خلقه.

وهذا الاستدلال في القرآن هو الاستدلال الأكثر الأغلب في موضوع إثبات وجود الله عزّ وجلّ.

وفي القرآن أيضاً تنبيهٌ على ما في عمق الفطرة القلبيّة والنفسيّة، من مشاعر وأحاسيس إيمانية وجدانية.

وفي القرآن أيضاً تنبيه صريح أو يحتاج إلى التأمل والتعمق في التفكير، على جميع الطرائق الفلسفيّة التي يمكن أن توصل المتفكرين إلى الإيمان بوجود الله عزّ وجل.

كالتنبيه على حقيقة الإمكان في الكون، والممكن يحتاج إلى مخصص خالق، أو على حقيقة الحدوث في الكون، والحادث يحتاج إلى محدث. أو على حقيقة واقع حال الكون القائم على قانون العليّة والسببيّة. أو على أحكام العقل وموازينه الفطرية.

وهذه الأصول العقلية الصرف التي لفت القرآن العظيم النظر التأمّليّ إليها، أصول يدركها فريقٌ من الناس، فهم المعنيُّون بتدبّرها، وأخذ الحجج منها لهداية الخلق إلى الحق.

ولفتُ النَّظَرِ إلى مواطن الأدلة يتضمّن تحميلَ العقول مسؤوليّة استخدام ما لديها من قُوىٰ، والانتفاع بما لديها من موازين، وتطبيق ما لديها من أحكام ثابتة، وحقائق مُسَلّم بها.

مثل: استحالة الدور السبقي، واستحالة التسلسل إلى ما لا نهاية له في جانب الماضي، واستحالة اجتماع النقيضين[1].

ولمّا كان الإنسان يملك في هذا الوجود صفة التفكير والقدرة على المعرفة والبحث والاستنباط كان مسؤولاً مسؤوليّةً فطريّةً عن تدبير أمر حياته، بما يجلب له النفع ويدفع عنه الضّرر، وعن شركائه في هذه الحياة فلا يظلم منهم أحداً، ولا يعتدي على أحد، وعن التأمل في سبب وجوده والغاية منه، لكنَّه قد يغفل عن مسؤوليته هذه، بما ينغمس فيه من أمور حياته ومعاشه، لذلك كان بحاجة إلى ما يلفت نظره إلى مسؤوليته هذه، فبعث الله الرسل، وأنزل معهم الكتاب والميزان، لتعريف الناس بمسؤولياتهم، ووظيفتهم في هذه الحياة، والغاية من إيجادهم، ومصيرهم الذي هم إليه صائرون، وما ينتظرهم فيه من جزاء على أعمالهم، فمنْ آمن وأطاع فله الجنّة، ومن كفر وعصى فله النار.

هذه هي طريقة القرآن في إثبات العقيدة بالله وما يتصل بها، فعلينا أن نَتَتَبَّعَ القرآن في طريقته، وهدايته للناس، فهي الطريقة المثلى لمن أراد أن يكون داعياً إلى الله على بصيرة بالحكمة والموعظة الحسنة، فالله هو العليم بأقوم الطرق، وهو الخبير بأنْفُس الناس، وبما هو أقرب أو أصلح لإقناعهم وإقامة الحجّة عليهم.

على أنّ الطريقة القرآنية ذات مرونة حركيّة قابلة لملاءمة أحوال الناس، في مستويات ذكائهم، ومقادير ما لديهم من مُسلَّمات صحيحة يمكن البناء عليها، وما لدى كلّ فريق منهم من إمكانات استجابة لقبول الحقّ الذي يخالف أهواءهم، أو تقاليدهم وعاداتهم، ونحو ذلك من مختلفات كثيرات في صفات الناس وأحوالهم وأوضاعهم الاجتماعية والفرديّة.

* * *

(١) انظر شرح هذه المستحيلات في كتاب «ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة» للمؤلف.

(٢)
خطة إنشاء القاعدة الإيمانية

عرفنا من المقولة السابقة أنّ أسس القاعدة الإيمانية في الإسلام أسس فكريّة علميّة منطقيّة، لذلك كان إنشاء هذه القاعدة الإيمانيّة في الناس يعتمد على قواعد الفكر القويم، والمنطق الصحيح، وهذا ما لجأ إليه الإسلام، وطريقة القرآن الاستدلالية الإقناعية هي التي هدتنا إلى هذه الحقيقة، وهي التي علّمتنا كيف نعالج إقناع الناس بالقاعدة الإيمانية، وهدايتهم إليها بالحكمة والموعظة الحسنة.

أمّا خطّة إنشاء هذه القاعدة:

فقد بدأت بتحرير النفوس من كلّ العقائد الباطلة، التي ليس لها أساسٌ منطقيٌّ أو علمي، وذلك بوسائل الإقناع الهادىء، والمناظرة الحكيمة الخالية من التعصُّب الذميم، ومن كلّ ظلالٍ له.

وعقب تحرير النفس من جذور العقيدة أو العقائد الباطلة، تنتقل الخطّة إلى غرس أوّليّات العقيدة الإسلامية الصحيحة، على أرض النفس الحرّة من الشوائب، والعقائد الباطلة.

ثمّ يجري تعهّد الغراس بالتغذية والإنماء، وإضافة العقائد والمفاهيم التي تشتق منها وتلزم عنها، وبالعمل على متابعة تحرير ما تبقى في أرض النفس العامّة من كلّ عقيدة باطلة، وغرس العقائد والمفاهيم الصحيحة في أمكنتها، وتعهّدها بالتغذية والإنماء.

وكان لأسلوب التدرج أثره العظيم في كلّ مراحل العمل، وهو الأسلوب الذي تقتضيه سنّة الإنشاء السائدة على كلّ شيءٍ في هذا الكون، وهي سنة الخالق في الخلق.

وأسلوب التدرج في إنشاء القاعدة الإيمانية يكون بالبدء بما يقع موقع الأساس منها، وهو الإيمان بالله عزّ وجل، وبوحدانيته، وبسائر صفاته العظمى، ثم الانتقال إلى ما يلزم عن هذا الأساس الأوّل من عقائد، مع التدرّج في ذلك وفق التسلسل المنطقي.

والوسيلة الأولى إلى كلّ ذلك إقامة البراهين والأدلّة العقلية العلمية، المستندة إلى البدهيّات المسلّمة لدى عقول المخاطبين.

وبعد هذه الوسيلة الإقناعية تأتي وسيلتا الترغيب في المثوبة، والترهيب من العقوبة، العاجل من ذلك والآجل.

وبالتأمّل في عناصر القاعدة الإيمانية ينكشف لنا أنّ الإيمان بربوبيّة الله عزّ وجل، ووحدانيته في الخلق والأمر وسائر صفات الكمال، يقع في المرتبة الأولى، فهو بمثابة الجذر الأوّل.

ثم يأتي في المرتبة الثانية توحيد الإلَهيّة، نظراً إلى أن توحيد الإلَهيّة لله عزّ وجل، أي: إفراده في العبادة، هو اللازم الأول لتوحيد الربوبيّة، فمن هو الربّ الواحد يجب أن يفرد وحده بالعبادة، إذ لا يستحقّها غيره.

ثم يأتي من بعد ذلك ما يلزم عن حكمة الخالق.

فمن لوازم صفة الحكمة أنّه لم يخلق هذا الخلق عبثاً، وهذا يهدي العقول الحصيفة إلى أنّ الإنسان بخصائصه المتنوّعة «العقل، والإرادة الحرّة، والغرائز، والشهوات» في مجال مفتوح له أن يفعل فيه الخير والشر، إنّما خلق للابتلاء.

والابتلاء يستلزم قانون الجزاء، وإلاّ خلا من الحكمة وكان عبثاً.

وبما أن زمن الحياة الدنيا هو الزمن المخصّص لهذا الابتلاء بكلّ ظروفها

وأحداثها، فلا بد من حياة أخرى يكون فيها الجزاء الأمثل، وهنا يبرز عنصر الإيمان باليوم الآخر.

أمّا ما يحدث في ظروف هذه الحياة الدنيا من جـزاءاتٍ معجّلة، فالغرض منها العظة أو التذكير، أو التربية أو التطهير.

ثمّ إنّ الابتلاء الأمثل يقتضي بيان موادّه، حتى يكون الممتحَنُ على بصيرة من أمره تجاه خالقه وبارئه ومصوره، لذلك اقتضت الحاجة أن يرسل الله إلى الناس الممتحنين من يبيّن لهم موادّ امتحانهم في ظروف الحياة الدنيا، حتى لا يكون لهم يوم الدين عذر به يعتذرون. وهذا يفتح آفاق الفكر لقبول ركن الإيمان بالرُّسل.

ثم نلاحظ أنّ من تمام الحكمة أن يكون مع الرسل بيانات ثابتات، في نصوص منزّلة تكون دستوراً للناس يعملون به، ويهتدون بهديه، ولو انتهت حياة الرسل.

وهذا يفتح آفاق الفكر لقبول ركن الإيمان بالكتب.

ويتساءل الفكر الإنساني: كيف يرسل الخالق الذي لا تدركه الأبصار رسُلاً من البشر؟. وكيف يتّصِل بهم؟. وهنا كان لا بدّ من بيان ظاهرة الوحي وحقيقتها، وبيان إمكانه، وبيان وساطة الرسل من الملائكة.

وكان لا بدّ أيضاً من التوثُّق من صدق من يدّعي أنّه رسول الله اصطفاه الله بالوحي إليه، فاقتضى الأمر تأييد الرسل بالآيات الدّالّات على صدقهم. وهنا تبرز لنا ظاهرة المعجزات التي يؤيّد الله بها رسله.

وترافق كلّ ذلك تفصيلات توضح أركان القاعدة الإيمانية وعناصرها وأجزاءها، وكلّ ما لا بدّ منه لاستكمال صورة هذه القاعـدة، أو يحسُن أن تُستكمل به.

* * *

(٣)
دراسة كتاب الكون
والتأمل في آيات الله فيـــه

أرشدنا القرآن العظيم إلى دراسة كتاب الكون، والتأمل في آيات الله فيه، التي تهدي المتفكّرين إلى أنّ ما فيه من صفات وخصائص، وصنعـة متقنة حكيمة، تستدعي حتماً أن يكون له مدبّر عليم حكيم قدير مهيمن على كلّ شيءٍ فيه، يُصرّف أحداثه باختياره المطلق، وتقديره المحكم.

وقد تكرّر إرشاد القرآن إلى دراسة الكون في مناسبات كثيراتٍ جدّاً، وبطرق مختلفة، للتأكيد على إثبات وجود الله الربّ الخالق جل جلاله وجماله، وتقدست أسماؤه، وللتّنبيه على عظيم صفاته.

وممّا يلفت النظر حقّاً أنّه حينما يعالج ما عليه المشركون من شركٍ في عبادة الله، يرجع بهم إلى قاعدة الإيمان الأولى وهي الإيمان بوجود الله، وبصفاته العظمى، التي كان من آثارها خلق السماوات والأرض والحياة، وما في كلّ ذلك من نظام بديع مدهش، ليبني عليها أنّ ما يستدعي العبادة أو يوجبها أو يأذن بتوجيهها لمعبود مـا إنما هو كون المعبود ربّاً خالقاً، بيده الحياة والموت، والقبض والبسط، والرزق والعطاء، والنفع والضرّ. وبما أنّه لا ربّ إلّا الله وحده وجب أن لا يُعبَد سواه. ويتمّ بذلك الربط المنطقيّ السليم بين توحيد الربوبية، وتوحيد الإلٰهيّة، وذلك لأن الشرك في العبادة يستلزم في مضمونه ولو من وجه خفيّ عدم توحيد الربوبية لله عزّ وجلّ، أو يجرّ إلى ذلك مستقبلاً، فمن تقرّب اليوم بالشركاء إلى الله زلفى، لم يأمن نفسه أو من بعده ممن يقلّده في ذلك أن

يعتقدوا في شركائهم المشاركة في الربوبيّة، وواقع استنجاد المشركين بشركائهم مع عبادتهم فيه معنى اعتقاد أنّ لهم مشاركة ما في الربوبيّة.

لذلك اقتضت حكمة تصحيح عقيدة المشركين الرجوع بهم إلى الأدلة التي تثبت وجود الله وتفرّده بالربوبيّة، لتكون هذه العقيدة الصحيحة السليمة هي الأساس لتصحيح الفِقَرة الثانية من العقيدة، وهي توحيد الإلٰهيّة لله عزّ وجلّ، أي: إفراد الله وحده بالعبادة، وإثبات أنَّ أيّة عبادة لغيره عزّ وجلّ شرك به، وكفرٌ بحقٍّ إفراده بالعبادة، الذي يستلزم التشكّك في تفرّده بالرّبوبيّة وخصائصها في الخلق والرزق والحياة والموت والنفع والضرّ.

ولدى التبصر بطريقة القرآن التي أرشد فيها إلى دراسة كتاب الكون، والتأمل فيما اشتمل عليه من أدلة وآيات تدلّ على وجود الربّ الخالق وعظيم صفاته، نلاحظ ما يلي:

١ ــ في النصوص ما يحضّ الفكر الإنساني على النظرة الشاملة العامة إلى الكون كلّه.

٢ ــ وفيها ما يحضّ على النظر إلى أجـزاءٍ تفصيليّة من هذا الكون الكبير.

ويبرز من ذلك توجيه النظر لظاهرة الحياة وما فيها من إبداع وإتقان وخلق عجيب.

وتوجيه النظر للإنسان بخصوصه من أنواع الأحياء، باعتباره المخاطب بالتكليف، فدراسته لنفسه تعتبر منطلقاً ذا أهميّة كبيرة لمعرفة خالقه، ولمعرفة الغاية من نشأته ووجوده، والمصير الذي هو صائر إليه، وباعتباره أيضاً مظهراً جليلاً من مظاهر إتقان الخلق والعناية به.

ويبرز من ذلك أيضاً توجيه النظر للنبات والثمر، وإبداع الصنعة الربّانية في ذلك، وتوجيه النظر للماء والسحاب والمطر والرياح، وإتقان التقدير والضبط وإحكام الوزن في كل ذلك.

ثم يأتي لفت النظر وتوجيهه للسير في الأرض بحثاً ودراسة وتأمُّلاً، لمعرفة كيف بدأ الله الخلق، وتوجيه النظر للسماء وما فيها من سَعةٍ عظيمة، وأجرامٍ كبرى لا حصر لها في علم المخلوقات. ويبرز من ذلك التركيز على الشمس والقمر، والنجوم المرئية نظراً إلى ارتباطها بسكّان الأرض، ومصالح الناس فيها.

وهكذا يتتبّع القرآن توجيه نظر الناس لكثير من جزئيات هذا الكون، ليضع الإنسان أمامها موضع الباحث الدارس المنقّب، عن الصفات والخصائص الظاهرة والباطنة التي هي آثار صفات الخالق المتقن المنظّم المدبّر الحكيم جلّ وعلا، اللطيف الذي ينفذ علمه وقدرته إلى دقائق بواطن الأشياء، فيُتْقِنها ويُحْكم نظامها ويرعاها، البديع الذي يخلق خلقه على غير مثال سبق، المهيمن على كلّ شيء فلا يخرج عن سلطانه في كونه كبير ولا صغير، الحكيم الذي يختار بإرادته المطلقة التي لا مجبر لها ولا موجب عليها أحسنَ الاحتمالات الممكنة وأفضلها، ضمن مخطط الوجود كلّه، مع حساب الماضي والحاضر والمستقبل، المدبّر الذي يدبّر الأمر كلّه بعلمه وحكمته، القدير الذي يفعل ما يشاء، الخلّاق الذي لا رادّ لقضائه وقدرته، المالك لكل شيء الملِكِ ذي السلطان الحاكم على كلّ شيء الرحيم الرحمن الذي يرحم عباده ويرعاهم بعنايته وحمايته وحفظه، إلى سائر صفات كماله عزّ وجل.

وبعد عرض أدلة كثيرة على أنّ الله حقّ، وهو الربّ الخالق، وأنّه واحد في ربوبيّته لا شريك له فيها طَوال العهد المكّي، وفي قسم كبير من العهد المدني، خاطب الله المشركين بقوله في سورة (الحديد ٥٧) وهي سورة مدنية:

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾



(٤)

مع طائفة من النصوص القرآنية

أولاً: أمثلة من الحضّ على النظرة الشاملة العامة إلى الكون كلّه.

١ ــ قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف ٧) خطاباً للذين كفروا بالرسول محمّد صلى الله عليه وسلم:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾.

فدعاهم الله عزّ وجلّ إلى النظر في مَلَكُوتِ السماوات والأرض، وإلى النظر فيما خلق الله من شيءٍ في هذا الكون الكبير الذي هم جزء منه.

وفي قوله تعالى: ﴿أو لم ينظروا﴾ إنكار عليهم في تركهم لهـذا النظر المطلوب، وهو التفكير في الظواهر، لاستنباط دلالاتها، والانتقال من الآيات والعلامات التي فيها، إلى ما تدلّ عليه دلالة حتمية لا يرفضها عاقل حصيف منصف يعرف الحق بالنظر والتأمل.

وإذا كانوا قد نظروا ففي هـذا الاستفهام إنكـار عليهم إذْ لم ينتقلوا بأفكارهم من آيات الظواهر، إلى ما تدلّ عليه حتماً من صفات بارئها ومتقنها

وواضع كلّ شيء فيها بعناية بالغة، وأنه واحد أحد في ربوبيته لا شريك له، وواحد أحد في إلٰهيته فلا شريك له، وأنه حكيم ومن مقتضى حكمته أن لا يخلق الناس عبثاً، وأن لا يتركهم سُدى، ومن مقتضى حكمته أن يبعث لهم رسولاً يبيّن لهم ما هم مسؤولون عنه تجاه خالقهم الذي خلقهم ليبلوهم أيّهم أحسن عملاً.

والدعوة إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض، والنظر فيما خلق الله من شيء في هذا الكون، دعوةٌ إلى النظرة العامّة الشاملة إلى الكون، وإلى كلّ ما فيه من أجزاء تدلّ على حكمة الصانع وعلمه، وهيمنته وتدبيره، وعنايته ورحمته.

وهذه النظرة العامة ذات مستويات منها ما هو في مستوى السّطح الذي يدركه كلّ مكلّف، ومنها ما هو تحت السّطح بدرجة، يدركه الأكثر تفكيراً وتَدَبُّراً وذكاءً، ومنها ما هو تحت ذلك، وَتَتَعَمَّق الدرجات التي تحتاج إلى مستويات من الذكاء والتجربة والبحث العلمي وقدراتٍ على الاستنباط والتأمل أكثر مما تحتاجه المستويات التي هي أقرب إلى السطح، وهكذا تتعمق الدرجات التي تحتاج إلى مستويات أخرى أرفع من الذكاء والتَّدبّر والبحث والمتابعة، دون أن يصل الناس إلى القعر.

على أنها جميعاً تدلّ على ما دلّ عليه السطح، وأنّها آيات ومظاهر دالّات على الصفات التي يجب الإيمان بها من صفات الرّب الخالق جلّ وعلا.

والبحث في الظواهر والآيات والعلامات يقتضي التفكير في أسبابها وعللها وروابطها وآثارها والغاية منها، وهذه جميعاً تهدي حتماً إلى أنّ لها ربّاً خالقاً، وتهدي حتماً إلى المطلوب الإيمان به من صفاته. ومن آمن بكمال صفاته ومنها حكمته وأنه لا يخلق شيئاً عبثاً، فلا بدّ أن يتوصل إلى الغاية من خلق الناس، ثم إلى مسؤوليتهم تجاهه، وإلى صدق الرسل الذين أرسلهم للفت نظر الناس إلى هذه الحقائق الربّانية، ويبين لهم وظيفتهم ومسؤوليتهم تجاهه، ويحذّرهم وينذرهم عاقبة الكفر والعناد والعصيان.

* * *

٢ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (يونس ١٠) يعلّم رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للمكذبين الكافرين برسالته:

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

ففي هذه الآية أمر بالنظرة الشاملة العامة إلى الكون، لمعرفة ماذا في السموات والأرض، أي: ماذا فيهما من آيات دالات على خالقهما، وعلى صفاته التي يُدْعون للإيمان بها، ومنها حكمته، الهادية إلى دينه، ومنها عدله الذي تدلّ عليه آثار الذين كذبوا برسله فأهلكوا.

لذلك قال الله عزّ وجلّ عقب الأمر بالنظر في الذي في السماوات والأرض من آيات وعظات: ﴿وما تغني الآيات والنُّذُر عن قومٍ لا يؤمنون﴾.

فالآيات: هي الظواهر الكونيّة الدالاّت على علم الله وقدرته وحكمته وسلطانه على كلٍّ شيء وملكه لكل شيء إلى غيرها من صفات البارىء عز وجل.

والنُّذُر: هي الأحداث التي جرت للمكذّبين المهلكين من الأمم السابقة بسبب كفرهم برسل ربهم، وطغيانهم، وهذه الأحداث تدلّ عليها آثار المهلكين.

ولكن هذه الآيات وهذه النذر يَمرّ عليها الذين لا يريدون الإيمان بالحق لإجرامهم وانحرافٍ في نفوسهم، فلا تغني عنهم شيئاً.

فقوله تعالى: ﴿عن قومٍ لا يؤمنون﴾ أي: عن قوم ليسوا مستعدين لأن يؤمنوا. ورفضهم للإيمان لا يكون بدافع عدم كفاية الأدلة، أو عدم اقتناعهم بما دلّت عليه، إنما يكون بسبب جنوحهم خلقيّاً، كالكبر الطاغي، وكرغبتهم في الفجور الوقح، دون أن يشعروا بوخز الضمير، أو بخوف ينغّص عليهم لذّات فجورهم، وطبيعيّ أن لا تنفع هؤلاء الآيات الدالاّت وأن لا تؤثر فيهم النُّذُر ولا العظات.

* * *

ثانياً: أمثلة من الحضّ على النظر إلى أجزاء تفصيليّة من هذا الكون الكبير.

١ ــ قول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

ففي هذا النص أمر بالنظر العلميّ المتتبع لمعرفة كيف بدأ الله الخَلْقَ، فيستدلّوا من بدء الخلق على حاجته إلى خالقٍ بدأه وأحدثه بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً، وأن هذا الخالق الذي بدأ الخلق هو القادر على إعادته وإنشائه النشأة الآخرة بعد موت أحيائه، وفناء أجسادهم.

* * *

٢ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (ق ٥٠):

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾.

ففي هذا النص دعوة إلى النظر في أجزاء تفصيليّة من الكون لاكتشاف آيات الله فيه الدالّات على عظيم صفاته وأسمائه الحسنى، من خلال آثارها في الخلق.

وجاءت هذه الدعوة بأسلوب الاستفهام الذي يحمل معنى الإنكار على من لم

ينظر، والتلويم له، ومن هذا نفهم مسؤولية القدرات الفكريّة التي وهبها الله للإنسان، ومسؤولية إرادته عن قراراتها الاعتقادية الإيمانيّة حول ما تصل إليه قدراته الفكرية من معارف بالتأمل والنظر والتفكير، والانتقال من الظواهر إلى عللها وأسبابها، وإلى القوانين والسنن الرّبّانية التي تهيمن على أحداث الكون وأنظمته.

إنّ توجيه الناس للنظر إلى السماء، والأرض، والجبال، والنبات، والمطر، وما ينبت الله به من جنات، وزروع ذات حبٍّ مبارك فيه، وما يخرج الله به من النخل الباسقات ذات الطلع المنضّد تنضيداً بديعاً، ليس مجرد توجيه للأبصار حتى تشاهد هذه المخلوقات، إنما هو توجيه للأبصار والأفكار والعقول حتى تشهد آيات الله، وتوجيهٌ لقدرات البحث التجريبي العلمي في الناس، حتى يتوصلوا بالبحث والتنقيب إلى آيات خفيّة لا يستطيع التأمل والتفكير دون بحث علميّ تجريبي أن يتوصّل إليها.

فمعرفة كيفيّة بناء السماء بناء محكماً لا فروج له، ومعرفة وظيفة الجبال في الأرض، ومعرفة خصائص أنواع النباتات، بما فيها من كلّ زوج بهيج، وما يتكوّن منها من جنّات، وما يخرج منها من حبوب ذات غذاءٍ مكثفٍ مبارك فيه، وما في النخل على وجه الخصوص من آيات، كلُّ هذه أمور لا يتوصّل إليها الناس بمجرّد النظر البصري، وكثير منها لا يكفي فيه مجرّد التفكير والتأمل، بل لا بدّ فيه من البحث العلمي القائم على التجربة والملاحظة والمتابعة، واستخدام الوسائل، واكتشاف خصائص الأشياء، وصناعة وسائل منها لمتابعة البحث والتنقيب والتعمق، والتعرف على الأسباب والعلل والانتفاع منها في التوصل إلى ما وراءها مما هو أعمق منها. وهكذا تتبّعاً وتعمّقاً، فمع كلّ تعمّق جديد يكتشف الناس آيات وروائع ما كانوا على علم بها.

فقول الله عزّ وجلّ: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُروا﴾ حثٌّ على اتخاذ كلّ طريق حسّي وفكري واستنباطي وتجريبي، وكلّ بحث علمي تنقيبيّ يتتبّع الأعماق من وراء الظواهر، وليس هو مجرّد توجيه نظر البصر، أو نظر الفكر إلى الظواهر.

وهكذا كلّما قال الله عز وجلّ للناس: انظروا، لا سيّما حينما يكون المنظور إليه لا يكفي للتعرف على حقيقته أو كيفيّته مجَرّدُ النظر البصري، بل لا بدّ له من تفكير، أو بحث علميّ تجريبيّ يُتَّخذ فيه ما خلق الله في كونه من وسائل جاهزة أو قابلة للتصنيع.

ومن لطائف الاحتجاج الذي اشتمل عليه هذا النصّ، أنّه حثّ منكري البعث من المشركين، على النظر في الأدلّة الكونية على وجود الخالق، وعلى كمال قدرته، وعلى إتقانه وبديع صنعه، وعلى كمال حكمته.

والسبب في ذلك أنّ من أهمّ دوافع إنكار البعث عدم سلامة القاعدة الأولى من قواعد الإيمان، وهي الإيمان بالله وعظيم صفاته، وأنّه متى صحّت هذه القاعدة على الوجه المطلوب، تفرّعت عنها القواعد الأخرى صحيحة سليمة، ولم يكن في الأفكار أي داعٍ لإنكارها، أو التشكُّك فيها، متى ظهر لها صلتها بالقاعدة الأولى، وأنها فرع من فروعها.

وطريقة القرآن هذه تدلُّنا على أنّ من واجب الدُّعاة إذا لاحظوا أي خلل في فروع الإيمان عند الناس أن يبحثوا عن سلامة القواعد الأولى من قواعد الإيمان في عقائدهم، فإنّ كثيراً من فساد الفروع يرجع لدى التحقيق إلى فساد الأصول، وأيُّ علاج للفروع لا يضع في حسابه فحص الأصول فحصاً دقيقاً، يكون علاجاً غير مؤهل للنجاح غالباً، ففي معظم الأحيان يدور في دوّامة تنتهي بالفشل والخيبة.

وتخطىء أفكار الناس، وتقع في الأغاليط، والأسلم للدعاة دائماً أن يتدبّروا منهج القرآن بعمق ونظرة شاملة ويتّبعوه.

* * *

٣ ــ وقول الله عزّ وجل في سورة (الروم ٣٠):

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

في هذا النصّ القرآنيّ نلاحظ توجيه النظر الفكريّ التأمّلي، والنظر الفكريّ المقرون بالبحث العلميّ التجريبي إلى طائفة تفصيليّة من آيات الله في كونه.

وهذه الآيات هي آثار قدرة عظيمة، وعلم محيط، وحكمة بالغة، وإرادةٍ تُقَدِّر وتختار، ورحمة واسعة، وعناية كبيرة بالناس، إلى غير ذلك من صفات الكمال، التي هي صفات الخالق القادر المدبّر الحكيم العليم الخبير.

ونطالع في هذه الآيات التي وجّه القرآن أنظار الناس لها، فتبدو لنا الآيات التاليات:

أولاً: آية إخراج الحيّ من الميّت، كإخراج الفرخ من البيضة، وكإخراج الأحياء مشتقَّةً من عناصر التراب والماء، عن طريق سنّة السُّلالات، ونفخ نسمة الحياة في كلّ ما قضى الله له أن يكون حيّاً.

ثانياً: آية إخراج الميّت من الحيّ، كإخراج الناميات التي لا إحساس فيها من أجساد الأحيـاء ذات الإحساس، كالشعر والأظافر وما يشبه ذلك، فإنّها ناميات، إلا أنّها لا تدخل فيها الحياة ذات الإحساس، وكإخراج الجسد الميّت من الحيّ بسلب نسمة الحياة منه، دون أن ينقص من الجسد شيء، وقد لا يختلّ فيه شيء، إلا أنه فقد سرَّ الحياة.

ثالثاً: آية إحياء الأرض حياةً نباتيَّةً بعد موتها، وذلك بإنبات النبات فيها بعد أن تكون قفراً مغبرّاً لا نبات فيه ولا خضرة، فدراسة نظام الإنبات العجيب يهدي إلى الإيمان بالخالق العظيم الذي أتقن كلّ شيءٍ صنعاً.

رابعاً: آية خلق الناس من تراب، وذلك بالنسبة إلى أصل نشأة الإنسان على وجه الأرض، وبالنسبة إلى نشأة سلالات الناس بعد ذلك أيضاً، نظراً إلى أن هذه النشأة ترجع إلى مجموعة من أطوار يتحوَّل فيها التراب إلى النبات مادّة الغذاء، ثم يتحّول الغذاء إلى دماء، فنطف، فلقاح، فأحياء.

فالتراب مع الماء أصل مادّة ظهور السلالات البشرية، وسائر الأحياء في الأرض.

خامساً: آية خلق الأزواج من أنفس أزواجهنّ، ليسكنوا إليهنّ، وآية جعل المودّة والرّحمة بينهم.

سادساً: آية خلق السماوات والأرض، وإبداعها على غير مثال سبقه، ودراسة هذه الآية الكبرى تتطلب بحوثاً علميّة طويلة يُكتشف فيها كلّ حين جديد من عظيم صنع الله وبديعه.

سابعاً: آية اختلاف ألسنة الناس وألوانهم، والسُّنَن الرّبانية التي تستدعي ذلك، وفي هذه الآية مجالات كثيرات وواسعات للدراسات العلمية حول نشأة اللّغات، والخصائص الصوتية، وعوامل اختلاف الألوان، والمؤثرات الوراثية والبيئية.

ثامناً: آية منام الناس باللّيل والنهار للراحة، فدراسة ظاهرة النوم تكشف أنها من عجائب صنع الله في الخلق.

تاسعاً: آية ابتغاء الناس أرزاقهم من فضل الله في اللّيل والنهار، بالكسب والكدح والمشي في مناكب الأرض، وتيسير الله الوسائل لهذا الكسب.

عاشراً: آية البرق الذي يثير في نفوس الناس انفعالَي الخوف والطمع، فالخوف يأتي من احتمال اقتران البرق بالصواعق المهلكة والمدمّرة، والطمع يأتي من احتمال كون البرق مقدّمة للغيث الذي يحيـي به الله الأرض بعد موتها.

ودراسة هذه الآية تكشف لأهل البحث العلميّ مـا فيها من أسـرار عجيبة، وسنن ربّانية بديعة، يدركها بالبحث علماء الفيزياء المتخصصون.

حادي عشر: آية إنزال الماء من السماء الذي يحيـي به الله الأرض بعد موتها، وما في هذه الآية من نظام بديع، قائم على قوانين طبيعيّة فطر الخالق كونه عليها باختياره المطلق.

ثاني عشر: آية قيام السماء والأرض في مجريات أنظمتها الصارمة التي لا خلل فيها ولا تصادم ولا اضطراب ولا تعاند، بأمر القوة القاهرة المهيمنة على الكون كلّه، من أكبر كبير فيه، إلى أصغر صغير فيه.

وهذه الآية تدلّ على صفة القيُّوميّة لله عزّ وجل، فهو قيُّوم السماوات والأرض، وتدل على صفة التدبير الحكيم، والهيمنة العامة الشاملة.

ومعلوم أنّ دراسة هذه الآيات الكونية للتعّرف على دقائقها وبواطنها تستدعي بحوثاً علميّةً مستفيضةً، وتتبعات دقيقة، إلاّ أنّ ظاهرات بعضها تقدّم آيات كافيات لكلّ أصناف الناس، من العاديين حتى المتفكرين، فالباحثين العلميين المتعمقين، وكلّها تهدي إلى الإيمان بالرّب الخالق وعظيم صفاتـه وأسمائه الحسنى.

* * *

٤ ــ وقول الله عزّ وجل في سورة (الروم ٣٠) أيضاً:

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

وقوله فيها أيْضاً:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

كِسَفاً: قِطَعاً. الودق: المطر. لَمُبْلِسين: ليائسين لَمُنْكَسِرين، حزينين.

هذه الآيات من سورة الروم تأمر بالنظر التفصيليّ إلىٰ ظاهراتٍ كونيّة هي من آثار رحمة الله بعباده، وعنايته في توجيه أسبابه ليقدّم لهم أرزاقهم على مائدة أرضه التي أسكنهم على سطحها وفي أكنانها وبيوتها بما هيّأ لهم ويَسَّر.

وهذه الظاهرات هي آيات وعلامات دالاّت على رحمة مصرّفها، الرّبّ الخالق الرحمن الرحيم، وعنايته بعباده.

فهو سبحانه يرسل الرياح بتوجيه مقصود مع الإرسال، مراد لغاية، فتثير بما أودع فيها وفي الماء وفي أجواء الأرض من قوانين سحاباً.

وهنا تتدخل العناية الرّبّانيّة، فيبسط الله هذا السحاب في السماء كيف يشاء، ويجعله كِسَفاً بتصريف مقصود مُوَجّه من خلال قيام قوانينه بأعمالها.

ثم يصيب به بتصريف مقصود مُوَجَّهٍ من يشاء من عباده، فإذا أُغيثوا بما قَضَى الله لهم وقدّر استبشروا، وقد كانوا من قبل أن يُنَزَّل عليهم منكسرين حزينين أو يائسين، أرضهم قاحلة جرداء ميّتة لا نبات فيها ولا عشب.

وبتكرار أمثال هذا التصريف غَدت الرياح من الأمارات المبشّرات للناس ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مُبَشّرات﴾.

وللّرياح وظائف أخرى ترتبط بها مصالح الناس في معاشهم، فهي تسوق الفلك الشراعية في البحر بأمر الله، ليجتاز الناس عليها مسافات فاصلات بين البلاد، وليبتغوا من فضل الله استخراجاً من البحر أو تجارات في أرض الله الواسعة، أو مصالح أخرى.

ثم أمر الله عزّ وجل الإنسان القادر على النظر التفكري الذي يستنبط من دلالات الظواهر ما تدلّ عليه من علل وأسباب غير ظاهرة للحواس بقوله: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَار رَحْمَةِ الله كيف يُحْيـي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾.

ثم وجّه نظره للاستدلال القياسي، الذي يقيس به إحياء الموتى من الناس بعد فنائهم وعودتهم تراباً، على ما مات من نبات الأرض وزروعها وأشجارها، كيف يحييها الله بعد موتها من بزورها، فقال الله له: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيـي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فآثار الرحمة دلّت على صفة الرحمة، وصفة الرحمة تستلزم وجود الرحمن الرحيم، ولا بدّ أن يكون الرحمن الرحيم خلّاقاً عليماً حكيماً بديعاً قادراً مدبّراً مهيمناً لطيفاً خبيراً.

وظاهرة إعادة الحياة إلى النبات بعد موته تدلّ على قدرة الله على إعادة الأحياء من الناس بعد موتهم، لمحاسبتهم ومجازاتهم.

* * *

٥ ـ وقول الله عزّ وجل في سورة (الأنعام ٦):

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ

مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

قِنْوان: جمع قِنْو، وهو الْعِذْق الذي يحمل ثمر النخيل.

وفي هذه الآيات من سورة الأنعام توجيه للنظر الفكري العلميّ التفصيلي في أجزاء من الكون هي ظواهر وآثارٌ لصفات جليلة من صفات الخالق العظيم تبارك وتعالى.

وكثير من هذه الظواهر يَتطلَّبُ التعرّف على آيات الله فيها نظراً تفكيريّاً عميقاً، وبحوثاً علميّة دقيقة، فيها تتبُّع للبواطن، واستخدام لوسائل البحث العلمي المختلفة.

أما الظواهر التي وجهت نظر المتفكّر الباحث العلمي لها فهي:

أولاً: فَلْقُ الحبّ والنَّوى وإخراج النبات والشجر منهما، وفي هذه الظاهرة مجال واسع لعلماء النبات، ومعرفة خصائص الصفات الوراثية، وما فيها من قوى وقوانين وسنن ربّانيّة عجيبة.

ثانياً: إخراج الحيّ من الميّت وإخراج الميّت من الحيّ، وهذه الظاهرة تتناول التفكير في سرّ الحياة والموت، وعجيبة نفخ نسمة الحياة في المادّة الميتة، وقبض هذه النسمة التي هي من أمر الله، وإعادة المادّة إلى موتها، وهي ظاهرة تتطّلب دراسات واسعة ودقيقة من قبل كبار أذكياء علماء الأحياء، وعلى مدى قرون، وسيظلّ سرّ الحياة أمراً خفيّاً من أمر الله.

ثالثاً: ظاهرة حركة المجموعة الشمسيّة، وتقدير كلّ متحرّك فيها بنظام دقيق عجيب لا يستطيع تدبيره وتنفيذه إلاّ القدير العزيزُ العليم، إذ تمرّ ملايين القرون ثم أمثالها وأمثالها دون أن يختل نظام التحرّك بأي مقدار مهما قلّ.

ومن عناية الخالق في هذه الظاهرة المتقنة أبدع إتقان تقدير الليل والنهار،

إذ يبدأ النهار بفلق الإصباح، كي ينطلق الناس فيه إلى معاشهم وأعمالهم، ويبدأ اللّيل بغروب الشمس، كي يكون الليل سَكناً للناس، وهما من مظاهر عناية الله بالناس، بعد كونهما من مظاهر تقديره المحكم الذي هو أثر عزّته وعلمه.

أمّا الشمس والقمر اللّذان ترتبط بهما وبحركتهما وبمقاديرهما وبنسبة أبعادهما وبحجميهما مصالح كثيرة للناس في الأرض، فلم تتحقّق بهما كل المصالح المرتبطة بهما إلاّ بحسبان (أي بحساب) ذي دقّةٍ متناهية.

رابعاً: ظاهرة النجوم المنبثة في السماء، الدالة على عظيم قدرة الخالق وإتقان صنعه لها، ومن آثار رحمة الله فيها وعنايته بالناس، أنّه جعل فيها ذوات أوضاعٍ ومواقع ومدارات في أفلاك، يهتدي بها الناس إلى مقاصدهم في أسفارهم وتنقلاتهم في ظلمات البرّ والبحر.

وظاهرة النجوم مجال بحث علمي لا ينتهي يتغلغل في أبعاده العميقة علماء النجوم. ونظراً إلى أنّ هذه الظاهرات الأربع، تتطلّب من الباحثين العلميين دراسات مستفيضة وعميقة ودقيقة، ليكتشفوا ما في بواطنها من آيات الله الجليلة، قال الله عزّ وجل عقب توجيه نظر الناس لها: ﴿قَدْ فَصَّلنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُون﴾. فالمقصودون هنا هم العلماء المتخصّصون في مجالات هذه الظاهرات، لأنّهم هم المؤهلون لاكتشاف آيات الله الجليلة فيها.

خامساً: ظاهرة نشأة السلالات البشريّة التي بدأت بأن خلق الله آدم نفساً واحدة، ثم خلق منها زوجها، ثمّ حصل التكاثر عن طريق التزاوج، فظهُور الرجال مستقرٌّ وأرحام النساء مستودعٌ، وهذه الظاهرة العجيبة في الخلق تتطلّب من الإنسان العاديّ قدراً من الفقه أي: الفهم لما اشتملت عليه من آيات تكفي للدلالة على عظيم صفات الربّ الخالق وأسمائه الحسنى، مع ما فيها من خفايا تتطلّب بحوثاً علميّة دقيقة وعميقة.

ولّما كان في هذه الظاهرة من الآيات ما يكفي للتوصل إليه الفهم المتأني الناتج عن تفكّر، قال الله بعد توجيه النظر لها: ﴿قد فصَّلنا الآيات لقوم يفقهون﴾.

سادساً: ظاهرة إنزال الماء من السماء وإخراج نبات كلّ شيءٍ ينبت به، وإخراج الْخَضِرِ منه، وإخراج الحبّ المتراكب منه، لا سيما النخيل وثمارُها الدانية المدلّاة، والجنّاتُ من الأعناب، ولا سيّما أيضاً أشجار الزيتون والرّمّان، وما في ذلك من مختلفات مشتبهة الصفات والخصائص والطعوم والألوان، ومختلفات أُخرى غير مُتَشَابِهَةٍ في صفاتها وخصائصها وطعومها وألوانها. وهي ظاهرةُ مَنْ تابعَ النظر البصريَّ إليها مع أطوار نشأتها ونمائها دلّته على جملة من صفات خالقها العليم الحكيم القدير الذي يشمل عباده بعنايته، ولو لم يُعْمِلْ فكره العميق في التأمل، ويستوي في اكتشافها الأذكياء والعاديّون من الناس، وإن كان للأذكياء والعلماء فيها مزيد معرفة كلما زادوا تفكيراً عميقاً وبحثاً علميّاً.

ولمّا كان في هذه الظاهرة من الآيات البينات الجليّات على جملةٍ من صفات بارئها ما يكفي للتوصل إليه النظر العاديّ الذي يستوي فيه المكلّفون جميعاً، قال الله عزّ وجل بعد توجيه النظر لها: ﴿انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ. إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. أي: لقوم لديهم الاستعداد لأن يؤمنوا بما تدلّ عليه الظواهر، وليس لديهم عقبات نفسيّة تصدّهم عن هذا الإيمان، فلا عذر لهم معها بعجز أفكارهم عن إدراك دلالات هذه الآيات.

وينبغي أن نلاحظ أنّ كلّ هذه الظاهرات فيها آيات تصلح للباحثين العلميّين المتعمقين، وتصلح للذين يملكون قدرات فقه دون ذلك، وتصلح للناس العاديين الذين اكتملت لديهم شروط التكليف، لكن المجموعة الأولى تبرز فيها جملة آيات لا يتوصل إليها إلا الذين يعلمون، والمجموعة الثانية تبرز فيها جملة آيات تتطلّب قوماً يفقهون، أمّا المجموعة الثالثة فتبرز فيها جملة آيات يكفي لإدراكها الناس العاديّون الذين اكتملت لديهم شروط التكليف.

وكلُّ هذه الآيات على اختلاف مستوياتها إنما ينتفع بها الّذين لديهم الاستعداد لأن يؤمنوا بالله ويسلموا له، وليس لديهم عقبات نفسيّة تصدّهم عن ذلك.

* * *

٦ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل ١٦):

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

في هذا النصّ القرآني من سورة النحل نلاحظ توجيه القرآن الناس لدراسة جملة من الظواهر الكونية، والتي هي آيات دالاّت على جملة من صفات الرّب الخالق عزّ وجل، نظراً إلى أنّ هذه الظواهر آثارٌ من آثارها، وهذه الدراسة تستدعي تتبّعات علميّة واسعة ودقيقة لمن أراد التعمّق والتقصّي، بغية التعرّف

على خصائصها، وأسبابها، وقوانينها، ومخطّطات أنظمتها وأعمالها، وما ينتج عنها.

على أنّ بعض هذه الظواهر فيها من الآيات ما يدركه الإنسان العادي من مستوى الذكاء الأدنـى، ثم من فوقه حتى كبار الأذكياء، وكبار الباحثين العلميين المتعمقين.

وما كان منها ذا مستوى عميق لا يدركه إلّا الباحثون العلميون المتتبعون، فتوجيه النظر له يتضمن تكليف المؤهلين للبحث العلميّ أن يبحثوا ليكتشفوا ولو بعد حين خفايا آيات الله فيه، وقد عرف الباحثون العلميون بالتجربة أنّهم كلّما تعمقوا في بحوثهم لدراسة بواطن الظواهر الكونيّة انكشفت لهم آيات جليلات لم يكونوا على علم بها، وانفتحت أمامهم آفاق جديدة تحتاج بحثاً جديداً ودراسة جديدة متعمّقة أكثر من سابقتها، وهكذا دواليك.

ونطالع في هذا النص توجيه النظر الإنساني إلى دراسة الظواهر الكونية التاليات:

أولاً: ظاهرة خلق السماوات والأرض بشكل عام.

ثانياً: ظاهرة خلق الإنسان من نطفة، وتنقّله في أطوار من الخلق حتى يكون خصيماً مبيناً يجادل في الله.

ثالثاً: ظاهرة خلق الأنعام وسائر الدواب التي يبرز فيها أثر رحمة الله بعباده، مع كونها أثراً لقدرة الله وعلمه وحكمته واختياره وبديع صنعته، وجمال خلقه.

ومن مظاهر عناية الله بالناس فيها أن سخّرها لهم، وجعل لهم فيها منافع ومصالح كثيرة، وجعل لهم فيها زينة وجمالاً، ليكون لما خلق فيهم من حبٍّ للجمال ما يستمتعون بجماله فيها.

رابعاً: ظاهرة إِنْزال الماء من السماء المسخّر بعناية فائقة لشرب الناس، وسائر الأحياء، ولإسقاء الأشجار وإنبات الزروع لمنافع الناس في أرزاقهم

وحاجات معاشهم، لا سيما منها الزيتون والنخيل والأعناب وسائر الأشجار المثمرة.

خامساً: ظاهرة تسخير الليل والنهار والشمس والقمر لمصالح الناس في الأرض ومنافعهم عليها، وما في كلّ ذلك من بديع صنع الله وعنايته بعباده.

سادساً: ظاهرة تَسْخِير النجوم في السماوات بأمر الله الرّبّ العظيم ذي القوة القاهرة الغلّابة المهيمنة.

سابعاً: ظاهرة ما هو مُهَيَّأٌ للناس في الأرض بتقدير العزيز العليم الحكيم الرحيم، مما يجدون فيه كلّ ما يطلبون لمصالحهم ومنافعهم، وأغذيتهم وأدويتهم ورفاهيتهم، في سِلْمِهم وحربهم، في إقامتهم وتنقُّلِهم وسفرهم وغدوّهم ورواحهم وسكنهم ومنامهم وصحوهم، إلى غير ذلك مما يصعب استقصاء كليّاته فضلاً عن جزئيّاته ومفرداته.

ثامناً: ظاهرة تسخير البحر للناس، باعتباره مصدراً عظيماً للغذاء باللّحم الطّريّ، ومصدراً لاستخراج أنواع الحليّ كاللُّؤلؤ والمرجان، وطريقاً ميسّراً معبّداً للفلك المواخر المسخّرة للانتفاع من البحر، ولأسفار الناس فيه.

تاسعاً: ظاهرة إلقاء الرواسي في الأرض، وهي الجبال، لئلا تميد الأرض بالناس، إذ هي بمثابة صمّامات أمان تُثبِّت قشرة الأرض حماية لها من أن تكون عرضة باستمرار لحركات المَيَدَان التي تسببها الضغوط الغازيّة بباطن الأرض، وغير ذلك من عوامل فيها، قد اكتشفها العلماء الطبيعيّون الباحثون في الظواهر الأرضية وأسبابها وعللها وعواملها.

عاشراً: ظاهرة إجراء الأنهار في الأرض وعواملها وأسبابها.

حادي عشر: ظاهرة تيسير الأسباب لاتخاذ سبُل التنقّل والأسفار في الأرض، واتخاذ سبُل المعاش فيها، والاهتداء إلى المقاصد بعلامات في الأرض، وعلامات في السماء، وهي النجوم التي يهتدي بها المسافرون في الليل.

وهذه الظاهرات الكونية تفتح للدارسين من مختلف التخصصات العلميّة

آفاقاً واسعة وعميقة لا تكاد تتناهى، ومع كلّ خطوة من خطوات البحث تنكشف لهم آيات جليلات لم يكونوا يعلمونها، وتنفتح أمامهم آفاق جديدة تدعوهم إلى البحث عما فيها من عجائب.

ويلاحظ في هذا النصّ أنّ الله عزّ وجلّ ختم كل طائفة من الظواهر التي وجه أنظار الناس إليها لاكتشاف آيات الله فيها بختام مختلف:

فختم طائفة منها بقوله: ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وختم طائفة أخرى منها بقوله: ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون﴾.

وختم طائفة ثالثة منها بقوله: ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُون﴾.

وختم طائفة رابعة منها بقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرون﴾.

وحين نتأمل في كلّ هذه الظواهر التي وجّه النصّ للنظر التفكريّ فيها نجد أنّ اكتشاف آيات الله فيها يحتاج إلى تفكر وهو أوّل مراحل البحث عن الحقائق، ثُمّ يحتاج إلى عقل وهو الإمساك بالمعرفة العلمية من جهة، وعقل النفس عن الهوى من جهة ثانية، ثم يحتاج إلى تذكّر دائم للاتعاظ ولتجديد الصلة الفكرية والقلبيّة بأدلة الإيمان. والمطلوب من بعد ذلك هو شكر الله على نعمه، واختير أسلوب التوزيع مراعاة للأداء البياني البديع، في ملاءمة كل ختام لمجموعته.

* * *

٧ ـــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل ١٦):

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ

وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾.

وقول الله عز وجل فيها أيضاً:

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

وقول الله عز وجل فيها أيضاً:

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

سَرَابيل: جمع سِرْبَال، وهو القميصُ ونَحْوُهُ مما يُلْبَسُ على البدن.

الفَرْثُ: ما في كرش الدّابّة من أخلاط مُعَدَّةٍ للهضم ما دامت فيه.

وفي هذه النصوص من سورة النحل نلاحظ التوجيه القرآنيّ للنظر الفكريّ في طائفة من الظواهر الكونيّة الدالة على جملة من صفات خالقها ومبدعها

ومتقنها، والمكوِّنَةِ بعناية فائقة لتحقيق منافع الناس ومصالحهم ومعاشهم ورفاهيتهم في مختلف أحوالهم، وهذه العناية الفائقة تدل على صفة رحمته بعباده عزّ وجل، وتدلّ على أنّه وضعهم في هذه الحياة الدنيا موضع الامتحان ليؤمنوا به، وليسلموا له وليشكروا نعمه عليهم، ثم ليجازيهم يوم الدين بحسب أعمالهم.

والظواهر الكونية التي وجهت هذه النصوص النظر الفكري لها للتبصّر بما فيها من آيات دالّات على الرّبّ الخالق العليم الحكيم الرحمن الرحيم، المنعم الكريم، هي الظواهر التاليات:

أوّلاً: ظاهرة إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به بعد موتها، وفي هذه الظاهرة مجال لدراسات علميّة إنسانيّة واسعة وعميقة.

ثانياً: ظاهرة خلق الأنعام وما فيها من مصانع عجيبة لصناعة الحليب، وإخراجه من بين فَرْثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين.

وفي هذه الظاهرة مجال لدراسات علمية واسعة وعميقة يكتشف فيها الدارسون آيات جليلات من آيات صفات الله الرّب الخالق عزّ وجلّ.

ثالثاً: ظاهرةُ تحوُّلِ ثمرات النّخيل والأعْنَابِ إلى غَوْلٍ وخلٍّ لمنافع الناس التي لا ضرر فيها، وإن كان الناس يتخذون من الغَوْلِ سكراً ضارّاً يخالفون فيه أمر الله.

وفي هذه الظاهرة مجال لدراسات علميّة واسعة، ينتهي بها الدارسون إلى استجلاء آيات من آيات الله في كونه.

رابعاً: ظاهرة الإلهام الموجود لدى مملكة النحل إذ تصنع بيوتها، وتسلُك سبُل ربّها المذلّلة في الجوّ إلى رحيق الأزهار والثمار، وتخرج من معاملها العجيبة العسَل شراباً مختلفاً ألوانه، فيه شفاء للناس.

وفي هذه الظاهرة مجال واسع لدراسات علميّة متعمّقة يقوم بها الباحثون العلميون، ينتهي بها الدارسون إلى استجلاء روائع من آيات الله في كونه، وفيما هيأ للناس من معاش ومنافع وأدوية فيها شفاء للناس.

خامساً: ظاهرة الحياة والموت، وسير الإنسان في حياته إلى قمة اكتماله، ثم انحداره إلى أرذل العمر حتى لا يعلم من بعد علم شيئاً.

وفي هذه الظاهرة مجال لدراسات علميّة واسعة تكشف للدارسين روائع من آيات الله في كونه.

سادساً: ظاهرة تناسل الناس عن طريق أزواج من نوعهم، فيجعل الله لهم من أزواجهم بنين وبنات، وحفدة وحفيدات.

وفي هذه الظاهرة مجال واسع لدراسات علميّة واسعة وعميقة ودقيقة، منها بحوث العوامل الوراثية، وخصائص النوع، ومؤثرات البيئة، وغير ذلك.

سابعاً: ظاهرة إمداد الأرض برزق الإنسان من الطيبات، الجامعة لمادّة بقاء الحياة، وللصفات التي تجعلها أطعمة مستطابات لذيذات في أذواق الناس.

وفي هذه الظاهرة مجال واسع لدراسات علمية عميقة ودقيقة تكتشف بها آيات من آيات الله.

ثامناً: ظاهرة إمداد الناس بأدوات العلم والمعرفة السّمع والأبصار والأفئدة، ووسائلها.

وفي هذه الظاهرة مجال واسع جداً لدراسات علمية متشعّبة دقيقة وعميقة، تُكتَشَفُ بها آيات جليلات من آيات الله.

تاسعاً: ظاهرة تسخير الطير في جوّ السماء، وهي ظاهرة عجيبة تبهر أهل الفكر وأهل العلم.

وفي ذكر التسخير بقول الله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ﴾ قد نلمح إشارة إلى الطائرات المسخّرات لنقل الناس إلى البلدان البعيدة، والتي اكتشف الناس بعد نزول الآية بقرون بإلهام من الله كيف يتخذونها مراكب لهم، فهي أظهر في كونها مُسخَّرةً للناس من الطير من الحيوان، لا سيما إذا جمعنا هذه الآية مع قول الله في سورة (يس ٣٦):

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

عاشراً: ظَاهِرَةُ نعمة الظلّ والبيوت التي يتخذها الناس سَكناً لهم، سواء أكانت من بناء الطين والحجارة، أو مما ينقبون في الجبال، أو مما يصنعون من جلود الأنعام، أو من أصوافها وأوبارها.

وهذه الظاهرة تشمل عدّة عناصر: ما هيّأ الله في كونه، وما أوجد في الناس من استعدادات صناعيّة، وما ألهمهم من ابتكارات وتجارب.

حادي عشر: ظاهرة نعمة الأثاث والمتاع وكلّ ما يصنعه الناس لمساكنهم من فرش وزرابـيّ وأسِرَّة ووسائد ونحو ذلك.

وهذه الظاهرة شبيهة بسابقتها.

ثاني عشر: ظاهرة نعمة الألبسة الواقية من الحرّ والقرّ، والألبسة الواقية في القتال، وهي الدروع والخوذ ونحوها.

وهذه الظاهرة شبيهة أيضاً بسابقتها.

ويلاحظ في هذه النصوص أنّ الله عزّ وجلّ ختم كلّ طائفة من آياته الكونية التي وجه أنظار الناس للتفكّر فيها بتعقيب مخالف لما ختم به المجموعات الأخرى.

فالطائفة الأولى ختمها بقوله: ﴿إِنَّ في ذلكَ لآيةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

والطائفة الثانية ختمها بقوله: ﴿إنّ في ذلكَ لآيةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

والطائفة الثالثة ختمها بقوله: ﴿إنّ في ذلك لآيةً لِقَوْمٍ يَتفَكَّرُونَ﴾.

والطائفة الرابعة ختمها بقوله: ﴿أَفبالباطل يؤمنـون وبنعمت الله هُمْ يكفرون﴾.

والطائفة الخامسة ختمها بقوله: ﴿لعلَّكُم تشكرون﴾.

والطائفة السادسة ختمها بقوله: ﴿إِنَّ في ذلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يؤمِنُون﴾.

والطائفة السابعة ختمها بقوله: ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

وحين نتأمل في كلّ هذه الظواهر التي وجّهت نصوص سورة (النحل) للنظر التفكّري فيها نجد أنّ اكتشاف آيات الله فيها يبدأ عن طريق لفت النظر بإسماع الكلام المتضمن لهذا التوجيه، ثم بعقل النفس عن الهوى ليتوجّه الفكر إلى التأمل والبحث غير متأثّر بصوارف الأهواء النفسية ثمّ بالتفكّر والبحث العلميّ الهادىء الرصين.

أمّا الختام الرابع فهو تلويم للكفرة بالحقّ الذين يؤمنون بالباطل.

وأما الختام الخامس ففيه استثارة لدوافع شكر المنعم في فطرة الإنسان.

وأما الختام السادس ففيه أنّ الذين ينتفعون بالآيات هم الذين لديهم استعداد لأن يؤمنوا بالحقّ، وليس في نفوسهم جنوح خلقي يصرفهم عن الإيمان.

وأما الختام السابع ففيه بيان واجب الإسلام لله بعد الإيمان به.

واختير هنا أيضاً أسلوب التوزيع مراعاة للأداء البياني البديع، مع صلاحية كل ختام لكلِّ مجموعة منها، إلاّ أنه أكثر ملاءمة لمجموعته، وبهذا يتحقق الإيجاز الرائع، ويكون بهذا الأسلوب استغناء عن التكرار لهذه الختامات مع كلّ مجموعة.

* * *

٨ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (يونس ١٠):

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ ﴾.

وقول الله عز وجلّ فيها أيضاً:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦ ﴾.

وقول الله عز وجل فيها أيضاً:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٢٢ ﴾.

وقول الله عز وجل فيها:

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢٤ ﴾.

وقول الله عز وجل فيها أيضاً:

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٣٢ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣٤ ﴾.

وقول الله عز وجل فيها أيضاً:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

وفي هذه النصوص من سورة يونس نلاحظ توجيه القرآن نظر الناس الفكريّ لدراسة طائفة من الظواهر الكونية الدالّة على صفات الربوبيّة لله عزّ وجلّ وحده، نظراً إلى أنّ ما دَلَّ على ثبوت الصفات كافٍ في إثبات الذّات باللُّزوم العقلي، ومتى ثبتت الربوبية للَّهِ عزّ وجلّ وحدَه ثبتت الإِلَهيَّة له باللُّزوم العقليّ أيضاً، وثبت تفرّده بها، إذْ لا ربّ غيره، والإِلَهيّة لا تكون لغير الرّبّ الخالق.

وفي هذه النصوص نلاحظ توجيه النظر لدراسة الظواهر الكونيّة التاليات، عن طريق الملاحظة والتفكير والبحث العلمي التجريبي، وكلّ فئة من الناس مسؤولة عن المقدار الذي تستطيعه من ذلك لتتوصل إلى المطلوب الإيماني من خلال الدراسة:

أولاً: ظاهرة خلق السماوات والأرض في أحقاب زمنية ستّ، جاء التعبير عنها بستّة أيّام.

ثانياً: ظاهرة استواء الرحمن على العرش يدبّر أمر كونه، وفي تدبير أمر الكون مجال واسع لدراسات علمية دقيقة تهدي إلى جملة من صفات الربّ الخالق العظيم، وأنّه واحد لا شريك له في الربوبيّة.

ثالثاً: ظاهرة بدء الخلق وإعادته في جملة من أحداث الكون.

رابعاً: ظاهرة جعل الشمس ضياءً تعطي ضوءها من توقُّدها الذّاتي.

خامساً: ظاهرة جعل القمر نوراً يعطي نوره من انعكاس ضوء الشمس الوارد عليه، وتقدير هذا القمر منازل يعلم الناس بسببها عدد السنين وحساب الشهور. وفي هذه الظاهرة مجال واسع لدراسات علمية مستفيضة.

سادساً: ظاهرة اختلاف اللّيل والنهار في نظام رائع بديع، لا يعتريه خلل ولا اضطراب مهما مرّت ملايين القرون في آماد الدهور.

سابعاً: ظاهرة عمليّات الخلق، في كلّ ما يخلق وخلق الله في السماوات والأرض. وفي هذه الظاهرة مجال واسع لدراسات لا تنتهي، ومع كل خطوة منها يكتشف الدارس آيات رائعات دالّات على الرّب الخالق العليم الحكيم بديع السماوات والأرض، الذي هو على ما يشاء قدير.

ثامناً: ظاهرة تسيير الناس في البرّ والبحر، بوسائل هي المسخَّرات التي سخّرها الله للناس من مراكب ونظم وطاقات تحمل هذه المراكب وتسيّرها، ويقاس على مراكب البرّ والبحر مراكب الجوّ، وهي تدخل أيضاً في عموم: «ويخلق ما لا تعلمون» ونحو ذلك مما تضمّنته إشارات القرآن.

وأؤكد هنا أنّ ما يتوصل إليه الناس بأعمالهم من مبتكرات ومخترعات هو من آيات الله، إذ وهبَ الناسَ قدرات التفكير والتخيُّل والابتكار والاختراع، والاختبار والتجربة، وأودع في كونه الطاقات والخصائص، ثم ألهم الناس الباحثين أن يتوصلوا إلى معرفة مفاتيح استخدامها، وأعطاهم القدرة على استخدام هذه المفاتيح، بعد أن سخّر لهم ما في السماوات والأرض جميعاً منه، ولولا كلّ هذه الهبات الرّبانية للناس، لبقوا كسائر الأمم التي خلقها الله من عالم الإنس وعالم الجنّ.

تاسعاً: ظاهرة رجوع الإنسان إلى ربه داعياً ملتجئاً إذا اشتدت عليه الأزمات، وتقطّعت به الأسباب، وضاقت عليه المسالك.

عاشراً: ظاهرة الأحداث الكبرى المفاجئة المدمّرة التي تجعل الأرض المزخرفة المزينة حصيداً كأن لم تغْنَ بالأمس، أي: كأن لم تكن بالأمس ذات غِنى بثرواتها وأرزاقها وأبنيتها وزينتها وأهلها.

حادي عشر: ظاهرة رزق الأحياء المحتاجة في حياتها إلى أرزاقها.

ثاني عشر: ظاهرة هبة السَّمع والأبصار للأحياء ذاتِ السمع والبصر.

ثالث عشر: ظاهرة إخراج الحيّ من الميّتِ وإخراج الميّت من الحيّ.

رابع عشر: ظاهرة تدبير أمر الكائنات الحيّة، وأمر كلّ شيء في هذا الكون. وهذه الظاهرات مجالات واسعات جدّاً لدراسات مستفيضة دقيقة عميقة تهدي إلى الربّ الخالق ووحدانيته في ربوبيته، ثم إلى لوازمها من توحيد الإلهية ومقتضيات الحكمة.

* * *

٩ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الواقعة ٥٦):

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾.

فَلَولاَ: فَهّلاَّ. **حُطاماً**: متكسّراً بعد جفافه ويبسه، أو لفحه بسموم محرقة، أو بريح باردة قاتلة. **فَظَلْتُمْ**: أي: فَظِلتُمْ. **تَفَكَّهُونَ**: تَنْدَمُونَ. **لَمُغْرَمُون**: لَنَازِلٌ بِنَا الغُرْمُ وهو الخسارة. **الْمُزْن**: جمع مُزْنَة وهي السحابة في السماء. **أُجَاجاً**: مالحاً مُرّاً. **تورون**: تُشْعِلون. **لِلْمُقْوِين**: أي: النازلين في القواء، وهو القفر من الأرض، ومنزل قواء أي: خالٍ لا أنيس فيه. تقول: أقوى القوم إذا نزلوا بالْقَواء. وهي الأرض الخلاء ينزل فيها المسافر. هذه

الآيات من سورة (الواقعة) وهي سورة مكية تدور حول إثبات توحيد الربوبيّة لله عزّ وجلّ.

فقد بدأت بخطاب الله للناس بقوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾.

أي: فهلَّا تصدّقون بهذا الخبر، وخلق الله للناس من عناصر إثبات الربوبيَّة لله، وتوحيده فيها، لا من عناصر توحيد الإلهية له، ولكن يلزم من إثبات الربوبيّة له، وتوحيده فيها، إفراده في الإلَهيّة، وتوحيده بكلّ عناصرها، وهو لازم عقليٌّ غير منصوص عليه في هذه الآيات.

ثم ذكرت تقدير الموت بين الناس، وهو من عناصر إثبات الربوبيّة لله عزّ وجلّ، وتوحيده فيها، لا من عناصر توحيد الإلهيّة له، أي: إفراده في العبادة.

وطريقة الاحتجاج في هذه الآيات على أنّ الله هو الرّبّ الخالق لا غيره، جاءت على الوجه التالي:

لديكم أيّها الناس ظواهر سببيّة تقومون بها أنتم بأنفسكم، مع أنّ أحداً منكم لا يستطيع أنْ يدّعي أنّه خالق موادّها، أو خصائصها، أو أعمالها حتى يتكامل الخلق بعد حركته السببيّة، أو خالق أصولها المسخّرة له كي ينتفع منها.

● فالظاهرة الأولى التي منها تنشأ السلالات البشريّة، ظاهرة المنيّ الذي يكون منه لقاح الأحياء.

إنكم أيّها الناس تمنون في الأرحام، فتنعقد الأجنّة، فهل يستطيع أحدٌ منكم أن يدّعي أنّه خلق ما أمنىٰ؟؟.

لا يستطيع أحدٌ ادّعاء ذلك، وإن وجد أحمق يدّعيه فليصلح منيَّه العقيم إذا أراد الله أن يجعله عقيماً. أو فليحدّد باختياره الجنين الذي يريد في صفاته الجسديّة والنفسية.

وإذا كان لا يستطيع أحد من الخلق أنْ يدّعيَ ذلك، والمنيّ حادث من الحوادث التي لا بدّ لها من خالق بداهة، فخالقه ليس أحداً من الخلق، وهذا

الذي ليس هو أحداً من الخلق هو الله ربّ كلّ شيء، فثبت صدق الخبر: ﴿نحن خلقناكم﴾.

● والظاهرة الثانية التي تتخذون منها سبباً لاستخراج أرزاقكم من نبات الأرض، هي ظاهرة الحرث، الذي يخرج به الزرع.

إنكم أيها الناس تتخذون الظاهرة السببيّة وهي الحرث، بمعنى شق الأرض، وإلقاء البزور فيها، وسقيها بالماء إذا لزم الأمر.

فهل يستطيع أحدٌ منكم أنْ يدَّعي أنّه هو الذي يفلق الحبّ والنوىٰ في الأرض، ويُخرج منها جذورها، ويُنبت منها نباتها، ويربّيها وينمّيها لحظة فلحظة، وهذا هو الزرع الحقيقي.

إنكم تلقون الحبّة بحركة واحدة، لكنّ نبات الزرع الذي يرافقه خلق مع كلّ أصغر وحدة زمنيّة تمرّ لا يدّعيه أحدٌ منكم، ولا يستطيع أحد أن يدّعيه، كل ما استطاعه علم الناس من ذلك توجيه الأسباب الأولى، ومشاهدة حركة النماء بأجهزة التصوير، وناتج النماء بالأبصار مباشرة.

وهذا الزرع ونماؤه حوادث متتابعة، ولا بدّ لها بداهة من محدث خالق، هو الزارع، أي المنبت لها، وإذا كان أحد من الخلق لا يستطيع أن يُثْبِت أنه هو الزارع بهذا المعنى، فالزارع هو الله ربّ كلّ شيء: ﴿أفرأيتم ما تحرثون؟ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون؟﴾.

وإن وجد أحمق يدّعي أنه هو الزارع بمعنى المنبت، فليحم زرعه من المهلكات إذا شاء الربّ الخالق الزارع أن يهلك له الزرع فيجعله حطاماً متكسّراً، بريح سموم، أو بريح صرصر عاتية، أو بآفة حشرية، أو مكروبيّة جرثومية، أو فيروسيّة، أو بغير ذلك، إنّه إن نزل به مثل هذا العقاب لم يستطع أن يدفع عن زرعه قضاء الله، وقعد نادماً حزيناً، يقول: إنّي خاسر، بل إني محروم لا حظّ لي، فيرجع مصيبته إلى أوهام الحظّ الذي يخبط خبط عشواء، لا إلى مقادير ربّ قدير عليم حكيم: ﴿لو نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ. إنّا لَمُغْرَمُونَ. بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُون﴾.

● والظاهرة الثالثة هي ظاهرة الماء الذي يشربه الناس، إنّ أحداً من الخلق لا يدّعي أنه خلقه، أو أنه هو الذي يبخّرُهُ إلى الجوّ، أو أنّه هو الذي يُنَزّله من السحاب ماءً فُراتاً سائغاً للشاربين، وتبخيره، ورفعه إلى الجوّ، وسَوْقُ مُزْنِه، ثم إنزاله نَقِيّاً من الشوائب، أحداث لا بد لها من خالق مقدر حكيم، فالذي يجري كلّ هذه التصاريف هو الله الربُّ الخالق.

وحكمة تبخير الماء وتصفيته حتى يكون عذباً للشاربين أمرٌ مقصود لمصالح الأحياء في الأرض، وقد اختار الخالق أن يكون نظام التبخير وسيلة للتنقية والتطهير عناية بخلقه، ولو شاء لكان من الممكن أن يجعل نظام الماء ولو تبخّر أجاجاً مالحاً مُرّاً غير صالح للشرب.

وهذه العناية الربّانية بالناس، تستوجب عليهم أن يشكروا ربّهم. ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الذي تَشْرَبونَ؟. أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ؟ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾. أي: هلا تشكرونه بطاعته وعبادته.

والإشارة العلمية في ماء الشرب أنّه نتيجة ظاهرة التبخر وإنزاله من السحاب.

● والظاهرة الرابعة هي ظاهرة النّار التي يشعلها الناس، ويستخدمونها في منافعهم الكثيرة.

فالنار على اختلاف أنواعها ومصادرها مبدؤها في الأرض من الشجر، وبيان هذه الحقيقة من الإعجاز العلمي في طائفة من آيات القرآن الكريم، وإنّ أحداً من الخلق لا يستطيع أن يدّعي أنّه أنشأ الشجر في الأرض، فالمنشىء له هو الله الرّبّ الخالق، لأنّ وجوده حدث من الأحداث، ولا بدّ له من محدث، وإذ لا محدث له من الخلق، فمحدثه هو الرب الأزليّ الأبدي. ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النّارَ الّتي تُورون؟. أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ؟. نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِين﴾.

ففي النار عظة إذْ تذكر بنار الآخرة في دار عذاب الكافرين والفجار،

وفيها متاع في الصحراء للنازلين فيها إذ يوقدونها، فتكون لهم دفئاً وحمى ومنافع كثيرة، وخصّ المقوين بالذكر من سائر الناس لأنهم في أسفارهم يحتاجون إليها فيجدون حطبها حيث نزلوا من الأرض، ويجدون شجرها فيأوون إليه ويستظلون به.

ثالثاً: أمثلة من توجيه أهل البحث العلمي إلى النظر في آيات الله الكونية التي أراهم الله إياها كما ذكر في كتابه بعد قرون من نزوله، أو سيريهم الله إياها فيما سيأتي من أزمان، فمنها:

١ ــ قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

فمثل هذا الخطاب موجّه لعلماء الدراسات الكونيّة الإنسانية، وهؤلاء لم يكونوا موجودين أيّام التنزيل، ومع ذلك وجّه الله لهم الخطاب، حتى إذا وُجدوا، وتوصَّلوا إلى الحقائق التي لفت أنظارهم إليها، وقرؤوا القرآن، عَلِمُوا أنهم هم المقصودون بالخطاب.

● فالعلم بأن السّماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقهما الله أمرٌ لا يعرفه أهل القرون الأولى، ولا معاصرو الرسالة المحمّديّة، ولا أهل قرونٍ لاحقة، حتى ظهرت النهضة العلميّة المعاصرة، وظهرت النظريات العلميّة حول تكوّن السماوات والأرض، وبَدْءِ نشأتها وتطوّر أمرهما، وانفصال الأجزاء إلى نجوم وكواكب ومجرات، بعد أن كانت متّصلة، ملتئمة، رتقاً.

وعلماء هذه النهضة العلمية فمن سيأتي بعدهم هم المقصودون بالخطاب في هذا النص.

● والعلم بأنّ كلّ شيء حيّ هو مخلوق من الماء، إذ الماء أعظم نسبة في الكائنات الحيّة، مضاف إليها حفنة من تراب، ما كان العلماء يعرفونه، حتى ظهرت النهضة العلمية الحديثة، وحلّلت الكائنات الحيّة في المعامل، واكتشفت ما اكتشفت من دلائل.

فعلماء هذه النهضة العلمية فمن سيأتي بعدهم هم المقصودون بالخطاب في هذا النصّ.

● والعلم بأنّ من وظائف الجبال في الأرض أنها رواسي لها، لئلا تميد قشرتها بسكانها، لم يعرفه إلا علماء النهضة العلمية المعاصرة، فهم ومن بعدهم هم المقصودون بالخطاب في هذا النّصّ.

● والعلم بأنّ السماء سقف محفوظ أمر لا يعرفه إلا علماء البحث العلميّ الذين لم يكونوا موجودين في عصر تنزيل القرآن، فهم ومن بعدهم هم المقصودون بالخطاب في هذا النصّ.

* * *

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (ق ٥٠):

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ ﴾.

إنّ مثل هذا الخطاب موجّه لعلماء الدراسات الكونية الإنسانية، وهؤلاء لم يكونوا موجودين إبّان نزول القرآن، فهو بمثابة الخطاب الجاهز المعلّق في انتظار وجودهم، حتى إذا وُجِدُوا رأوا أنهم مخاطبون به، وهم المعنيون بالخطاب.

إذ العلم بكيفيّة بناء السماء، وبأنها غير ذات فروج، وبأنّ من وظيفة الجبال أن تكون رواسي للأرض، من خصائص علماء الدراسات العلمية الإنسانية المعاصرة، فهم ومن بعدهم هم المقصودون بالخطاب في هذا النصّ.

* * *

٣ ـ وقول الله عزّ وجل في سورة (النحل ١٦):

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

باستطاعتنا أن نحمل هذه الآية على أنّ المراد بالطّير فيها طائرات الركوب، لأنّها تدخل لغة في عموم الطير.

وقد يقوّي أنها هي المراد أمران:

الأول: وصفها بأنّها مسخّراتٌ في جوّ السماء، .والظاهر أنّها مسخرات للإنسان، كسائر المسخرات له في السماء والأرض، وهذا المعنى التسخيري في جوّ السماء لا يظهر إلاّ في الحمام الزاجل الذي ينقل الرسائل، وفي الطيور المعلّمة أن تصيد للإنسان. مع أنّ هذا التسخير جاء وصفاً عاماً لكل الطير المذكور في الآية. لكنّ الطائرات جميعها مسخرات للإنسان في جوّ السماء، فيتناولها جميعها النصّ.

الثاني: أنّ الطيور الحيوانية قد جاء ذكرها في قول الله عزّ وجل في سورة (الملك ٦٧):

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾.

والأولى حمل النصوص المتعدّدة على التكامل. وحمل كلّ نصّ منها على معنى جديد، كلّما أمكن حمله عليه، وكان الواقع يؤيّد ذلك.

ومن هنا نفهم أنّ الخطاب الربّاني للناس في القرآن خارج عن حدود الزمن، فهو قائم بلا تجدّد.

والمخلوقون الزمنيون متى وُجدوا في أزمانهم بأحوال يكونون فيها مؤهلين لتلقّي الخطاب الربّاني، تعلّق بهم الخطاب، كأنه منزّل عليهم منذ صاروا مؤهلين، ويستمّر الخطاب موجّهاً لهم ما داموا مؤهلين له.

□ □ □

الفصل الثاني

الإلحاد بإنكار وجود الرَّبّ الخالق

(١)
مقدمة عامة

قبل بعثة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونزول القرآن الكريم عليه، كان معظم العرب مشركين يؤمنون بالله الربّ الخالق، ويجعلون معه شركاء، يعبدونهم، ليقرّبوهم من الله زلفى.

وكان بعض العرب دهريين ملاحدة ينكرون وجود الخالق البارىء جلّ وعلا، ويقولون:

﴿ مَاهِيَ إِلَّاحَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَانَمُوتُ وَنَحْيَاوَمَايُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾

كما جاء بالآية (٢٤) من سورة الجاثية (٤٥).

وكان في سائر الأمم وثنيّون مشركون، ودهريّون ملاحدة، وأصحاب ديانات ربّانية هجر معظمهم دياناتهم، أو حرّفوا في أصولها وبدّلوا، إلّا قليلاً نادراً منهم، وأصحاب ديانات وضعيّة مزيفة، فيها تلفيقات من فكرٍ ومصالح وتقاليد وعادات.

ونزل القرآن العظيم لهداية الناس أجمعين، من مشركين، وملاحدةٍ دهريّين، ومحرّفين، ومخترعين أديانهم مُخْتَلِقين، رُغْم اختلاف النّسب بين هؤلاء.

وناقش القرآن الجميع، وقدّم لهم الحجج والبراهين، ودعاهم إلى الإيمان الصحيح، ولم يَتْرُكْ فريقاً منهم مهما قلّ عدد أفراده إلّا قدّم لهُ من الأدلة الكافية، والحجج الوافية الشافية، ما يزيد على حاجة اقتناع المنصفين، ودَمْغِ المكابرين، ولله الحـجّة البالغة، وحجج أولئك داحضة.

وتمرُّ العصور، وتكرُّ الأيّام، وتظلّ في الناس هذه الفئات إلى جانب فئة المؤمنين المهتدين بهدي الله، وتتماوج النِّسب من عصر إلى عصر، بين زيادة ونقصان، ويشتدّ خطر بعضها في بعض الأحيان.

وقدمنا إلى عصر نشِط فيه الإلحاد بإنكار وجود الرّبّ الخالق، وقامت لدعمه مؤسّساتٌ ظاهرة وسرّيّة صاحبة مصالح، وزيّفت له أفكاراً، وزخرفت له أكاذيب، ألبستها أثواب نظريّات علميّة، وأخذت تدخل وتتسلّل عن طريق معاهد العلم.

فدعت حاجة العصر الملحّة إلى توافر العلماء المؤمنين، الذين يجتهدون لاستخراج أدلّة الإيمان بالله عزّ وجل، من خلال آياته التي جعل هذا الكون مشحوناً بها، حتى يحرّروا النفوس والأفكار من كلّ الشوائب والزيوف والأكاذيب التي دخلت عليها، وحتى يضعوا الأساس الأول في بناء الفكر الإيماني على أرضيّةٍ فكرية ونفسيّة سليمة حرّة خالية من كلّ باطل.

وبعدئذٍ يسهل الانتقال إلى ترسيخ الأسس الأخرى التي تعتمد في وجودها على الأساس الأوّل، وهو أساس الإيمان بالله ربّاً خالقاً، أحداً فرداً صمداً، لا شريك له في ربوبيته.

وتبرز في كلّ عصر أهمّ مشكلاته، وتدعو الضرورة إلى توجيه أوفر العناية لكبح هذه المشكلات الناميات، وإعادتها إلى مستواها المعتاد، خوفاً من طغيانها، وقياماً بواجب حالات الطوارىء، ومكافحة الأوبئة الوافدة، قبل أن تتغلغل وتدمّر، ولا يقعدنّ الكسل بالباحثين عند الوسائل التي عالج بها السابقون مشكلات عصورهم، فلكلّ عصر مشكلاته، ولكل عصر وسائله.

واجترار الماضي الذي تقلّ الحاجة إليه، مع بروز الحاجات الملحّة لغيره، اشتغال بغير المهمّ مع وجود الْمُهِمّ والأهم، فالقضية ليست قضية تفكُّهٍ بالمعرفة، ولا أدب يُسْتَمتع به، ولا تاريخ ينتشي به الأحفاد، ويقتبسون منه ما وعظ وأفاد، إنّ القضيّة قضيّة صحّةٍ عامةٍ للناس، يُعالَجُ منها في الدرجة الأولى أخطرها، وأكثرها تدميراً وانتشاراً، وأوصلها بالأعضاء الرئيسيّة والمقاتل، دون إهمال لما يُهِمُّ بالدرجة الثانية، فالدرجة الثالثة، فالرابعة، وهكذا.

إنّ قضيّة الإيمان بالله الربّ الخالق عزّ وجلّ هي القضيّةُ الأولى في الفكر الإيماني، وهي التي تتعرّض بالدرجة الأولى في هذا العصر إلى هجمات المضلّلين المزيفين، الذين يزيفون المعارف، ويضعون الفروض والأوهام، ويُسمّونها نظريات أو حقائق علمية، ويرتدون شعارات العلم، ويلبسون (الأرواب) الجامعيّة، ويتسلّلون من وراء مواكب علماء المادة المخلصين لمعارفهم وبحوثهم بحقّ، وجلّهم يؤمنون بالله، لما ظفروا به من شواهد وأدلة كثيرة تدلّ على وجود الله الربّ الخالق عزّ وجل، وهيمنته على الكون كلّه، بما فيه من قوانين وأنظمة وسنن.

إلّا أنّ دعاة الإلحاد وناشريه بين الناس، والذين يختبئون وراءهم، أصحابُ مصالحَ سياسية، وأغراض اقتصادية، ومنافع ذاتية، وقد رأوا أنّ من أخطر الأسلحة الفتّاكة، التي تُظْفرهم بالأمم، سياسياً واقتصادياً وغير ذلك، أن ينشروا بين الناس الإلحاد بالله والكفر بوجوده.

من أجل ذلك أخذوا في هذا العصر بكلّ ما لديهم من قوى وحيل شيطانيّة ينشرون الإلحاد، ويبشرون به، ويروّجونه في أسواق العلم، والعلم الصحيح منهم بريء، والحقُّ منهم بريء.

ولكن هكذا يريد الشياطين، ويتبعهم في ذلك أجراء، ومجرمون، ومغرورون، وشهوانيون، ومن يحلو لهم معاندة الحقّ.

لذلك كان من واجب المؤمنين فضحهم، وإقامة سدٍّ بينهم وبين ما يريدون.

* * *

(٢)
أوهـــام الملحدين

يقوم مذهب الإلحاد الحديث على مزاعم وهميّة ثلاثة:

الأول: أنّ الكشوف العلميّة قد استطاعت تفسير الظواهر الكونيّة بأسباب وقوانين ثابتة. إذن: فلا حاجة إلى افتراض ربّ خالق يصرّف أحداث هذا الكون.

الثاني: ادّعاء أنّ قضيّة الإيمان بالله من نتاج اللاشعور الإنساني، وليس اكتشافاً لواقع خارجي.

ويتذرّع بهذا الادّعاء الملحدون من أتباع مدرسة التحليل النفسي.

الثالث: ادّعاء أنّ قضية الإيمان بالله ترجع إلى أسباب تاريخيّة أحاطت بالإنسان، وذلك أنّ ضعف الإنسان تجاه الأحداث الكونية الكبرى، كالسيول والأعاصير والطوفانات والزلازل والأمراض قد ولّدت عنده افتراض وجود قوّة كبرى مهيمنة على الكون، فعليه أن يستغيث بها ويلتجىء إليها ليحظىٰ بالسلامة، وهكذا ظهرت الحاجة إلى افتراض وجود الآلهة المتعدّدة في عقائد بعض الناس، والإلٰه الواحد في عقائد بعضهم.

وساعد على تمكين الفكرة أصحاب المصالح البورجوازيّة.

وأصحاب هذا الادعاء الثالث هم القادة الشيوعيون، وآخرون ممّن يروّجون التفسير التاريخيّ لكل ظواهر الفكر الإنساني.

وترى الفلسفة الماركسية أنّ الدين خدعة تاريخيّة، وأنّه من خلق الظروف الاقتصادية. ولذلك يقول فيلسوف الشيوعية «إنجلز»:

«إنّ كلّ القيم الأخلاقية هي في تحليلها الأخير من خلق الظروف الاقتصادية».

ويقول البيان الشيوعي:

«إنّ الدستور والأخلاق والدين كلّها خدعة البورجوازية، وهي تتستّر وراءها من أجل مطامعها».

● أمّا الزعم الأول القائم على أنّ الكشوف العلميّة قد استطاعت تفسير الظواهر الكونيّة بأسباب وقوانين ثابتة، فلا حاجة بعد التوصل إليها إلى افتراض وجود ربّ خالق يصرف أحداث هذا الكون، فإنّه زعم فيه من قصور النظر العقلي ما يشبه قصور عقل من أحسّ بألم ضرب على رأسه، ثمّ لمّا رأى بعد البحث أنّ عصاً تدخل من نافذةٍ فتصيب رأسه ثم تعود، تصوَّر أنّه أدرك سرّ الأمر كلّه، وأنّ السبب كلّه يقف عند العصا، ولا شيء وراءها، فلا حاجة إلى افتراض أنّ كائناً حيّاً هو الذي يحرّك العصا ويضربه بها على رأسه، فترصّد للعصا فكسرها، وظنّ أنّ مشكلته مع العصا قد انتهت بكسرها. ويشبه قصور عقل من ظنّ أنّ سرّ تحرّك القطار الطويل ينتهي عند الآلة المتحركة التي تجرّه، فلا حاجة إلى افتراض وجود إنسان يسيّر هذه الآلة، ويوجّه حركاتها وفق المصالح التي تقتضيها غايات ركاب القطار.

إنّ اكتشاف حلقة خفيّة من حلقات نظام الكون لا يقدّم تفسيراً للنظام، ولكن يقدّم وصفاً لبعض الجوانب التي كانت خافية منه، وهذا المكتشف الجديد هو جزء من النظام، وهو نفسه بحاجة إلى تفسير.

يقول العالم البيولوجي الدكتور «سيسيل هامان»[1]:

«لقد كان الناس ينظرون إلى خفايا عمليات الهضم والامتصاص،

(١) من مقال له في كتاب «الله يتجلّى في عصر العلم».

ويستدلون بها على وجود التدبير المقدّس، أمّا في الوقت الحاضر فقد أمكن شرح هذه العمليات، ومعرفة التفاعلات الكيميائية التي تنطوي عليها، والخميرة التي تقوم بكلّ تفاعل، ولكن هل يدلُّ ذلك على أنّه لم يعُد لله مكانٌ في كونه؟.

فمن إذن الذي دبّر لهذه التفاعـلات أن تسير؟. وأن تسيـطر عليها الأنزيمات تلك السيطرة الدقيقة المحكمة؟.

إنّ نظرة واحدة إلى إحدى الخرائط التي تبينّ التفاعلات الدائرية العديدة، وما يدور بين كلٍّ منها والآخر من تفاعلات أخرى، كفيلة بأن تقنع الإنسان بأنّ مثل هذه العلاقات لا يمكن أن تتمّ بمحض المصادفة، ولعلّ هذا الميدان يهيّىء للإنسان من العلم ما لا يهيئه أيّ ميدان آخر، بأنّ الله يُسيّر هذا الكون تبعاً لسنن رسمها ودبّرها عندما خلق الحياة. . .

إنّ الطبيعة لا تفسّر شيئاً من الكون، وإنّما هي نفسهـا بحاجـة إلى تفسير. . .

وكلّما وصل الإنسان إلى قانون جديد فإنّ هذا القانون ينادي قائلاً: إنّ الله هو خالق، وليس الإنسان إلّا مكتشفاً. . .».

إنّ من عجيب ما يتعصّب له الفكر المادّيّ المعاصر ترجيحَ التفسيرات المادّية لكل ظاهرة من ظواهر الوجود، والوقوف عندهـا، ولو كـانت هذه التفسيرات لا تقدّم تعليلاً عقليّاً أو واقعيّاً صحيحاً للظاهرة.

ثمّ إنّ قواعد العلم الحديث تقضي بتحوّل المادة إلى طاقة، والطاقة أمرٌ لا يُعرف إلّا عن طريق أثره، فالمغناطيس طاقة، وهي مجهولة الذات، والكهرباء طاقة وهي مجهولة الذات، والسرعة طاقة وهي مجهولة الذات، والحياة طاقة من نوع معين تظهر في المادّة، وهي مجهولة الذات، وهكذا ينتهي الوجود المادّي وظواهرهُ إلى طاقات مجهولة الذّات.

ورغم كلّ ذلك يحلو للفكر المادّي المعاصر ترجيح التفسيرات المادّية، والوقوف عند ظواهرها، هرباً من أن تسوقه السلسلة الحتمية إلى الإيمان بالخالق العظيم من وراء المادّة، الذي هو المهيمن عليها، والمتصرّف بتدبير كلّ أمرها.

يقول عالم بريطانيا الكبير «السير جيمس جنز» الذي يعتبر أكبر علماء العصر الحديث، في كتابه الشهير «عالم الأسرار»[1]:

«ينهمك معارضو الدين في تدبيج قضيتهم ضدّ الدين بأساليب جديدة. وليس سبب هذا الموقف اكتشافاً علميّاً خطيراً وإنما هو التعصب ولا غير. . . وإذا كان أحدنا يظنّ أنّ داء التعصب يمكن أن يصيب الآخرين دون العلماء فإنني أذكره بما قاله أحد العلماء المعاصرين وهو الدكتور أ. و. هيلز: إنني سأكون آخر من يدّعي أننا نحن العلماء أقلّ الناس عرضة للتعصب بالنسبة إلى المثقفين الآخرين».

ومعلوم أنّ التعصّب من ظواهر التقليد الأعمى، أو الفتنة بالرأي السائد على الفرد أو على فئة من الناس، ولو كانَ باطلاً وفاسداً.

ويقول السير جيمس أيضاً: «إنَّ في عقولنا الجديدة تعصّباً يرجّح التفسير المادّيّ للحقائق»[2].

وذكر «ويتكر شامبرز» في كتابه «الشهادة» حادثاً كان من الممكن أن يصبح نقطة تحوُّلٍ في حياته.

ذكر أنه بينما كان ينظر إلى ابنته الصغيرة استلفتت أذناها نظره، فأخذ يفكّر في أنّه من المستحيل أن يوجد شيء معقّد ودقيق كهذه الأذن بمحض اتفاق، بل لا بدّ أنّه وجد نتيجة إرادة مدبّرة.

لكنّ «ويتكر شامبرز» قد طرد على ما يذكر هذه الوسوسة عن قلبه، حتى لا يضطر أن يؤمن منطقيّاً بالذات التي أرادت فدبّرت، لأنّ ذهنه لم يكن على استعداد لتقبّل هذه الفكرة الأخيرة. . .»[3].

الحقيقة أنه طرد عن فكره الخاطرة الإيمانية الصحيحة، حتّى لا تدفعه إلى

---

(١) نقلاً من كتاب «الدين في مواجهة العلم» تأليف وحيد الدين خان، صفحة ٧٨.
(٢) نقلاً من كتاب «الإسلام يتحدى» تأليف وحيد الدين خان، صفحة ٥٧.
(٣) المصدر السابق.

منطقة الإيمان بالله، لأنه متقيّدٌ في قوقعة التعصب للتفسيرات المادّية المقطوعة الصلة بالله الخالق.

ويقول الأستاذ الدكتور «تامس ديور باركس» بعد أن ذكر هذا الحادث[1]:

«إنّني أعرف عدداً كبيراً من أساتذتي في الجامعة، ومن رفقائي العلماء، الذين تعرّضوا مراراً لمثل هذه المشاعر، وهم يقومون بعمليات كيميائية وطبيعيّة في المعامل».

ومن هذا نلاحظ أنّ الله تبارك وتعالى يفتح عقولهم إلى أدلّة الإيمان به، إلّا أنّهم يحاولون صرف ذلك عن أذهانهم وقلوبهم، بما في نفوسهم من تعصّبٍ خطير وقبيح للمادّة، ضدّ الحقائق التي تكمن وراء الظواهر المادّية كلّها.

لكنّ المنصفين منهم الذين يتحرّرون من داء التعصُّب للتفسيرات المادّية الصرف يعلنون إيمانهم، معترفين بالحقّ.

فالذين يغترون بما توصّلت إليه الحضارة الإنسانية من اكتشافات علميّة، وصناعات متقدّمة، فيجعلون ذلك مستنداً لإنكار الخالق البارىء المصوّر جلّ وعلا، إنما يتبعون في ذلك وساوس الشياطين، أو تزيّن لهم أهواء نفوسهم الفاجرة أو المستكبرة ذلك، ليتخذوا من هذه الخرافة التي ترتدي أثواب التقدم العلمي ذريعة للإيهام بأنّهم ليسوا على باطل.

فمن تتبع أقوال علماء الكون وجد أنّ معظمهم يقرّرون أنّ كُلّ اكتشاف علميّ صحيح يدعَمُ قضيّة الإيمان بالله عزّ وجلّ، لدى العقلاء المنصفين، وأنّ كلّ اختراع صناعيٍّ متقدّم يُبرز التفوُّق المذهل العظيم لما هو كائن في الطبيعة بخلق الله، عمّا أتقنه ورتّبه.

لذلك نشاهد أنّ كبار مكتشفي النظريّات العلميّة الحقيقيّة، وكبار مخترعي

---

(١) المصدر السابق.

الأجهزة العظيمة، هم من المؤمنين بالله عزّ وجلّ، الشاهدين بهيمنته على الوجود، وبأنّه لا إله إلاّ هو، ومن أجل ذلك كرّمهم الله، ومجّد شهاداتهم، فقال عزّ وجلّ في سورة (آل عمران ٣):

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾.

ثم يأتي من وراء كبار العلماء وكبار المخترعين، تُجّار الإلحاد في الله، والكفر به، فيتلَقَّفُونَ النظريّات العلمية، ويحملون أسماء المخترعات الكبرى، ويعتبرونها مؤيّدة لقضيّة الإلحاد الذي ينادون به، ويدعون الناس إليه.

وينخدع بتضليلاتهم المراهقون في نفوسهم، أو المراهقون في أفكارهم، فيتصوّرون فعلاً أنّ الاكتشافات العلميّة المتقدّمة، والمخترعات الصناعيّة المتطوّرة، تدعم فعلاً مذهب الإلحاد والكفر بالله، على خلاف ما عليه واقع هذه المكتشفات والمخترعات.

إنّ كلّ اكتشاف علميّ لا يزيد على أنّه إدراك ذكيٌّ صحيح أو قابل للتعديل والتصحيح لجانب من جوانب واقع هذا الكون العظيم الذي هو خلق من خلق الله.

وهل من المنطق العقليّ أو العلميّ في شيءٍ اعتبار إدراك الواقع أو شيءٍ منه ذريعة لإنكار صانع الأمر الواقع وموجده؟.

لو كان هذا صحيحاً لجاز لمن استطاع أن يصوّر كتاباً مخطوطاً، أو يفهم معاني كلماته وجمله وفصوله وأبوابه، أن ينكر مؤلّفه وكاتبه.

إنّ هذا المصوّر للكتاب، أو الفاهم لعباراته أو لبعضها لم يأت من عنده بجديد، فلا يصحّ أن يكون ما توصّل إليه من ذلك سبباً لإنكار المؤلف والكاتب الأصلي. كذلك لا يصح أن يكون إدراك العلماء لسنن الكون وقوانين الوجود القائم قبل علم العلماء سبباً لإنكار موجد الكون وواضع سننه وقوانينه، ومنظم نظمه، والمهيمن عليه.

ومن عجيب المفارقات التي يقع فيها تجار الإلحاد، أن يستندوا إلى النظرية النسبيّة، مع أنّ واضعها «آينشتاين» قد كان مؤمناً قويّ الإيمان بالله، وأن يستند الماركسيون منهم إلى جدلية «هيجل» مع أنّ هذا قد كان من فئة المثاليين الذين ظنُّوا أن خطّة الخالق قد رتبت الكون وفق فكرته في صراع الأضداد.

وأمّا المخترعات الإنسانية فلا تزيد على أنّها اكتشاف لخصائص الأشياء الموجودة في الكون، وتعرُّفٌ على صفاتها، ثم وضع كلّ شيءٍ منها في الوضع الملائم لصفاته وخصائصه.

فهل استطاع مخترع أن يوجد أصل أيّ شيءٍ؟

ثم إذا تفكّرنا في كل ما اخترع الناس من مخترعات، وقارناها بأصغر مخلوق من مخلوقات الله عزّ وجلّ، فإننا نجد فرقاً كبيراً جدّاً بينها مجتمعة وبينه منفرداً، فأعظم مركبة جويّة أو بحريّة أو برّيّة لا تعادل في إتقان الصنع ودقته ذُبابة أو بعوضة من خلق الله، حسب الذّبابة أنها تلد الذباب، وتورّث خصائصها لذرّياتها التي لا تحصر، فهل تلد آلة من صنع الناس مثلها؟ أو تتحرّك بنفسها دون إنسان يسيّرها ويشرف عليها؟.

هذه الحقيقة هي التي جعلت كثيراً من علماء الظواهر الكونيّة يعترفون بأنّ تطوّر العلوم الكونية في هذه العصور الحديثة قد أضاف أدلّة جديدة على وجود الله، وهيّأ مناخاً ملائماً جدّاً للعودة إلى الدين وإلى الإيمان بالرّبّ العليم الحكيم، والالتجاء إليه وعبادته.

ويعجبني بهذا الصدد ما كتبه الدكتور «إدوارد لوثركيسيل» أستاذ علم الأحياء، بعنوان «فلننظر إلى الحقائق دون ميل أو تحيّز» فقد قال فيه ما خلاصته:

١ ــ أضاف البحث العلمي خلال السنوات الأخيرة أدلّة جديدة على وجود الله، زيادة على الأدلّة الفلسفية التقليدية. وقد كان في الإثباتات القديمة ما يكفي لإقناع أي إنسان يستطيع أن ينظر إلى الموضوع نظرةً مجرّدة.

(١) انظر مقاله في كتاب «الله يتجلّى في عصر العلم».

٢ ــ لقد عمّت أمريكا في السنوات الأخيرة موجة من العودة إلى الدين، ولم تتخطّ هذه الموجة معاهد العلم لدينا. ولا شكّ أنّ الكشوف العلميّة الحديثة التي تشير إلى ضرورة وجود ربٍّ خالق لهذا الكون قد لعبت دوراً كبيراً في هذه العودة إلى رحاب الله، والاتجاه إليه. . . .

٣ ــ يرى البعض أنّ الاعتقاد بأزليّة هذا الكون ليس أصعب من الاعتقاد بوجود خالقٍ أزلي، ولكنّ القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ هذا الرأي، فالعلوم تثبت بكلّ وضوح أنّ هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليّاً. فهنالك انتقال حراريّ مستمر من الأجسام الحارّة إلى الأجسام الباردة، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوّة ذاتية، ومعنى ذلك أنّ الكون يتّجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام، وينضب فيها معين الطاقة، ويومئذٍ لن تكون هنالك عمليّات كيميائية أو طبيعيّة، ولن يكون هنالك أثرٌ للحياة نفسها في هذا الكون.

ولمّا كانت الحياة قائمة والعمليّات الكيميائية والطبيعيّة لا تزال تسير في طريقها، فإننا نستطيع أن نستنتج أنّ هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليّاً، وإلاّ لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد، ولتوقّف كلّ نشاط في الوجود.

وهكذا توصّلت العلوم ــ دون قصد ــ إلى أنّ لهذا الكون بداية، وهي بذلك تثبت وجود الله، لأنّ ما له بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ نفسه، ولا بدّ له من مبدىء، أو من محرّك أوّل، أو من خالق هو الله.

٤ ــ لا يقتصر ما قدّمته العلوم على إثبات أنَّ لهذا الكون بداية، فقد أثبتت فوق ذلك أنّه بدأ دفعة واحدة منذ نحو خمسة ملايين سنة.

والواقع أنّ الكون لا يزال في عملية انتشار مستمرّ تبدأ من مركز نشأته.

واليوم لا بدّ للّذين يؤمنون بنتائج العلوم أن يؤمنوا بفكرة الخلق أيضاً، فسنن الطبيعة إنّما هي ثمرة الخلق، ولا بدّ لهم من أن يسلّموا بفكرة الخالق الذي وضع قوانين هذا الكون، لأنّ هذه القوانين ذاتها مخلوقة، وليس من المعقول أن يكون هنالك خلق دون خالق، هو الله.

٥ ــ لو أنّ جميع المشتغلين بالعلوم نظروا إلى ما تعطيهم العلوم من أدلّة على وجود الخالق بنفس روح الأمانة والبعد عن التحيّز الذي ينظرون به إلى نتائج بحوثهم، ولو أنّهم حرّرُوا عقولهم من سلطان التأثر بعواطفهم وانفعالاتهم، فإنهم سوف يسلّمون دون شكّ بوجود الله، وهذا هو الحلّ الوحيد الذي يفسّر الحقائق، فدراسة العلوم بعقل متفتح سوف تقودُنا بدون شكّ إلى إدراك وجود السبب الأوّل الذي هو الله.

٦ ــ لقد منّ الخالق على جيلنا وبارك جهودنا العلميّة بكشف كثير من الأمور حول الطبيعة، وصار من الواجب على كلّ إنسان سواءٌ أكان من المشتغلين بالعلوم أو من غير المشتغلين بها، أن يستفيد من هذه الكشوف العلميّة في تدعيم إيمانه بالله.

٧ ــ كما ينبغي للعالم ذي العقل المتفتح أن يتدبّر وجود الله ويُسلّم به، فإنّ غير المشتغل بالعلوم ينبغي له أن يفحص هو أيضاً هذه الأدلة، ويدرك أنّ التّطوّر الإبداعي هو وسيلة الخالق في خلقه، وأنّ الله هو الذي أبدع هذا الكون بقدرته، وهو الذي سنَّ قوانينه الطبيعيّة.

فالخلق الإبداعيّ هو التفسير الوحيد الذي يوضّح لنا سرّ هذا الوجود، ويوفّق بين ظواهره المختلفة التي يبسطها لنا كتاب الطبيعة، هذه الطبيعة التي نقرأ صفحات كتابها في جميع العلوم المختلفة، من علم التصوير العضوي، ووظائف الأعضاء، والأجنّة، والكيمياء العضويّة، والتوريث، والأحافير، وتصنيف الأحياء، والجغرافية الحيوانيّة، إلى آخره...».

ويعجبني أيضاً بهذا الصدد ما كتبه الدكتور «وولتر أوسكار لندبرج» من علماء الفسيولوجيا والكيمياء الحيويّة مقالاً بعنوان «استخدام الأسلوب العلمي» ضمّنه ما يلي:

١ ــ أرجع في مقاله فشل بعض العلماء في فهمهم وقبولهم لما تدلّ عليه المبادىء الأساسية التي تقوم عليها الطريقة العلمية من وجود الله والإيمان به، إلى أسباب لا صلة لها بالبحث العلمي، وخصّ بالذكر منها سببين اثنين:

السبب الأول: ما تتبعه بعض الجماعات أو المنظمات الإلحادية، أو الدولة من سياسة معيّنةٍ إلى شيوع الإلحاد، ومحاربة الإيمان بالله، بسبب تعارض عقيدة الإيمان بالله مع صالح هذه الجماعة أو مبادئها.

السبب الثاني: المعتقدات الفاسدة التي تجعل الناس منذ الطفولة يعتقدون بإله على صورة الإنسان، وعندما تنمو العقول بعد ذلك، وتتدرّب على استخدام الطريقة العلميّة، فإنّ تلك الصورة التي تعلّموها منذ الصغر لا يمكن أن تنسجم مع أسلوبهم في التفكير، أو مع منطق مقبول.

وأخيراً عندما تفشل جميع المحاولات في التوفيق بين تلك الأفكار الدينيّة القديمة وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلميّ نجد هؤلاء المفكّرين يتخلّصون من الصراع بنبذ فكرة الله نبذاً كليّاً. . . .

وعندما يصلون إلى هذه المرحلة ويظنّون أنّهم قد تخلّصوا من أوهام الدين، وما يترتب عليها من نتائج لا يحبّون العودة إلى التفكير في هذه الموضوعات، بل يقاومون قبول أيّةِ فكرةٍ جديدة تتصل بهذا الموضوع وتدور حول وجود الله. .

٢ ــ وبعد أن نبّه هذا العالم في مقاله على ما سبق، وجّه للاعتماد في قضيّة الإيمان بالله على أساس روحاني، وأوضح أنّ الإيمان بالله مصدرٌ لسعادةٍ لا ينضب في حياة كثير من البشر.

٣ ــ ثم قال: «أمّا المشتغلون بالعلوم الذين يرجون الله فلديهم متعة كبرىٰ يحصلون عليها كلّما وصلوا إلى كشفٍ جديد في ميدان من الميادين، إذْ أنّ كلّ كشف جديد يدعم إيمانهم بالله، ويزيد من إدراكهم وإبصارهم لأيادي الله في هذا الكون. . .»[1].

---

(١) ظاهر أن هذا الكاتب ينظر إلى بيئات غير إسلاميّة تجسّد الله في صورة إنسان، انظر مقاله في كتاب «الله يتجلّى في عصر العلم».

● وأمّا زعم أنّ قضيّة الإيمان بالله من نتائج اللاشعور الإنساني، وكذلك زعم أنّه يرجع إلى أسباب تاريخيّة أحاطت بالإنسان، أو إلى ظروف اقتصادية، فكل ذلك من الادّعاءات التي هي من صنع أوهام أصحابها، تعوزها الأدلة، وهي في أصلها تهرّب وزوغان من أدلّة الإيمان التي لا حصر لها.

على أن هذه المزاعم لا تعطي أيّ تفسير لظواهر الكون، فهي ساقطة لا قيمة لها مطلقاً.

وسيأتي إن شاء الله مزيد بيان سقوطها في بحوث قادمة.



(٣)
موقف الملحدين المعاند

حاصرت أدلة الإيمان بالله عزّ وجلّ الإنسانَ من كلّ جوانبه الفكريّة، والقلبية، والنفسيّة، والوجدانيّة.

ولم تترك منه إلّا جانباً واحداً فقط هو جانب المشاهدة الحسيّة بالحواسّ الظاهرة لذات الخالق تبارك وتعالى، مع العلم بأنّها قد قدّمت للحواسّ الظاهرة آيات وجوده، أما ذاته عزّ وجلّ ففي عالم الغيب عن المخلوقات، وحوْلَها يدور امتحان الفكر الإنساني، والإرادة الإنسانيّة في أن تؤمن به بالاعتماد على أدلة وجوده، وآيات صفاته فيما خلق، بعد أن خلق فيه قدراته الفكرية التي تستطيع أن تستنبط من الظواهر عِلَلَها وعَوَاملَ ظُهورها، وأسبابَ وجودها، وقوانين تصاريفها، وأن تنظر إلى المصنوعات فتثبتَ صانعها وصفاته اللازمة لصنعها.

أفيليق بالإنسان العاقل الحصيف أن يلغي من كيانه كلّ خصائصه الإنسانيّة التي امتاز بها، ويقف كالأنعام عند حدود حواسّه الظاهرة، فلا يُسلّم إلّا بما تقدّمُ له هذه الحواس من مشاهدات؟ .

هذا هو الموقف الذي اختاره الملحدون لأنفسهم، وهذا هو الموقف الذي يدعون الناس إليه، ويتبعهم فيه المغرورون المنخدعون مراهقو الأفكار والنفوس.

هذا هو الموقف الذي يقفون عنده في قضيّة الإيمان بالله عزّ وجلّ، ثم لا يلتزمونه فيما وراء ذلك من شؤون حياتهم، وأمور دنياهم، كالإيمان بالقوانين

التي يستنبطونها استنباطاً ذهنيّاً، وكالإيمان بالتحليلات النفسيّة التي لم يشهدوا شيئاً من حقائقها، والإيمان بأفكار التطوّر التي لم يخضع شيءٌ منها للتجربة الواقعة المشاهدة ولو معمليّاً.

فما هذه المفارقات التي يصنعونها؟. وما هذه التناقضات التي يلتزمونها؟.

لماذا يهربون من الاعتراف بخالقهم كلّ هذا المهرب؟. ألِأنَّهُ خلقهم وكرَّمهم وأمدّهم بالعقل، وأعطاهم وسائل المعرفة، وشقّ أسماعهم وأبصارهم، وأنعم عليهم بنعمه الظاهرة والباطنة؟.

نحن لا نهنّئُهم على موقفهم هذا، بل نرثي لأحوالهم، ونحزن من أجلهم، وَنتمنى أن يستقيموا ويؤمنوا. لكنّهم ما داموا قد اختاروا لأنفسهم هذا الموقف وهم بكامل وعيهم الظاهر، وبكامل حرّيّاتهم الإراديّة، فليتحمّلوا عاقبة تَعَنُّتهم، وعنادهم، وإصرارهم على الباطل، وجحودهم خالقهم العظيم، وليتحمّلوا عاقبة موقفهم الطائش الأرعن، الذي تصدّهم عنه آيات الله في الوجود فلا يرتدعون، وتصدّهم عنه بيانات رسل الله فلا يعبؤون، وتصدُّهم عنه النُّذُر وأنواع الوعيد بسوء المصير فلا يرتدعون، وتصدّهم عنه شواهد العقاب المعجّل الذي أنزله الله بالأمم الكافرة فلا يتعظون.

فماذا بعد ذلك إلّا أن نقول لهم:

لقد جنيتم على أنفسكم بإصرار وعناد، بعد أن قامت عليكم البراهين، وجاءتكم المذكّرات والنُّذر، فأبيتم إلّا موقف التحدّي والتطاول على من خلقكم.

فاذهبوا إلى مصيركم، فالنار دار العذاب والشقاء الأبدي مأواكم، وبئس هذا المصير، وبئس هذا المأوى.

أمّا نحن المؤمنين بالله خالقنا وبارئنا، فما نزال نشفق عليكم، ونحزن من أجلكم إذا كنتم في إحدى مراحل الشك، أو تقعُون تحت تأثير بيئة خاصة لا تستطيعون التّحرّر منها، أو تحت تأثير مفاهيم خاصة تغشّي على عقولكم،

فلا ترون جانب الحقّ، أمّا أن تصرّوا على باطلكم بعد تبصيركم وإقامة الحجّة عليكم، فأنتم وشأنكم، ولا مجال للشفقة عليكم والحزن من أجلكم، إنكم أحرى بأن تشفقوا على أنفسكم، وتحزنوا من أجلها لو كنتم تعقلون، ولكنكم تستكبرون، وتطلبون الحرّية من تكاليف بارئكم، لتقعوا فريسة العبودية والذّلّ لأنفسكم وشهواتكم، وللشياطين الذين يسخّرونكم لأغراضهم ضدّ أنفسكم، وضدّ أمتكم وبلادكم، وضدّ كلّ مجد وخير يتصل بكم وبتاريخكم.

إنكم لو عقلتم ولم تتبعوا أهواءكم لم تدعوا شياطين الإنس أصحابَ الأغراض المادّيّة والسياسية يدخلون إلى أفكاركم بوساوسهم ودسائسهم فيفسدونها، ويعطلوا ما شاءوا منها، ويخدّروا مناطق الإدراك الإيمانيّ فيها.

ألا فاستبصروا إنْ كنتم لأنفسكم ولخيرها تعملون، وعلى نجاتكم وسعادتكم تحرصون، ولا تكونوا كالبهائم والأنعام تُسَخَّرون، وتأكلون وتشربون وتَتَمَتَّعون، ثم إلى المذبح تساقون، ثم في جهنّم تُعذّبون.



(٤)

حماقة الملحدين الجاحدين وجــودَ الــرّب الخــالق

آمن الملحـدون بأزليّـة المادّة التي لا عقـل لها، ولا علم، ولا إرادة، ولا اختيار، ولا حياة، وأنّه لا شيء في الوجود غيرها.

وزعموا أنّ هذه المادّة الخالية من صفات الكمال قد تولّد عنها بالتطوّر الذاتي كائناتٌ حيّةٌ ذات عقل وعلم وإرادة واختيار.

قالوا هذا القول الادّعائيّ والتزموه، مع أنّه لا ذرّة من المنطقيّة فيه، ولا من الأصول الفكرية والعلميّة، ما قالوه مع سخفه وظهـور بطلانه إلّا فراراً من الاعتراف بوجود الرّب الخالق العظيم الحكيم، وتهرُّباً من تَحَمُّلِ تبعاتِ هذا الاعتراف، من الطاعة والاستقامة، والالتزام بفعل الخير وترك الشرّ.

فهم في ذلك بين دافعي الاستكبار، والرّغبة بالفجور، من دوافعهم النفسية، معطّلين منطق عقولهم وأفكارهم، وموازين المعرفة لديهم، ومَعُانِدين إحساساتِهم الوجدانيّة، ومستخدمين ذكاءهم في الاحتيال لإبطال الحقّ وإحقاق الباطل.

ما كان ضرّهم لو أنّهم آمنوا بالله، واعترفوا بربوبيته وإلٰهيَّته، وحَمَوْا أنفسهم من الخلود في العذاب الأليم في الجحيم، وطهّروا أنفسهم من رذيلة جحود الحقّ كبراً وعناداً؟!.

قرأت ما كتبه أساطين الإلحاد في الدنيا، فلم أجد لديهم دليلاً واحداً

صحيحاً ينفي وجود الربّ الخالق جلّ وعَلا، على الرّغم من الجهود الكبيرة التي بذلوها للإقناع بمذهبهم، بل لم أجد في كلّ ما كتبوه دليلاً واحداً يقدِّم ظنّاً بعدم وجود الربّ الخالق جلّ وعلا، فضلاً عن تقديم حقيقة علميّة تثبت ما ادّعوه.

جلُّ ما لدى الملحدين إنّما هو محاولاتٌ للتشكيك في عالم الغيب، والتزام بأن لا يثبتوا إلّا ما شاهدوه من مادّة، بالوسائل العلمية الماديّة القليلة التي اكتشفها العلماء.

وارتباطهم بحدود المادّة التي لم يشهد العلماء الماديّون حتى هذا العصر الحاضر المتقدّم جدّاً في اكتشاف الوسائل إلّا القليل القليل منها، ما هو إلّا موقف يشبه موقف الأعمى الذي ينكر وجود الألوان لأنّه لا يراها، أو موقف الأصمّ الذي يُنْكِرُ وجود الأصوات لأنّه لا يسمعها، أو موقف الحمقاء حبيسة القصر التي ترىٰ أنّ الوجود كلّه هو هذا القصر الذي تعيش فيه، لأنها لم تشاهد في حياتها غيره.

فما هو حظّ هؤلاءِ من العلم والأمانة العلميّة ومطابقة الحقيقة والواقع؟!.

كذلك الملحدون لا حظّ لهم من العلم والأمانة العلميّة ومطابقة الحقيقة والواقع، إذ ينكرون الرّبّ الخالق جلّ وعلا، ويُصِرّون على إنكاره، وهم لا يملكون دليلاً واحداً على نفي وجوده، أو دليلاً واحداً يعذرون به في الإنكار.

قد يستخدم الملحدون عباراتٍ ضخمةً يستغلّون فيها ألفاظ التقدّم العلمي والصناعي وتطوّر مفاهيم العصر، والبحوث العلمية في المعامل والمختبرات، للتمويه بها، وتضليل الأذهان المراهقة. مع أنّ التقدّم العلمي لم يتوصل بعدُ إلى قياس شيءٍ من بحر عالم الغيب الكبير، بل ما زال عاجزاً حتّى هذا العصر عصر التطوّر المذهل عن قياس أمور كثيرة تفوق الحصر داخلة في العالم الماديّ، الذي هو مجال كلّ أنواع التقدّم العلميّ الذي انتهت إليه النهضة العلميّة الحديثة.

فالمعامل والمختبرات والأجهزة العلميّة المتقدّمة جدّاً، ما زالت عاجزة عن أن تقيس أشياء كثيرة في هذا العالم المادّيّ الذي نشاهد ظواهره، بشهادة كبار العلماء المادّيّين أنفسهم، وبدليل تجدّد المعارف والمكتشفاتِ يوماً بعد يوم.

ومّما لا ريب فيه أنّه متى زعم العلم الإنساني أنّه اكتشف كلّ شيء فقد توقف عند مبلغه من العلم، وحجب نفسه بغروره عن بحور من المعارف والعلوم لا سواحل لها ولا قيعان، وأوقف تقدّمه العلمي، وانتفخ مستكبراً انتفاخاً خبيثاً بريح غير طيّبة.

لكنّ العلماء المادّيين مع كلّ ما توصّلوا إليه من مكتشفات يعترفون بأنّ ما لديهم من علوم إنما هي قطرات من بحور، كذلك أنبأنا الله عزّ وجلّ فقال لنا في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾ ﴾.

على أنّ الذين يربطون إيمانهم وعقائدهم في حياتهم باستخدام الطريقة التجريبيّة الحسيّة، للوصول إلى المعارف المادّيّة الكونية، وهي التي تعتمد على الملاحظة، وفرض الفروض، واختبارها بالتجربة الحسيّة للوصول إلى النتيجة، يقفون جامدين عند مشاهدة الظواهر المادّية من جهة، ويغالطون أنفسهم من جهة ثانية، ذلك لأنهم لا يستطيعون في كلّ مجال من مجالات المعرفة أن يمارسوا بأنفسهم كلّ التجارب العلميّة التي قام بها الباحثون من العلماء التجريبيّين.

إنهم لا بدّ أن يجدوا أنفسهم مسوقين إلى التسليم بتجارب غيرهم، وتقرير ما توصّلوا إليه من نتائج، وهذا نوع من الإيمان القائم على تصديق خبر العلماء المجرّبين.

يذكر هذه الحقيقة الدكتور «واين أولت» وهو مختص في الكيمياء الجيولوجية[١]، ثم يقول:

---

(١) انظر مقاله في كتاب «الله يتجلّى في عصر العلم».

«ومعنى ذلك أننا نكتسب معلوماتنا من التاريخ المكتوب للتجارب السابقة.

فمن ذلك مثلاً: أنّ عدد الذين قاموا بتحديد سرعة الضوء يُعدُّ قليلاً جدّاً، ومع ذلك فإنّ كلّ الناس يسلّمون بسرعته المعروفة، ولا يساورهم شكٌّ في أمرها.

وبمثل ذلك يسلّم العلماء بصحة بعض الفروض المقبولة، والتي ليس هناك سبيل إلى إدراكها إدراكاً حسيّاً، فلا يوجد من يستطيع أن يدّعي أنه رأى البروتون، أو الإلكترون، ولكن الناس يسلّمون بها من آثارها.

وكذلك الحال فيما يتصّل بتركيب الذّرة، وبالصورة التي رسمها لها «بور» وهي صورة مبسّطة، تعيننا على إدراك سلوك الذّرة وخواصها.

وكذلك الحال فيما يتعلّق بتركيب الأجرام السماويّة البعيدة، وما يفصلها من مسافات شاسعات، مما لا نستطيع أن نخضعه لتجاربنا، أو نقيم الأدلّة المباشرة على صحّة نظرياتنا وفروضنا حوله.

فمن الواضح إذن أنّ كثيراً من المعلومات التي يحتاج إليها الإنسان في حياته، ويسلّم بصحتها، لا بدّ أن يتقبّلها، ويؤمن بها إيماناً يقوم على التسليم بصحتِها، وليس معنى ذلك أنّه إيمان أعمى، بل هو إيمان يسمح بأن يوضع على محكّ الاختبار في شتّى مواضعه، فيزداد بذلك قوّةً وَتَدعيماً...

وكما أنّ الإيمان بمعناه الواسع يعتبر أمراً ضروريّاً، وجزءاً طبيعيّاً بالنسبة إلى وجود الإنسان، فإنّ الإيمان بالله يعدُّ كذلك لازماً لاكتمال وجود الإنسان وتمام فلسفته في الحياة...

ويسلّم كثير من الناس تسليماً منطقيّاً بوجود الغاية أو الحكمة من وراء الظواهر الطبيعيّة. ولا شكّ أنّ الاعتقاد بوجود ربّ خالق لكلّ الأشياء يعطينا تفسيراً بسيطاً سليماً واضحاً عن النشأة والإبداع والغرض أو الحكمة، ويساعدنا على تفسير جميع ما يحدث من الظواهر.

أمّا النظريات التي ترمي إلى تفسير الكون تفسيراً آليّاً فإنها تعجز عن تفسير كيف بدأ الكون، ثم تُرجع ما حدث من الظواهر التالية للنشأة الأولى إلى محض المصادفة، والمصادفة هنا فكرة يستعاض بها عن فكرة وجود الله، بقصد إكمال الصورة، والبعد عن التشويه.

ولكنْ حتّى بغضّ النظر عن الاعتبارات الدينيّة عامّة، نجد أنّ فكرة وجود الله أقرب إلى العقل والمنطق من فكرة المصادفة ولا شكّ.

بل إنّ ذلك النظام البديع الذي يسود هذا الكون يدلّ دلالة حتميّة على وجود ربّ منظم خالق، وليس على وجود مصادفة عمياء، تخبط خبط عشواء».

يضاف إلى ما سبق أنّ الذين يربطون إيمانهم وعقائدهم في حياتهم باستخدام الطريقة التجريبيّة لم يتوقفوا عند حدود مشاهداتهم، بعد كلّ دراساتهم، وملاحظاتهم، ومكتشفاتهم، بل هم يحاولون تفسير ما شاهدوه من ظواهر بنظريّاتٍ استنتاجيّة، يقرّرون فيها حقائق غير مرئية، وغير مدركة بأيّةِ حاسّةٍ من الحواسّ البشرية، ووسائلها المتقدّمة جدّاً، وهي بالنسبة إليهم وإلى أدواتهم ما زالت أموراً غيبيّة، لكنّهم مع ذلك يضطرّون إلى إقرارها والتسليم بها، ويجعلونها قوانين ثابتة يقولون عنها: إنّها قوانين طبيعيّة.

فهل كان بإمكانهم أن يقفوا عند حدود الظواهر المادّيّة، وينكروا ما وراءها من قوانين طبيعيّةٍ غير مرئية، وغير معروفة حقيقتها لديهم؟!.

ومن أمثلة ذلك: قانون الجاذبيّة.

إنّه قانون غدا من الحقائق العلميّة الطبيعيّة لدى العلماء المادّيين، فما هي حقيقة هذه الطاقة العظيمة الكُبْرىٰ؟.

هل باستطاعة العلماء أن يشاهدوها بأدواتهم، وأن يعرفوا كنهها؟.

ونتساءل: كيف أثبتوها؟.

ألم يثبتوها بـالاستنتاج العقـلي استناداً إلى مـا شاهـدوه من ظواهـرها وآثارها؟!.

بلى. وهذه هي الحقيقة.

ونظير الجاذبية صفات الذرة وعملها، وحركات إلكتروناتها.

فما بال الملحدين يُسَلِّمُون بهذه القوانين الخارجة عن نطاق المشاهدات المادّية، وهي بالنسبة إلى حواسهم، وإلى الأدوات العلميّة المتقدّمة أمورٌ غيبيّة، ثم ينكرون وجود الرّبِّ الخالق جلّ وعلا، لمجرّد كونه خارجاً عن نطاق الإدراك الحسّي، ولا يمكن التوصل إلى إدراكه بالأجهزة العلميّة المتقدّمة، رغم أنّ مئات الأدلة العقليّة والاستنتاجيّة تثبت ضرورة وجود ربّ خالق عظيم لهذا الكون، بيده مقاليد السماوات والأرض، وهو على كلّ شيءٍ قدير؟!.

أليس عمل الملحدين هذا من المفارقـات التي لا تستقيم مع البحث العلمي، والأمانة العلمية؟!.

فلنفترض جدلاً أن أدلّة إثبات الربّ الخالق لم تصل لديهم إلى مستوى اليقين القطعيّ بحدّ زعمهم، ولكن ألم تُرَجّح هذه الأدلّة احتمال وجود الربّ الخالق العليم الحكيم على عدم وجوده؟!.

إنّها مهما تكن من وجهة نظرهم غير كافية للقطع فهي أقوى حتماً من الاحتمال الآخر الذي هو احتمال النفي، أليس عجيباً منهم أن يأخذوا باحتمال النفي دون دليل، ويرفضوا احتمال الإثبات ومعه الأدلّة الكثيرة، ثم يَقِفوا بكل قوّاتِهم وأسلحتهم المادّية والنفسيّة، وبكل وسائلهم ومغرياتهم وحيلهم وخداعهم ومجادلاتهم السوفسطائية، وأنواع الاضطهاد التي يملكونها، لمحاربة الإيمان بالله عزّ وجلّ؟!!.

لماذا يعادون من خلقهم كلَّ هذا العداء؟! أهذا جزاء الإنعام والتكريم الذي كرّمهم الله به وفضلّهم فيه على كثير ممن خلق؟!.

ألم يتحرّكْ فيهم حسّ أخلاقيٌّ للاعتراف بوجود بارئهم والإذعان له، والإسلام له وحده، ومقابلة إنعامه وإكرامه بالشكر؟!.

ألم ترجُفْ قلوبُهم خوفاً من عقابه الذي أعلنه على ألسنة رسله؟!.

ألم يفترضوا أن يكون الأمر حقّاً وجدّاً لا هزل فيه؟! فبماذا يعتذرون يوم الحساب والجزاء، وقد قطع الله ببياناته أعذارهم؟.

هل يكون عذرهم كافياً ومقبولاً إذا قالوا لربّهم يوم الحساب: إنّك يا ربّنا وخالقنا وبارئنا لم ترِنا نفسك حتى نؤمن بك، ونذعن لك، ونطيع أوامرك ونواهيك؟!.

ألا تسقط حجتهم هذه حينما يقول الله لهم: ألم أمنحكم عقولاً تستنبطون بها وجودي من آياتي التي بثثتها في كوني وفي أنفسكم؟. ألم أرسل لكم رسُلاً مؤيّدين بالآيات من عندي فأبلغوكم عني؟. فلماذا كذّبتموهم؟. إنّني لم أضع في كوني أيّة حجّةٍ تقنع أحداً بعدم وجودي فَيُعْذَرَ بها، فلماذا جحدتم وجودي وَلا حجّة لكم؟.

إنكم اتّبعتُمُ الهوى، واستكبرتم عن الإيمان بـي والإسلام لتكاليفي وأحكامي، والخضوع لطاعتي، ورغبتم في التحرّر من أمري ونهيـي وشريعتي لعبادي، فاليوم أطردكم من مواطن رحمتي، واليوم تستحقون عذابـي وعقابـي، فقد حذّرتكم وأنذرتكم.

إنّهم يومئذٍ يُبْهَتُون، ويُبْلِسون أذِلّاءَ صاغرين، قد انقطعت حجتهم، وظهرتْ سرائر نفوسهم المجرمة المستكبرة الفاجرة، وانكشف لهم أنّهم كانوا في الغرور يتقلّبون، وفي جهالاتهم وضلالاتهم يعمهون، وأنهم كانوا يجحدون بارئهم والمنعم عليهم من دون أن يكون لهم دليل به يعتذرون.

ويومئذٍ لا تنفعهم أحزابهم وجنودهم، ولا أئمتهم وقادتهم الذين كانوا يُزيّنون لهم الكفر بالله وجحود آياته.

ويتساءل عقلاء المؤمنين: ما هي الفائدة التي يستفيدها الملحدون في

حياتهم الدنيا من إنكارهم لربّهم الذي خلقهم، حتى يدفعوا بأنفسهم إلى موقع خطر كبير جسيم، يعرّضون فيه أنفسهم لشقاءٍ أبديٍّ وعذاب لا ينقطع؟!.

إنّ إلحادهم بربّهم وجحودَهُم له لا يفيدهم شيئاً في حياتهم الدنيا، إنّه لا يعدو أن يكون مذهباً عناديّاً استكباريّاً، دافعه الكبر والتمرّد.

إذن فليتحمّلُوا يوم الدين مغبّة عنادهم واستكبارهم وتمرّدهم، إنّ من عاند سُنن الله في كونه وقوانينه التكوينيّة لم ترحمْه، فمن عاند الطاقة الكهربائية فلم يتخذ وسائل الوقاية منها صرعته لَمَسَاتُها، ومن عاند قانون الصخرة فخرَّ عليها من شاهق حطّمته قسوتها، أفمن يُعَاند الله فيجحد ربوبيته أو إلهيته يسلم من الخلود في العذاب الأليم يوم الدين؟!.

إنّ الملحدين يكفرون بالله الحقّ، ثمّ يجرون وراء أوهام تافهة لا حقيقة لها في الواقع، على توهُّم أنّ لديها بعض اللّذائذ والشهوات النفسيّة، أو بعضَ الإصلاح الفردي والاجتماعي، وربّما تعلّقُوا خلسة عن مذهبهم المادّيّ بغيبيّاتٍ من السّحر والشعوذة، وقراءة الكف، وأشباه ذلك، ومعظمُها تمويهاتٌ وتخريفاتٌ ومصايدُ من مصَايدِ الشياطين، وأبالسة الإنس والجنّ.

ويعجبني كلامٌ كتبه عن الملحدين «أندور كونواي إيفي» من العلماء الطبيعيين ذوي الشهرة العالميّة من سنة «١٩٢٥م» إلى سنة «١٩٤٦م» في مقال بعنوان «وجود الله حقيقة مطلقة» جاء فيه المقتطفات التاليات[١]:

«إنّ الاعتقاد بوجود الله هو الوسيلة الفكرية الكاملة الوحيدة التي تجعل لهذا الوجود معنى، وهذا الاعتقاد هو الذي يجعل لوجود الإنسان معنى أكثر من أنّه مجرّد كتلة من المادّة والطاقة.

والاعتقاد بوجود الله هو المنبع لأسمى فكرة إنسانية حول المحبّة، والقاعدة التي تقوم عليها الأخوّة بين البشر، بسبب اجتماعهم على محبّة الله وطاعته،

---

(١) انظر مقاله في كتاب «الله يتجلّى في عصر العلم».

وهو مصدر إحساسنا بالحقوق والواجبات، لأننا لا نتساوى إلاّ في نظر الحبّ والعدالة والرحمة المطلقة.

والاعتقاد بوجود الله هو الحصن الذي يعصمنا من الشرور، وهو بعد ذلك الأساس المتين الذي يقوم عليه الإيمان، وتدوم بسببه القيم الروحية التي يُعتبر وجودها رهيناً بوجود الله. . .

من الممكن أن نستخدم المنطق لإثبات وجود الله، وذلك باستخدام أسس التفكير المشتقة من تفاعل خبرتنا الحسيّة المعتادة مع عقولنا. . .

إنّ أحداً لا يستطيع أن يثبت خطأ الفكرة التي تقول: «إنّ الله موجود» كما أنّ أحداً لا يستطيع أن يثبت صحة الفكرة التي تقول: «إنّ الله غير موجود».

وقد ينكر منكرٌ وجود الله، لكنّه لا يستطيع أن يؤيّد إنكاره بدليل. وأحياناً يشكّ الإنسان في وجود شيءٍ من الأشياء، ولا بدّ في هذه الحالة من أن يستند شكُّـه إلى أساس فكري. ولكنّني لم أقرأ ولم أسمع في حياتي دليلاً واحداً على عدم وجود الله تعالى، وقد قرأت وسمعت في الوقت ذاته أدلّة كثيرة على وجوده، كما لمست بنفسي بعض ما يتركه الإيمان من حلاوة في نفوس المؤمنين، وما يخلّفه الإلحاد من مرارة في نفوس الملحدين.

والبرهان الذي يتطلّبه الملحدون لإثبات وجود الله، هو البرهان نفسه الذي يُطلبُ كما لو كان الله تعالى شبيهاً بالإنسان، أو شيئاً مادّياً. . .

ولو كان لله مثل هذا الوجود المادّي لما وُجد هنالك مجالٌ للشّكّ في وجوده، ولكنّ الله أراد ضمن ما أراد أن يختبر عقولنا حول الإيمان به، فترك لنا حرّيّة الاختيار، لكي يؤمن به من يؤمن، وينكره من ينكر.

فالإنسان يستطيع ـ بخداع نفسه ـ أن ينكر وجود الله، وعليه أن يتحمّل النتائج.

ومعظم الملحدين والمارقين من الأديان، ينظرون إلى الله كما لو كان بشراً يمكن التعامل معه تعامل الأنداد. ولا مناص من الوصول إلى الله، ولكي يفكّر

الإنسان فيه تفكيراً مستقيماً لا عوج فيه ولا نفور، عليه أن يحرّر عقله من الأنانية ومن الأحقاد، ومن كلّ ما يعوق التفكير الصافي السليم، حتى يتسنّى له أن يصل إلى الله ويُحبّه، وبذلك يُسهم في محاربة الشرور والظلم الذي يتحدّث عنه من يشكّون في أمره ووجوده تعالى، فلقد اقتضت حكمة الله أن يستخدم الإنسان عقله وإرادته وحرّيته في اتخاذ القرارات اللازمة لمحاربة هذه الشرور...

منذ سنوات عديدة كنت أجلس إلى مائدة الطعام مع جماعة من رجال الأعمال، وكان معنا أحد مشهوري رجال العلوم، وفي أثناء الحديث الذي دار بيننا، قال أحد رجال الأعمال: «سمعت أنّ معظم المشتغلين بالعلوم ملحدون، فهل هذا صحيح؟».

ثم نظر رجل الأعمال إليّ فأجبته قائلاً:

لا إنّني لا أعتقد أنّ هذا القول صحيح، بل إنني على نقيض ذلك وجدت في قراءتي ومناقشاتي أنّ معظم من اشتغلوا في ميدان العلوم من العباقرة لم يكونوا ملحدين، ولكنّ الناس أساءوا نقل أحاديثهم، أو أساءوا فهمهم..

ثم استطردت قائلاً: إنّ الإلحاد أو الإلحاد المادّي يتعارض مع الطريقة التي يتبعها رجل العلوم في تفكيره وعمله وحياته..، ويظهر أنّ الملحدين أو المنكرين بما لديهم من الشكّ لديهم بقعة عمياء أو بقعة مخدّرة داخل عقولهم، تمنعهم من تصوّر أنّ كلّ هذه العوالم سواء ما كان منها ميتاً أو حيّاً تصير لا معنى لها بدون الاعتقاد بوجود الله.

وكما قال «آينشتاين»:

إنّ الشخص الذي يعتبر حياته وحياة غيره من المخلوقات عديمة المعنى ليس تعيساً فحسب، ولكنّه غير مؤهل للحياة». انتهى.

ألا فليطمئن المؤمنون لإيمانهم، ولينعموا براحة قلوبهم ونفوسهم وضمائرهم، وليفرحوا بما هم فيه من سعادة لا يملكها الملحدون، وليفرحوا بما ينتظرهم من سعادة عظيمة خالدة في دار النعيم المقيم، وفيما قبل ذلك من مراحل بعد الموت، وليحمدوا الله على نعمة الإيمان.

* * *

(٥)
خرافة المصادفة عند الملحدين

مذهب الملحدين بالله قائم على أساس الأخذ بفرضية المصادفة في تحقق وجود هذا النظام الكوني البديع، وقوانينه الصارمة الحكيمة، وهم يزعمون أنّ المادّة الميّتة الجاهلة التي لا إدراك لها، والتي هي العنصر البسيط المفرد المتماثل الأجزاء، والأولُ في الكون، قد أنتجت عن طريق المصادفة، والتطوّر الذاتي، كلّ هذا النظام الكوني البديع، بما فيه من إتقان رائع، وإحكامٍ لا يعتريه الخلل.

أما منطق المؤمنين بالخالق المبدع فقائم على أساس إحالة وجود هذا النظام البديع، والإتقان المحكم، إلى أنه فعل عليم حكيم قدير مختار.

فأيُّ المذهبين يرجَحُ في ميزان العقل الصحيح، والرأي السديد، والنظر في مواءمة المذهب للأدلة التي يقدمها واقع الكون من خلال تصاريفه وأحداثه؟.

وأيّ المذهبين يملك حجج إثبات يعتمد عليها؟.
وأيّ المذهبين قائم على مجرّد الادّعاء الخرافي؟.

سؤال نطرحه على منطق العقلاء وأهل الفكر والنظر، وأهل البحث العلمي، وإن كان لا يصحّ أن يُسوّى لدى البحث بين إيمان قائم على منطق العقل الصحيح، ومذهب ادّعائي عنادي لا أساس له من المنطق العقليّ مطلقاً، ولا أساس له من الشواهد الواقعيّة البتة.

دخـل اثنان إلى معمل آليّ كبير، تدور آلاته بالطاقة الكهربائية، ثم اهتديا إلى مفاتيح تشغيله، فإذا بآلاته تتحرك بانتظام، وتنتج منتجاتها الحكيمة.

فقال أحدهما: إنّ مهندس وصانع هذا المعمل الآلي الكبير مهندس وصانع بارع جداً، وذو ملكاتٍ عقلية ممتازة، وذو معرفة بأصول الحركات الآلية وحيلها، ولا بدّ أنه قد سبقت له تجارب في هندسة المعامل وصناعتها، حتّى استطاع أن يتقن صناعة هذا المعمل بهذا الإتقان والإحكام المثيرين للعجب، وأن ينتزع حَمْدَ المشاهدين العقلاء.

وقال الآخر لصاحبه وهو يحاوره: أخطأت يا صاحبي، فليس هذا المعمل الذي رأيت صنع أيّ صانع مطلقاً، وليس ثمرة هندسة وإحكام فكري، وإتقان صنع.

فقال له صاحبه: يا عجباً! وكيف إذن وُجد هذا المصنع الذي ينتج إنتاجاً معيّناً، ويقوم بأعمال حكيمة، وهو بهذا الإتقان المدهش؟!.

فأجابَه: لقد كان هنا جبل من حديد، تعلوه طبقة صخرية، وتتخلّله رمال وأتربة متنوّعة، فمرّت عليه ملايين القرون، وكانت الرّياح تحتُّ منه، وتمُر في وسطه ينابيع الماء، فتجرف ما تجرف من رماله وأتربته، وتمُر عليه السيول فتفعل ما تفعل فيه، ثمّ بتأثير أنواع من الحرارة الكونية، والضغوط الجوّيّة تشكّل حديدُه بهذا الشكل الذي ترى، وتشكّل صخره بهذا الشكل الذي ترى، وبفعل أحداث الطبيعة التي لا عقل لها، ولا علم لديها، ولا حياة تحرّكها، ولا إرادة تصرّف أمورها، نشأ هذا المصنع المتقن، ولا بدّ أنّ جبالاً كثيرة كانت مثله، إلاّ أنّ المصادفة هي التي جعلت هذا الجبل وحده يكون بهذا الشكل بعد ملايين القرون.

فلم يتمالك صاحبه نفسه، فانطلقت منه ضحكات سخريـة عجيبة، استغرق فيها طويلاً.

فاختصما، وأخذ مدّعي المصادفة يسبّ ويشتم ويقذع في القول، ويتهم صاحبه بالغباء وقلّة العقل، والتعلّق بأمور غيبيّة غير مشهودة.

فرفَقَ به صاحبه وقال له: ما الداعي يا صاحبي إلى أن تحيل هذا الإتقان البديع على احتمال المصادفة، مع أنّ من المستحيل عقلاً وواقعاً أن يتمّ مثل هذا الإبداع المتقن الصنع بطريق المصادفة؟.

قال مدّعي المصادفة: فكيف إذن نستطيع أن نستحوذ على هذا المصنع، ونعبث فيه ونستغلّه على ما نهوى، دون أن يحاسبنا على ما نفعل محاسب؟

ثمّ كيف يكون مهندسٌ ما أقدر منّا وأعلم منّا، فيصنع مثل هذا المصنع؟

وبينما هما يختصمان، إذْ ظهر عليهما مالك المصنع وهو صانعه ومهندسه، وكان قد عرف أقوالهما وسمع حوارهما.

● أما المعترف منهما بمالكه الذي هو مهندسه وصانعه، فاستضافه في قصره العظيم، وكرّمه ونعّمه.

● وأما الجاحد منهما المنكر لمالكه، الذي هومهندسه وصانعه، فطرده المالك لاستكباره وعناده، ورغبته في أن يمتلك المعمل دون أن يكون لأحد مِنَّةٌ عليه فيه، ورغبته في أن يعبث فيه بحسب أهواء نفسه، لا بمقتضى المصلحة، والتعليمات الكفيلة بالنفع والسلامة التي وضعها المهندس الصانع.

ولما طرده المالك المهندس الصانع من مواطن نعمته وكرامته، لم يجد الجاحد المنكر المستكبر إلاّ الشقاء والتعب والنكد والضّنك في الصحاري المحرقة، والوديان المهلكة، والسَّمُوم والحميم، ولفحات الحرّ والقرّ.

كذلك يريد الملحدون بالله الرب الخالق المالك العليم الحكيم، وعلى مثل ما صنع هذا الأحمق يصنعون، ويريدون من المؤمنين أن يجحدوا مثل جحودهم، ويكفروا مثل كفرهم، وحين يكون لهم السلطان في الأرض فإنّهم يحاولون إكراه

الناس على الكفر والإلحاد بالله الرّبّ الخالق، فإذا لم يستجيبوا لهم اضطهدوهم وعذّبوهم وأذلّوهم وحاربوهم في أرزاقهم ووسائل عيشهم.

وتاريخ الملاحدة الشيوعيين في هذا تاريخ أسود مشحون باضطهاد المؤمنين وتعذيبهم وتقتيلهم من أجل إيمانهم. فأين مبدأ حرّيّة الاعتقاد وحرّيّة الفكر عندهم؟!!.

أقوال العلماء الطبيعيين حول المصادفة:

١ ــ يقول البروفيسور «إيدوين كونكلين»[١]:

«إنّ القول بأن الحياة وجدت نتيجة حادث اتفاقي شبيه في مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم مصادفة نتيجة انفجار يقع في مطبعة».

أي: لا يمكن للمصادفة أن توجد ظاهرة الحياة ذات النظام المتقن الرائع، وإذا سقط احتمال المصادفة ثبت بالضرورة أنّه لا بدّ لظاهرة الحياة من خالق خلقها وأتقنها، وهو يرعاها بعنايته وتدبيره وألطافه.

٢ ــ ويقول عالم الطبيعة الأمريكي «جورج إيرل ديفيس»[٢]:

«لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه، فإنّ معنى ذلك أنّه يتمتع بأوصاف الخالق، وفي هذه الحال سنضطر أن نؤمن بأنّ الكون هو الإله، وهكذا ننتهي إلى التسليم بوجود الإله، ولكنّ إلهنا هذا سوف يكون عجيباً، إلهاً غيبيّاً ومادّياً في آنٍ واحد.

إنني أفضّل أن أؤمن بذلك الإله الذي خلق العالم المادّي، وهو ليس بجزء من هذا الكون، بل هو حاكمه ومُديرُه ومُدَبّره، بدلاً من أن أتبنّى مثل هذه الخزعبلات».

فهذا العالم من علماء الطبيعة يرى أنّ نظرات الملحدين هي من قبيل

---

(١) نقلاً من كتاب «الإسلام يتحدى» لوحيد الدين خان، ص ١٠٧.
(٢) المرجع السابق، ص ١١٥.

الخزعبلات، أو الخرافات التي ليس لها سند علمي، ولا سند عقلي، وهذا هو شأن كلّ عالم منصف محايد.

٣ ــ ويردّ «كريسي موريسون» على الملحد «هيكل Haeckel» إذْ قال متبجّحاً: «ايتوني بالهواء والماء والأجزاء الكيماوية، وبالوقت، وسأخلق الإنسان».

أي: فهو يزعم أنّ الإنسان قد وجد نتيجة اجتماع عناصر خاصة، ضمن كيفية خاصة وشروط خاصة، وتمّ ذلك على سبيل المصادفة، فردّ عليه «كريسي موريسون» بقوله في كتابه «العلم يدعو للإيمان»[١]:

«إنّ «هِيكل» يتجاهل في دعواه الجينات الوراثية، ومسألة الحياة نفسها، فإنّ أوّل شيءٍ سيحتاج إليه عند خلق الإنسان هو الذّرّات التي لا سبيل إلى مشاهدتها، ثم سيخلق الجينات، أو حملة الاستعدادات الوراثية، بعد ترتيب هذه الذرّات، حتى يعطيها ثوب الحياة، ولكنّ إمكان الخلق في هذه المحاولة بعد كلّ هذا لا يعدو واحداً من عدّة بلا يين.

ولو افترضنا أنّ «هيكل» نجح في محاولته فإنّه لن يُسمّيها مصادفة، بل سوف يقرّرها ويعدّها نتيجة لعبقريته».

وهكذا أظهر هذا العالم الحصيف سخافة أقوال «هِيكل» عن طريق المناقشة العلميّة.

٤ ــ ويقول عالم الأعضاء الأمريكي «مارلين. ب. كريدر»[٢]:

«إنّ الإمكان الرياضي في توافر العلل اللازمة للخلق عن طريق المصادفة في نسبها الصحيحة هو ما يقرب من لا شيء».

أي: إنّ احتمال المصادفة احتمال مرفوض رياضيّاً، في تعليل عمليات الخلق المتقن المنظم الحكيم.

---

(١) انظر صفحة ١٥٠ منه، و «كريسي موريسون» كان رئيساً لأكاديمية العلوم في نيويورك، ورئيساً للمعهد الأميركي لهذه المدينة، وعضواً مدى الحياة للمعهد الملكي البريطاني.

(٢) نقلاً من كتاب «الإسلام يتحدى» لوحيد الدين خان، ص ١١٤.

٥ ــ ويقول أحد علماء الطبيعة:

«إنّ العلم لا يملك أيّ تفسير للحقائق، والقول بأنّها حدثت اتفاقاً إنّما يعتبر تحدّياً وتصادماً مع الرياضيات».

٦ ــ وكتب الدكتور «فرانك ألن» أستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة «ماينتوبا» بكندا، مقالاً تحت عنوان «نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد؟»[١] جاء فيه:

«كثيراً ما يقال: إنّ هذا الكون المادّي لا يحتاج إلى خالق، ولكنّنا إذا سلّمنا بأنّ هذا الكون موجود، فكيف نفسّر وجوده ونشأته؟.

هنالك أربعة احتمالات للإجابة عن هذا السؤال:

(أ) فإمّا أن يكون هذا الكون مجرّد وهم وخيال، وهو ما يتعارض مع القضية التي سلّمنا بها حول وجوده، وهو رأي وهميّ لا يحتاج إلى مناقشة أو جدال.

(ب) وإمّا أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم، وهو رأي لا يقلّ عن سابقه سخفاً وحماقةً، ولا يستحقّ هو أيضاً أن يكون موضعاً للنظر أو المناقشة.

(ج) وإمّا أن يكون هذا الكون أبديّاً ليس لنشأته بداية.

(د) وإمّا أن يكون له خالق.

والرأي الثالث الذي يذهب إلى أنّ هذا الكون أزليّ ليس لنشأته بداية، إنّما يشترك مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون في عنصر واحدٍ هو الأزلية.

وإذاً فنحن إمّا أن ننسب صفة الأزلية إلى عالمٍ ميّت، وإمّا أن ننسُبها إلى إلّه حيّ يخلُق...

---

(١) انظر كتاب «الله يتجلّى في عصر العلم».

ولكن قوانين الديناميكا الحراريّة تدلُّ على أنّ مكوّنات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيّاً، وأنّها سائرة إلى يومٍ تصير فيه جميع الأجسام تحت درجةٍ من الحرارة بالغة الانخفاض، هي الصفر المطلق، ويومئذٍ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة...

أمّا الشمس المستعرة، والنجوم المتوهجة، والأرض الغنيّة بأنواع الحياة، فكلّها دليل واضح على أنّ أصل الكون وأساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة، فهو إذاً حدثٌ من الأحداث، ومعنى ذلك أنّه لا بدّ لأصل هذا الكون من خالقٍ أزلي، ليس له بداية، عليم محيط بكلِّ شيء، قويّ ليس لقدرته حدود، ولا بدّ أن يكون هذا الكون من صنع يديه.

إنّ ملاءمة الأرض للحياة تتخذ صوراً عديدة لا يمكن تفسيرها على أساس المصادفة أو العشوائية.

فالأرض كرة معلّقة في الفضاء تدور حول نفسها، فيكون في ذلك تتابع الليل والنهار، وهي تسبح حول الشمس مرّة في كلّ عام، فيكون في ذلك تتابع الفصول، الذي يؤدّي بدوره إلى زيادة مساحة الجزء الصالح للسكنىٰ من سطح كوكبنا، ويزيد من اختلاف الأنواع النباتية أكثر مما لو كانت الأرض ساكنة.

ويحيط بالأرض غلاف غازي يشتمل على الغازات اللازمة للحياة، ويمتد حولها إلى ارتفاع كبير يزيد على خمسمائة ميل. ويبلغ هذا الغلاف الغازيّ من الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة يوميّاً إلينا، منقضّة بسرعة ثلاثين ميلاً في الثانية.

والغلاف الجويّ الذي يحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياة، ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافاتٍ بعيدة داخل القارّات، حيث يمكن أن يتكاثف مطراً يحيـي الأرض بعد موتها، والمطر مصدر الماء العذب، ولولاه لأصبحت الأرض صحراء خالية من كلّ أثرٍ للحياة، ومن هنا نرى أنّ الجوّ والمحيطات الموجودة على سطح الأرض تمثّل عجلة التوازن في الطبيعة.

ويمتاز الماء بأربع خواصّ هامّة تعمل على صيانة الحياة في المحيطات والبحيرات والأنهار، وخاصة حينما يكون الشتاء قارساً وطويلاً، فالماء يمتصّ كميّات كبيرة من الحرارة تساعد على صيانة حياة الأحياء التي تعيش في البحار.

أمّا الأرض اليابسة فهي بيئة ثابتة لحياة كثير من الكائنات الأرضية، فالتربة تحتوي العناصر التي يمتصّها النبات، ويتمثّلها، ويحوّلها إلى أنواع من الطعام يفتقر إليها الحيوان.

ويوجد كثير من المعادن قريباً من سطح الأرض، ممّا هيّأ السبيل لقيام الحضارة الراهنة، ونشأةِ كثير من الصناعات والفنون.

وعلى ذلك فإنّ الأرض مهيّأة على أحسن صورة للحياة. ولا شكّ أنّ كلّ هذا من تيسير حكيم خبير، وليس من المعقول أن يكون مجرّد مصادفة، أو خبط عشواء.

وكثيراً ما يسخر البعض من صغر حجم الأرض بالنسبة إلى ما حولها من فراغٍ لا نهائي. ولو أنّ الأرض كانت صغيرة كالقمر، أو لو أنّ قطرها كان رُبع قطرها الحالي لعجزت عن احتفاظها بالغلافين الجويّ والمائي اللّذين يحيطان بها، ولصارت درجة الحرارة فيها بالغة حدّ الموت.

ولو كان قطر الأرض ضعف قطرها الحالي لتضاعفت مساحة سطحها أربعة أضعاف، وأصبحت جاذبيتها للأجسام ضعف ما هي عليه، وانخفض تبعاً لذلك ارتفاع غلافها الهوائي، وزاد الضغط الجوّيّ من كيلو جرام واحد على السنتيمتر المربع إلى كيلويين، ويؤثر كلّ ذلك أبلغ الأثر في الحياة على سطح الأرض، فتتّسع مساحة المناطق الباردة اتساعاً كبيراً، وتنقص مساحة الأراضي الصالحة للسكنى نقصاً ذريعاً، وبذلك تعيش الجماعات الإنسانية منفصلة، أو في أماكن متنائية، فتزداد العزلة بينها، ويتعذّر السفر والاتصال، بل قد يصير ضرباً من ضروب الخيال.

ولو كانت الأرض في حجم الشمس مع احتفاظها بكثافتها لتضاعفت

جاذبيتها للأجسام التي عليها مائة وخمسين ضعفاً، ولنقص ارتفاع الغلاف الجويّ إلى أربعة أميال، ولأصبح تبخّر الماء مستحيلاً، ولارتفع الضغط الجويّ إلى ما يزيد على مائة وخمسين كيلوجراماً على السنتيمتر المربع، ولوصل وزن الحيوان الذي يزن حالياً رطلاً واحداً إلى مئة وخمسين رطلاً، ولتضاءل حجم الإنسان حتّى صار في حجم ابن عرس أو السنجاب، ولتعذّرت الحياة الفكرية لمثل هذه المخلوقات.

ولو أُزيحت الأرض إلى ضعف بعدها الحالي عن الشمس لنقصت كمية الحرارة التي تتلقّاها من الشمس إلى ربع كميّتها الحالية، وقطعت الأرض دورتها حول الشمس في وقت أطول، وتضاعف تبعاً لذلك طول فصل الشتاء، وتجمّدت الكائنات الحية على سطح الأرض.

ولو نقصت المسافة بين الأرض والشمس إلى نصف ما هي عليه الآن، لبلغت الحرارة التي تتلّقاها الأرض أربعة أمثال، وتضاعفت سرعتها المدارية حول الشمس، ولآلت الفصول إلى نصف طولها الحالي إذا كانت هناك فصول، ولصارت الحياة على سطح الأرض غير ممكنة.

وعلى ذلك فإنّ الأرض بحجمها وبُعدها الحاليين عن الشمس، وسرعتها في مدارها، تهيّء للإنسان أسباب الحياة والاستمتاع بها في صورها المادّية والفكرية والروحيّة على النحو الذي نشاهده اليوم في حياتنا.

فإذا لم تكن الحياة قد نشأت بحكمة وتصميم سابق، فلا بدّ أن تكون قد نشأت عن طريق المصادفة، فما هي تلك المصادفة إذن حتى نتدبّرها، ونرى كيف تخلُق الحياة؟.

ولننظر الآن إلى الذي تستطيع أن تلعبه المصادفة في نشأة الحياة:

إنّ البروتينات من المركّبات الأساسية في جميع الخلايا الحيّة، وهي تتكوّن من خمسة عناصر هي: «الكربون ــ والأيدروجين ــ والنيتروجين ــ والأوكسجين ــ والكبريت». ويبلغ عدد الذّرّات في الجزيء البروتيني الواحد أربعين ألف ذرّة.

ولمّا كان عدد العناصر الكيمائية في الطبيعة اثنين وتسعين عنصراً موزعة كلّها توزيعاً عشوائيّاً، فإنّ احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكوّن جُزيئاً من جزيئات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كميّة المادة الّتي ينبغي أن تخلط خلطاً مستمرّاً لكي يؤلّف هذا الجُزَيء، ثمّ لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرّات الجزيء الواحد.

ولقد قام العالم الرياضي السويسري «تشارلز يوجين» بحساب هذه العوامل جميعاً، فوجد أنّ الفرصة لا تتهيّأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتينيّ واحد إلّا بنسبة واحد إلى عشرة قوة (١٦٠) أي: بنسبة واحد إلى رقم عشرة مضروباً في نفسه (١٦٠) مرّة، وهو رقم لا يمكن النّطق به أو التعبير عنه بكلمات. وينبغي أن تكون كميّة المادّة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة، حتى ينتُج جزيءٌ واحد، أكثر مما يتّسع له كلّ هذا الكون بملايين المرّات. ويتطلّب تكوين هذا الجُزيء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لا تحصىٰ من السنوات قدّرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها (٢٤٣) مرّة من السنين...

وعلى ذلك فإنه من المحال عقلاً أن تتآلف كلّ هذه المصادفات لكي تبنيَ جُزَيْئاً بُروتينيّاً واحداً.

ولكن البروتينات ليست إلّا موادّ كيميائية عديمة الحياة، ولا تدبّ فيها الحياة إلّا عندما يحلُّ فيها ذلك السرّ العجيب الذي لا ندري من كنهه شيئاً.

إنّه العقل اللانهائي[1]، وهو الله وحده، الذي استطاع أن يدرك ببالغ حكمته أنّ مثل ذلك الجزيء البروتيني يصلح لأن يكون مستقرّاً للحياة، فبناه وصوره وأغدق عليه سرّ الحياة».

---

(١) أنقل مثل هذه التعبيرات من كلام غير المسلمين كما وردت في أقوالهم، ونحن في تعبيراتنا لا نسمح باستعمال إلّا ما يجوز لنا في الإسلام استعماله. فيرجى ملاحظة ذلك في كلّ ما أنقل من أقوال.

٧ ـ بعض ما ذكره «فرانك ألن» حول الأرض والشمس وكونهما موضوعين بحكمة وقصد وعن تعادل العناصر، قد سبق إلى ذكره الإمام الرازي في تفسيره.

فقد جاء فيه عند تفسيره[١] قول الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

ما يلي:

«ومن الكلمات المشهورة قولهم: وبالعدل قامت السماوات والأرض، ومعناه أنّ مقادير العناصر لو لم تكن متعادلة متكافئة بل كان بعضها أزيد بحسب الكميّة وبحسب الكيفيّة من الآخر، لاستولى الغالب على المغلوب، ووهى المغلوب، وتنقلب الطبائع كلّها إلى طبيعة الجرم الغالب، ولو كان بُعْدُ الشمس من الأرض أقلّ مما هو الآن لعظمت السخونة في هذا العالم، واحترق كلُّ ما في هذا العالم، ولو كان بُعْدُها أزيد مما هو الآن لاستولى البرد والجمود على هذا العالم، وكذا القول في مقادير حركات الكواكب ومراتب سرعتها وبطئها، فإنّ الواحد منها لو كان أزيد مما هو الآن، أو كان أنقص ممّا هو الآن، لاختلّت مصالح هذا العالم، فظهر بهذا السبب الذي ذكرناه صدق قولهم: وبالعدل قامت السّماوات والأرض» انتهى.

أقول: فالاستناد إلى فرضية المصادفة في تعليل وجود الكائنات المتقنة المنظمة لونٌ من التخريف الفكري القائم على إرادة التضليل فحسب، وليس مذهباً فكريّاً تحيط به شبهات تزيّنه في عقول القائلين به.

٨ ـ وكتب الدكتور «جون كليفلا ند كوثران» من علماء الكيمياء والرياضيات مقالاً بعنوان: «النتيجة الحتمية»[٢] جاء فيه ما يلي:

---

(١) تفسير الرازي الجزء (٢٠) الصفحة (١٠٣) طبع المطبعة البهيّة المصرية ١٣٥٧هـ.

(٢) من كتاب «الله يتجلّى في عصر العلم».

● بدأ مقالته بكلمة قالها «لورد كيلفي» من علماء الطبيعة البارزين في العالم: «إذا فكّرت تفكيراً عميقاً فإنّ العلوم سوف تضطركَ إلى الاعتقاد بوجود الله».

● ثم شرع في مقالته وهي تتلخّص بما يلي:

أولاً: تنقسم العوالم إلى ثلاثة أقسام:

(أ) العالم المادي.

(ب) العالم الفكري.

(ج) العالم الروحي.

ثانياً: إنّ التطوّرات الهامة التي تمت في جميع العلوم الطبيعية خلال السنين المئة الأخيرة، بما في ذلك الكيمياء، قد حدثت بسبب استخدام الطريقة العلمية في دراسة المادّة والطاقة.

وعند استخدام هذه الطريقة العلميّة تُبذلُ كُلُّ الجهود للتخلّص من كلّ احتمالٍ من الاحتمالات الممكنة التي تجعل النتيجة التي نصل إليها راجعة إلى محض المصادفة.

ثالثاً: أسهب عن طريق الكيمياء في الأمثلة العلميّة التي تثبت أن سلوك أيّ جزء من أجزاء المادّة مهما صغر لا يمكن أن يكون سلوكاً عشوائيّاً ناجماً عن المصادفة، بل كلّ شيء يسير وفق قانون يهيمن على سلوكه.

ثم قال:

«وعلى ذلك فإنّ الكون يسوده النظام وليس الفوضىٰ، وتحكمه القوانين وليس المصادفة أو التخبّط.

فهل يتصوّر عاقل أو يفكر أو يعتقد أنّ المادّة المجّردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة؟ أو أنها هي التي أوجدت هذا النظام وتلك القوانين ثمّ فرضته على نفسها؟.

لا شكّ أنّ الجواب سوف يكون سلبيّاً. بل إنّ المادة حينما تتحوّل إلى طاقة، أو تتحوّل الطاقة إلى مادّة، فإنّ كلّ ذلك يتمّ طبقاً لقوانين معينة، والمادّة

الناتجة تخضع للقوانين نفسها التي تخضع لها المادّة المعروفة التي وُجدت قبلها.

وتدلّنا الكيمياء على أنّ بعض الموادّ في سبيل الزوال أو الفناء، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة، والآخر بسرعة ضئيلة، وعلى ذلك فإنّ المادّة ليست أبديّةً، ومعنى ذلك أيضاً أنّها ليست أزلية، إذْ أنّ لها بداية.

وتدلّ الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أنّ بداية المادّة لم تكن بطيئة أو تدريجيّـة، بل وُجدت بصورة فجائية، وتستطيع العلوم أن تحدّد لنا الوقت الذي نشأت فيه هذه الموادّ. وعلى ذلك فإنّ هذا العالم المادّي لا بدّ أن يكون مخلوقاً. وهو منذ أن خلق يخضع لقوانين وسنن كونية محدّدة ليس لعنصر المصادفة بينها مكان.

فإذا كان هذا العالم المادّي عاجزاً عن أن يخلق نفسه، أو يُحدّد القوانين التي يخضع لها، فلا بدّ أن يكون الخلق قد تمّ بقدرة كائن غير مادّي.

وتدلُّ الشواهد جميعاً على أنّ هذا الخالق لا بدّ أن يكون متّصفاً بالعقل والحكمة، إلّا أنّ العقل لا يستطيع أن يعمل في العالم المادّي ــ كما في ممارسة الطبّ والعلاج السيكولوجي ــ دُون أن يكون هنالك إرادة، ولا بدّ لمن يتصف بالإرادة أن يكون موجوداً وجوداً ذاتياً.

وعلى ذلك فإنّ النتيجة المنطقيّة الحتميّة التي يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على أنّ لهذا الكون خالقاً فحسب، بل لا بدّ أن يكون هذا الخالق حكيماً عليماً قادراً على كلّ شيء، حتّى يستطيع أن يخلق هذا الكون، وينظّمه ويدبّره، ولا بدّ أن يكون هذا الخالق دائم الوجود تتجلّى آياته في كلّ مكان.

وعلى ذلك فـإنّه لا مفـرّ من التسليم بوجـود الله خالق هـذا الكون وموجّهه...».

هذا ما انتهى إليه هذا العالم الكيميائي الرياضي المنصف، وكذلك كل عالم باحث عن الحقيقة، مُتَتَبِّعٍ للمعرفة، مخلص للحقّ حيث كان، متجرّدٍ من

داء التّعصّب والهوى والكبر، بريء من داء الحماقة والرعونة، غير مستأجَرٍ للمؤسسات الإلحادية ذات المصالح الخاصة من نشر الإلحاد والكفر بالله.

٩ ــ وكتب الدكتور «أدوين فاست» في مقال له بعنوان: «نظرة إلى ما وراء القوانين الطبيعيّة»(١) جاء فيه:

إنّ جميع القوانين التي توصّلت إليها العلوم الحديثة ليست إلاّ وصفاً لما يحدث في الواقع، فهي لا تشتمل على بيان السبب الحقيقي المنطقي الذي يقتضي حدوث الظاهرة اقتضاءً عقليّاً منطقياً، فلا بدّ إذن من إثبات قوة مدبّرة عليمة حكيمة تهيمن على القوانين الطبيعيّة، وتجعلها أسباباً تقتضي حدوث آثارها.

فقال فيما كتب:

«إنّ جميع هذه القوانين الطبيعية التي نصفها ونستخدمُها ليست إلاّ مجرّد وصف لما يحدث أو ما يشاهد، فهي بذلك ليست تدبيراً أو إلزاماً، فليس الوصف في ذاته سبباً لحدوث ظاهرة من الظواهر، أو توضيحاً لأسباب حدوثها.

وعندما تحاول العلوم أن تفسّر لنا منشأ الكون، نجدها تبيّن لنا في ضوء ما لدينا من المعلومات عن الطبيعة النوويّة، وكيف تتفاعل الجزَيْئات الأساسية، لكي تكوّن لنا جميع العناصر المعروفة.

فجميع العناصر التي يتألف منها هذا الكون تبدأ ببروتونات لها خواصّ معيّنة، وقوّة جاذبة تجعلها تنضمّ بعضها إلى بعض.

أمّا كيف نشأت هذه البروتونات ذاتها، ولماذا كان لها هذه الصفات بالذّات، فإنّ ذلك ما لم تستطع أن تقدّم له العلوم شرحاً أو بياناً.

ومهما بالَغْنَا في تحليل الأشياء وردّها إلى أصولها الأولى، فلا بدّ أن نصل في نهاية المطاف إلى ضرورة وجود قوانين طبيعيّة تخضع لها ذرّات هذا الكون.

---

(١) من كتاب «الله يتجلى في عصر العلم».

ويُعدُّ ذلك في ذاته دليلاً على وجود ربّ قادر خالق مدبّر، هو الذي قدّر لكلٍّ ظاهرة من ظواهر هذا الكون أن تسير في طريقها المرسوم. وقد خلق الله الألكترونات والبروتونات والنيوترونات وجعل لها خواصّها المعيّنة، فرسم لها بذلك سلوكها وأقدارها.

وعندما تحاول عقولنا المحدودة أن ترتدّ إلى الوراء، وتبحث عن ساعة الصفر في تاريخ هذا الكون، نجدها تسلّم ضمناً بأنّ لهذا الكون بداية ولحظة معيّنة نشأت فيها الذّرّات الدقيقة التي تتألف منها مادّة هذا الكون. ولا بدّ أن تكون خواصّ هذه الْجزيْئات التي تحدّد سلوكها قد ظهرت معها في الوقت نفسه.

ومن المنطق السليم أن يكون السبب الأول الذي أوجد هذه الجزيْئَات هو الذي أودع فيها صفاتها التي تحدّد سلوكها. ولا بدّ أن نسلّم بأنّ قدرة الخالق وتدبيره وإحكامه تفوق قدرة وتدبير البشر جميعاً، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

وإنّ أذكى العلماء لا يستطيعون إلّا أن يعترفوا بأنّ الإنسان لا يزال حتى اليوم في مهد معرفته بأسرار هذا الكون وظواهره.

فإذا انتقلنا إلى العالم العضويّ فإننا نلاحظ أنّ سلوكه يزداد تعقيداً، وعلى ذلك فإن احتمال تفسير هذا السلوك على أساس المصادفة المحضة يتضاءل إلى حدّ النهاية، فالموادّ الأساسية التي تدخل في بناء الموادّ العضويّة هي: الأيدروجين، والأوكسجين، والكربون، مع كميّات قليلة من النيتروجين والعناصر الأخرى.

ولا بدّ أن تجتمع ملايين من هذه الذرّات حتى تتكوّن أبسط الكائنات الحيّة، فإذا نظرنا إلى الأنواع الأخرى التي هي أكبر حجماً وأشدّ تعقيداً، فإنّ احتمال تآلف ذرّاتها على أساس المصادفة المحضة يقلّ إلى درجة لا يتصوّرها العقل.

وإذا نظرنا إلى الكائنات الحيّة الراقية فإننا نرى أنّ من بينها ما لديه من

الذكاء ما يجعله قادراً على التخطيط والابتكار، والقيام بأعمال تقرب من حدّ الإعجاز، وتحاول أن تتغلّب على القوانين الطبيعيّة.

فإذا تصوّرنا أنّ كلّ ذلك يتمّ بمحض المصادفة التي تجعل الجزيئات تجتمع بصورة معيّنة لكي تكوّن ذرّات يتألف بعضها مع بعض، لكي تكوّن أجساماً تقوم بدورها بالتكاثر، وأداء سائر وظائف الحياة، ويكون لها عقل وتفكير، دون أن يكون وراء كلّ ذلك ربّ خالق مدبّر هو الذي خلق فصوّر فأبدع، فإنّ ذلك مما لا يقبله عقل، أو يتصوّره فكر.

وحتى إذا فعلنا ذلك فإننا نكون قد أخذنا بفرضٍ مستحيلٍ من الوجهة العلميّة، وطرحنا وراء ظهورنا فرضاً منطقيّاً بسيطاً، ألا وهو وجود الله الذي أنشأ هذا الكون، وبدأه بقدرته.

فالله هو المبدىء: كلماتٌ بسيطة، ولكنّها بساطة تتّسم بالجلال. إنّه جلال الحقّ وقدسيته».

١٠ ــ وكتب الدكتور «واين أولت» وهو مختص في الكيمياء الجيولوجية يقول(١):

«ولقد رفض كثيرٌ من المشتغلين بالعلوم فكرة ما وراء الطبيعة، أو ما فوقها، ومع ذلك فإنّ كثيراً ممّن رفضوا هذه الفكرة يتحدّثون في الوقت ذاته عن الظواهر الطبيعيّة التي لا يعلمون عن كنهها شيئاً.

وإنّ مجرّد تسمية هذه الظواهر طبيعيّة يدلُّ على أنّها ظواهر متكرّرة ولكنّ ذلك لا يعتبر شرحاً لهذه الظواهر. . . .

وقد نستطيع في ضوء خبرتنا العلميّة أن نتقدّم بالسؤال التالي:

هل تمّ اختراع جهاز الرادار نتيجةً للمصادفة، أم عن طريق التصميم والاختراع؟.

---

(١) من كتاب «الله يتجلّى في عصر العلم»

ثمّ هل تمَّ تكوين جهاز الرادار الموجود بجسم الوطواط، والذي لا يحتاج من الحيوان إلى انتباه، ولا يتطلّب إصلاحاً، والذي يستطيع أن يورّثه لذرّيته عبر الأجيال، عن طريق المصادفة أم عن طريق التصميم والإبداع؟.

إنّ الخبرة العلميّة للإنسان تقوم على التصميم، وعلى إدراك الأسباب، وعلى ذلك فإنّ المشتغل بالعلوم هو أوّل من يجب عليه التسليم منطقيّاً بوجود عقل مبدعٍ لا حدود لعلمه أو قدرته، موجود في كلّ مكان، يحيط بمخلوقاته برعايته، سواء في ذلك الكون المتّسِع، أو كلّ ذرّة أو جزئية من جزئيّات هذا الكون اللانهائية في تفاصيلها الدقيقة.

هنالك ظواهر أخرى عديدة غيرُ الّتي أشرنا إليها مما لا يمكن تفسيره أو إدراكُ معناه إلّا إذا سلّمنا بوجود الله. . .

ومن ذلك التشابه الذي نشاهده بين جميع الكائنات الحيّة التي نعرفها، مع اتصاف كلّ فردٍ، بل كلّ بنانٍ، بل كلّ ورقةٍ من أوراق الأشجار، وقطرة من قطرات الماء، بصفات خاصّة تميّزها عن غيرها.

وهنالك أيضاً تلك الهوّة العميقة التي تفصل بين الإنسان وسائر الكائنات الأرضيّة الأخرى، وتجعله ممتازاً عليها بعقله ومهارته اليدويّة.

لقد ذكرنا أنّ الاعتقاد بوجود الله لا بدّ أن يقوم على الإيمان، وبيَّنّا أنّ هذا الإيمان ليس غريباً على الإنسان، وأنّ هنالك أنواعاً مختلفة من الإيمان، ونودّ أن نؤكّد هنا أنّ الإيمان الذي نقصده هو الإيمان البصير، وليس الإيمان الأعمى، أي: الإيمان الذي يقوم على العقل والتدبّر.

وقد آمن كثير من الناس بالله، فذاقوا حلاوة الإيمان في أنفسهم وفي قلوبهم، بل في العالم المادّيّ الذي تهتمّ العلوم بدراسته.

إنّ التطلّع نحو المعرفة، والتساؤل عن كيفيّة حدوث الأشياء ومسبّباتها، يعتبران من الصفات الهامة التي تتصف بها العقول البشرية الموهوبة، فإذا آمن

المشتغل بالعلوم بخالق هذا الكون فإنّ دراسته العلمية مهما كان اتجاهها سوف تزيده إيماناً بالله».

١١ ــ وكتب الدكتور «إيرفنج وليام نوبلوتش» أستاذ العلوم الطبيعيّة مقالاً بعنوان «المادِّيَّة وحدها لا تكفي»[١] جاء فيه العناصر التالية:

● نظر في أقوال الملحدين فلم يجد فيها شيئاً يعطي تفسيراً منطقيّاً صحيحاً لظاهرة هذا الوجود المتقن.

● ونظر في الأدلّة المادّية التي تعتمد عليها العلوم الإنسانية، فرأى أنّها أدلّة قاصرة لا توصل إلى معرفة كُنه الحقيقة، ولكنّها تفسّر بعض الظواهر بظواهر سببيّة من ورائها هي أيضاً بحاجة إلى تفسير.

● ونظر في المصادفة التي يُسْنَدُ إليها حدوث بعض الظواهر، فرأى أنّها لا تشتمل على تفسير منطقيّ يصحّ التسليم به، دون إرجاع الأمر إلى خالق مبدع.

● وبحث عن أوّليات الأشياء فرأى أنّها لا يمكن أن تُوجدَ بنفسها دون موجد، ورأى أنّها لا يمكن تفسيرها إلاّ على أساس الإيمان بالله الخالق.

● ونظر فيما تقدّمه العلوم من نظريّات، فرأى أنّ كثيراً منها لا يمكن قبوله إلاّ على أساس التسليم الاعتقاديّ، وهو نوعٌ من الإيمان الغيبيّ، فهي في هذا تلتقي مع الدين في عنصر الاعتماد على الإيمان بالغيب.

● ونظر فيما جاءت به الكتب المقدّسة الرّبّانيّة، فرأى أنّ الاكتشافات العلميّة قد أيّدت فعلاً كثيراً من النبوءات التي جاءت فيها.

بعد كلّ هذه النظرات أعلن إيمانه بوجود الله الرّب الخالق عزّ وجلّ.

فمما جاء في مقاله ما يلي:

«يميل بعض المشتغلين بالعلوم ــ في ظلّ ثقتهم الكبيرة بإمكانيّاتها ــ إلى

---

(١) من كتاب «الله يتجلى في عصر العلم».

الاعتقاد بأنّ العلوم قادرة على حلّ جميع المشكلات، فالحياة من وجهة نظرهم ليست إلاّ مجموعة من القوانين الطبيعيّة والكيميائيّة التي تعمل في مجال معين. . .

والوجود من وجهة نظرهم لا يهدف إلى غاية. . . وسوف ينتهي الأمر بعالمنا إلى الزّوال تبعاً لقوانين الديناميكا الحراريّة. . .».

وبعد أن نقل كلاماً للملحد الإنكليزي «برتراند راسل» لخّص فيه النظرة المادّية المتطرّفة قال:

«ولكنّ العلماء ليسوا جميعاً ممّن يعتقدون بقدرة العلوم على كلّ شيء، حتى تستطيع أن تجد تفسيراً لكلّ شيء، فالعلوم لا تستطيع أن تحلّل الحقّ والجمال والسعادة، كما أنّها عاجزة عن أن تجد تفسيراً لظاهرة الحياة، أو وسيلة لإدراك غايتها. بل إنّ العلوم أشدّ عجزاً عن أن تثبت عدم وجود الله تعالى.

إنّ العلوم مهتمة بتحسين نظريّاتها، وهي تحاول أن تكشف عن كُنه الحقيقة، ولكنّها كلّما اقتربت من هـٰذين الهدفين زاد بعدها عنهما.

إنّ فكرتنا عن هذا الكون قائمة على أساس حواسّنا القاصرة، وعلى استخدام ما لدينا من الأدوات غير الدقيقة نسبيّاً. . .».

ثم استشهد بقولٍ للعالم الطبيعيّ والكاتب اللامع «أوليفر وندل» إذ يقول في هذه المناسبة: «كلّما تقدّمت العلوم ضاقت بينها وبين الدّين شقة الخلاف، فالفهم الحقيقيّ للعلوم يدعو إلى زيادة الإيمان بالله».

ثم ذكر أنّ العلوم لا تستطيع أن تفسّر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية في صغرها، والتي لا يحصيها عدّ، وهي التي تتكوّن منها جميع الموادّ، كما لا تستطيع العلوم أن تفسّر لنا بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها كيف تتجمّع هذه الدقائق الصغيرة لكي تكوّن الحياة.

وذكر أنّ النظريّة التي تدّعي أنّ جميع صور الحياة الراقية قد وصلت إلى حالتها من الرقيّ بسبب حدوث بعض الطفرات العشوائيّة والتجمّعات والهجائن

نظريّة لا يمكن الأخذ بها إلّا عن طريق التسليم، فهي لا تقوم على أساس المنطق والإقناع. ثمّ قارن بين الأخذ بذلك وبين الأخذ بما جاء به الدّين فرأى أنّهما يقومان على أساس مشترك هو الإيمان بالغيب... ثمّ نبّه على أنّ الإيمان بالدين تدعمه الاكتشافات العلميّة.

وذكر أنّ العلوم بطبيعتها المادّيّة عاجزة عن أن تبحث عن الله بطُرُقِها المادّيّة، أو أن تدرك كنه ذاته تعالى، ولكنّ ملاحظة عجائب هذا الكون قد دعت كثيراً من علماء الفلك الأمناء إلى الاعتقاد بأنّه لا بدّ أن يكون لهذا الكون باتّساعه الفسيح ونظامه المعجز مدبّر لا نراه، ولا نستطيع أن ندرك كنه.

ثم أعلن إيمانه بوجود الله عزّ وجلّ وقال:

«إنني أعتقد بوجوده سبحانه، لأنني لا أستطيع أن أتصوّر أنّ المصادفة وحدها تستطيع أن تفسّر لنا ظهور الألكترونات والبروتونات الأولى، أو الذرّات الأولى، أو الأحماض الأمينيّة الأولى، أو البروتوبلازم الأول، أو البذرة الأولى، أو العقل الأول.

إنني أعتقد بوجود الله، لأنّ وجوده القدسيّ هو التفسير المنطقيّ الوحيد لكلّ ما يحيط بنا من ظواهر هذا الكون التي نشاهدها».

* * *

(٦)
تزوير الملحدين بذكر أسماء كبار العلماء الكونيين للإيهام بأنهم غير مؤمنين

يقول «صادق جلال العظم» الناطق باسم ملاحدة هذا العصر من أبناء المسلمين، في كتابه «نقد الفكر الديني»:

«جليٌّ أنّ هذه النظرة الإسلامية للكون هي نظرة غائيّة، تعتمد في تفسيرها لطبيعة الكون على العلل الغائية، والأهداف الساميَة، وعلى مفاهيم أخلاقية مثل: الحقّ والعدل.

هل تنسجم هذه النظرة الغائيّة إلى الكون والحياة مع النظرة العلمية التي تسود العالم المعاصر وثقافته؟ لو رجعنا إلى التفسيرات العلميّة للكون من «نيوتن» إلى «آينشتاين» هل نجد في صلبها مقولات مثل الأهداف السامية، أو الحقّ والعدل، أو الروح والجمال والخالق؟ هل نجد لهذه المفاهيم الأخلاقية الدينيّة أيّ ذكر في النظريّة النسبيّة أو في ميكانيكا الكموم مثلاً؟».

هذا ما يقوله ناطق من دعاة الإلحاد المعاصرين وهو من ذراري الأجداد المسلمين للإيهام بأنّ «نيوتن» ومن جاء بعده من العلماء الكونيين، إلى «آينشتاين» صاحب النظرية النسبيّة الشهيرة ملحدون غير مؤمنين بالله.

فلنرجع إلى أقوال «آينشتاين» في حديثه عن نفسه، وعن «نيوتن» وغيره من كبار العلماء، روّاد النهضة العلمية الماديّة الحديثة. يقول «آينشتاين»:

«إنّ أجمل هزّة نفسيّة نشعر بها هي تلك الهزّة التي تعرونا عندما نقف على عتبة الخفاء من باب الغيب.

إنّها النواة لمعرفة الحقّ في كلّ فنّ وكلّ علم. وإنّه لميّتٌ ذلك الذي يكون غريباً عن هذا الشعور، فيعيش مستغلقاً رعباً، من غير أن تجد روعةُ التعجّبِ إلى نفسه سبيلاً.

إنّ جوهر الشعور الدينيّ في صميمه هو أن نعلم بأنّ ذلك الذي لا سبيل إلى معرفة كُنْه ذاتِهِ موجودٌ حقّاً، ويتجلّى بأسمىٰ آيات الحكمة، وأبهىٰ أنوار الجمال التي لا تستطيع ملكاتنا العقليّة المسكينة أن تدرك منها إلاّ صُوَرها الجِبِليّة في السطح، دون الدقائق في الأعماق...

أيّ إيمان بالحكمة التي بني عليها هذا الكون كان إيمان «كيلر» و «نيوتن»؟!.

وأيّ شوقٍ لَهَّاب كان شوقهما لأن يريا أضأل شعاع من نور العقل المتجلّي في هذا الكون؟!...

إنّني لا أستطيع أن أتصوّر عالماً حقّاً لا يُدْرك أنّ المبادىء الصحيحة لعالم الوجود مبنيّة على حكمة تجعلها مفهومة عند العقل.

إنّ العلم بلا إيمان ليمشي مشية الأعرج، وإنّ الإيمان بلا علم ليتلمّس تلمُّس الأعمى...

إنّ أصحاب العبقريّات العلميّة في جميع العصور قد عرفوا بهذا النوع من الشعور الديني الذي لا ينتمي إلى نحلة، ولا يتمثّل الله في أمثلة بشريّة.

إنني لأرى أنّ أهمّ وظيفة من وظائف الفنّ والعلم هي أن يوقظا هذا الشعور، وأن يستبقياه حيّاً في الذين تهيؤوا له...».

هذه أقوال من أقوال «آينشتاين» يعلن فيها عميق إيمانه، وإيمان كبار العلماء والعباقرة بالله الخالق وحكمته العظيمة.

ولكن يحلو للملحدين أن يخدعوا الأجيال بذكر أسماء كبار علماء الكون، وواضعي كبريات النظريّات العلميّة، ضمن مقالاتهم الإلحاديّة، للإيهام بأنّ

هؤلاء العلماء لم يكونوا من المؤمنين بالله، وللإيهام بأنّ نظريّاتهم العلميّة تدعم قضيّة الإلحاد، مع أنّ إنكار وجوده فكرة وهميّة لا سند لها مطلقاً، لا من دلائل العقل، ولا من دلائل العلم التجريبـيّ الصحيح.

ويستغلّ بعضُ المضلِّلين النظريّة النسبيّة التي فكّر بها «آينشتاين» وعرضها على العلماء الطبيعيين، أسوأ استغلال، ويُحمِّلونها ما لا تحمل من آراء وأفكار ومبادىء، وينقلونها إلى غير موضعها، وقد يغيّرون مفاهيم البدهيات العقليّة، والأخلاقية والقانونيّة بحيلة الاعتماد عليها، مع أنّ صاحبها يخالفهم في كلّ ذلك.

إنّ النظريّة النسبيّة تنقل الشعور الإنساني من إدراكاته الذاتية إلى الحقائق الموضوعيّة العقلية.

إنّ «آينشتاين» قد حقّق بهدي نظريّته أنّ ما نسمّيه خطّاً مستقيماً قد لا يكون كذلك على سطح الأرض، باعتبار أنّ سطحها محدّب.

ونبَّه أيضاً على وجوب إدخال المكان والزمان والحركة في حسابنا لدى إدراكنا لكثير من الظواهر، حتّى لا نحكم حُكماً عامّاً خاطئاً، متأثرين فيه بمشاعرنا الخاصة، التي قد تكون مقيّدة في حدود مكانٍ معيّن، أو سرعة معيّنة.

فنحن نطلق على ما علا رؤوسنا ونحن قائمون هو فوق، ونطلق على ما كان تحت أرجلنا هو تحت، وننسىٰ أنه فوق بالنسبة إلينا فقط في وضعنا الحالي، وقد لا يكون هو فوقاً على سبيل الإطلاق، إذْ هو تحت بالنسبة إلى سكّان الأرض من الجهة الثانية.

وهكذا كثير من الأمور النسبية.

أمّا البدهيات العقلية فهي الأساس الذي يعتمد عليه «آينشتان» وغيره، ومنها السببية، واستحالة التناقض، ومنها ضرورة وجود الرّب الخالق لهذا الكون.

أمّا تتمّة الردّ على زيوف «صادق جلال العظم» فموجودة في كتابـي: «صراع مع الملاحدة حتى العظم».



(٧)
إنكار الملحدين للروح والنفس

يقوم مذهب الملحدين على أنّ الحياة ظاهرةٌ مادّية فقط، وأنّه متى انحلّ الجسد المادّي الذي ظهرت فيه الحياة عن نظامه، لم يبق أثر لروح ولا لنفس.

وليس لهم دليل على هذا غير مجرّد الادّعاء، وما كان الادّعاء في يوم من الأيّام دليلاً ولو عند أكثر المجموعات البشرية بدائيّة وتخلّفاً، أمّا البحوث النفسيّة ففيها ما ينقض مذهبهم هذا.

فلقد أثبتت الدراسات العلميّة النفسيّة حول الإنسان، أنّ خلايا جسده المادّي تتجدّد باستمرار، وأنّ هذا الجسد المادّيّ هو بمثابة نهر جارٍ خاضع لقانون التغيّر المستمرّ، خلايا تتلف، وغذاء يتحوّل إلى خلايا جديدة تحلّ محلّ الخلايا التالفة، وأنّه يأتي على جسم الإنسان في مدى كلّ عشر سنوات تجدّد كامل لكلّ خلايا جسمه، باستثناء خلايا مُخّه.

أي: إنّ الجسد الأوّل يفنىٰ ويأتي بدله جسد جديد، ولكن الإنسان لا يشعر بهذا التغيير، ولا يتأثر كيانه الإنسانيُّ به، بل يبقى علمه، وذاكرته، وعاداته، ومهاراته الجسدية، وحبُّه وبغضه وسائر عواطفه كما كانت.

فلو كان الإنسان مجرّد مظهر تفاعلات مادّية صرف، لكان بفناء جسده الأول ــ باستثناء خلايا مخّه ــ يجب أن تفنى معه المهارات والخبرات والعواطف وكلُّ المكتسبات التي اكتسبها ما في من جسده. لكنّ هذا لا يحدث، وهذا يدلّ منطقياً على أنّ شيئاً روحيّاً غير الجسد المادّي يظلّ مستمرّاً يحمل الخصائص

الإنسانية العليا. ولولاه لما استطاع الإنسان المحافظة على مكتسباته السابقة، بعد فناء جسده السابق ـ باستثناء خلايا مخّه ـ فهو أقرب الاحتمالات للتصوّر وأقواها.

ومن هذا يتبيّن لنا أن ظاهرة الحياة لا تفسّر إلّا بالحقيقة التي تقرّرها المفاهيم الدينيّة الرّبّانية، بالروح التي هي من نفخ الله، وهذه الروح تبقى بعد فناء الجسد، وتبقى بعد الموت، لأنّ الموت إنما هو انفصال كامل للروح عن الجسد، وهو يشبه النوم في كثير من الوجوه، وقد كشفت البحوث العلميّة الحديثة هذه الحقيقة القرآنية.

جاء في كتاب «الإسلام يتحدّى»[1]:

أثبتت البحوث الروحيّة الحياة بعد الموت على المستوى التجريبي والمعملي. إنّ الأمر الذي يدفعنا إلى إبداء مزيد من الإعجاب بهذه البحوث هو أنّها لا تثبت بقاء محضاً لروح ما، بل إنّها تثبت أيضاً بقاء الشخصيّات التي كنّا نعرفها بذاتها قبل أن تموت!!.

إنّ هناك خصائص كثيرة يتمتّع بها الإنسان من قديم الأزمان، ولكنّا لم نُلق الضوء عليها إلّا حديثاً، ومن هذه الخصائص «الرؤيا» التي تُعدُّ من أقدم مميّزات الجنس البشري، والحقائق المثيرة التي كشفها علماء النفس عن هذه الميزة لم يكن قدماؤنا على علم بها.

وهناك مظاهر أخرى درسناها أخيراً، وأجرينا بحوثاً وإحصاءات في مختلف أنحاء العالم حولها، وجاءت البحوث بنتائج غايةٍ في الأهمية.

ومن هذه البحوث ما نسميّه «بالبحوث الروحية» وهي فرع من علم النفس الحديث، وهدفها محاولة الكشف عن المميّزات الإنسانية غير العادية. وقد أقيم أوّل معهد لإجراء هذا النمط من البحوث عام «١٨٨٢م» في إنكلترا، وبدأ علماء هذا المعهد عملهم سنة «١٨٨٩م» بعد أن قاموا بمسحٍ واسع النطاق

---

(١) للمفكر الإسلامي: «وحيد الدين خان».

على سبعة عشر ألفاً من المواطنين، ولا يزال هذا المعهد موجوداً باسم «جمعيّة البحوث الروحيّة». وقد انتشرت الآن معاهد كثيرة في مختلف بلدان العالم، وأثبتت هذه المعاهد ببحوثها وتجاربها الواسعة النّطاق أنّ الشخصيّة الإنسانيّة تواصل بقاءها بعد فناء الجسد المادّي في صورة غريبة...

وقد ألقى البروفسور «دوكاس» وهو أستاذ الفلسفة بجامعة براون، ضوءاً على الجوانب النفسيّة والفلسفيّة، في مسألة الحياة بعد الموت، في الباب السابع عشر من كتابه، والدكتور «دوكاس» لا يؤمن بالحياة بعد الموت عقيدةً دينيّة، وإنّما وجد ـ أثناء بحوثه ـ شواهد كثيرة اضطّر على أثرها أن يؤمن بالحياة الآخرة مجرّدة عن قضايا الدين، وهو يكتب في آخر الباب السابع عشر من كتابه قائلاً:

«لقد قام رهط من أذكى علمائنا وأكثرهم خبرة بمطالعة الشهادات المتعلقة بالمسألة، وفحصوها بنظرة نقد ثاقبة، وقد توصّلوا آخر الأمر إلى أنّ هناك شواهد كثيرة تجعل فكرة بقاء الروح نظرية معقولة، وممكنة الحدوث... وهم يرون أنّه لا يمكن تفسير تلك الشواهد إلّا على هذا النحو... ومن هؤلاء الكبار الذين قاموا بهذه البحوث نستطيع أن نذكر الأساتذة: «ألفريد راسل واليس» و«السير وليام كرولس» و«ف. و. هـ. مايرز» و«سيزار لومبرازو» و«كميل فلاماريون» و«السير أوليفرلدج» والدكتور «ريتشارد هوجسن» والمستر «هنري سيدويك» والبروفيسور «هيسلوب».

ويستطرد الدكتور «دوكاس» قائلاً:

«ويتضح من هذا أنّ عقيدة بقاء الحياة بعد الموت التي يؤمن بها الكثيرون منّا عقيدة دينيّة ليس من الممكن أن تكون واقعاً فحسب، وإنّما لعلّها هي الوحيدة من عقائد الدين الكثيرة التي يمكن إثباتها بالدليل التجريبي، ولو صحّ هذا فمن الممكن أيضاً أن نجد معلومات قطعيّة في هذا الموضوع» انتهى.

وقد أعلن الدكتور «راين»:

«أنّه ثبت من أبحاثه في المعامل: أنّ في الجسم البشريّ روحاً أو جسماً غير منظور».

فهذه البحوث الروحية تنقض دعوى الملحدين المادّيين من أساسها، فما أثبته العلم من وجود الروح، ومن أنّ الحياة بعد الموت قضيّة مؤكّدة أو مرجّحة، ينقض نظرتهم القائمة على أن الحياة إنما هي مظهر لتركيب المادّة بصورة خاصة، ومتى انحلّ هذا التركيب لم يبق أثر للحياة مطلقاً. بينما يقرّر الدين أنّ الحياة تتكوّن من الروح التي تنفخ في الأجساد المادّية، فتكون حيّةً بهبة الله تعالى لها سرّ الحياة، وهذا ما بدأت الدراسات العلمية تعترف به.

ولكن العناد القائم على تأليه الهوى، والرغبة في الفجور، والتمرّد الأحمق على سلطان الخالق في كونه، هو الذي يُعمي بصائر الملحدين عن الحقّ، ويحجبهم عن رؤية سبيل الهداية، ويُزيّن في أفكارهم ونفوسهم أوهامهم التي ينسجونها بتخيّلاتهم الكاذبات، ويُزيّن لهم سوء أعمالهم، ويحدّ أنظارهم في دائرة شهواتهم ولذّاتهم ومتاع الحياة الدنيا، فهم في ضلالهم يعمهون، وفي ظلماتهم يتخبطون، ويجحدون النور الذي لا يريدون أن يفتحوا أعينهم لرؤيته، وإذا رأوه أعرضوا عنه وهم مستكبرون.

● وقد بينت لنا النّصوص القرآنية أنّ جسد آدم المادّيّ لم تدبّ فيه الحياة حتى نفخ الله عزّ وجل فيه من روحه.

فقال الله عزّ وجل في سورة (الحجر ١٥):

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

من صلصال: الصلصال هو الطين الحرّ إذا خلط برمل ونحوه، ثم ترك حتى جف، فهو يصلصل، أي يعطي صوتاً يشبه صوت: صَلْ. صَلْ. صَلْ.

من حمأ مسنون: الحمأ: الطين الأسود. والمسنون: المتغيّر المنتن.

والْجَانّ: هو أبو الجنّ.

من نارِ السَّمُوم: السَّموم: الريح الحارّة.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (ص ٣٨):

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

ولا بدّ أن نلاحظ أنّ مرحلة الطين سابقة لمرحلة الصلصال، وباستطاعتنا أن نفهم أنّ الله عزّ وجل خاطب الملائكة بخلقه للبشر، لّما كان آدم في مرحلة الطين، ثم خاطبهم بذلك أيضاً لّما كان آدم في مرحلة الصلصال المسنون.

● وبينت لنا النصوص القرآنية أنّ كلّ إنسان في السلالة البشرية إنّما تتم حياته الإنسانيّة حينما تُنفخ الرّوحُ في جسده وهو في بطن أمّه.

فقال الله عزّ وجلّ في سورة (السجدة ٣٢):

﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

● وحين أراد الله عزّ وجل أن يخلق عيسى عليه السلام في رحم مريم نفخ فيها من روحه.

ـ قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

● وقرّر القرآن أنّ ظاهرة الموت شبيهة في انفصال علاقة الروح بالجسد بظاهرة النوم.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الزُّمر ٣٩):

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

* * *

(٨)
ادّعاء ملاحدة التحليل النفسي

ليس كلّ أنصار مدرسة التحليل النفسي ملحدين، لكنّ الملحدين منهم يتذرّعون بادّعاء أنّ قضيّة الإيمان بالله من نتاج اللاشعور الإنساني، وليست قضيَّةً ذات وجود في الواقع، ثم إنّ الفكر الإنساني يكتشفها، والمشاعر النفسيّة والوجدانيّة تُحسّ بها.

يتذرّعون بهذا الادعاء الذي لا دليل عليه مطلقاً، وهم في الوقت نفسه يتهرّبون من أدلّة الإيمان العقليّة وما تُقدّمه وسائل العلم التجريبـي الكثيرة، التي تطرح نفسها للمناظرة بقوة الاستدلال النظري، وبراهين الواقع.

إنّ مثل هذا الادّعاء افتراض توهميّ قد تُعلَّل به احتمالاً قضيّةٌ وهميَّةٌ خياليّة، لا تَمْلِك أدلّة عقلية تستند إلى أصول عقليّة، ولا أدلة تستند إلى وسائل العلم التجريبـي.

إنّ أيّ جاحد للحق يستطيع أن يدّعي أنّ الشمس الساطعة والقمر المنير، هما من نتاج اللاشعور الإنساني، باعتبار أنّ الإنسان يحلُم بالضياء، وتتعلّق آماله بجمال النور الهادىء، فيترسّب ذلك في عمق اللاّشعور منه، فيعتقد أنّ في كوننا هذا شمساً تمتدّ أشعتها على هذه الأرض فتمدّها بالحياة، وأنّ قمراً تمتدّ أنواره في اللّيالي المظلمة، فَيُلْبس سطح الأرض ثوباً من الجمال المتلألىء.

إنّ من يقول مثل هذا الكلام وهو جادّ فيه، يُعتبرُ في نظر العقلاء مريضاً في عقله، إلاّ أنّه ظريفٌ قد سبقت له دراسات نفسيّةٌ في مجال التحليل النفسيّ.

على أنّ التذرّع بادّعاء أنّ قضيّة الإيمان بالله من نتاج اللاشعور في الإنسان ليس فيه إبطال لقضيّة الإيمان، بل قد نستطيع أن نجعله دليلاً من الأدلة المؤيّدة لقضيّة الإيمان، فوجود الاتجاه إلى الإيمان في مستوى اللاّشعور بالإضافة إلى وجود أدلته العقلية في مستوى الشعور، دليلٌ على أنّ الفاطر الحكيم قد جعل في فطر النفوس مشاعر الإيمان به، كما جعل في فطر العقول الموازين الصحيحة التي تدركُ العقول بها أدلّة الإيمان به. وهذا نظير جميع الفطر السليمة التي فُطر عليها الإنسان، والتي توجّه كثيراً من سلوكه في حياته العاديّة، منذ نشأته حتى وصوله إلى مستوى الإدراك العاقل، والنضج الإرادي.



(٩)
الملاحدة والتفسير التاريخي لظـاهـرة الإيمـان بالله

أمّا الذين لهم عناية بتفسير كل ظاهرات الفكـر الإنساني، والسلوك الاجتماعي في الناس تفسيراً تاريخيّاً، وهم من الملاحدة، فعلى أقسام:

١ ـــ قسم منهم يفسرون ظاهرة الإيمان بالله ووجود الـدين في كلّ الشعوب الإنسانية، بأنها نتيجة أوضاع طبيعية قاسية وجد عليها الإنسان البدائي القديم، كالمخاوف التي كان يتعرّض لها، ولا يجد وسائل لدفعها وحماية نفسه منها، فلجأ إلى الغيبيات أو الماديّات القوية يصطنع منها آلهة، ويتقرّب إليها بالقرابين.

٢ ـــ وقسم منهم يفسرون ظاهرة وجود الدين في الناس، واتخاذ الآلهة، بأنها أثر تقديس الآباء والأجداد وسائر الأصول، والرموزِ التي تصطنع لهم، وزعيم هذا القسم اليهودي الفرنسي «دوركايم» إذ يجعل ما يُسمَّىٰ «الطوطم» هو الأساس في الشعوب البدائية لظهور الدين وعبادة الآلهة.

وقد كشفتُ بتوفيق الله زيوفه في كتابـي «كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة».

٣ ـــ وقسم منهم وهم الماركسيون يرجّحون التفسير التاريخيّ المستند إلى الظروف الاقتصادية، ويزعمون أنّ قضيّة الإيمان بالله، وقضايا الدين كلّه وكذلك قضايا القوانين، إنما هي حيل ابتكرها المستغلّون في النظام الاستعبادي، فالإقطاعي، فالرأسمالي، ويشتمون الدين بأنّه خرافة ابتكرت لدعم مصالح المستغلّين.

وملاحدة هذه الأقسام الثلاثة لا يملكون لأقوالهم غير الادّعاء المجرّد من أيّ دليل.

أمّا الافتراضات التي طرحوها فليس من شأنها في أصول البحث العلمي أن تكون لها قيمة ما، إلاّ في حالة عدم وجود أيّ دليل من الأدلة المثبتة لقضية الإيمان بالله، ومع ذلك تبقىٰ افتراضات تخيّليّة تنتظر أدلة تقويها.

أمّا أن يُلْجأ إليها في معارضة الأدلة العقلية ومنها ما هو برهاني، أو في معارضة ما تقدّمه العلوم التجريبيّة من أدلة، فأمر يسير في غير مَسِير العقل، ومناهج العلم التجريبي، ولا يلتفت إليه من لديه قدر ما من الفهم الصحيح السليم.

وقد يتخذ أصحاب هذه التفسيرات الفاسدة بعض الأمثلة التي قد يجدونها في المجتمعات ذرائع يعمّمون بسببها أحكامهم.

فقد توجد بعض أفكار أو بعض أعمال تلبس لدى أصحابها ثوب الدين، وهي من نتاج أسباب تاريخيّة أحاطت بالإنسان لدى بعض البيئات.

ولكن هذا لا يصح في منطق العقل، ومناهج العلم التجريبي أن يُعمَّم على كلّ ما يُسمَّى فكراً دينيّاً أو سلوكاً وعملاً دينيّاً، وهو من الحقائق الصحيحة الثابتة بيقين.

إنّ احتجاجاً مثل هذا الاحتجاج يقوم على مغالطة تعميميَّةٍ لا يلجأ إليها إلاّ المحرومون من أخلاقية البحث العلميّ الصحيح، والأمانة على المعرفة وأصولها القويمة، أو المخادعون المضلّلون، الذين يحاولون التلاعب بعقول الجهلة أو كُسُورٍ من ناشئة المثقفين.

إنّ قضية الإيمان بالله الرب الخالق وما يستتبع هذا الإيمان، هي من القضايا التي قامت عليها البراهين، والأدلة الصحيحة، وهذه لا تعارض بالفروض الوهمية، والاحتمالات التخيّلية، التي يذكرها دعاة المادية الجدلية في الكون والتاريخ[1].

* * *

---

(١) تتمة المناقشات المنطقية يجدها القارىء في كتاب «كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة» للمؤلف. مع شرح المادية الجدلية ونقضها. راجع فيه فصل «المادّية الجدلية في الكون والتاريخ» الصفحات من (٥٣٩ ــ ٥٥٤).

(١٠)
ملاحدة المادّية الجدليّة

خديعة «المادّية الجدلية»[١] التي هي الأساس الفكري لدى الماركسيين، في رفض أصحابها قضايا الإيمان الحقّ، أنّهم يزعمون التزامهم في معارفهم بالتجربة والمشاهدة، وهذا ما يسمّى لديهم «بطريقة الاستدلال العلمي».

فهم لذلك يزعمون أنهم يرفضون ما لا يخضع لطريقة التجربة والمشاهدة، وبما أنّ قضايا الإيمان بالله لا تخضع لذلك فهم يرفضونها.

لكنّ أصحاب مذهب «المادّية الجدلية» لا يخطون خطوة أو خطوتين في طريق المعرفة حتى يناقضوا مذهبهم، إذْ يلجؤون لدى تفسير الظواهر المشاهدة إلى صياغة قوانين استنتاجيّة غير مشاهدة، ولا يمكن إخضاع هذه المستنتجات للتجربة والمشاهدة بحسب القدرات الإنسانية، ومع ذلك فإنّهم يقرّرونها على أنّها قوانين علمية صحيحة.

إنّهم يضعون الفروض النظرية، ويفسّرون بها الظواهر الطبيعية، ويفسّرون بها سلوك المادة في حركاتها وتفاعلاتها، وهم لا يستطيعون أن يحدّدوا حقيقة هذه الفروض، ولا أن يكتشفوا ماهيّة ما أثبتوه منها بالمشاهدة، وفي كثير من الأحيان لا يستطيعون أن يكشفوا عن ماهيتها بالاستنتاج الفكريّ أيضاً، ومع ذلك فهم يثبتونها، إذ لا سبيل لهم غير ذلك.

---

(١) تتمة المناقشات المنطقية يجدها القارىء في كتاب «كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة» للمؤلف. مع شرح المادية الجدلية ونقضها.

ومعظم النظريات النفسية هي من قبيل الفروض الاستنتاجية. ولا تخضع هذه الفروض لأية وسيلة من وسائل التجربة والمشاهدة، جلُّ ما في الأمر إمكان إدراك ظواهرها وآثارها، لا إمكان إدراك حقيقتها.

أمثـــلة:

١ ـ في الكيمياء يقولون: إنّ كلّ جُزَيْءٍ صَغِيرٍ مِنْ جُزَيئاتِ الماء يحتوي على ذَرَّةٍ من الأوكسيجين، وذرّتين من الهيدروجين، مع أنّ أحداً من العلماء لا يستطيع أن يدّعي أنّه شاهد ذلك، ولو بأقوى المناظير المكبرة.

إنّ هذا الإثبات العلميّ قد تمّ عن طريق الاستنتاج، لا عن طريق المشاهدة.

٢ ـ في بحوث الذرة وصف الباحثون من العلماء تكوينها، ووضعوا لذلك خرائط أبانوا فيها سلوك جزيئاتها، وحركات ألكتروناتها، واستفادوا من النتائج فوائد جمّة.

وإنّ أحداً من العلماء لم يدّعِ ولا يستطيع أن يدّعي أنّه رأى ذرّة رؤيا مشاهدة بصرية، ولو استخدم لذلك أقوى المناظير المكبّرة.

ولكن قد تمّت إثباتاتُهم العلميّة في هذا المجال عن طريق الاستنتاج لا عن طريق المشاهدة.

٣ ـ لاحظ «نيوتن» أنّ الكتل المادّيّة تتقارب إلى بعضها بقوة مجهولة، فاستنتج من ذلك مبادىء الجاذبية وقوانينها المشهورة، مع أنّ «نيوتن» وجميع من جاءوا بعده من العلماء لم يستطيعوا أن يشاهدوا الجاذبيّة بأيّة وسيلة من الوسائل، ولا أن يعرفوا حقيقتها، وإنّما شاهدوا ظواهر اضطروا من أجلها أن يؤمنوا بقانون الجاذبية.

٤ ـ اختزان الطاقة في الأجسام أمر ثابت لدى العلماء، وله قوانينه المعروفة لديهم، مع أنّ أحداً لا يستطيع أن يشاهد الطاقة، ولا أن يزنها وزناً مادّياً مدركاً بالحسّ. وإنّما تمّ استنتاجها عن طريق آثارها وظواهرها.

٥ ـ التكوين النفسي ما كان منه في مستوى الشعور، وما كان منه تحت مستوى الشعور، أمورٌ استنتاجيَّةٌ غيبيّة، لم يـدرك البحث العلمي منها غـير ظواهرها.

٦ ـ الجينات الوراثية.

٧ ـ نظرياتهم وفرضياتهم حول بدء الخلق.

٨ ـ فرضياتهم وأقوالهم حول التطوّر ومذهب النشوء والارتقاء.

٩ ـ أقوالهم حول عمر الأرض، وأعمار الأشياء التي عليها استنتاجاً من الموادّ المشعّةِ فيها.

وهكذا فمن يطالع بتدبّر وإمعان ما في العلوم الطبيعيّة التي يؤمن بها الماديون الملاحدة، من آراء وأفكار، يتبيّن له أنّ أكثر ما فيها إنما هي تفسيرات للملاحظات، قائمات على استنتاجات نظرية، وهي في واقع حالها لم تخضع للتجربة المباشرة ولا للمشاهدة.

فما يسمّونه «حقائق علمية» قد أثبتها العلماء المادّيون عن طريق الاستنتاج الفكري، والحسابات الرياضية، ولم يشاهدوها مشاهدة حسيّة.

أفلا يشكّل كلّ هذا نقضاً واضحاً لمزاعم المادّية الجدلية، وسائر الماديّات الملحدة؟

إنّ الملاحدة المتمسكين بماديتهم يتظاهرون في جانب قضايا الإيمان الحقّ بالتزامهم في معارفهم بالتجربة والمشاهدة، وعدم قبولهم الغيبيات الاستنتاجيّة، ثم نراهم يسقطون في الأخذ بمئات القوانين العلمية الاستنتاجية، وبأمثالها من فروضٍ وهميّة لا أساس لها لـدى التحقيق العلمي، لا في مجال التجـربة والمشاهدة، ولا في مجال الاستنتاج النظريّ السليم.

ما هذه المفارقات العجيبة التي لا يخجل منهـا المادّيـون الملحدون من ملاحدة الحضارة الحديثة.

على أنّ وقوف المعرفة عند مجال التجربة والمشاهدة أمرٌ باطلٌ علميّاً، فجلُّ ما تستطيعهُ التجربة والمشاهدة إثبات مجرّبات ومشاهدات بعد إخضاعها لمنطق العقل، والتأكيد من سلامة المشاهدة من أخطاء الحسّ، التي كثيراً ما تقع بها الحواس، وهي لا تستطيع أن تنفي وجود أشياء لم تخضع للتجربة والمشاهدة، ولا تستطيع أن تنفي صحة قياس أشياء لم تشاهد على أشياء تمّت مشاهدتها، فالاستنتاج العقلي أحد وسائل المعرفة الكبرى.

من أقوال العلماء الطبيعيين في هذا:

١ ــ يقول الدكتور «الكسيس كيرل»[١]:

«إن الكون الرياضي شبكة عجيبة من القياسات والفروض، ولا تشتمل على شيء غير معادلة الرموز التي تحتوي على مجرّدات لا سبيل إلى تفسيرها».

٢ ــ ويقول البروفسور «أ. ي. ماندير»[٢]:

«إنّ الحقائق التي نعرفها مباشرة تُسمّى «الحقائق الْمُحَسَّة» بيد أنّ الحقائق التي توصّلنا إلى معرفتها لا تنحصر في الحقائق الْمُحَسَّة، فهناك حقائق أخرى كثيرة لم نتعرّف عليها مباشرة، ولكنّا عثرنا عليها على كلّ حال، ووسيلتنا في هذه السبيل هي الاستنباط، فهذا النوع من الحقائق هو مانسّميه «بالحقائق المستنبطة»».

والأهمّ هنا أن نفهم أنّه لا فرق بين الحقيقتين، وإنما الفرق هو في التسمية، من حيثُ تعرفنا على الأولى مباشرة، وعلى الثانية بالواسطة، والحقيقة دائماً هي الحقيقة، سواء عرفناها بالملاحظة أو بالاستنباط...

إنّ حقائق الكون لا تدرك الحواسّ منها غير القليل، فكيف يمكن أن نعرف شيئاً عن الكثير الآخر؟...

هناك وسيلة، وهي الاستنباط أو التعليل، وكلاهما طريق فكري، نبتدىء

---

(١) عن كتاب «الإسلام يتحدى» لوحيد الدين خان، ص ٦٣.
(٢) المرجع السابق، ص ٦٤.

به بوساطة حقائق معلومة، حتى ننتهي بنظريّة: أنّ الشيء الفلاني يوجد هنا ولم نشاهده مطلقاً...

إنّ المنهج التعليلي صحيح، لأنّ الكون نفسه عقليّ. إنّ الوقائع المحسَّة هي أجزاء من حقائق الكون، غير أنّ هذه الحقائق التي ندركها بالحواسّ قد تكون جزئيّة، وغير مرتبطة بالأخرى، فلو طالعناها فذَّةً مجرّدة عن أخواتها فقدت معناها مطلقاً. فأَمّا إذا درسناها في ضوء الحقائق الكثيرة مما علمناه مباشرة أو بلا مباشرة، فإننا سندرك حقيقتها...

إننا نرى الطير عندما يموت يقع على الأرض، ونعرف أن رفع الحجر على الظهر أصعب ويتطلّب جهداً، ونلاحظ أنّ القمر يدور في الفلك، ونعلم أنّ الصعود في الجبل أشق من النزول منه، ونلاحظ حقائق كثيرة كلّ يوم لا علاقة لإحداها بالأخرى ظاهراً، ثمّ نتعرّف على حقيقة استنباطيّة هي قانون الجاذبيّة.

وهنا ترتبط جميع هذه الحقائق، فنعرف للمرّة الأولى أنّها مترابطة ترابطاً كاملاً داخل النظام.

وكذلك الحال لو طالعنا الوقائع المحسّة مجرّدةً، فلن نجد بينها أيّ ترتيب، فهي متفرّقة، وغير مترابطة، ولكن حين نربط الوقائع المحسَّة بالحقائق الاستنباطيّة، فستخرج صورة منظمة للحقائق...

القول بأننا عرفنا الحقيقة يعني أننا عرفنا معناها، وبعبارة أخرى: أننا بحثنا عن وجود شيء، وعن أحواله، ففسّرناه. وأكثر عقائدنا تدخل في هذا النطاق، فهي في الحقيقة تفسير للملاحظة...

عندما نذكر «ملاحظة» فإننا نقصد شيئاً أكثر من المشاهدة الحسيّة المحضة، فمعناها «الملاحظة الحسية» و«التعرّف» بما يشمل جانب التفسير» اهـ.

فأين تقع مزاعم الملاحدة المادّيين؟!!.

□ □ □

الباب الثاني

أدِلّة كُلّيّة وَأمثِلَة مِنهَا

وشهادات العلماء فيها

وفيه خمسة عشر فصلاً:

الفصل الأول

نَظَرَاتُ الفَلَاسِفَةِ حَوْلَ قَضِيَّةِ الإِيمَانِ بِاللهِ

تدور نظرات الفلاسفة وتأمُّلاتهم في الكون وصفاتهِ وظاهرة الحياة وخصائصها فيه، وحاجة هذا الكون إلى خالق مدبّر حول ثلاثة محاور، كلّ محور منها يقدّم للعقل من البراهين ما يُلزمُه بضرورة التسليم بوجود الخالق العظيم، الذي له كلّ صفات الكمال، وهو منزّه عن كلّ صفات النقصان.

المحور الأول: محور صفة الحدوث التي تبرز للفكر لدى دراسة هذا الكون، والنظر في جملة صفاته وخصائصه، وتغيّراته والأعراض التي تطرأ عليه.

المحور الثاني: محور صفة الإمكان التي يلاحظها الفكر لدى النظر في أيّ جزء من أجزاء هذا الكون الكبير، وأن شيئاً منه ليس بأمر واجب عقلاً، بالنظر إلى ذاته، إذْ يجوّز العقل احتمال عدمه، أو كونه على صورةٍ أخرى غير الصورة التي هو عليها في واقع الأمر.

المحور الثالث: محور التنظيم والإتقان العامّ في كلّ شيءٍ من هذا الكون الكبير، مع اقتران ذلك بالحكمة التي يُلاحظُ فيها تحقيق غايات لا تكون إلّا نتيجة قصدٍ مرسوم، قد يكون مصحوباً بالعناية والرحمة.

وحول هذه المحاور الثلاثة دارت أفكار الفلاسفة المؤمنين بالله، سواءٌ أكانوا منتمين إلى أديان ربّانيّة جاء بها مرسلون، أو لم يكونوا منتمين إلى أيّ دين.

وصاغ كلُّ فريق منهم دليله أو أدلّته النظريّة التي قدَّمَ فيها ما يُلْزِمُ العقول

المنصفة الواعية بالاعتراف بوجود الخالق وعظيم صفاته، وكان لكلٍّ منهم أسلوبه وطريقته ومقدّماته النظريّة، وأوليّاتُه الفكريّة، وإن اختلف بعضهم عن بعض في طريقة العرض، أو في المصطلحات، أو في منطلقات التفكير.

ومن البدهيّ أنّ العقول الإنسانية لمّا كانت ذاتَ فطرةٍ واحدة ـ وإن تفاوتت مقاديرها بين الأفراد ـ فإنّها إذا أنصفت وسلكت منهجَها الفطريّ دون انحراف أو خلل، لا بدّ أن تتلاقى على حقٍّ واحد، مهما تعدّدت سبُلها، أو تعدّدت وسائلها، ومن هذه الحقائق الكبرى التي تتلاقى عليها العقول المنصفة السليمة حقيقة وجود الله عزّ وجل، خالق الكون ومدبّر أمره بقدرته وعلمه واختياره وبالغ حكمته.

أمّا محور صفة الحدوث البارزة في موجودات هذا الكون المشهود لنا، فقد جذب أنظار أكثر الفلاسفة والعلماء الباحثين المخلصين للحقيقة والوصول إليها، وقد توصّلوا إلى العلم بأنّ هذا الكون حادث، من ملاحظة التغيّر المستمرّ في كلّ جزء من أجزائه، ومن ملاحظة ظاهرة الحياة فيه، ذات البداية المعلومة.

وقد دلّهم الفكر السليم على أنّ كلّ متغير من صورة إلى صورة ومن وضع إلى وضع لا يمكن أن تكون له صورة أزلية قديمة، إذْ لو كانت هذه الصورة الأزلية موجودة لما جاز أن يطرأ عليها التغيّر، إذ ما هو أزليٌّ فهو واجب الوجود، وما هو واجب الوجود من ذاتٍ أو صورة لا يلحقه العدم ولا التغير بالبداهة العقلية، ولا يقبل العقل تسلسل التغيّرات إلى ما لا نهاية له في جانب الماضي، لأن هذا التسلسل محال.

ولمّا ثبت لديهم أنّ العالم حادث ظهر لهم أنّه بحاجة إلى مُحْدِثٍ واجب الوجود.

هذه حقيقة يوجبها لدى العقول قانون العليّة البدهيّ، ولا يرفضها إلّا مكابر معاند..

وأمّا محور الإمكان فقد جذبَ أنظار طائفة من محقّقي الفلاسفة والعلماء الباحثين، منهم الفارابي، وابن سينا، وديكارت، ولوك، ولايْبنز.

قالوا: إنّ معنى الوجود يتردّد بين ثلاثة أحوال: «الإمكان. والاستحالة. والوجوب» فكلُّ ما يخطر في البال إمّا أن يكون ممكن الوجود، وإمّا أن يكون مستحيل الوجود، وإمّا أن يكون واجب الوجود، والعقل يحكم بأنّ هذا الكون هو من نوع «ممكن الوجود».

والممكن لا بدّ له عقلاً من مرجّح يرجّح وجوده على عدمه، ويخرجه من حيّز الإمكان النظريّ إلى الوجود الفعليّ، وهذا المرجّح لإيجاد هذا الكون الممكن لا بدّ أن يكون واجب الوجود، لأنّه لو كان ممكن الوجود لاحتاج بدوره إلى مرجّح، وهكذا إلى ما لا نهاية، وهو مستحيل عقلاً.

وأمّا محور التنظيم والإتقان العامّ، فقد جذب بقوّة أنظار معظم جماهير المؤمنين، وسيطر على تفكير ابن رُشْدٍ، وهو الذي كثُر التنبيه عليه في القرآن الكريم.

بعض أقوال الفلاسفة(١):

١ ــ يقول الفارابي، وهو يبرهن على وجود الله تبارك وتعالى: «إنّ الموجودات على ضربين:

أحدهما: ممكن الوجود.

والثاني: واجب الوجود.

وممكن الوجود إذا فرض غير موجود لم يلزم عنه محال، وليس بغنيّ بوجوده عن علته، وإذا وُجد صار واجب الوجود بغيره لا بذاته.

أمّا الواجب الوجود، فمتى فرض غير موجود لزم عنه محال، ولا علّة لوجوده، ولا يجوز كون وجوده بغيره.

---

(١) نقلاً من كتاب «قصة الإيمان» للشيخ نديم الجسر.

والأشياء الممكنة لا يجوز أن تمرّ بلا نهاية، في كونها علّةً ومعلولاً، ولا يجوز كونها على سبيل الدور، بل لا بدّ من انتهائها إلى شيءٍ واجب، هو الموجود الأوّل، الذي هو السبب الأول لوجود الأشياء، وهو الله تعالى».

٢ ـ ويقول ابن سينا:

«ينبغي أن نستنبط من إمكان ما هو موجود، وما يجوز في العقل وجوده، موجوداً أوّلاً واجب الوجود...

وهذا العالم ممكن يحتاج إلى علّة تخرجه للوجود، لأنّ وجوده ليس من ذاته...

وبهذا لا نحتاج في إثبات الأوّل إلى تأمُّل بغير نفس الموجود، من غير أن نحتاج إلى الاستدلال عليه بشيءٍ من مخلوقاته، وإن كان ذلك دليلاً عليه».

٣ ـ ويأتي ديكارت بعد قرون فيقول:

« إنّني موجود، فمن أوجدني؟ ومن خلقني؟. إنّني لم أخلق نفسي، فلا بدّ لي من خالق، وهذا الخالق لا بدّ أن يكون واجب الوجود، وهو الله بارىء كلّ شيء».

٤ ـ ويأتي «باسكال» فيقول:

«إنّه كان يمكن أنْ لا أكون لو كانت أمّي ماتت قبل أن أولد حيّاً. فلست إذن كائناً واجب الوجود، فلا بدّ من كائن واجب الوجود يعتمد عليه وجودي، وهو الله».

٥ ـ وسلك الفيلسوف «لايْبِنْز» هذا المسلك نفسه، فأثبت عن طريق الإمكان في الكون، ومبدأ العلّة الكافية، ورفض كلّ احتمال يفضي إلى التناقض، ضرورة وجود واجب الوجود، وأن يكون واجب الوجود علّةً كافية لصدور هذا الكون الممكن عنه.

لذلك فلا بدّ أن يكون له منتهى العلم والقدرة والحكمة وكلّ صفات الكمال، وهو الله تعالى.

٦ ـ أمّا الفيلسوف ابن رشد فقد نبّه بشدّة على محور التنظيم والإتقان العام، وذكر أنه هو الطريق الذي لفت القرآن الكريم أنظار الناس بقوّة إليه، وغالى حتى جعله هو الطريق الشرعي الوحيد. ثم شرح الاستدلال بالاعتماد عليه، فقال في كتابه «الكشف عن مناهج الأدلة»:

«الطريق التي نبّه الكتاب العزيز عليها، ودعا الكلَّ من بابها، إذا استقرىء الكتاب العزيز وُجِدَتْ تنحصر في جنسين:

أحدهما: طريق الوقوف على العناية بالإنسان، وخلق جميع الموجودات من أجله، ولنسمّ هذه: «دليل العناية».

والطريق الثانية: ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء في الموجودات، مثل اختراع الحياة في الجماد، والإدراكات الحسيّة والعقل، ولنسمّ هذه: «دليل الاختراع». . . ».

ثم فصّل ابن رشد دليله، واستشهد بآيات من القرآن، ثم قال:

«ولو ذهبنا لتعداد هذه الآيات، وتفصيل ما نبّهت عليه من العناية التي تدلّ على الصانع والمصنوع لما وسع ذلك مجلّدات كثيرة. . . ».

٧ ـ وحول محور التنظيم والإتقان المصحوبين بالعناية والرحمة دارت ألوف الأدلّة التي صاغها العلماء في مختلف مجالات البحوث العلمية الكونية التجريبيّة.

وفي المقولات التاليات تفصيلات كثيرات وإضافات على الأصول والمحاور التي جاءت فيها.

□ □ □

الفصل الثاني

بين خيارين

لا خيار لي إلّا أن أُؤمِنَ بأزليَّةِ هذا الكون، أو بأزليّةِ الخالق العليم الحكيم العدل الرحيم المختار، إذ الحدوث من العدم المحض العامّ الشامل المطلق دون أصل مرفوض عقلاً منذ الابتداء بداهة، ولا فكر يقبل به مهما عَانـد أو تحامق أو تغابىٰ.

أمّا الاعتقاد بأزليّة هذا الكون فيجعل الوجود والحياة فيه أمراً غير ذي معنى، وغير ذي مغزىٰ، وهذا يخالف منطق الوجود نفسه، ويتناقض معه تناقضاً كلّيّاً. وهو أيضاً يخالف منطق الحياة، ويتناقض معها تناقضاً كلّيّاً.

وذلك لأنّ ظواهر هذا الوجود وظواهر الحياة فيه تدلّ بما لا مجال للشكّ فيه على أنّ هذا الوجود وما فيه من حياة مرسومان ضمن خطّةٍ ذاتِ مغزى، وليسا مظهرين من مظاهر المصادفة لحركاتٍ عشوائية، إذ لا أثر للعشوائيّة ولا للمصادفة في أيّ مظهر من مظاهر هذا الكون، ولا في أيّ حدثٍ من أحداثه.

فكيف يسوغ لي أن أؤمن بأزليّة هذا الكون، وبأنّ قوانينه الصارمة الجادّة ناشئةٌ بالتطوّر الذاتي عن مادّةٍ لا عقل لها، ولا علم لديها، ولا إرادة ولا اختيار ولا تدبير، ولا تخضع لذي علم وإرادة واختيارٍ وتدبير.

إنّي لو التزمت مثل هذا الاعتقاد لكنتُ متناقضاً مع نفسي ومنطق عقلي ووجداني، ومتناقضاً مع منطق الوجود نفسه، ومنطق الحياة فيه.

ولست أقبل لنفسي ــ وأنا العاقل المدرِك الباحثُ عن الحقيقة ــ أن أكون في عقيدتي متناقضاً مع نفسي، ومنطق فكري، ومتناقضاً مع منطق الوجود المشهود، ومنطق الحياة فيه.

ولمّا سقط أمامي أحد الخيارين، وظهر أنّه باطل لا يصحّ اعتقاده ولا الاستناد إليه، تبيّن لي أنّ الخيار الآخر هو الحقّ الذي لا ريب فيه ولا معدل عنه، وهذا الخيار الآخر هو الإيمان بخالقٍ أزليٍّ أبديٍّ قادر عليمٍ حكيم مريد مختارٍ عدلٍ رحيم، خلق هذا الكونَ والحياة فيه لحكمةٍ يريدها، ودبَّر كُلَّ شيءٍ فيه بعلمه وحكمته، وقضىٰ كلَّ شيءٍ فيه بإرادته الحكيمة وقدرته.

ولا تحسبنَّ أنّي لم أبحثْ عن خيارٍ ثالث، لقد بحثتُ لأضعه ضمن احتمالات البحث عن الحقيقة فلم أجد، وأطلتُ التأمُّل والنظر فلم أجد، وسبحتُ مع الوهم والخيال فلم أجد، ونظرت في أقوال الباحثين والفلاسفة فلم أجد، وتتبّعتُ ما انتهى إليه كلُّ ذي نظر بعيد وفكرٍ عميقٍ فلم أجد، فأيقنت أنني بين هذين الاحتمالين أتردّد:

فإمّا أن أعتقد بأزلية هذا الكون، وأتقبّل مع هذا الاعتقاد متناقضاتٍ شتّى، وأتقبّل أن يكون هذا الاعتقاد نفسه مناقضاً لواقع حال هذا الكون، ومناقضاً لمنطق الحقائق السائدة فيه، والمسيطرة عليه سيطرة كلّية.

وإمّا أن أعتقد بوجود خالق أزليٍّ أبديّ له كلُّ صفاتِ الكمال، وهو منزّه عن كلّ صفات النقصان، وبيده مقاليد كلِّ شيءٍ، وهو على كلّ شيءٍ قدير، فأتخلّص بهذا الاعتقاد من كلّ المتناقضات التي ازدحمت في فكري، وتصارعت في كياني، حينما فكّرتُ بقبولِ الاحتمال الأول.

لكنّني طرحتُ عني كلَّ هـٰذه الأثقال الفكريّة، وما فيها من قلق دائم، ومتناقضات، ولجأت إلى منطق الطمأنينة الكاملة، ولزمت الحقيقة، فآمنت بالله الخالق القادر العليم الحكيم العدل المختار، وبأنّي عبده، وبأنّه لا إلـٰه إلّا هو.

ويمكن أن نصوغ هذا الدليل بطريقة رياضيّةٍ منطقيّة كما يلي تحت عنوان «الإلزام العقليّ بين الوجود والعدم».

لا يشك عاقل في الدنيا بأنّ الوجود يقابله العدم، وأنّه لا ثالث بين الوجود والعدم، ولا ثالث وراء الوجود والعدم.

هذان اثنان إذا وجد أحدهما انتفى الآخر لا محالة، وإذا انتفى أحدهما وجد الآخر لا محالة، فهما بلغة المناطقة والفلاسفة نقيضان، كالإيجاب والسلب.

وهنا نتساءل مع أنفسنا فنقول:

أيهما الأصل الأوّل على الإطلاق دون التقيّد بموجود معينَّ؟

هل الوجود الذي يقابله العدم العامّ هو الأصل؟

أو العدم العام لأي شيءٍ يُتَصَوَّر في الذهن وجوده هو الأصل؟

وللإجابة على هذا التساؤل لا بدّ لنا من أن نسلك مسلك طرح الاحتمال الافتراضي على كلٍّ منهما، فما يلزم عنه المستحيل عقلاً أسقطناه، وما لا يلزم عنه المستحيل عقلاً أثبتناه. أو نقول بتعبير آخر: فالاحتمال الذي يَرِد عليه ما يَنْقُضه نرفضه، فيبقى الاحتمال الآخر الذي لا يَرِدُ عليه ما ينقضه فنثبته.

وتطبيقاً لطريقة الاختبار هذه: نفترضُ أوّلاً افتراضاً ذهنيّاً أنّ الأصل لكلّ ما يخطر في الفكر وجوده بالاستغراق العامّ الشامل دون استثناء هو العدم العامّ.

ومعنى العدم العامّ أنّه لا ذات ولا صفة ولا عنصراً أوّلاً بسيطاً ولا طاقة، ولا أيّ شيء له وجود مطلقاً، لأيّ شيء يخطرُ في الفكر احتمال وجوده وعدمه.

وبعد طرح هذا الاحتمال الافتراضي نتساءل:

كيف استطاع العدم العامّ الشامل الذي هو الأصل بمقتضى هذا الاحتمال الافتراضي أن يتحوَّل إلى الوجود؟.

ألسنا نشعر بوجود أنفسنا؟. ألسنا نرى موجودات كثيرةً من حولنا؟.

فكيف تحوَّل العدم العامّ الشامل إلى ذوات، وصفات وقوىً؟ وكيف انطلقت هذه بأنفسها من العدم إلى الوجود؟

إنّ انطلاقها لا يمكن أن يكون إلّا بقوّة، والمفروض في الاحتمال المطروح أنّ هذه القوّة عدمٌ أيضاً.

إنّ العقول جميعها تحكم بالبديهة العقليّة أنّ من المستحيل عقلاً أن يتحوّل العدم بنفسه إلى الوجود، أو أن يوجد العدمُ أيّ شيء، فالعدم لا شيء واللاشيء لا يوجد شيئاً.

فسقط هذا الاحتمال الافتراضي، ولم يبق لدينا إلّا الاحتمال المقابل له وهو نقيضه، وهو أنّ الأصل هو وجود موجود ما وجودُهُ هو الأصل.

فلنطرح هذا الاحتمال الآخر الوحيد بعد سقوط الاحتمال الأول، فنقول:

نفترض افتراضاً ذهنيّاً أنّ الأصل بين الوجود والعدم هو وجود موجودٍ ما، وجوده هو الأصل.

ثم نقول:

هل يلزم من افتراض وجود موجودٍ ما، وجودُه هو الأصل، مستحيل عقلاً، أو هل يَرِدُ عليه ما ينقضه عقلاً؟.

وبالسَّبْر العقليّ لا نجد لدى طرح هذا الاحتمال أنه يلزم منه ما ينقضه، أو يلزم منه مستحيلٌ عقلاً.

فوجب عقلاً إثباته، ووجب عقلاً المصير إليه، ولو عجزت عقولنا عن فهم موجود لا أوَّل لوجوده، ولا آخر لوجوده، وليس لذاته حدوثات.

ثم نقول أيضاً:

إنّ ما كان هو الأصل بين شيئين متناقضين لا يحتاج وجوده إلى تفسير أو تعليل، لأنّه متى احتاج وجوده إلى تعليل أو تفسير لم يكن أصلاً، وإنّما تُطلَبُ

الأسباب والتعليلات للأشياء التي ليست هي الأصل، فوسوسة الشيطان التي يقول فيها: «هَذَا خَلَقَ اللَّهُ الخَلْقَ فمن خلق الله» وسوسة ساقطة بداهة، ومرفوضة بالبرهان العقلي المنطقي، وهي قائمة على قياس فاسد، هو قياس الأزلي الأبدي واجب الوجود عقلاً على الحادث ممكن الوجود والعدم، وأصله العدم، وإنما يوجد بإرادة وقدرة مَنْ أصله الوجود[1].

ثم نقول أيضاً:

إنّ ما كان أصله الوجود لا يصحّ عقلاً أن يكون لوجوده بداية، لأنّ ما كان لوجوده بداية فلا بدّ أن يحتاج في وجوده إلى سبب قد أوجده من العدم، وما كان كذلك لا يمكن أن يكون وجوده هو الأصل، لئلا يلزم التناقض.

ثم نقول أخيراً:

إنّ ما كان وجوده هو الأصل لا يمكن عقلاً أن يلحقه العدم، أو يطرأ عليه أو على شيءٍ من صفاته العدم، لأنّ كلّ زمن نفرض فيه أن يطرأ العدم على ما أصله الوجود يعترضنا فيه أنّ الوجود بالنسبة إليه لا يزال هو الأصل، ولا سبب لأن يطرأ عليه العدم أبداً.

بعد أن ثبت لنا بالضرورة العقليّة أنّ الأصل هو الوجود لموجودٍ ما وجودُه واجب عقلاً نُلقي نظرةً على أنفسنا وعلى كلّ ما في الكون من حولنا ممّا يقع تحت مجال إدراكنا الحسّيّ في هذا الكون الكبير، لنرى هل ينطبق عليه أنّ الأصل فيه هو الوجود لذاته، وأنّه أزليٌّ لا أوّل له، أو هو حادث له أوّل، وتطرأ عليه خصائص الحادثات، ويطرأ عليه التغيّر والزوال والفناء.

وهنا تبدو لنا حقيقة أنّنا لم نكن ثمّ كنّا، ونحن صنف ممتاز التكوين في هذا العالم. وأنّنا وسائر الأحياء ميّتون وصائرون إلى الفناء. وهنا يبدو لنا أنّ أشياء كثيرة في هذا الكون كانت في طيّ العدم في أشكالها وصورها، ثمّ

---

(١) انظر تتمة كشف زيف هذه الوسوسة الشيطانية في كتاب «كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة» للمؤلف من صفحة (٥٢٠) إلى صفحة (٥٢٤).

وجدت، وهذه ظاهرة تتكرّر مشاهدتها باستمرار في أجزاء من هذا الكون، ويظهر لنا أنّ صُور التغيّرات الكثيرة الدائمة ملازمة لكلّ جزء من أجـزاء هذه الموادّ الكونية التي نشاهدها أو نحسّ بها، أو نُدركُ قواها وخصائصها، فمن موت إلى حياة، ومن حياة إلى موت، ومن تغيُّرات في الأشكال والصور، وتغيّرات في الصفات والقوى، إلى ممكنات أخرى. وكلُّ ذلك لا يعلّل في عقولنا وفق قوانين هذا الكون الثابتة التي استفدناها من ظاهرات الكون نفسه، وأدركناها بموازين العقل الفطرية، إلّا بالأسباب المؤثرة التي بها حصلت هذه التغيّرات المتعاقبة في كلّ شيءٍ من هذا الكون، على اختلاف جواهـره وخصائصـه وصفاته، سواء منها المتناهي في الصغر، أو الكبير الذي لا تدرك عقولنا نهايات له، ومن هذه الأسباب ما نشاهده، ومنها ما نستنتجـه استنتاجـاً، ولا نزال نتسلسل مع الأسباب من سبب إلى ما وراءه من سبب آخر، حتى نصل إلى سبب مجهول الذات، هو سبب الأسباب الأول، وهو بالضرورة العقلية يجب أن يكون هو مَنْ أصله الوجود الذي لم يُسْبَقْ بالعدم، ولا يطرأ عليه العدم.

وحين نصل إلى هذا، يظهرُ لنا أنّ مَنْ أصله الوجود وعنه صدرت الموجودات الحادثة الممكنة التي ليس أصلها الوجود، هو الرّب الخالق، وهو الله جلّ جلاله، وتقدّست أسماؤه وصفاته، وتبارك وتعالى.

وقد أشار القرآن إلى هذا الدليل العقلي، ليدلّ به ذوي العقول الحصيفة، والنظرات الفلسفيّة الدقيقة، على وجود الله عزّ وجلّ ذي الأسماء الحسنى، والصفات العظيمة الجليلة.

فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الطور ٥٢):

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

أي: فلينظروا إلى ظاهرة أنّهم لم يكونوا ثُمَّ كانوا، فهل حصل وجودُهم الذي لا يتمّ إلّا بخلق، من غير شيءٍ كان هو السبب في وجودهم وهو الخالق

لهم، أي: بالاندفاع الذاتي من العدم إلى الوجود؟ أم كانوا هم الخالقين لأنفسهم؟.

وبديهيٌّ أنّ العدم لا يندفع إلى الوجود بنفسه دون خالق، وبديهيٌّ أيضاً أنّهم لم يخلقوا أنفسهم، فسقط الاحتمالان كلاهما، وبقي احتمال أنّ خالقاً خلقهم، وهذا الخالق هو من أصله الوجود، وهو الله عزّ وجلّ. وثبت بهذا أنّ الأصل هو الوجود لموجود ما، وذلك هو الله عزّ وجلّ.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴿٥٨﴾ ﴾.

فدلّ بهذا على أنّ من أصله الوجود لا يمكن أن يطرأ عليه أو على شيء من صفاته العدم، فالحيّ الذي لا يموت هو مَنْ كان وجوده هو الأصل، وكذلك حياته وسائر صفات الكمال فيه، لذلك فلا يمكن عقلاً أن يطرأ عليه العدم أو الموت، أو انعدام أيّ شيء من صفاته سبحانه وتعالى.

□ □ □

الفصل الثالث

دليل الفطرة

(١)
الإيمان بالله والإسلام له انسجام مع الفطرة والكفر به معاندة لها

الله فاطر السماوات والأرض، وفاطر الأحياء، وما جعل فيها من غرائز، ومشاعر، ودوافع، وإدراكات، وما جعل في الأحياء الراقية منها من قُدراتِ فهمٍ واستنباطٍ وموازينِ عقول تميّز فيها بين الحقّ والباطل، والخطأ والصواب، والهدى والضلال.

وقد أودع سبحانه في كلّ ما فطر من أحياءٍ وغير أحياء ما جعلها تخضع لربوبيته وتُسْلِمُ له طوعاً أو كرهاً، ففيها فطرة الخضوع والإسلام له والتسبيح بحمده، وأودع فيها جميعاً آيات ربوبيته لتدلّ عليه، وتهدي إلى الخضوع الإراديّ له، والإسلام له.

أمّا الإنس والجنّ فإذْ خلقهما ليبلوهما في ظروف الحياة الدنيا فقد أعطاهما مع فطرتهما التي هما فيها كسائر ما فطر الله، إرادةً تملك حرّية رفض الاعتراف بالحق، ورفض الخضوع للرّب الخالق والإسلام له، في حدود الدائرة التخييريّة الصغرى فيهما، أمّا فيما عداها فهما خاضعان مسلمان له بالقهر والجبر، ولاستكمال مقتضيات الابتلاء جعل لهما أهواءً وشهواتٍ شتّى مفتوحةَ بعض

الحدود القهرية الجبرية، ومكَّنهما من تعدّي حدود أمره ونهيه، بما جعل لهما من قوى يمدّهما بها لاختبارهما، وسخّر لهما الأشياء من حولهما إذا اهتديا إلى أسباب تسخيرها.

ثم أنزل لهما بيانات التكليف ليخضعا له بالإرادة الحرّة، ويُسْلما له بالإرادة الحرّة، فمن آمن وخضع وأطاع فله النعيم الخالد، ومن كفر واستكبر وعصى فله العذاب الخالد.

فكانت الإرادة الحرّة فيهما، والأهواء والشهوات التي جُعِلَتْ لهما، بمثابةِ غلالةٍ رقيقةٍ سطحيّة تنزع بغباء لتكون مطلقةً عن ضوابط التكليف، مخدوعة بما لديها من مُسَخَّرات داخل المكلّف وخارجاً عنه، مفتونةً بحلاوةٍ عاجلةٍ من اللّذات .

وتحت هذه الغلالة الرقيقة ما فطرت عليه النفس وفطر عليه القلب وفطرت عليه المشاعر العميقة الراسخة من النزوع إلى الخضوع للرّب الخالق والإسلام له، ثم ما فطرت عليه مدارك الفكر وموازين العقل من الاهتداء إلى الرّبّ الخالق، ووجوب الخضوع له والإسلام له.

والفطرة الربّانيّة تتنوّع بحسب وظيفة المفطور:

● فما وظيفته الإقبال والنزوع أو الإدبار والنفور، كالنفس، فقد جعل الله فيه فطرة الإقبال نحوه، والتماس المطالب منه عزَّ وجل.

● وما وظيفته الطُّمأنينة والسكينة، أو القلق والريبة، كالقلب، فقد جعل الله فيه فطرة الطمأنينة لربوبيته، والسكينة في الإسلام له، وفطرة القلق والريبة عند رفض ربوبيته والاستكبار عن الخضوع والإسلام له.

● وما وظيفته الإحساس بلذة السعادة العميقة، أو ألم الحرمان منها والضيق والكمد والشقاء من نقيضها، كالمشاعر الوجدانية، فقد جعل الله فيه فطرة التلذذ السعيد بالخضوع لربوبيته والإسلام له، وفطرة الضيق والكمد

والشعور بالشقاء والتعاسة في الحياة عند رفض ربوبيته، والاستكبار عن الخضوع والإسلام له.

● وما وظيفته البحث عن حقائق الأشياء من خلال الحسّ المباشر، أو الاستدلال بالظواهر، وهي قدرات التفكير والفهم والاستدلال بالآيات والدلائل والأمارات، وموازين العقل وأصوله، فقد جعل الله فيها فطرة التوصل إلى معرفة ربوبيته ووجوب الخضوع والإسلام له، وتوحيده في ربوبيته وأسمائه وصفاته، وتوحيده في إلهيته وعبادته.

كل هذه الأركان في الإنسان مفطورة على النزوع أو الاهتداء إلى أسس الإيمان والإسلام التي دعا إليها الدّيان، وأنزلها في القرآن، وبعث بها أنبياءه ورسله.

ويخطىء كثيرون إذْ يفهمون الفطرة من خلال المشاعر الوجدانيّة العميقة، ويُهملون ما فطر الله عليه الأفكار والعقول من القدرة على الاهتداء إلى ربوبيّة الله وتوحيدها، وإلهيّة الله وتوحيدها، والتوصل إلى ما يجب على العباد تجاه ربوبيته وإلهيته من الخضوع والإسلام له.

وقد يشتدّ بعضهم ضد الاشتغال بأدلة الفكر وبراهين العقل، توهُّماً منه أنها تقع خارج قوس الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وأرشدهم إلى التماسها داخل ذواتهم ليصلوا إلى الإيمان الحق، والإسلام الحقّ، وهذا خطأ كبير، لأننا إذا تتبعنا الحجج القرآنية على قضايا الدين وجدناها حججاً فكريّة وعلميّة منطقيّة، نظراً إلى أنّ الله عزّ وجل قد فطر العقول والأفكار على إدراك الحقّ والإذعان له، ومع عرض هذه الحجج الفكرية والعلمية المنطقية تستثير الآيات القرآنية ما فُطِرت عليه النفوس والقلوب والمشاعر الوجدانية العميقة، ليكون ذلك حصاراً إقناعيّاً وتربويّاً للإنسان من جميع أركانه التي تؤثر فيه.

فاتّباع هذا المنهج القرآني هو السبيل الأقوم، ومخالفته مِشيةٌ عرجاء، سواءٌ أكان ذلك باعتماد الفكر وحده دون سائر أركان الإنسان الداخلية، أو باعتماد الفطرة النفسية، أو الوجدانية وحدها دون مفاهيم الفكر وأدلته، وموازين العقل وأصوله.

وثمرة هذه المشية العرجاء في التعليم تكْوِينُ جدليّين فكريّين، خالين من المشاعر الإيمانية الوجدانيّة، أو تكوين طاقات عاطفيّة تتحرّك بغير وعي، وقد تندفع على غير هُدى، وحين تعجز عن تقديم الأدلة أمام المخالفين الجدلِيّين تتخاذل إلى الانطواء على النفس، أو إلى التحوّل عن الطريق والانحـــراف عنه، وقد تفعل مثل ذلك إذا تواردت من داخل ذواتها شبهات وشكوك، أو سيطرت عليها أهواء وشهوات.



(٢)

الفطرة تشمل فطرة العقول والنفوس والقلوب والمشاعر الوجدانية

بعد هذه المقدمة أقول:

أمّا ما فطر الله عليه الأفكار والعقول حول قضية الإيمان بربوبية الله وإلهيته الواحدة، ووجوب الخضوع والإسلام له، فهو المقصود بالبيانات والأدلة والحجج الكثيرة العقلية والعلميّة المكتسبة بوسائل المعرفة الإنسانية، التي اشتملت عليها معظم بحوث هذا الكتاب ومقولاته.

وأمّا ما فطر الله عليه النفوس والقلوب والمشاعر الوجدانية العميقة داخل النفس، فهو الذي أعالجه في هذه المقولة، وما توفيقي إلاّ بالله، عليه توكلتُ وإليه أنيب.

فطرة النفوس والقلوب والمشاعر الوجدانية:

إنّ النفوس والقلوب والأحاسيس والمشاعر الوجدانيّة مفطورة على الاتجاه لقوّة غيبيّة مطلقة، تلتمس منها المدد والعون والعطاء، وتلجأ إليها عند الشدائد، وتِحسّ بمتعةِ الأنس بها عند المخاوف، وفي أشد أحوال الوحشة.

وهذه الفطرة مهما تراكمت عليها الغفلات، وتراكبت عليها الظلمات، وانحرفت بها الأهواء عن سَوائها، لا بدّ أن تصحوَ وتستيقظ وتستبصر، إذا ضاق عليها الخناق في الملمّات، واشتد عليها الكرب في الحادثات، وتقطّعت بها كلّ أسباب الخلاص والنجاة.

على أنّ أوّل شعور يشرق في أعماق الإنسان، إذا تأمّل في نفسه وفي الكون من حوله، شعوره بوجود قوّة كبرىٰ مهيمنة على الكون، تمنحه التدبير والتنظيم، وتتصّرف فيه بالحياة والموت، والبنـاء والفناء، والتغـيّر والتطوّر، والحركة والسكون، وجميع أنواع التغييرات الحكيمة التي تجري فيه. والشعور بهذه القوّة يهدي لُزوماً إلى الإيمان بمَنْ له هذه القوة.

إنّ الإنسان ليشعر بهذه الحقيقة، ويؤمن بها إيماناً عميقاً، سواء استطاع أن يقيم الدليل البرهاني على صدق هذا الشعور أو لم يستطع، فدليل الفطرة، ودليل البداهة شاهدٌ حقٌّ يسبق الشواهد النظريّة، وقد يكون في بعض الأحيان أدقّ منها وأصدق.

وحسب الإنسان في إيمانه واعتقاده بشيءٍ ما أن يوافق شعوره الفطريّ وإحساسه البدهيّ، النَّتائج النظريّة التي يتوصّل إليها الباحثون من العلماء والفلاسفة، أو أن يتّفق شعوره وإحساسه مع الشعـور والإحساس الصادق للكثرة الكاثرة من المجموعة الإنسانية.

بل ربّما يقال: إنّ سلامة الفطرة، وصفاء الإحساس الخفيّ من أهمّ وأجلّ الوسائل الأساسية في شعور الإنسان بكثير من البدَهِيَّات، وفي اكتسابه كثيراً من المعارف الحقّ التي يعرفها الإنسان في أطوار حياته.

وإذا قلنا: إنّ الشعور الفطري في الإنسان بوجود قوّة كبرى مهيمنة على الكون، فوجود من له هذه القوة هو من الدلائل الفطرية الصادقة على وجود الخالق، فلنا على ذلك أمثلة كثيرة من واقع حياة الإنسان في تكوينه الفطري، إذْ يوافق شعوره الفطريّ ما هو كائن فعلاً، أو ما يجب أن يكون، بشكل لا يقبل الـزيادة عليـه أو النقصان منـه، مهما تقـدّمت البحوث العلميـة والكشوف التجريبيّة.

إنّ كثيراً من علومنا ومعارفنا ليس لها دليلٌ في أنفسنا غير شعورنا الفطريّ بها، ومهما تقدّمت العلوم والمكتشفات فإنّها لا تزيدنا عنها شيئاً غير ما توصلنا إليه بفطرتنا.

فمن الأمثلة على ذلك:

● انسياق الطفل حديث الولادة بفطرته الأولى إلى ارتضاع ثدي أمّه، دون أن يتعلّم ذلك من معلّم، ودون أن يدركه بدليل عقليّ، أو دليل حسّيّ ظاهر.

● والأم تشعر بعاطفة الأمومة، فتقوم على رعاية وليدها وحمايته وتربيته، سواء أعلمت أنّ السّر في ذلك حفظه بالرعاية والتربية حتى يغدو قادراً على الاستقلال بنفسه أو لم تعلم، مع ما في ذلك من تأسيس أولى الروابط الاجتماعية، التي تقوم عليها المجتمعات الإنسانية.

● وكلُّ كائن حيّ في هذا الكون مسوق بإحساس الفطرة التي فطر الله الأحياء عليها، إلى تلبية مطالب عيشه، وحاجات غرائزه، ولو لم يدرك الغرض من وراء ذلك، وهو المحافظة على الحياة، والمحافظة على استمرار بقاء النوع، فسبحان الذي أعطى كلّ شيءٍ خلقه ثمّ هدى.

نُحسّ بالجوع فنأكل، سواء أعلمنا أنّ الأكل وسيلة من وسائل حياتنا أو لم نعلم.

ونحسّ بالبرد، فنتّخذ الوقاية منه، سواء أعرفنا أن البرد من عوامل الهدم في بناء أجسادنا أو لم نعرف.

ونحسّ بالشهوة إلى الحموض مثلاً، دون أن نعلم بأنها ضروريّة أو لازمة لأجسادنا لتحلّل الموادّ الكلسيّة وغيرها من المعادن في الأطعمة، كي تتمثّل في أجسادنا تمثُّلاً صحيحاً.

ونشعر بوجود روح فينا أو سرّ حياتنا، فندافع عنها، ونحرص على بقائها، دون أن نحسّ بها بإحدى حواسّنا الظاهرة، وقد لا يستطيع الكثير من الناس أن يقيم البرهان على وجودها، لكنّه يشعر بها، ويعتقد وجودها.

ونشعر في داخلنا بالعواطف والوجدانيات، كالحبّ والبغض، والرغبة والنفور، دون أن نستطيع إقامة الدليل على وجودها فينا، مع أنّها متغلغلة في

داخلنا. إنّنا لا نستطيع أن نقيم عليها دليلاً أكثر من أننا نشعُرُ بها، وهي حقٌّ لا شكَّ فيه.

ونشعر بالشهوة، ونشعر بالألم وباللّذة، ولا نستطيع أن نثبت ذلك بأكثر من أننا نشعر به.

فالشعور بالشيء دليل على وجوده، ويقوى هذا الدليل جدّاً حينما يشترك الناس في الإحساس بمثل ذلك الشعور، ويظهر أنه لم يأت من الوهم في إحساس خاصّ بصاحبه.

وممّا لا ريب فيه أنّ من هذه الإحساسات الفطرية الصادقة فينا إحساس الإنسان بوجود ربّ خالق مهيمن عظيم، يجيب من دعاه، ويعطي من سأله، ويمدُّه بالعون والتوفيق، ويحاسب ويجازي، بالثواب أو بالعقاب، على حسب العمل.

لذلك نجد الإنسان بفطرته متلهّفاً إلى معونته وإمداداته، يشعر بأنه قريب منه، وإن كانت ذاته غيباً عن حواسه.

ثم يأتي من وراء هذا الإحساس شعور الإنسان بحاجة هذا الكون الكبير في نظامه وإتقانه، وما فيه من إبداع وإحكام، وحياة وموت، وبناء وفناء، إلى قدرته، وعلمه، وإرادته وحكمته جلّ وعلا.

هذا الشعور الفطري شعور تشترك في الإحساس به جميع الخلائق المدركة، على اختلاف نزعاتها، ومستويات ثقافاتها، في البيئات البدائية، وفي المدن المتحضرة، وفي منتديات المثقفين، وفي قاعات العلوم والفنون والمختبرات.

وقد يُخدَّرُ هذا الشعور السَّامِي بعوارض الأهواء والشهوات، وقد يُغَشَّىٰ عليه بكثرة الغفلات، وقد يَضْمُر حتى يَفْنىٰ أو يكاد، بالكبر الطَّاغي، أو برغبات الفجور، وكثيراً ما يستيقظ من سُبَاته، أو يُبْعَثُ رفاته عند الشدائد القاسيات، وحينما تتقطّع كلّ الأسباب المتاحةِ للنجاة، ولا يبقى أمام الإنسان إلاّ أن يلتجىء إلى القوة الغيبيّة القاهرة.

سأل سائل الإمام «جعفراً الصادق» عن الله عزّ وجلّ؟

فقال الإمام للسائل: ألم تركب البحر؟

قال: بلى.

قال: هل حدث مرّةً أن هاجت بكم الريح عاصفةً؟

قال: نعم.

قال: وانقطع الأمل بالملاّحين ووسائل النجاة؟

قال: نعم.

قال الإمام: فهل خطر ببالك، وانقدح في نفسك أنّ هنالك من يستطيع أن ينجيك إنْ شاء؟

قال: نعم.

قال الإمام جعفر: فذلك هو الله.

وهكذا تتيقظ فطرة الإيمان كلّما حزب الأمر، وضاق خناق الشدائد.

ما هو شعور أكبر ملحدٍ في الدنيا، إذا هو تراكبت عليه الهموم والأحزان والمصائب، وصدمته المخاطر من كلّ جهة ولم يجد سبباً مادّيّاً ينقذه؟

أفلا تتيقظ فيه في أشد الحالات فطرته الصافية الأصلية، فينادي: يا مَنْ له القوة العظيمة المهيمنة على كلّ شيءٍ في الكون، يا مَنْ أنت عليم رحيم بخلقه أسعفني؟.

ماذا كان قول فرعون حين أدركه الغرق؟

ألم يقل: آمنت بربّ موسى وهارون، آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل؟.

إنّ تجربة إلقاء الملحدين في المخاطر والمآزق القواتل، التي لا يجدون لدفعها سبباً مادّيّاً يتعلّقون به، لهي من أعظم التجارب التي تكشف عن فطرتهم الأولى السليمة الصافية، والتي دخل إليها فيما بعد دخيل الفساد والشذوذ

والإجرام، منذ شذّوا وجنحوا عن الحقّ، استجابة لنوازع الكبر فيهم، ولرغبات الفجور في نفوسهم.

إنّ هذه التجربة لتكشف عن فطرتهم فيعلنون من حيث يشعرون أو لا يشعرون، أنّ الله وراء المادّة هو الواحد العليم، القادر المريد، المتصرّف بكلّ شيء، والذي بيده مقاليد السماوات والأرض. إنّهم ينادون الله عزّ وجلّ بعد إلحادٍ به، ويلتمسون إنقاذه وعونه ومدده وإسعافه بعد جحودٍ له.

ثمّ إنّ الله تبارك وتعالى ينقذهم وينجيهم ليقيم لهم الدليل على وجوده وعلمه وقدرته واستجابته لدعوة المضطرّ إذا دعاه. حتى إذا وصلوا إلى شاطىء السلامة، ووضعوا أقدامهم على البَرِّ الآمن في نظرهم، إذا هم يُنْكرون ويكفرون، ويعودون إلى سيرتهم الأولى، ويعلّلون نجاتهم بالأسباب، وبطوارىء المصادفات، وبتغير الأحوال والأنواء ومجاري الرياح أو بتغير الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ويُعْرِضون عن مغيّرها ومُحَوِّلها، وينسون أنهم كانوا قد لجؤوا إليه فاستجاب لهم.

تلك هي نفوسهم المجرمة، التي لم تكفر بالله لأنها لم تجد الدليل على وجوده، وإنما كفرت به وجحدته لترضي استكبارها، ورغباتها في الفجور، فهي لا تذعن إلى الله إلاّ في أشدّ الشدائد، وأضيق المآزق الخانقة، فإذا أنعم الله عليها وأنجاها كفرت بأنعمه.

هكذا صوّر الله عزّ وجلّ حال هذا الصنف من الكفرة الفجرة المستكبرين المعاندين فقال عزّ وجلّ في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾.

وقال عزّ وجلّ في سورة (يونس ١٠):

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

وكان أوّل تصريح لأوّل صاعدٍ سوفييتي إلى القمر بعد دهشته ممّا شاهد، ودهشته من هول أبعاد الكون، ورغبته في أن يعود سالماً إلى الأرض يدلُّ على أنَّ فطرة الإيمان بالله قد تيقّظتْ في قلبه، فأخذ في وحدته داخل مركبته الفضائيّة يلتجىء إلى الله، رغم تربيته الإلحاديّة التي نشأ عليها منذ طفولته.

وقالت «سوتيلانا» ابنة «ستالين» في مذكراتها:

«إنّ السبب الحقيقيّ لهجرها وطنها وأولادها هو الدين».

وذكرت أنّها نشأت في بيتٍ ملحد، لا يعرف أحدٌ من أفراده الرّب، ولا يذكر الرّب عندهم عمداً ولا سهواً.

وذكرت أنّها عندما بلغت سنّ الرشد وجدت في نفسها من غير أيّ دافع خارجيّ إحساساً قويّاً بأنّ الحياة من غير الإيمان بالله ليست حياة، كما لا يمكن أن يُقام بين الناسِ أيّ عدْلٍ أو إنصاف من غير الإيمان بالله.

وذكرت أنّها شعرت في قرارة نفسها بأنّ الإنسان في حاجة إلى الإيمان كحاجته إلى الماء والهواء.

وهكذا استطاعت هذه المرأة ابنة أكبر سفّاحٍ ملحدٍ في التاريخ، وزعيم

دولة عظمى في الأرض هي دولة الاتحاد السوفييتي أن تستجيب لنداء فطرتها الأصلية، فتفرّ من بيئة الإلحاد، التي يُكره فيها أبوها وحزبُه الناس على الكفر بالله والإيمان بالمادّة وبالماركسيّة، لتستقرّ في بلد تكون فيه حرّة في أن تختار لنفسها الإيمان بالرّب الخالق.

وقد دلّتْنا آيات القرآن الكريم على أنّ النّاس مفطورون على الإيمان بالرّب الخالق جلّ وعلا، وعلى الخضوع لربوبيته وإلهيّته بالطاعة والعبادة، وعلى الالتجاء إليه، والاعتراف بأنّهم عَبِيدُه، واعتزازِهم بعبوديتهم له.

● فقال الله عزّ وجلّ في سورة (إبراهيم ١٤) حكاية لمقالة الرسُل لأقوالهم:

﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

● وأبَانَ الله أنّ الإيمانَ به وبما أنزل على رُسُله والإسلامَ لَهُ وعبادَته فطرةٌ فطر الناس عليها، فقال تعالى بعد أن علّم الذين آمنوا ما يقولون لمخالفيهم في سورة (البقرة ٢):

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾.

● وخاطب الله كلّ مكلّف من الناس بقوله عزّ وجلّ في سورة (الروم ٣٠):

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

وهذه الفطرة الأصلية العميقة في النفوس الإنسانية لا تنطمس إلّا في نفس من بالغ في الانحراف من الناس بدافع غير أخلاقي، ليرضي جنوحاً في نفسه:

● فإمّا أن يُرضي كبراً عنيداً مقترناً بحماقة طاغية.

● وإمّا أن يُرضي رغبة جامحة في الانطلاق الوقح الطاغي في الفجور الكبير، دون أن يشعر بوخز ذلك في ضميره ووجدانه.

وهذا هو الذي يغشّي على مرآة فطرته الصافية، ويشدّ عصائب الجهل والعناد على بصيرته ومشاعره الوجدانيّة.

وقد تظلم مرآة الفطرة في الإنسان بدخان نار الشهوات الموقدة، أو بدخان نار بعض الغرائز النفسيّة العاتية، أو بسحب الشكوك المادّية، فتختفي عنها بعض الحقائق الظاهرة في الكون، وعند ذلك تدعو الضرورة إلى إقامة الأدلة العقليّة، والأدلة العلمية التي يتوصل إليها العلماء بوسائلهم، ليُزَال بها ما غشي على مرآة الفطرة، ولنا أن نسمّي العوارض الطارئة على مرآة الفطرة: «أمراض الحاسّة الفطرية».

يقول شيخ الإسلام ابنُ تيميّة في بيان أنّ الإيمان بالله تعالى راسخٌ في فطر النفوس:

«إنّ الإيمان بالله فطريٌّ ضروري، وهو أشدّ رسوخاً في النفس من مبدأ العلم الرياضي، كقولنا: إنّ الواحد نصف الاثنين».

● وعبّر عن دليل الفطرة المهندس «كلودم. هاثاواي»[١] مصمم العقل الألكتروني للجمعيّة العلميّة لدراسة الملاحة الجويّة بمدينة «لانجلي فيلد» في مقال له بعنوان: «المبدع الأعظم» فقال:

«إنّ إيماني بالله في الوقت الحاضر يقوم على أساس خبرة شخصيّة أو معرفة داخليّة، وهي خبرة أو معرفة تتضاءل بجانبها جميع المجالات الفكريّة. وبرغم أنّ هذا النوع من الاستدلال لا يعدّ مقنعاً بالنسبة إلى الذين لم يمارسوه، فإنّ له وجاهةً وقوةً بالنسبة إلى من مارسه. لقد وجدت أنّ الإيمان بالله هو الملاذ الوحيد الذي تطمئن إليه الروح، وكما يقول أوجستين: لقد خلقنا الله لنفسه، وإنّ أرواحنا لتبقى قلقةً حائرة حتى تجد راحتها في رحابه.. ».

* * *

(١) من كتاب «الله يتجلّى في عصر العلم».

(٣)
اتفاق الناس في الشعور
المشترك بوجود الله عزّ وجلّ

وعبّر الدكتور «بول كلارنس ابرسولد»[١] عضو جمعيّة الأبحاث النوويّة والطبيعية النوويّة، وأستاذ الطبيعة الحيوية، عن دليل الفطرة باتفاق الناس في الشعور المشترك بوجود الله عزّ وجلّ، فكتب مقالاً بعنوان: «الأدلة الطبيعيّة على وجود الله» ضمّنه ما يلي:

١ ـ بدأ مقاله بكلمة للفيلسوف الإنكليزي «فرانسس بيكون» إذ قال: «إنّ قليلاً من الفلسفة يقرّب الإنسان من الإلحاد، أما التعمُّق في الفلسفة فيردّه إلى الدين».

ثم أيّد كلمة هذا الفيلسوف بالشرح.

٢ ـ استدلّ على وجود الله تعالى بدليل اتفاق الناس في الشعور المشترك بوجوده فقال:

«هناك أمرٌ واحد لا شك فيه، هو: بقدر ما لدى الإنسان من معرفة، وبقدر ما لديه من ذكاء وقدرة على التفكير، لم يشعر في وقت من الأوقات بأنّه كامل في ذاته.

والناس على اختلاف أديانهم وأجناسهم وأوطانهم قد عرفوا منذ القدم

---

(١) من كتاب «الله يتجلّى في عصر العلم».

وبصورةٍ تكاد تكون عامّة مبلغ قصور الإنسان عن إدراك كنه هذا الكون المتسع، كما عجزوا عن إدراك سرّ الحياة وطبيعتها في هذا الوجود.

وقد لمس الناس عامّةً ــ سواءً بطريقة فلسفية عقلية أو روحانيّة ــ أنّ هنالك قوّةً فكريّة هائلة، ونظاماً معجزاً في هذا الكون يفوق ما يمكن تفسيره على أساس المصادفة أو الحوادث العشوائية التي تظهر أحياناً بين الأشياء غير الحيَّة التي تتحرّك أو تسير على غير هدى.

ولا شكّ أنّ اتجاه الإنسان وتطلّعه إلى البحث عن عقلٍ أكبر من عقله، وتدبير أحكم من تدبيره وأوسع، لكي يستعين به على تفسير هذا الكون، يعدّ في ذاته دليلاً على وجود قوّةٍ أكبر، وتدبير أعظم، هي قوّة الله وتدبيره. . . .

ولو ذهبنا نحصي الأسباب والدوافع الداخليّة التي تدعو ملايين الأذكياء من البشر إلى الإيمان بالله، لوجدناها متنوّعة لا يحصيها حصرٌ ولا عدٌّ، ولكنّها قويّة في دلالتها على وجوده تعالى مؤدّية إلى الإيمان به. . . .

والحقّ أنَّ التفكير المستقيم والاستدلال السليم يفرضان على عقولنا فكرة وجود الله. . . ».

□ □ □

الفصل الرابع

الحدوث وقانون السببيّة

إذا كان هذا الكون حادثاً غير أزلي، فلا بدّ له حتماً من خالقٍ خلقه وأوجده، ولا بدّ أن يكون هذا الخالق موجوداً أزليّاً غير حادث، ولا بدّ أن يكون قادراً عليماً حكيماً مختاراً.

إنّ حقائق الوجود، وموازين العقل الـذي ندرك به الوجود وحقائقه، يقضيان بضرورة وجود موجودٍ أزليّ لا أوّل له، لأنّه لو لم يكن هذا الموجود الأزليّ الذي لا أوّل له حقيقة أزليّةً ثابتة لاستحال أن يوجد شيء، إذ العدمُ المطلق لا يمكن أن يتحوّل بنفسه إلى الوجود.

وبهذا الفهم تنحلّ عقدةُ التساؤل عن سرّ وجود الموجود الأزلي، وعن سبب وجوده، لأنّه تساؤلٌ في غير محلّه، وهو على خلاف الأصل، وإنْ كان العقل عاجزاً عن إدراك غير المتناهي، باعتباره محصور الإدراك في المتناهيات.

قد يقول الملحد المنكر لوجود الربّ الخالق: لِمَ لا يكون هذا الكون الذي نحن فيه، ونحن جزء متحوّل منه، أزليّ المادّة الأولى، حادث التحوُّل والتغيُّر؟.

لكنّ الرّد عليه موجود في منطق العقل، وفي واقع هذا الكون نفسه.

● أمّا منطق العقل فهو حكمه من خلال ظاهرة التغيّر المستمرَّة في الكون بأنّ هذا الكون حادث، وليس بأزليّ، لأنّه لو كان أزليّاً لاقتضت أزليته ثبات مادّته وصورته أو كيفيته، إذِ المادة لا تفارق الصورة أو الكيفيّة، والكيفيّة الأولى

المقارنة لأزلية المادّة لا بدّ أن تكون أزلية، وما هـو أزليّ لا يمكن أن يوجـد ما يقتضي عدمه.

لكنّ ظاهرة التغيّر كشفت لنا تعرُّض كيفيّاتِ المادّةِ وصُورِها للانعدام بالتحوّل إلى أوضاع أخرى، الأمر الذي دلّنا على أنّه لا توجد صورة أو كيفيّة أزليّة للمادّة.

ولّما كانت المادّة لا تخلو من كيفيّاتٍ وصور كان ذلك دليلاً على أنّ المادّة ليست بأزلية.

ومن هنا يظهر لنا منطقيّاً أنّ هذا الكون المدروس لنا ليس بأزليّ، إذن فهو حادث، وهو بحاجة إلى خالقٍ يحدثه ويخرجه من العدم إلى الوجود، وكذلك كان منطق المؤمنين.

● وأمّا واقع هذا الكون فقد دلّ الباحثين من العلماء المادّيين على أنه حادث، وهو سائر وصائر إلى الفناء.

جاء في مقال كتبه «إداورد لوثركيسل»[1] أستاذ الأحياء، ورئيس القسم بجامعة: «سان فرانسيسكو»:

«يرى البعض أنّ الاعتقاد بأزلية هذا الكون ليس أصعب من الاعتقاد بوجود إلّه أزلي.

ولكنّ القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحراريّة يثبت خطأ هذا الرأي، فالعلوم تثبت بكلّ وضوح أنّ هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليّاً.

ولا يقتصر ما قدّمته العلوم على إثبات أنّ لهذا الكون بداية، فقد أثبتت فوق ذلك أنّه بدأ دفعة واحدة منذ نحو خمسة بلايين سنة، والواقع أنّ الكون لا يزال في عمليّة انتشار مستمرّ تبدأ من مركز نشأته.

لو أنّ المشتغلين بالعلوم نظروا إلى ما تعطيهم العلوم من أدلة على وجود

---

(١) انظر كتاب «الله يتجلّى في عصر العلم».

الخالق بنفس روح الأمانة والبعد عن التحيّز الذي ينظرون به إلى نتائج بحوثهم، ولو أنّهم حرَّروا عقولهم من سلطان التأثر بعواطفهم وانفعالاتهم، فإنّهم سوف يسلّمون دون شكٍّ بوجود الله.

وهذا هو الحلّ الوحيد الذي يفسّر الحقائق، فدراسة العلوم بعقل متفتّح سوف تقودُنا دون شكّ إلى إدراك وجود السبب الأول الذي هو الله».

أفي الله شكٌّ فاطر السماوات والأرض؟!.

وللتحقق من ظاهرة الحدوث في الكون لا بد لنا من أن نتتبع بالنظر وبالدراسة الموجودات الكونية، سواء منها الموجودات المادّية المدركة بالحسّ، والموجودات الأخرى الخارجة عن نطاق الإدراك الحسّيّ، والتي نستنتج وجودها في هذا الكون الذي ندرُسُه، بالتأمّل الفكري، وبدلائل العقل.

وقد أثبت هذا التتبّع، للناظر العادي في الظواهر، وللمفكر المتأمل الباحث وراء الظواهر، وللمتتبع الباحث بوسائل العلم التجريبي، أنّ حوادث التغيّر لا تنفكُّ عن كلّ صغير وكبير في هذا الكون، سواءٌ أكان ظاهراً في السطوح، أو باطناً وراء السطوح، حتى أعماق الأعماق، وكلّما تغلغل الباحثون في الأعماق اكتشفوا ملازمة أصغر صغير في مستوى العمق الذي بلغوه لصفة التغيّر الدائم في هذا الكون، مركباته وبسائطه، كلّياتِه، وجزئيّاته، حتى كلّ جزءٍ في أيّ شيء مفرد أو مركّب.

● هذه التحاويل الكونية في المواد الكيميائية حوادث متتابعة باستمرار لا ينقطع.

● وهذه الأعراض الفيزيائية في الكون حوادث متتابعة أيضاً باستمرار لا ينقطع.

● ونشهد البزور مع التراب والماء من حولها تتحوّل إلى نبات، وأشجار وثمار، وبزور أمثال أصولها. ثمّ تتحوّل إلى هشيم أو رماد، ويتفتت الهشيم، ثم يتحوّل إلى عناصره الكيميائية والفيزيائية البسيطة أوالمركّبة.

● ونشهد الأغذية على اختلافها تتحوّل إلى دماء في الأحياء، وإلى سائر عناصر أجسامها من لحم وعظم وعصب ودهن وغير ذلك، وتتحوّل إلى نطف وإلى بُيَيْضات، ثم إلى أحياء أخرى لها وحدات مستقلة في صفاتها وأعراضها، وخصائصها وأعمالها وطبائعها.

● ونشهد الحركة الدائبة والتغيّرات المصاحبة لها في هذه الأجرام السماوية السابحة في أفلاكها، وفي عوالم المجرّات الكونيّة الكبرى، كما يذكر علماء الفلك.

● وأنبأنا علماء الذّرّة عن الحركة الدائبة في الذّرّات، لدى حديثهم عن صفاتها وخصائصها وأليكتروناتها السالبة والموجبة. وشهدنا الآثار التي استفادوها من الطاقة الذريّة المنغلقة بدورانها في أفلاكها الصغرى.

● وأنبأنا علماء الفيزياء عن تحوّل الصوت إلى كهرباء، وتحوّل الكهرباء إلى اهتزازات في الفضاء، ثم تعود كارَّة حتى تظهر أصواتاً في الأجهزة اللاّقطة، وكذلك الصور والأشكال والألوان. وشهدنا آثار هذه التحولات بحواسّنا الظاهرة.

● ونشهد ظاهرة التحوّل والتغيّر في تبخُّر الماء وتجمُّعه سحباً، ثم في تكاثفه وهطوله غيثاً يحمل الخير والخصب لأرض مجدبة ميّتة عطشىٰ.

● وأنبأنا علماء الطبيعة عن تحوّل الفحم إلى ألماس في الأزمان الطويلة، بتأثير الحرارة والضغوط، وعن تحوّل الصخور بمرور الدّهور من صفة إلى صفة، ومن وضع إلى وضع آخر بتأثير أنواع الحرارة والضغوط أيضاً.

● ونشهد التغيّر في تعاقب اللّيل والنهار، وطلوع الشمس والقمر وغروبها، وظهور النجوم وأفولها. وفي تعاقب الفصول السنوية. وتعاقب الحرّ والبرد.

● ونشهد ذلك في ظاهرتي الحياة والموت. وأنت خبير أنّ الحياة أكبر

ظاهرة من التحوّل عجيبة، يولد سرّها مع الأحياء كميناً مجهولاً فيها، ثمّ يموت سرّها مع الأحياء إذا ماتت.

● وهكذا إلى أشياء أخرى كثيرة لا تتناهى بالسبر البشريّ لها، فلا تستقصىٰ ولا تحصر. ومنها أشياء تكون حالة التغيُّر فيها ظاهرةً سريعة، كالحيوان والنبات، أو بطيئة لا تظهر لمشاهدتنا إلاّ بعد مرور ألوف أو ملايين السنين عليها، كالتغيُّرات الكونية التي تظهر في عوالم النجوم، وفي الأجسام الصلبة الجامدة.

إننا نعيش إذن في عالم نستطيع أن نسميّه: «عالم المتغيّرات». بعد ذلك نقول:

إنّ التغيّر لا ينفكّ عقلاً عن معنىٰ الحدوث، حتى لأبسط أنواع التغيّرات المشهودة، وهو التغيّر المكاني، أي: انتقال الشيء من مكان إلى مكان آخر.

فلو فرضنا أنّ جسماً من الأجسام حصل له تغيُّر في المكان، أي: انتقال من مكان كان فيه إلى مكان آخر لم يكن موجوداً فيه، لكان معنى ذلك أنه حدث له وجود في المكان الذي انتقل إليه، وحدث له انعدام وجود في المكان الذي انتقل منه، فالظاهرة هي حدوث وجودٍ في مكان، وحدوث انعدامِ وجودٍ من مكان آخر.

هذا في التغيّرات المكانيّة، فكيف يكون الأمر بالنسبة إلى التغيّرات الجوهريّة، التي تتناول التغيّرات في التركيب والصفات والخواص، وأشباه ذلك.

ثم نقول:

ولدى ملاحظتنا للقوانين العامّة لهذا الكون، التي لم تتخلّف في شيءٍ منها، والتي هي من الأمور الْبَدَهيّة في نظر العقلاء، وفي معارف العلماء التجريبيّين، نرى أنه لا بدّ لكلّ تغيّر يحدث في أيّ جزء من أجزاء هذا الكون على سعته العظيمة من سبب ما أثّر فيه تأثيراً يكفي لأن يحوّله ويغيّره من وضع كان فيه إلى وضع انتقل إليه.

ثم نقول: إن أبسط أنواع التغيّرات وهو التغيّر المكاني لا يسلّم عاقل من العقلاء أنه يحدث بنفسه من غير سبب يؤثر فيه، تطبيقاً لمبدأ السببيّة البدهيّ في عقولنا، والمقتبس من واقع الكون القائم على الاستقراء الصحيح. وهو أحد قوانين هذا الكون الثابتة.

وهذا القانون يهدينا إلى أنّ هذا الكون المليء بالمتغيرات، والذي لا يوجد شيء فيه يتمتّع بثبات مطلق، لا بدّ له من سبب في وجوده وتغيّراته، ولا بدّ أن يكون السبب الأول لحدوثه أزليّاً واجب الوجود عقلاً، وإلاّ احتاج هو أيضاً إلى سبب لوجوده كحال هذا الكون الحادث المتغيّر.

ويظهر لنا أنّ قانون السببيّة لحدوث التغيّرات في الأشياء، ولحدوث الشيء من العدم، هو من القوانين البدهيّة التي لا يقبل عاقل من العقلاء التخلّي عنها بحال من الأحوال، حينما تحدث في حياتنا تغيُّرات تُهِمُّنا وتَتَعَلَّق بمصالحنا في الحياة، إذ نجد أنفسنا نجري وراء التعرّف على السببِ الذي نجم عنه ذلك التغيّر، ولا نقبل بحال من الأحوال احتمال أنه حدث بنفسه تلقائيّاً دون سبب.

تصوّر لو أنّك وضعت في صندوقك المقفل ما جمعته من ذهب وفضّة في صرّة ذات أوصاف متميّزة عن غيرها، ثمّ غبت عنه يوماً، ورجعت إليه بعد ذلك، فلم تجد صُرّة نقودِك، وبعد البحث الشديد والتحرّي الطويل وجدت نقودك كلّها داخل صرّتك الخاصّة في صندوق جارٍ لك.

ولّما ثبتت أنّها هي نقودُك وصُرَّتُكَ فِعلاً ادّعى أمام القاضي أنّها انتقلت إلى صندوقه بنفسها، وادَّعى أنه رآها تمشي في الهواء بنفسها متجهة لصندوقه، وما زالت العقبات تذلَّل في الطريق دون وساطة أحد، فتنفتح مغاليق الأبواب بنفسها، وتنشقّ الجدران بنفسها، وهكذا أخذ يدّعي دعاوى يؤلّفها تأليفاً خرافياً من خياله، حتى وصلتْ إلى صندوقه، ودخلت فيه، وهو لا يعلم من أين جاءته؛ وقد فرح بها، وظنّ أنّها اختارته دون غيره.

لو ادّعى من وجدتَ نقودك عنده هذه الدعاوى فهل تصدّقه؟. وهل يوجد عاقل في الدنيا يصدّقه أو يُسَلّم بما يقول؟.

إنّ هذا التغيّر المكاني الذي هو أبسط وأهون أنواع التغيّرات، يرفض جميع العقلاء أنّه حدث بنفسه.

فكيف يكون حال التغيّرات الجوهرية، في التحليل والتركيب، وتحوّل التراب إلى أغذية، والأجساد التي لا حياة فيها إلى أجساد حيّة متحركة، دبّت فيها الحياة، فأصبح منها المدرك العاقل ذو القوّة الفائقة التي يستطيع بها أن يفعل الأعاجيب، ويستخدم قوى الكون الكامنة، فيتصرّف بها تصرّفات عجيبة، ولربما استطاع أن يطلق من مكامن القوى في الكون قوى تبدّد المدن والقرىٰ، وتزلزل الجبال الراسيات، وتثير التيارات الكبرى في المحيطات.

ويريد منا الملحدون أن نلغي عقولنا، ونلغي أدلّة العلم الصحيح، وأدلّة المشاهدة الاستقرائية التي هدتنا إلى قانون السببيّة في الوجود، فنعتقد معهم اعتقاداً خرافيّاً غيبيّاً لا دليل عليه مطلقاً أنّ الأحداث الكونيّة كلّها والتغيّرات التي تجري في الكون إنما تحدُثُ بنفسها بطريقة آلية ذاتية، دون أن يكون وراءها قويٌّ عليم حكيم ذو إرادة واختيار، كان هو السبب في كلّ هذه الأحداث والتغيرات.

يريد الملحدون منا أن نعتقد مثلهم بأنه لا وجود لربّ خالق لهذا الكون، دون أي سند من العقل، ودون أيّ سند من العلم. مع أنّ قانون الوجود ينطق بأنّه لا حدوث ولا تغيّر إلاّ بسبب، وهذا القانون مطّرد لا استثناء له.

أمّا السبب فيشترط فيه عقلاً وواقعاً أن تكون لديه الصفات التي تؤهلّه لإحداث المسبَّب. أو إحداث التغييرات التي حدثت فيه، وإلاّ لم يكن سبباً، أو كان سبباً ناقصاً يحتاج إلى ما يكمّله.

فالمركبة التي تزن وتحمل عشرين طنّاً تحتاج إلى مقدار من الطاقة قادر على جرّ عشرين طنّاً وزيادة، سواءٌ أكانت هذه الطاقة في شيء واحد، أو في عدّة أشياء تجتمع على جرّها.

والعمل الفنيّ البديع يحتاج إيجاده إلى مهارة وقدرات فنّية كافية لإحداثه وعمله.

والآلة الصناعية المعقّدة يحتاج صنعها إلى علم بالميكانيكا وهندستها مكافىء لصنعها، ويحتاج إلى مهارة عملية في الصنع.

والقصيدة الشعريّة الرائعة لا ينظمها إلّا شاعر مطبوع فحل يملك موهبة شعرية مكافئة لإنتاجها.

وخالق القوى والقدرات لا بدّ أن يكون قوياً متيناً له من صفة القدرة ما يستطيع به أن يخلق القوى.

ومن هو سبب في إيجاد الحياة لا بدّ أن يكون حيّاً.

ومن هو سبب في إحداث العمل المُتْقَنِ الحكيم مع إمكان إحداث ما هو دون ذلك، لا بدّ أن يكون عليماً مريداً مختاراً حكيماً.

ومن هو سبب في إحداث كل متغيرات هذا الكون لا بدّ أن يكون له كلّ صفات الكمال، ولا بدّ أن يكون منزّهاً عن صفات النقصان.

ولمّا كانت عناصر هذا الكون سواءٌ أكانت عديمة الحياة أوكانت ذات حياة، لا تملك إحداث هذا الكون ولا إحداث الحياة فيه لأنها هي بذاتها محتاجة إلى من يحدثها ويوجدها، كان لا بدّ لهذا الكون كلّه ولكل التغيّرات التي تجري فيه من سبب أوّل وراء الظواهر متّصِفٍ بأنه حيٌّ عليم مريد قدير حكيم سميع بصير رؤوف رحيم إلى سائر صفات الكمال، وهوخارجٌ عن حدود الكون ومتغيّراته، وعنه صدرت هذه القوىٰ الكونية الكبرى، وتمّت بخلقه هذه التغيّرات الكونية المذهلة، والحوادث العجيبة، وبخلقه دبّت صورة الحياة في الأجساد الحية، وبعطائه ظهرت العقول والأفكار القابلة للعلم والمعرفة، وبعلمه وإرادته وحكمته ظهرت المتقَناتُ البديعة العظيمة، وبرحمته رعىٰ عبادَهُ بكل أسباب العناية بهم.

ويوجب العقل أنه لا بدّ أن يكون منزّهاً عن التَّغَيُّر والتحوّل والضعف، ولا بدّ أن يكون ثابت الصفات، واجب الوجود في ذاته، وفي صفاته، وإليه تنتهي سلسلة الأسباب كلّها، و عنده تقف.

ولمّا كان قانون السببيّة من القوانين البدهيّة في عقول الناس، على اختلاف مستوياتهم الفكرية والعلميّة، كان هو الهادي إلى الإيمان بالرّبّ الخالق، كثيراً من الناس على اختلاف مستوياتهم وبيئاتهم، من الطفل المتفتّح على نجوم السماء، إلى بدويّ الصحراء، إلى كبار الفلاسفة والعلماء. وكان هو الحجّة الملزمة للملاحدة المستكبرين الأشرار، والفاسقين الفجّار.

وقد ذكروا في مناقب الإمام أبـي حنيفة رضي الله عنه، أنّ فريقاً من الملحدين طلبوا إليه أن يجادلوه في الله، وتَحَدَّوْه أن يُقيم لهم الدليل على وجوده، فذكر لهم موعداً يأتيهم فيه للمناظرة.

ولّما حان الموعد تأخّر عنهم وهم ينتظرون، فضجُّوا وتَصَوَّروا أَنّه تهرّب من لقائهم، ومناظرتهم، ثمّ قدم عليهم يسرع الْخُطَىٰ.

فعاتبوه في التأخر، فذكر لهم عذراً اصطنعه، وهو أنه لم يجد صاحب زورق ينقله إلى مكان الموعد من الشاطىء الثاني للنهر، ولّما يئس، وَهَمَّ بالرجوع إلى منزله، رأى ألواحاً من الخشب قادمة بنفسها، ثم صارت تنضم على أنفسها حتى صارت زورقاً، فعجب لها، ولما رآها زورقاً متقن الصنع ركبه وقدم إليهم.

فقالوا له: أتهزأُ بنا، كيف يصنع زورق نفسه بنفسه؟ فقال لهم: هذا ما اجتمعتم لتجادلوني به، إنّكم لم تصدّقوا أنّ زورقاً يصنع نفسه بنفسه، وتؤمنون بأنّ هذا الكون العظيم قد صنع نفسه بنفسه. فبهتوا، وآمن من آمن منهم.

وكتب «أندور كونواي إيڤي» وهو من العلماء الطبيعيين ذوي الشهرة العالمية، مقالاً بعنوان: «وجود الله حقيقة مطلقة» جاء فيه ما يلي[1]:

«إنّ أحداً لا يستطيع أن يثبت خطأ قانون السببيّة، فبدونه تنعدم جميع الأشياء الحيّة، والعقل البشري لا يستطيع أن يعمل إلاّ على أساس السببيّة. إنّني أسلّم أن لقانون السببيّة وجوداً حقيقيّاً».

---

(١) من كتاب «الله يتجلّى في عصر العلم».

وقد أرشدنا القرآن الكريم إلى قانون السببيّة الدالّ على وجود الرّب الخالق في مواضع كثيرة منه.

ولئن عبّرنا نحن بلفظ السبب ومعنى السببيّة، فإنّ القرآن الكريم قد جاء فيه التعبير عن سبب الأسباب كلّها، باللّفظ الأدقّ، الذي يتناسب مع صفة الربوبّية، وهو لفظ الخلْق ومشتقاته، ذلك لأن السببيّة متى انتهت إلى العليم الحكيم المريد المختار القدير على ما يشاء كانت خلقاً.

فلكل صورة من صور التغيّر والحدوث في هذا الكون خَلْق ربّاني، كان هو السبب الحقيقيّ وراء الظواهر في حدوث ظاهرة التغيّر، فالأسباب التي نشاهدها لها أسباب وراءها وخالق يمدّها بقواها السببيّة، وحينما تنتهي سلسلة الأسباب الكونية يتوقف الفكر، ويجد نفسه تجاه حقيقة الخلق الرّبّاني.

ومن النصوص التي أرشدت إلى قانون السببيّة ما يلي:

١ ــ قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

٢ ــ وقول الله عزّ وجل في سورة (النور ٢٤):

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾

يزجي: يسوق برفق. **رُكاماً**: مجتمعاً بعضه فوق بعض. **الودق**: المطر. **سنا برقه**: ضوء برقه.

هذه الآيات القرآنية وأمثالها تتحدّث عن ظاهرة التغيّرات الكثيرة التي نشاهدها في هذا العالم، وترشدنا إلى أنّ هذه التغيّرات لا بدّ لها من سبب، وأنّ سببها الحقيقيّ الأوّل لا بدّ أن ينتهي إلى معنى الخلق الذي هو تقدير وقضاء، وذلك لا يكون إلاّ من صفاتِ ربّ خالق عليم حكيم قدير يفعل ما يشاء ويختار.

وعلى طريقة الإيجاز القرآني واختصار سبيل الحجّة ذكرت النصوص القرآنية الخلق من أوّل الأمر.

فتحويل التراب مع الماء إلى غذاء، وتحويل الغذاء بوساطة أجهزة ذات وظائف في الكائن الحيّ إلى دماء، وتحويل الدماء إلى نطف، وتحويل النطف بعد اللقاح إلى بشر سويّ منه الذكر والأنثى، وإزجاء السحاب والتأليف بينه، وجعله ركاماً، وإخراج الودق من خلاله، وإنزاله على أرض وفق المشيئة، وإضاءة البرق وسط السحب، وتقليب الليل والنهار، وتحويل الماء إلى دوابّ حيَّةٍ، وجعل الدواب على أنواع مختلفة، وأصناف متعدّدة، كلّ هذه التحويلات والتغييرات والأحداث ونظائرها من صور التغيّرات الكونية المتعاقبة، تتطلّب في حكم العقل أسباباً مؤثرة، وقد عرفنا أنه متى انتهى السبب المؤثر إلى السبب الحقيقي الذي هو سبب الأسباب كان ذلك خلقاً لا محالة، إذْ لا يمكن عقلاً أن يكون سبب الأسباب لهذه الظاهرات المتقنة الحكيمة إلاّ قادراً عليماً مريداً حكيماً حيّاً سميعاً بصيراً مهيمناً على كلّ شيء، وكلّ أفعاله خلق، لذلك فهو جلّ وعلا يخلق ما يشاء ويختار، وهو على ما يشاء قدير.

وهكذا يهدينا قانون السببية المهيمن على كلّ حادثة تغيّر في الكون إلى معرفة وجود الخالق العظيم الله ربّ العالمين، الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، وهو على كلّ شيء قدير.

وكتب المهندس «كلودم. هاثاواي»[1] مصمّم العقل الألكتروني للجمعيّة العلمية لدراسة الملاحة الجوية بمدينة «لانجلي فيلد» في مقال له بعنوان: «المبدع الأعظم» فتحدّث عن القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحراريّة، وما يدلّ عليه هذا القانون من أنّ لهذا الكون بداية، فهو بحاجة إلى خالق بدأه. ثم قال:

«إنّ هذا الكون ليس إلّا كتلة تخضع لنظام معين، ولا بدّ له إذن من سبب أولّ لا يخضع للقانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية، ولا بدّ أن يكون هذا السبب الأوّل غير مَادّيّ في طبيعته. إنّه هو اللطيف الخبير الذي لا تدركه الأبصار».

□ □ □

(١) من كتاب «الله يتجلّى في عصر العلم».

الفصل الخامس

دليل الإتقان

(١)

من أعظم ما يدهشنا في أنفسنا وفي الكون من حولنا هذا الإتقان العجيب، في الصنع والتركيب.

فما ننظر ولا نتفكر في شيء مما في الأرض أو في السماء إلّا نجده في غاية الإتقان، مركّباً أحكم تركيب يؤدي به إلى غايته التي خلق من أجلها، باعتباره جزءاً من وحدته التي هو أحد أجزائها، أو باعتباره فرداً في مجموعة هو واحد من نوعها، أو باعتباره مجموعة هي واحدةٌ من جنس مجموعات كثيرة، كلّ ذلك في جملة هذا الكون الذي تنتظمه وحدة مهيمنة، لا يستطيع أيّ جزء منه أن يتحرّر منها، أو يفلت من قوانينها.

● أليس من الإتقان العجيب هندسة هذا الكون، في مخطّط كواكبه ونجومه، ومجرّاته، وحركات كلِّ شيءٍ منها في فلكه، حتّى إنّ التغيير الكبير فيها قد يؤدي إلى الخلل والنقص؛ أو الخراب والفساد؟.

سلْ عالم الفلك يظهر لك من إتقان الكون ما هو فوق الدهشة والحيرة.

● أليس من الإتقان العجيب المدهش خلق هذا الإنسان وتقدير عناصره، وخلاياه، وأعضائه، وأجزائه، ووظائفها، وأعمالها وحركاتها، وتقديرُ صفاته الظاهرة والباطنة؟.

سل عالم التشريح، وعالم وظائف الأعضاء، وعالم الأحياء، وعالم النفس، يبيِّنوا لك من إتقان صنعه عجباً يدهش العقول ويُحيّر الألباب.

● أليس من الإتقان البديع المحيّر هذه المجموعات الكبرىٰ في عالم الحيوان، سواء منها الطائر والسابح، والماشي، والزاحف، بأنواعها المختلفة، المتقنة في أشكالها، وأوضاعها، وألوانها، وخواصّها، وطبائعها، وطرق عيشها، كبيرها وصغيرها؟.

سلِ علماء الحيوان عن عجائب وغرائب ما في الحيوانات، وعن إتقان تكوين كلٍّ منها، يبدون لك من أمورها عجباً يُسْلِمُك إلى الحيرة والدهشة، والإعظام والإكبار لمتقِنِ صنعها وخلقها، وتقدير كلّ شيءٍ فيها.

● أليس من الإتقان البديع المدهش المحيِّر هذه المجموعات الكثيرة في عالم النبات، سواءٌ منها أشجارها، وزروعها، هوائيّها ومائيُّها، بثمارها، وأزهارها، وجذورها، وفروعها، وبزورها، وأوراقها وأخشابها، ولَدْنها، وصُلبها، وألوانها، وأشكالها، وطعومها، وروائحها، وصفاتها، وتأثيرها، وخصائصها؟.

سل علماء النبات عن النباتات، يشرحوا لك من أمرها عجباً، ويبيّنوا لك من إتقان صنعها، وتسخيرها لأداء وظائفها، ما يفجّر في قلبك الإيمان بصانعها العظيم الذي أتقن كلّ شيءٍ صنعاً.

● أليس من الإتقان البديع تكوين الأرض، يابسها، وبحرها، وجبالها، وأغوارها، ووديانها، وسهولها، وصخورها، ورمالها، وأتربتها، ومعادنها، وينابيعها، وأنهارها، وألوانها، وطرُقها، وحرّها، وبردها، وفصولها، وليلها ونهارها، وسيرها في فلكها، ودورانها حول محورها، وجميع صفاتها وخصائصها؟.

سل علماء الجغرافية، وعلماء الكيمياء، وعلماء طبقات الأرض، وكلّ عالم ذي اختصاص بجانب من جوانبها، يُظهروا لك من إتقان تكوين الأرض عجباً يهديك إلى رشدك، ويعرّفك بأنّ خالقها ومقدّر كلّ شيءٍ فيها هو العليم الحكيم القدير الذي أتقن كلّ شيءٍ صنعاً.

● وكلّما ازداد الناس علماً وخبرة وتجربة ازدادت لديهم الآيات الكونية الدّالّات على الخالق العليم الحكيم القدير الذي أتقن كلّ شيءٍ صنعاً.

وذلك لأنّنا لا نرى ترتيباً متقناً محكماً في أيّ مركّب من المركّبات، إلاّ استدعى ذلك التفكيرَ بمن أتقنه وأحكم صنعته، ورتّبه هذا الترتيب الملائم للغاية منه.

فاحتمال الإتقان الموافق للحكمة في مركّباتٍ تزيد أجزاؤها على عشرة أجزاء، ذو نسبة عدديّة ضئيلة جدّاً، بالنظر إلى الاحتمالات الأخرى غير المتقنة التي تفوق الحصر، والتي يمكن أن تتألّف هذه المركبات على وفقها، لو أنّها كانت على سبيل المصادفة.

وإنّ عقولنا متى لاحظت مركّباً على وجه الإتقان والحكمة فإنّها لا شكّ تفرض بداهة أنّ متقناً حيّاً عالماً قادراً مريداً حكيماً قد أتقن ترتيبها. وهي ترفض رفضاً قطعيّاً أن يكون ترتيبها قد جاء على طريقة المصادفة، لأنّ صورة الإتقان على سبيل المصادفة في المركّبات ذات الأعداد الكبيرة من المستحيلات في مألوف العقلاء، ومن المستحيلات أيضاً لدى الحسّاب الرياضيين.

وفي الأمثلة القريبة المتكرّرة في حياتنا نلاحظ ما يلي:

١ ــ ندخل داراً فنرى أثاثها مرتباً بنظام حسن موافق للمصلحة، فنقول بداهة: إنّ هذا الترتيب لم يأتِ عن طريق المصادفة بلا ريب، وإنما هو أثر فعل فاعل مختار ذي نظر صحيح.

٢ ــ ونرى ثوباً محكم التفصيل محكم الخياطة، فنحكم بداهة أنّ خيّاطاً ماهراً قد أتقن صنعه تفصيلاً وخياطة، ولم يظهر محكماً على هذا الشكل بنفسه مصادفة.

٣ ــ ونرى آلة ميكانيكية أو كهربائية أو ألكترونية متقنة التركيب، تؤدي وظائفها المقصودة منها أداءً حسناً، فنحكم بداهة أن صانعاً مهندساً عليماً ماهراً

قد أتقن صنعها، ولم توجد محكمة بهذا الشكل التي هي عليه مصادفة، ولم تصنع نفسها بنفسها.

أفلا نؤمن بالخالق الحكيم العليم العظيم، بالله ربّ العالمين، من دلالات مكوِّنات كثيرات لا تحصى في هذا الكون الكبير، كلُّ مُكوَّن فيها متقنٌ غاية الإتقان، إذ نلاحظ بالتأمل الفكري والتجربة العلميّة، أنّ كلَّ جزء فيه موضوع في مكانه الملائم، ونلاحظ أنّ بعض الأجزاء لو وضع في غير مكانه الذي هو فيه، لتعطّلت الحكمة منه، ولاختلّت المصلحة الكبرى، ولو وضع غيره في مكانه لحصل الخَلَلُ أيضاً في الترتيب والنظام ووجه الإتقان.

إنّ إتقان الصنعة في العالم الزاخر بالمتقنات دليل واضح على الخالق المتقِن الحكيم العليم، يشهدُه من الناس العالم والجاهل، والغبيّ والعبقري، والصغير والكبير، ويحكم به بداهة ـ إلاّ من استكبر وأبىٰ، وعاند وبغىٰ ـ بأنّ الله حقّ، وأنّه على كلّ شيءٍ قدير.

وليس فوق حكم البداهة حكمٌ لعاقل، وقد نبَّهنَا القرآن على دليل الإتقان الدّال على الخالق المتقن الحكيم العظيم، في آيات كثيرات، منها:

١ ـ قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل ٢٧):

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

فأرشدتنا هذه الآية إلى ظاهرة الإتقان في كلِّ شيء، لننتقل بأفكارنا من ظاهرة الإتقان إلى أنّه صفة عليم حكيم قدير متقن، وبذلك تثبت لدينا حقيقة وجود الرّب الخالق عزّ وجلّ، ثم ننتقل إلى حقيقة إلٰهيَّته، فنعبده وحده لا شريك له.

٢ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النبأ ٧٨):

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا

نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾.

فلفت الله عزّ وجلّ أنظار عباده في هذه الآيات القرآنيّة إلى آياتٍ كونيَّةٍ فيها إتقانٌ بديع دالٌّ على المُتْقِن العليم الحكيم، الذي يفعل ما يشاء ويختار، ومع الإتقان العناية بعباده، في جعل المتقنات مشتملات على نِعَمٍ عظيمة لهم، فهي تحقّق بتصاريفها مصالحهم ومنافعهم ومعاشهم وراحتهم ومَتاعهم في الحياة الدنيا.

فمن استبصر في هذه الآيات الكونيّة هدَتْهُ إلى توحيد الرُّبوبيّة وعظيم صفات الربّ عزّ وجلّ في الخطوة الأولى، ثُمَّ إلى توحيد الإلَهيّة له سبحانه في الخطوة الثانية، ثم إلى واجب حمده وشكره وعبادته وطاعته واتباع شريعته لعباده.

ولفت الله فيها نظر الناس إلى دراسة واقع الأرض لاكتشاف آياته فيها، وآياتُه فيها هي آثار صفاتِ علمه، وحكمته، وإرادته، وقدرته، ورحمته بعباده، وعنايته بهم، وإنعامه عليهم.

وإلى دراسة الجبال، وخلق الأحياء أزواجاً، وجعل النوم سباتاً، وجعل الّليل لباساً، وجعل النهار معاشاً، وخلق السماوات السبع الشداد، وجعل الشمس سراجاً وهّاجاً، وإنزال الماء من السحب المثقلة بما تحمل من ماء، لإخراج الحبّ والنبات، والجنات الألفاف.

ففي هذه المتقنات التي لفت القرآن أنظار الناس إلى التأمل فيها ودراستها دراسة علميّة، مجالات رحبةٌ جدّاً للباحثين من العلماء، إذْ تتكشف لهم آيات جليلات من آيات الله التكوينيّة، تهديهم إلى حقيقة وجوده، فكمال صفاته، فوحدانيّته في ربوبيّته وإلهيّته، فواجب حمده وشكره وطاعته وإخلاص العبادة له.

٣ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (عبس ٨٠):

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾.

فلفت الله عزّ وجلّ أنظار عباده في هذه الآيات القرآنية أيضاً، إلى آياتٍ من آياته الكونية، فيها إتقانٌ، وعنايةٌ، ونِعَمٌ جليلة من الله على عباده، نظير منهج الآيات التي سبق الاستشهاد بها من سورة النبأ.

وهذه الآيات من سورة (عبس) لفتت أنظار العباد إلى واقع حالهم ومبدأ خلقهم وتطوّراته، وإلى نهايتهم في هذه الحياة الدنيا، وإلى طعامهم الذي هو مادّة بقاء حياتهم، وكيف أنّ العناية الرّبّانية ترافقه، مع إحاطته بالأنظمة والقوانين الملائمة، الكفيلة بكفاية الناس، وكيف أنّ العناية الرّبّانية أمدّتهم بما يتفكّهون به من طيبات، وبما يستمتعون به من شهيّات.

وفي لفت النظر إلى دراسة هذه المتقنات المحاطة بالعناية، والمشتملة على نعم جليلة، توجيه لمجالات رحبة واسعة، يستغرق فيها الباحثون العلميون أجيالاً فأجيالاً، وفي كلّ مرحلة من مراحل بحوثهم تتكشف لهم آيات جليلات من آيات الله التكوينيّة، تهديهم إلى حقيقة وجوده، فكمال صفاته، فوحدانيته في ربوبيته وإلهيته، فواجب حمده وشكره وطاعته وإخلاص العبادة له.

٤ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

ففي هذا النصّ يلفت الله نظر عبادِهِ إلى السماء وما فيها من بروج، وإلى الشمس المشتعلة باللّهب كالسّراج، وإلى القمر المنير بانعكاس الضوء عنه، وإلى نظام اللّيل والنهار إذ يخلف كلّ منهما صاحبه وما فيهما من منافع للناس، من جملة آياته التكوينية في كونه الكبير.

وهذه الآيات الكونية مجالات رحبة أيضاً للدارسين الباحثين من العلماء، كسائر آيات الله في الكون، وهي جميعها تهدي ذوي الألباب إلى حقيقة وجود الرّبّ الخالق، فكمال صفاته، فوحدانيته في ربوبيته وإلٓهيته، فواجب حمده وشكره وطاعته، وإخلاص العبادة له.



(٢)

وظاهرة العمل المتقن تدلّ على صفة الإتقان لدى من قام به، والإتقان لا يكون إلّا من عليم خبير، فالقصر الجميل المتقن في بنائه، المتقن في هندسته، المتقن في أثاثه وتزييناته، يدلّ بداهة على أنّ من هندسه وبناه وأثّثه وزيّنه إنسان متقن، خبير بالهندسة، حسن الذّوق في اختيار الأثاث وتزيين القصور.

والمكنة الآلية التي تؤدي عملها أداءً جيّداً، تدلُّ بداهةً على أنّ مبتكرها وصانعها ذو معرفة بالآلات الصناعية وهندستها وذو مقدرة على الابتكار.

والإتقان يستلزم العلم، ويستلزم الحكمة، وهي حسن اختيار الاحتمال الأفضل من الوجوه المختلفة الممكنة، ويستلزم أيضاً القدرة على التنفيذ.

فإذا بدت ظاهرة الإتقان في العمل دلّت على أنّ من قام بهذا العمل لديه من العلم والحكمة والقدرة على التنفيذ بمقدار ما يتطلّب هذا العمل من علم وحكمة وقدرة. ويرجّح الفكر احتمال كون العامل يتمتع من هذه الصفات بنسبة أكثر.

وظاهرة العمل الكبير الضخم الذي يتطلّب قدرة عظيمة، تدلُّ بداهة على أنّ من قام بهذا العمل الكبير لديه من القدرة المباشرة أو غير المباشرة ما يكفي للقيام به، ولولا ذلك لما استطاع القيام بما قام به.

إننا حينما نرى رافعة آليّة قد استطاعت أن ترفع عشرين طنّاً فإننا ندرك بداهة أنّ في هذه الآلة قدرةً على رفع هذه النسبة من الوزن.

وحين نرى إنساناً استطاع أن يحمل على ظهره صندوقاً حديديّاً وزنه يعادل

طنّاً، فإننا نُقرر أنّ هذا الإنسان لديه على الأقلّ قدرة على حمل ما يزن طنّاً.

وحين تنفجر قنبلةٌ ذرّيّة فتنسف أبنية مدينة فتجعلها دماراً، فإننا ندرك بداهة أنّ لديها من قوّة الانفجار ما يدمّر مثل مساحة هذه المدينة. وهكذا.

وحين يحتال إنسان فيصل إلى المكان الخفيّ الخاصّ بتحريك قوّة كامنة، فيضغط عليه ضغطاً يسيراً، أو يحركه تحريكاً خفيفاً، فتنفجر بذلك قوة هائلة مدمّرة، أو تتحرّك آلات كثيرة ضخمة، فإننا ندرك أن هذا الإنسان يملك من قوة الحيلة، والمعرفة بمكامن القوّة، والمواضع الخفيّة لتحريكها، قدراً يكافىء العمل الذي قام به، لا سيّما إذا استطاع تكرير عمله في مختلف الظروف، وعند الحاجة، وحسب الغاية المقصودة، وتأكّدنا أنّ عمله لم يكن حركة عشوائيّة على سبيل المصادفة، ولمرّة واحدة.

ومتى اجتمعت صفات القدرة والعلم وحسن الاختيار في موصوف واحد، كان ذلك دليلاً على أنّ هذا الموصوف حيٌّ لا ميّت، ولا مادّة عديمة الحياة، لأنّ كلّ مادّة عديمة الحياة لا تكون عليمة ذات إرادة حرّة وحُسْن اختيار.

وحين أرشد القرآن الناس فلفت أنظارهم إلى ظواهر هذا الكون المملوء بالمتقنات البديعة، والمحكمات العجيبة، والمصنوعات الدقيقة، التي لم توجد أنفسها، ولا تتحكّم بذواتها بعد وجودها، فقد دلّهم بذلك على أنّ متقنها ومُحكمها ومُبدعها وصانعها قدير عليم حكيم حيٌّ. وقد دلّهم بذلك أيضاً على أنّه يرعى كونه بالتدبير الحكيم دائماً، وذلك لأنّ تصاريف أحداث هذا الكون وحركاته الدائمة مقرونة بالحكمة والتدبير والعناية.

لذلك لا بدّ أن يكون مدبّراً لأمره، ولا يملك تدبير أمر هذا الكون الكبير إلا محيط به حكمة وعلماً وقدرة، ومهيمنٌ عليه، ومسيطرٌ على كلّ صغير وكبير فيه، ومن كان كذلك كان هو المالك له، والملِكَ الحاكم على الأحياء فيه.

بهذا الترابط الفكري المقتبس من دراسة ظواهر هذا الكون، علمنا أنّ وراء هذه الظواهر قديراً، عليماً، حكيماً، حيّاً، مهيمناً، مدبّراً للأمر كلّه، مالكاً مَلِكاً، يفعل ما يشاء ويختار.

* * *

(٣)

وقد هدت ظاهرة الإتقان في كلّ كبير وصغير من هذا الكون، حتى كلِّ ذرّة فيه، كثيراً من العلماء الباحثين في هذا الكون وصفاته وخصائص عناصره ومركّباته، إلى الإيمان بالرّب الخالق المبدع الـذي أتقن كلّ شيءٍ صنعـاً، فكلّ ذرَّة من هذا الكون تشهد بوجوده وحكمته وكمال صفاته عزّ وجل. وقدّم كثير منهم شهادته بأنّه لا إلّه إلاّ الله، ومن ذلك ما كتبه الدكتور «جورج إيرل دافيز» عالم الطبيعة، ورئيس قسم البحوث الذرّيّة بالبحريّة الأمريكيّة، في مقال له بعنوان «الكشوف العلمية تثبت وجود الله»[1] جاء فيه ما خلاصته:

«كلّما تقدّم ركب العلم وتضاءلت الخرافات القديمة ازداد تقدير الإنسان لمزايا الدين والدراسات الدينيّة. . . .

وليس معنى ذلك أنّنا ننكر وجود الإلحاد والملحدين بين المشتغلين بدراسة العلوم، إلاّ أنّ الاعتقاد الشائع بأنّ الإلحاد منتشر بين رجال العلوم أكثر من انتشاره بين غيرهم، لا يقوم على صحته دليل، بل إنّه يتعارض مع ما نلاحظه فعلاً من شيوع الإيمان بين المشتغلين بالعلوم. . . . .

ولقد أتيح لي بفضل اشتغالي بدراسة الطبيعة أن أدرس التركيب المعقد إلى درجة لا يتصوّرها العقل، لبعض مكوّنات هـذا الكون لا تقـلّ فيه روعـة

---

(١) من كتاب «الله يتجلّى في عصر العلم».

التذبذبات الداخليّة لأصغر ذرّاته، وما دون ذرّاته، عن النشاط المذهل لأكبر النجوم السابحة في أفلاكها، والذي يسير فيه كلّ شعاع من الضوء، وكلّ تفاعل كيميائي أو طبيعي، وكلّ خاصيَّةٍ من خواصّ كلّ كائن حيّ وفق قوانين ثابتة لا تتغيّر ولا تتبدّل.

تلك هي الصورة التي تقدّمها لنا العلوم، والتي كلّما تأمّلها الإنسان اكتشف من بالغ دقتها وروائع جمالها ما لم يكن قد اكتشفه من قبلُ. . . .

ولا يمكننا أن نثبت وجود الله عن طريق الالتجاء إلى الطرق الماديَّـة وحدها، إذ لم يقل أحدٌ بأنّ الله مادّة، حتى نستطيع أن نصل إليه بالطرق المادّيّة. ولكنّنا نستطيع أن نتحقق من وجود الله باستخدام العقل، وبالاستنباط ممّا نتعلّمه ونراه، فالمنطق الذي نستطيع أن نأخذ به، والذي لا يمكن أن يتطرّق إليه الشكّ، هو أنّه ليس هنالك شيء مادّيّ يستطيع أن يخلق نفسه.

وإذا سلّمنا بقدرة الكون على خلق نفسه فإننا نصف الكون بصفات الله، ومعنى ذلك أن نعترف بوجود الرّب الخالق ولكننا نعتبره خالقاً مادّيّاً وروحيّاً في الوقت نفسه.

وأنا أفضل أن أؤمن بإلَهٍ غير مادّيّ خالق لهذا الكون، تظهر فيه آياته، وتتجلّى فيه أياديه، دون أن يكون هذا الكون كفُواً له.

وأحبّ أن أضيف إلى هذا الاستدلال استدلالاً آخر، وهو أنّه كلّما ارتقى وتقدّم تطوُّر المخلوقات، كان ذلك أشدّ دلالة على وجود خالق مدبّر وراء هذا الخلق.

إنّ التطوّر الذي تكشف عنه العلوم في هذا الكون، هو ذاته شاهد على وجود الله.

فمن جزئيات بسيطة ليس لها صورة معيّنة، وليس بينها فراغ نشأت ملايين من الكواكب والنجوم، والعوالم المختلفة، لها صور معيّنة، وأعمار محدّدة تخضع لقوانين ثابتة، يعجز العقل البشري عن الإحاطة بمدى إبداعها.

وقد حملت كلّ ذرّةٍ من ذرّات هذا الكون، بل كلّ ما دون الذّرة مما لا يدركه حسّ، ولا يتصوّره عقل، قوانينها وسننها، وما ينبغي أن تقوم به أو تخضع له.

هذه أدلّة كافِيَةٌ، ولكن هنالك ما هو أشدّ إعجازاً وأكثر دلالة على وجود الله، فمن تلك الجزئيات البسيطة لم تنشأ النجوم والكواكب فحسب، بل نشأت كذلك أنواع متطوّرة من الأحياء، بل كائنات تستطيع أن تفكر وتبتكر وتخلق أشياء جميلة، بل هي تبحث عن أسرار الحياة والوجود.

إنّ كلّ ذرّةٍ من ذرّات هذا الكون تشهد بوجود الله، وإنّها تدلّ على وجوده، حتى دون حاجة إلى الاستدلال بأنّ الأشياء المادّية عاجزة عن خلق نفسها...» .

□ □ □

الفصل السّادس

دَليـل التّنظيـم الشّـامِل

(١)

هذا النظام الكوني البديع المترابط، الذي لا توجد فيه ثغرة واحدة شاذّة، خارجة عن حدوده، ضمن الخطّة المرسومة لهذا الوجود، وضمن الغاية المحدّدة له بين احتمالين لا ثالث لهما:

- فإمّا أن يكون ناشئاً عن محض المصادفة الذاتيّة.
- وإمّا أن يكون ناشئاً عن تدبير حكيم عليم قدير يفعل ما يشاء ويختار.

أمّا كونه ناشئاً عن محض المصادفة فالعقل والواقع يكشفان أنّه من الأمور المستحيلة لا محالة، لأنّ المصادفة إن أمكن أن تحدث شيئاً منظّماً في حدودٍ جزئيّة جدّاً، فإنّها لا يمكن بحالٍ من الأحوال أن تحدث نظاماً كليّاً شاملاً، لأعداد لا حصر لها، وتخضعها لوحدةٍ عامّةٍ متشابهة، وتستمرّ بها مع الزمن دون خلل، ودون ظهور أيّةِ ثغرات على سبيل المصادفة أيضاً. ولأنّ المصادفة لا يمكن أن تجعل ظواهرها هادفة لغاية، وواقع هذا الكون يخالف كلّ ذلك، فهو خاضع لنظام كلّيّ شامل، رغم أعداد وحداته التي لا تدخل في حصر مخلوق ولا تصوّره، وهو مستمرٌّ مع الزمن، لا يعتريه خلل، ولا توجد فيه ثغرات.

هذا الدليل التنظيميُّ المستمر قد أرشد القرآن إليه بقول الله عزّ وجلّ في سورة (الملك ٦٧):

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ ﴾.

طباقاً: بعضها فوق بعض.

تفاوت: تباعد، وهو بمعنى التضاد والتناقض والتعاند، ونفي التفاوت في الخلق دليل على أنّ المكوّنات به متكاملة، متعاونة متناسقة بوحدةِ نظامٍ شامل.

هل ترى من فطور: من شقوق، أي: من ثُغَرات وتصدّعات وخلل في وحدة النظام الشامل.

كرّتين: رجعتين، للتأكدّ من صرامة النظام الشامل لكلّ ما خلق الله في كونه.

خاسئاً: متحيّراً، أي: من عظمة التنظيم الرائع المتقن. ويأتي لفظ «خاسىء» بمعنى: مطرود ذليل.

وهو حسير: كالٌّ منقطع، إذ لا يجد مع طول مدى النظر أيّ خلل وأيّ فطور. ويأتي «حسير» بمعنى خائب المسعى.

ففي هذا النص من سورة الملك إرشاد إلى ظاهرة النظام الشامل في هذا الكون، واستمراره دون اضطراب أو اختلال، ولو أنّه كان ناشئاً عن محض المصادفة لكان عُرضة للاضطراب، والاختلال، وعرضةً لشقوقٍ وانفطارات وتناقضات لا حصر لها، تنتهي به إلى الفساد والظواهر المدمّرة له.

وأكّد الله عزّ وجلّ لفت نظر الإنسان إلى هذا الدليل العقليّ الذي تدلّ عليه ظاهرات الواقع المشهود في هذا الكون بقوله تعالى: ﴿فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾.

وفي هذا تحدٍّ لصاحب النظر الباحث عن خلل في ظاهرات هذا الكون

الذي هو خلق الرحْمن، ليجد ما يتخذه مستنداً لإنكار الخالق، ولذلك اشتمل النّص على لفظين فيهما ما يصلح لتبكيته إنْ كان هو كذلك وهما: «خاسىء. وحسير».

فلفظ «خاسىء» يأتي بمعنى متحيّر وهذا المعنى يصلح لكل باحث ولو لم يكن من أهل الإنكار، ويأتي بمعنى مطرود، إذ يقال: كلبٌ خاسىء، أي: مطرود، وهذا المعنى يناسب الجاحد الكافر الباحث عمّا يتخذه مستنداً لجحوده.

ولفظ «حسير» يأتي بمعنى كالّ منقطع، وهذا المعنى يصلح لكلّ باحث ولو لم يكن من أهل الإنكار، ويأتي بمعنى خائب المسعى، متلهّف على ما فاته ممّا كان يرجوه، وهذا المعنىٰ يناسب الجاحد الكافر الباحث عمّا يتخذه مستنداً لإنكاره.

فمن ظواهر إعجاز القرآن استعمال كلٍّ من اللفظين في معنيين يناسب كلٌّ منهما فريقاً من الناس.

أي: فارجع البصر في خلق الرحمن أيّها الناظر الباحث، فهل ترى في هذا النظام الكوني من شقوق؟ وهل ترى فيه من ثُغَرات وتصدّعات، حتّى تفتح مجالاً لاحتمال كونه ناشئاً عن طريق المصادفة العشوائية؟

وإذا حسبنا نظرات التأمل التي أرشد إليها النصّ وجدناها أربعاً على أقلّ تقدير:

ففي الدعوة الأولى قال الله له: ﴿فارجع البصر﴾ وإرجاعه يستدعي لزوماً أنه إبصار مسبوق بمثله على أقل تقدير.

وفي الدعوة الثانية قال الله له: ﴿ثمّ ارجع البصر كرّتين﴾ أي: ارجعه رجعتين أخريين.

فصار المجموع أربعاً.

وبين الإبصارين الأوّلين، والإبصارين الأخيرين فاصل تأمّلٍ فكريّ، وأناةِ بحثٍ علميّ، دلّ عليه حرف العطف «ثُمَّ».

ونظام الكون الذي لا فطور فيه ولا تصدّع، ولا اختلال فيه ولا اضطراب نظامٌ صارم، تحكمه قوانين ربّانية جبريّة، فلا يستطيع شيء من الكون أن يخرج عن القانون الذي يحكمه ويسير عليه بالجبريّة الرّبّانيّة.

وكلّ شيء فيه مقدّر بالقدر الملائم الذي لا نقص فيه ولا زيادة، ولا طغيان فيه لطاقة على طاقة، ولا لعنصر على عنصر.

ولولا هذا التقدير الحكيم فيه، ولولا موازين الضبط والكبح فيه لاختلّت نتائج تفاعل الطاقات، ولانطلق بعضها فطغىٰ على الوجود أيّما طغيان.

ولولا موازين الضبط والكبح، لعمّت الحشرات أو الجراثيم الضّارّة سطح الأرض، لأنّ ما لديها من طاقة توالد كبيرة وكثيرة وسريعة كفيل بذلك. ولامتدّت النباتات الضارّة القاتلة للنباتات النافعة فملأت كلّ الحقول، ومنعت أيّ نبات نافع من الظهور أو البقاء.

ولولا موازين الضبط والكبح، لأغرقت مياه الأرض كلّ سطحها، فلم يبق فيها يابسة تقف عليها قدم إنسان، لكنّ هذه الموازين أوقفت هذه المياه في قارّات الثلوج، فمنعتها عن الطغيان على مساكن الإنسان ومراتع الحيوان.

ولولا موازين الضبط والكبح، لطغت الرّياح والأعاصير، فلم تدع شيئاً حيّاً، ولا بناءً قائماً على سطح الأرض.

ولولا موازين الضبط والكبح، لكانت قدرة النماء التي تبدأ بها الكائنات الحيّة كافية لأنْ تجعل الطفل أكبر من جبل في سنة واحدة.

لكن النظام العام لا يسمح بمثل هذا التصدّع في الوجود، كما قال الله عزّ وجلّ:

﴿مَا تَرَىٰ في خلق الرحمن من تفاوت * فارجع البصر هل ترى من فطور؟﴾.

أفيكون مثل هذا التنظيم ناشئاً عن المصادفة العشوائية؟ أم هو فعل منظّم حكيم، يدبّر الأمر وهو على كلّ شيءٍ قدير؟.

ولو لم يكن لهذا الكون خالقٌ عظيم، يهيمن عليه بعلمه وقدرته، وسلطانه وحكمته، وتدبيره وتصريف أموره، لكان هذا الكون مسرحاً للفوضى، وانعدام الغاية في كلّ ما يجري فيه من أحداث، وفي كلّ ما يظهر فيه من تحليل وتركيب.

لكنّ الدراسات العلميّة الجادّة قد كشفت للباحثين من العلماء أنّه لا يوجد أثر ما للفوضىٰ في أحداث هذا الكون وتغيّراته، وأنّ كلّ حدث فيه يرمي إلى غاية حكيمة يسعىٰ إليها، وهو مسخَّر لها، وهذه الغاية تنتهي في آخر سلاسلها بإبراز صفة أو أكثر من صفات الخالق العظيم، الذي له كل صفات الكمال، وهو منزّه عن كلّ صفات النقصان، فتدلُّ هذه الصفات من كان له قلب على الخالق الجليل الذي بيده ملكوت السماوات والأرض وهو على كلّ شيء قدير، والذي له هذه الصفات.

فكلّ ما في هذا الكون الخاضع لدراسة الإنسان يهدي إلى الإذعان بوجود موجود أكبر، أزليّ أبديّ، هو الكمال المطلق في ذاته وفي صفاته وأسمائه، وله الوجود الذاتي الذي لم يصدر عن وجود غيره، ولم يُسْبَق بعدم ما، لأنّه لو افْتُرِضَ أنه قد سُبِق بعدم مطلق، لكان من المستحيل عقلاً أن يوجد أيّ شيء، ولو افْتُرِض أنّه قد سُبِق بموجود آخر هو السبب في وجوده، لكان هذا الموجود الآخر هو الذي نبحث عنه، وهو صاحب الوجود الأصليّ الأكمل، ولكان هو الله الربّ الخالق الأزليّ الأبدي عزّ وجلّ.

فعلىٰ اختلاف الْفُروض لا بدّ أن ننتهي في آخر الأمر إلى إثبات وجود الموجود الأوّل الذي لم يُسْبَق بعدم، وهو الله الربّ الخالق العظيم، الذي إليه ترجع نشأة هذا الكون بما فيه من تنظيمٍ رائع بالغ غاية التنظيم المتقن الدقيق مع التداخل والتشابك المحيّر للعقول. والذي إليه يرجع تدبير هذا الكون، والذي بيده الخَلْقُ والأمر، وهو على كلّ شيء قدير.

وهذا يهدينا إلى أنّه خلق هذا الكون لغاية، وخلق الحياة فيه لغاية، ومنحَ بعض الأحياء فيه عقولها وإراداتها وسائر صفاتها لغاية.

فعلىٰ المفكر المريد أن يبحث عن الغاية من وجوده في خضمّ هذا الكون الكبير، وعن سبب تمييزه بهاتين الهبتين الجليلتين:

١ ـ القدرة على الفهم والتفكير، واستنباط العلل والأسباب والصفات من خلال إدراك الظواهر.

٢ ـ والإرادة الممكّنة من اختيار ما يملك التصرّف فيه، سواء في ذاته، أو فيما حوله من الكون، مع عجزه التامّ عن التحكّم بحياته وموته، وعجزه التامّ عن أن يملك لنفسه ملكاً صحيحاً كلّ ما يريد ويشتهي، ومع افتقاره الدائم إلى مدد من قوّة غير قوّته، لا يراها في أمثاله من الأحياء، ولا يراها فيما دونه منها، ولا يراها في المادّة التي لا حياة فيها.

وبحثاً عن الغاية من وجوده، لا بدّ أن ينتهي إلى أنها التكليف بالإيمانِ بخالقه، والإذعانِ له، والإسلامِ لأوامره ونواهيه، والقيامِ بعبادته.

وحين يدركُ الغاية من وجوده يدرِكُ وظيفته في هذه الحياة. وعندئذٍ يستجيب لنداء الداعي إلى الله، فيطيع أوامر التكليف التي حملها للناس رسُل الله، ويسعىٰ في تطبيق مفردات الطاعة على مقدار الاستطاعة، وإذا كبَا فعصى سأل الله العفو والغفران، وأناب إليه وتاب، وتابع مسيرته في مرضاة ربّه لبلوغ رضوانه، ونيل فضله وإحسانه، كما وعد عباده على ألسنة أنبيائه ورسله، وكما أنزل في تبيانه وقرآنه.

أمّا كون هذا الكون منظّماً بأبدع تنظيم، وخالياً من أيّ أثرٍ للفوضى، وهادفاً إلى غاية حكيمة لا تصدر إلّا عن عليم حكيم في كلّ حدثٍ من أحداثه، ما سلف منها وما هو آت، فهو أمرٌ يستطيع اكتشافه كلُّ ذي فكر يلاحظ ما يجري حوله من أحداث هذا الكون وتغيُّراته، سواء أكانت خاضعة لسنن ثابتة ظاهرة يمكن إدراكها، أو خاضعةً لسنن خفيّةٍ يصعُب اكتشافها إلّا على الباحثين المتعمقين.

وهذا الأمر الذي يُسْتطاع اكتشافه من غير عسر، قد أعلنته أقوال مؤمنة

كثيرة، صادرة عن كثير من العلماء المادّيين الباحثين في مجالات المعارف الكونيّة الصِّرْف.

فمنها ما كتبه «كميل فلامريون»[1]:

«إنّ النظام العامّ الحاكم في الطبيعة، وآثار الحكمة المشهودة في كلّ شيءٍ، المنتشرة كنور الفجر، وضياء الشفق، في الهيئة العامّة، لا سيما الوحدة التي تتجلّىٰ في قانون التطوّر الدائم، تدلُّ على أنّ القدرة الربّانيّة المطلقة هي الحوافظ المستترة للكون، وهي النظام الحقيقي. هي المصدر الأصلي لكلّ القوانين الطبيعيّة وأشكالها، ومظاهرها».

* * *

(١) من كتاب «الله في الطبيعة» نقلاً من كتاب «عقيدة المسلم» للشيخ محمد الغزالي.

(٢)

ومن أحكام العقل البدَهِيَّة الأولَىٰ استحالةُ تحوُّلِ الموادّ والعناصر البسيطة غيرِ المركبة، إلى مُرَكّبات منظمة متقنة الصُّنعِ ذاتِ نفع يظهر فيه القصد، دون فاعلٍ منظّم مُتْقِنٍ له علم وخبرة بما صنع، وله من عمله قصد أراد تحقيقه، فصنع ما صنع بحكمته لتحقيقه.

والناس جميعاً على اختلاف مذاهبهم الفكريّة مؤمنين بالرّب الخالق وجاحدين وجوده، متفقون على أنّ الكون يرجع في بداية أمره إلى عناصر وموادّ أولى بسيطة، غير معقدة التركيب، وأنّ الكائنات المركّبة فيه من أدناها حتى أعلى كائن مركّب معقّد التركيب قد ظهرت بعد ذلك، فلندع الآن الحديث عن نشأة الموادّ والعناصر البسيطة الأولى، ولننظر في ظاهرة تحوّلها إلى مركبات ومصنوعات منظمة متقنة الصنع ذات نفع يظهر فيه القصد.

فالمؤمنون المهتدون ببرهان العقل يقولون: هذا فعل ربٍّ خالق، قدّر وأحكم ما قدّر، وقضىٰ فأنفذ مقاديره، وصنع فأتقن كلّ شيءٍ صنعاً.

وزاغ عن الحقّ الجاحدون المنكرون، فقال قائل منهم بالمصادفة ومزاعم الطفرات الخلّاقة بغير وعي ولا إرادة ولا قصد. وقال قائل منهم بصراع الأضداد والمتناقضات الذي يتولّد منه بالارتقاء الذاتي الأعلىٰ فالأعلى من المركبات التي يظهر فيها الصنع المتقن والنفع المتبادل فيما بينها، ولكن دون فعل فاعل عليم قدير حكيم، ودون قصدٍ مراد من قبله. وتوقف فريق منهم معلناً جهله وعجزه

عن تعليل ظهور هذه المركبات المعقّدة المتقنة الصنع، ذات النفع المتبادل فيما بينها، مع إصراره بعناد الجاحد الأحمق الغبيّ على إنكار وجود الرّبّ الخالق القدير العليم الحكيم.

فأيّ الفريقين أحقّ وأجدر بصفات العلم والعقل والخلق الكريم وابتغاء الحقّ والاستجابة لبرهان الحق؟. المؤمنون بالرّبّ الخالق أم الجاحدون؟

وأيّ الفريقين منهما أحق وأجدر بطمأنينة القلب وسعادة النفس وراحة الضمير؟.

وأيّ الفريقين منهما يعيش ويموت دون قلق ولا عذاب نفسيّ؟

وأيّ الفريقين منهما يأتي يوم الدين آمناً سعيداً راضياً مرضيّاً؟ وأيّهما يأتي خائفاً تعيساً شقيّاً، خزيان ذليلاً مهاناً رَدِيّاً؟.

هل يتكافأ في ميزان الفكر المتجرّد منطق المؤمنين القائمُ على برهان العقل والعلم. وروغانُ الجاحدين القائمُ على أوهامٍ لا دليل فيها، ولا حجّة تؤيّد شيئاً منها؟!

نحن لا نبحث الآن في حدوث المادّة الأولى للكون أو أزليتها، إنّما نقصر بحثنا هُنا على ظاهرة تحوّل المواد البسيطة الأولى إلى مصنوعات متقنة غاية الإتقان، منظَّمة أبدع تنظيم وأجمله، مهيّأة لتحقيق هدفٍ مقصودٍ من صنعها كما يظهر من صفاتها.

ألحّ الأولاد على أبيهم بالأسئلة: كيف وُجدنا؟. من أوجدنا؟. من يُسيّر الشمس فتشرق وتغرُب؟. من يُسيّر القمر ويجعله يتدرّج في الأهلة متزايداً حتَّىٰ يكون بدراً، ثمّ يجعله يتدرّج متناقصاً حتَّىٰ يكون كخطّ الحاجب، ثمّ يذهبُ كلُّ أثرٍ له، وهكذا دواليك في كلّ شهر قمريّ؟. من يرعى النبات والشجر؟ من ينبت الحبَّ والثمر؟. من يرعى الأجنّة في بطون أمهاتها ضمن نظام دقيق فائق محفوف بالعناية؟. من يجري السحاب وينزل المطر ضمن نظام دقيق حكيم؟.

ما هي هذه القوة القاهرة التي تفرض على الأحياء الموت فتميتهم وتفرض على أشياء جديدة الحياة فتحييها بنظام دقيق وإتقان رائع وعناية عجيبة؟..

إلى غير ذلك من أسئلة كثيرة.

ويقول لهم أبوهم: الله هو خالق كلّ شيء، وهو المهيمن على كلّ شيء، وهو على كلّ شيءٍ قدير، وهو المحيط بكلّ شيءٍ قدرة وعلماً وحكمة وتدبيراً، وهو الذي أخضع كلّ شيء لنظام دقيق، محفوفٍ بإتقان تامّ، وعناية فائقة.

فيسألونه: أين الله؟

فيقول لهم: إن الله كبير عظيم، لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار وهو اللّطيف الخبير.

قال قائل منهم: كيف يخلق الله الأشياء، ويفعل الأفعال العظيمة الكبيرة الدقيقة المدهشة التي نرىٰ آثارها في الكون ثم لا تدركه الأبصار؟

فجمعهم أبوهم ذات ليلة، وقصّ عليهم القصة التالية:

سار فريق من أهل القبائل النّائية عن مواطن الحضارة ومنجزاتها العلمية في صحراء، وهم لا يدرون شيئاً عن المراكب الآلية البرّيّة أو الجوية.

وبينما هم سائرون عثروا على مركبة تشبه ما يسمّى بالصحن الطائر واقفة على الأرض. فظنوها قبّة مبنية في الصحراء، فبحثوا عن باب هذه القبة فلم يهتدوا، ثم وقعت يد واحدٍ منهم على زُرٍّ فضغطه دون شعور منه فانفتح بابُها.

فقالوا: لقد انفتح باب القبّة، فتسارعوا إليها، ودخلوا يبحثون ماذا في داخلها، فوجدوا قطعاً من الحلوى، وعُلَباً فيها أطعمة جاهزة، ووجدوا في جدران هذه القبة وأرضها آلات وأجهزة مختلفة، وكانوا على حذر من أن يمسّوا شيئاً منها، وكانت هذه المركبة من المراكب التي تُسيَّر آليّاً عن طريق الراديو، من مراكز توجيه نائية.

وأحسّ أصحاب المركبة عن طريق أجهزتهم التلفزيونية أنّها مشحونة بصيد من أفراد القبائل البدائية، فحرّكوها عن طريق التوجيه من بُعد، فانطلقت صاعدة في السماء، عندئذ فوجىء النفر الذين هم في القبة أنّها تطير بهم في السماء، وأصابهم هلعٌ ودهش من ذلك، وما استطاعوا الفرار منها وقد صاروا في الجوّ، ولو خرجوا منها لهَوَوا إلى الأرض واندقت أعناقهم وتحطّمت أجسامهم.

وظنُّوا أنّ الشياطين تسيّرها، وقال قائل منهم: يمكن أن تكون هذه حيواناً عجيباً طائراً له هذا البطن الذي له باب، ويصلح لركوب الناس، كما تصلح ظهور الخيل لركوبهم على الأرض.

ثم هبطت بهم المركبة إلى جانب قصر عظيم خالٍ من الناس، فلمّا رأوها هبطت إلى الأرض خرجوا منها متسابقين، وأقبلوا نحو باب القصر فانفتح لهم بطريقة آليّة، ووجدوا داخله كلّ ما هو ضروري لمعاشهم، وكلّ ما هو ملائم لحاجاتهم.

هذا مقعد ملائم تماماً للجلوس وهو مريح. وهذا سرير متقن الصنع، مرتب بنظام تام، ملائم لراحة الإنسان عند نومه. وهذه ستائر متقنة منظمة وجميلة، من شاء حركها فانكشف ما وراءها ودخل الضوء وشعاع الشمس من النوافذ الزجاجيّة. وهنا موقد لطهي الطعام. وهنا أصناف الأغذية والأطعمة مرتبة منظمة موضوعة في أماكن حفظها بإتقان ونظام بارع.

وقال قائل منهم: لقد صادفت لكم في أحد الأدراج قطعاً حديديّة قصيرة، لها في رؤوسها مثل الأكف، أهي للقتال أم هي لماذا؟.

فتنبّه بعض أذكيائهم وقال: لقد اكتشفت لكم أنّها تصلح للأكل بها بدل الأيدي، لأنّها على قدر حاجة أفواهنا تماماً.

وأخذوا يفكّرون في أمرهم، فقال أكثرهم: إنّ شيئاً خفيّاً عنّا هو الذي ساقنا، وهو الذي سيّر القبة بنا، وهو الذي أوصلنا إلى هذا القصر، وهو الذي رتب كل شيء فيه، وهو الذي نظّم وأتقن كلّ ما شهدنا من عجائب.

وقال شذاذ حمقى منهم: هذه الأمور التي ترونها منظّمة حسب المصالح، ومتقنة أحسن إتقان، إنّما حدثت من تلقاء نفسها على سبيل المصادفة.

وسقط هؤلاء الشذاذ في الامتحان، ثم وجدوا أنفسهم مطرودين من القصر. ثم وجدوا أنفسهم يُجرُّون بالسلاسل، ويضربون بالسياط، ويساقون إلى أقبية العذاب.

* * *

(٣)
وحـــدة النظـــام

وحدة النّظام من عالَـم الذّرّات إلى عالم المجرّات تدلُّ على وحدة المنظم.

يحدّثنا علماء الكون عن الذّرّة وقوانينها وأنظمتها البديعة المدهشة الرائعة، ويحدثوننا عن نظام النجوم والكواكب والمجرّات الكبرى كثيرة العدد، حتّى نذهل بما فيها من سعةٍ وعددٍ، وإتقانٍ، وروعة نظام.

وقد تحقق لدى علماء الكون على اختلاف آرائهم ومذاهبهم الفكرية، أنّ الكون كلّه من أصغر ذرّة فيه إلى أكبر مجرّة خاضع لخطّةٍ من النظام واحدة.

فالذّرّات تقوم على أساس نواة، تدور على بُعْدٍ بعيد منها كهارب، والنواةُ فيها بروتُون أو أكثر يحمل شِحنَات كهربائية موجبة.

وعالم النجوم والكواكب والمجرّات له نظامٌ يشابه هذا النظام في خطته العامّة، ففيه توابع تدور حول كواكب، وكواكب تدور حول شموس، وشموس وما يدور حولها تجري وتدور حول محاور أخرى، ومجرّات كبرى تجري في الفلك الأكبر.

وقد غاص الباحثون في خصائص عناصر هذا الكون يبحثون في أعماق الذّرة، أصغر الوحدات التي تتألف منها عناصر الموجودات، وانتهت بحوثهم الطويلة المضنية إلى حقائق مذهلة، لم يروها بأبصارهم، ولا بمناظيرهم المكبّرة للأشياء ملايين المرّات، ولكنّهم توصّلوا إلى تصوّر واقع حالها عن طريق

الاستنتاج والحسابات الرياضية، والانعكاسات الضوئية التي تُسلَّط عليها، وعن طريق التطبيقات التي أدّت نتائجها بنجاح.

لقد بحثوا عن الطّاقة فرأوا أنّ ذرّات الوجود تحمل في داخلها طاقاتٍ كمينةً هائلة، تدور في حلقاتٍ مفرغة، بسرعات كبيرة جدّاً، وأنّه يمكن الانتفاع بهذه الطاقات إذا استطاع الإنسان أن يُمسك بزمامها، ويحوّلها عن مدارها الثابت.

أخذوا مادة «الأيدروجين» التي هي أخف العناصر جميعاً وأبسطها تركيباً، فرأوا ذرّة «الأيدروجين» تتألف من نواة واحدة، أسموها «بروتون». وفي بعد كبير بالنسبة إليها وحدةٌ كهربية دائرة حولها، أسموها «ألكترون». وهي تدور بسرعة عشرين ألف ميل في الثانية الواحدة، أي: هي تدور في الثانية الواحدة حول البروتون عشرة آلاف مليون مليون مليون مرّة، إنّها أرقام لا يستوعبها التصوّر.

ورأوا أن «البروتون» الذي هو نواة الذرّة يحمل دائماً شحنة كهربائية موجبة، وأنّ «ألكترون» الدائر حول النواة يحمل دائماً شحنة كهربائية سالبة.

إنّه نظام زوجي، كالذكر والأنثى في الأحياء والنبات.

ثمّ نظروا في العناصر الأخرى التي هي أكثر تعقيداً من الأيدروجين، فرأوا أنّ «البروتون» ذا الكهربائية الموجبة، يتعدّد في نواة الذّرّة، فتزداد على قدر تعدّده الألكترونات السالبة، وقد يرافق «البروتون» الذي يحمل شحنة كهربائية موجبة جُسَيم صغير آخر ليس فيه أيَّة شحنة كهربائية، أسموه «نيوترون» فلا يأتي له معادلٌ سالبٌ في الألكترونات الدائرة حول النواة. إنّه جُسيم خنثى، يزيد وزناً، ولا يحتاج زوجاً، فهو في قائمة خدم «البروتون» الذي هو الزوج الموجب الذكر.

قالوا: وفي ذرّة «اليورانيوم» أثقل الذّرّات الموجودة في الطبيعة يوجد (٩٢) بروتوناً، أي: جسيمات موجبة داخل النواة، ويقابلها (٩٢) ألكتروناً، أي: وحدات كهربائية سالبة تدور حول النواة. ويرافق البروتونات الموجبة «نيوترونات خنثى» عددها «١٣٦» وهي لا تحتاج أزواجاً من الألكترونات.

هذا النظام الذي كشفهُ البحث العلمي في الذّرة يوافق ما جاء في عموم قول الله عزّ وجل في سورة (الذاريات ٥١):

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

ويحدّثنا علماء الذّرة عن سلوكها وتكوينها وأنظمتها وقوانينها أحاديثَ تجعل أيّ ذي فكر منصف يخضع ويذلّ عابداً للربّ الخالق عزّ وجلّ.

يقولون: تختلف العناصر باختلاف عدد ما في الذّرة من بروتونات موجبة الكهربة، ونيوترونات حياديّة مرافقة لها، وهي التي تشكّل نواة الذّرة، وتدور حول النواة الكترونات ذات شحنات كهربائية سالبة، والذّرّة بكلّ عناصرها في نهاية الصغر، ومن دون درك البصر، مع المجاهر والمكبّرات.

لقد علمنا أنّ بين النواة التي تتألف من بروتونات، وقد تصاحبها نيوترونات، وبين ألكترونات التي تدور حولها فراغاً واسعاً جدّاً بالنسبة إليها.

وهنا يقول لنا العلماء بالذّرّة: إنّ كلّ مدار تدور فيه الألكترونات حول النواة لا يسمح بقبول ما يزيد على ثمانية منها. فإذا كان العنصر يشتمل على بروتونات أكثر في نواته، وتطلّبت ما يساويها من الألكترونات اتخذت الألكترونات الزائدة على الثمانية مداراً جديداً، فإذا زادت على ستة عشر اتخذت الزائدة على الثمانية الثانية مداراً ثالثاً، وهكذا ضمن نظام دوريّ ثُمَانيّ في سلّم متصاعد، حتّى أثقل العناصر، وهو اليورانيوم، الذي تشتمل ذرّته على «٩٢» ألكتروناً.

وطبقاً لهذا النظام العجيب لاحظ علماء الذرّة أن العنصر الذي تقلُّ ألكترونات المدار الخارجي لذرّته عن ثمانية، باستطاعته أن يتَّحِدَ مع عنصر آخر ألكتروناته تعادل مقدار النقص عن الثمانية في صاحبه، وباتحادهما يتكوّن عنصر جديد، وهو لا يستطيع أن يتّحد مع عنصر آخر تزيد ألكتروناته على مقدار النقص عن الثمانية التي في المدار الخارجي لذرّته.

وقد استطاع العالم الروسي «مندليف» بتتبع هـذا النظام أن يصنّف العناصر بحسب وزنها الذرّي، فوضع لها جدولاً في سلّم متدرّج صاعد، لكنّه فوجىء بأنّ النظام يقضي بوجود ثلاثة عناصر هي غير مكتشفة ولا معروفة عند العلماء، ولشدّة إيمانه بأنّ هذا النظام صحيح كان يعتقد بأنه لا بدّ من وجود هذه العناصر المفقودة على الأرض. وقد استطاع رغم عدم مشاهدتها أن يحدّد كلّ خواصها الكيميائية على أساس وزنها الذرّي كأنّه يراها.

ثم اكتشف العلماء هذه العناصر المفقودة كما وصفها «مندليف» ومن حسن حظه أنه رأى ذلك قبل موته في عام «١٩٠٧ م».

وظهر أنّ عناصر الكون خاضعة لنظام منظّم متقن حكيم، وليس عملاً من أعمال المصادفة العشوائية، وظهر أنّ كلّ ما في الكون مترابط بسلاسل سببيّة، ومتكامل بعضه مع بعض، كترابط أجـزاءِ معمل واحد، يدرك الناظر إليه بالبديهة أنّ مديراً واحداً عامّاً يشرف عليه ويُسيّره، وأنّ قوّة واحدة عامة تحرّكه وتدير آلاته، وأنّ مهندساً عامّاً واحداً هو الذي نسّق بين أجزائه، وأحكم ترابطها، وحدّد أعمالها، وأبدع النظام الدوريّ في خطّة مصنعه، فما تطرحه آلة منه من فضلات تتلقفه أخرى لأنه حاجتها، ثمّ ما تطرحه الأخرى من فضلات قد يكون حاجة الآلة السابقة أو حاجة غيرها، وتتسلسل القصّة بطريقة دورية متكاملة.

ويتمّ نظام المعمل وفق سنة الأخذ والعطاء، بأروع ما يمكن من إبداع، فلا يُهدر شيء، ولا يضيع شيء، وما يفلت من جهة فينقصها إنما هو لمصلحة جهة أخرى تقع منها موقع الضرورة، وفق السياسة العامة التي يقتضيها تدبير المصنع.

هذا هو حال الكون الدّال على الله الخالق الذي لا ربّ غيره، ولا خالق سواه، والذي له الخلق والأمر، وهو على كلّ شيءٍ قدير، فبعلمه وقـدرته وحكمته ونفوذه بلطفه إلى إحكام وإتقان وتنظيم أصغر شيء في الوجود وأكبره وما بينهما، أَبْدعَ هذا الكون، فلم يشذّ عن إتقانه وإحكامه شاذّ، ولم يندّ عن

سيطرته نادّ، ولم يخرج عن نظامه العام الشامل خارج، وقد جعل سبحانه في كلّ شيء دليلاً على وجوده وصفاته ووحدانيته، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وهذا النظام الخاضع لخطّة عامّة واحدة، من الصغير فالأصغر، ثمّ إلى الكبير فالأكبر، يدلّ لدى العلماء المتفكّرين على أنّها جميعاً تخضع لإرادة منظم واحد، اختار لخلقه هذا الأسلوب الواحد من احتمالات التنظيم التي لا حصر لها، ليدُلَّ به على أنّه واحد لا شريك له في خلقه، ولا شريك له في ربوبيته، ولو أنّ الخالقين متعدّدون لكان من الأمر البدهيّ أن تتعدّد خطط التنظيم في الوجود، وفق تعدّد الاحتمالات التي لا حصر لها، إذ كلّها أمور ممكنة، وإنّما يتمّ تحديد واحد منها بإرادة الخالق، وبدهيٌّ أيضاً أن تكون إرادة الخالق حرّة في الاختيار، وهذا يستلزم اختلاف الخالقين فيما يختارون من احتمالات خلق.

وبدهيّ أنّ الاختلاف على مخلوق واحد يفضي إلى فساده، وإلى تعطّل ظهوره، لكنّ المشاهد في الكون أنّه خاضع لوحدة نظام تهيمن عليه بصِفَةٍ عامّة، وتملك كلّ كبير وصغير فيه، وأنه سائر بانضباط تامّ وتدبير مدهش، وهذا يدُل على وحدة المنظم الخالق جل وعلا.

ومن هذا يتضح لنا بما لا مجال للشك فيه أنّ خالق الكون ومدبّره والمهيمن على سننه وقوانينه وأنظمته، والعليم بكلّ شيءٍ فيه، هو واحد لا شريك له.

فالوجود إذن:

- إمّا ربّ خالق واحد لا شريك له.
- وإمّا كون مخلوق له، مملوك له، خاضع لسلطانه. والوجود الكامل هو في الأصل لله الخالق جلّ وعلا، وأمّا ما سواه من مخلوقات فوجودها وجود حادث، إنّما تمَّ بخلق الخالق وإرادته، وهو إذا شاء جعل ما أبدعه من خلْقٍ عدماً، وإذا شاء استبدل به خلقاً آخر، وكلّ ذلك وفق إرادته المطلقة التي لا تفارق ـ بمقتضى كماله ـ اختيارَه الحكيم، المستند إلى علمه المحيط بكلّ شيء.

إنّ دليل وحدة النظام على وحدة المنظّم دليل يكتشفه العلماء الباحثون في ظواهر الكون، والمتعمقون في دراسة نظمه وسننه وقوانينه.

وقد استطاعت العلوم الكونية الحديثة، القائمة على الدراسات المضنية الجادّة، أن تكشف للعقلاء من طلاب الحقيقة الكبرى، آياتٍ كثيراتٍ من آيات الله في الآفاق، ومن آيات الله في الأنفس، وكلّها تدلّهم على وجود الخالق جل وعلا، وتدلّهم أيضاً على أنّه واحد لا شريك له في خلقه وتدبيره.

وما توصّلت إليه الدراسات العلميّة الإنسانية، والبحوث التي كشفت أشياء جليلةً من خفايا نظام الكون وأسراره، قد قدَّم لقضيّة الإيمان بالله حشداً من الأدلة التفصيليّة التي لا تدع مهرباً للملحد، وقدّم لقضية تفرّد الله سبحانه بالرّبوبيّة حشداً آخر من الأدلة التفصيليّة التي لا تدع مهرباً لمشرك.

وكلّما تقدّم العلم في بحوثه واكتشافاته أضاف إلى مجموعات الأدلة السابقة أدلّة أخرى جديدة، تدعم قضايا الإيمان نفسها بقوى جديدة، وأنوار علميّة جديدة، حتى لا تدع مجالاً للشكوك المتجدّدة التي قد ترد بوساوس الشياطين إلى أوهام المتشكّكين.

ويتحقّق بذلك وعْدُ الله في كتابه، إذْ قال عزّ وجلّ في سورة (فصلت ٤١):

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾.

ودليل أنه على كلّ شيءٍ شَهيد أن كلّ شيء في هذا الكون مضبوط ومنَّظم محفوف بالرعاية والعناية وإلّا لاختلّ أمره.

فالدراسات العلمية الإنسانية الحديثة قد كشفت للعلماء الباحثين كثيراً من آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم، وهذه الآيات دلَّتْهم على أنّ الكون متقن الصنع، وتسير تصاريفه بنظام دقيق بالغ الدقة، محفوف بالعناية التي ليس فوقها

عناية، فلا خلل يعتريه، أو يدخل في عنصر من عناصره، بل كلّ ما يجري فيه محكم يهدف لغاية، وهذا لا يتمّ إلّا بوجود مهيمن عليم حكيم سميع بصير لا تأخذه سنة ولا نوم، فلا يغفل عن كبير ولا صغير، ولا جليل ولا حقير، فلا تسقط ورقة من شجرة إلّا بعلمه، ولا يحيى حيّ إلّا بأمره، ولا يموت ميّت إلّا بأمره أو إذنه، والدلائل العلمية شواهد على ذلك. وهذا لا يكون إلّا ممّن هو على كلّ شيء شهيد، دقّ أو جلّ، صغر أو كبر، فهو بذلك يرعى كلّ شيء بتدبيره وحكمته، ضمن سننه وقوانينه، وضمن قضائه وقدره، ومتى كان له بأمرٍ ما قضاء هيّأ له أسبابه، في سننه المعتادة، وإذا شاء أن يخرق سنته لحكمةٍ ما، خرقها بأمر التكوين.

فالظواهر دلّت على مسيرة الكون بنظام لا خلل فيه، رغم الأعمال الاختياريّة للخلائق الذين أعطاهم الله اختياراً ليبلوهم، وهذا قد دلّ على أنّ الرّبّ الخالق شهيد على كلّ شيء بصفات الشهود كلّها، التي لا يغيب عنها شيء، ولذلك قال الله عزّ وجل في ختام الآية: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ شهيد؟!﴾.

وهذا الاستدلال هو من قبيل الاستدلال باللازم على الملزوم، إذ الانضباط والإحكام والتدبير في الكون لوازم لكون الخالق شهيداً على كلّ شيءٍ فيه.

وإيجازاً في التعبير ذكر الله صفة شهادته على كلّ شيءٍ، مع أن المدرَك لنَا هُو لازم هذه الشهادة، لا الشهادة نفسها. فالاستدلال باللّازم على الملزوم من الأصول العقلية التى استندت الحجج القرآنية إليها، ومعلوم أنَّ الشهود هو الحضور مع المشهود، ومعنى كون الله عزّ وجلّ شهيداً على كلّ شيءٍ أنّه حاضرٌ كامل الحضور بكلّ صفات الحفظ والرعاية والتدبير والعناية على كلّ شيء.

وهذا ما يجعل كلَّ شيء في الكون محفوظاً سائراً وفق نظامه، ووفق الغاية المرسومة له، وعلى وفق القضاء والقدر الّذين تمّ بهما تدبير أمره وخلقه وإيجاده على صفاته وأحواله.

* * *

(٤)
طائفة من أقوال علماء الكون حول ظاهرة التنظيم الشامل

١ ـ كتب المهندس «كلودم. هاثاواي» مصمّم العقل الألكتروني للجمعية العلمية لدراسة الملاحة الجوية بمدينة «لانجلي فيلد» في مقال له بعنوان: «المبدع الأعظم»[1] فقال:

«أمّا الأسباب الفكرّية التي تدعوني إلى الإيمان بالله فإنّني أحبّ أن أبدأ بذكر الحقائق التي لا سبيل إلى إنكارها، وهي أنّ التصميم يحتاج إلى مصمّم. وقد دعم هذا السبب القويَّ من أسباب إيماني بالله ما أقوم به من الأعمال الهندسيّة، فبعد اشتغالي سنواتٍ عديدة في عمل تصميمات لأجهزة، وأدوات كهربائية، ازداد تقديري لكلّ تصميم أو إبداع أينما وجدته.

وعلى ذلك فإنّه مما لا يتفق مع العقل والمنطق أن يكون ذلك التصميم البديع للعالم من حولنا إلاّ من إبداع خالق أعظم، لا نهاية لتدبيره وإبداعه. حقيقة أنّ هذه الطريقة طريقةٌ قديمة من طرق الاستدلال على وجود الله، ولكنّ العلوم الحديثة قد جعلتها أشدّ بياناً، وأقوى حُجَّةً، منها في أيّ وقت مضى.

إنّ المهندس يتعلّم كيف يمجّد النظام، وكيف يقدّر الصعاب التي تصاحبُ التصميم عندما يحاول المصمّم أن يجمع بين القوى والموادّ والقوانين الطبيعية في تحقيق هدف معين، إنّه يقدّر الإبداع بسبب ما يواجه من الصعاب والمشكلات عندما يحاول أن يضع تصميماً جديداً.

---

(١) من كتاب «الله يتجلّى في عصر العلم».

لقد اشتغلت منذ سنواتٍ عديدة بتصميم مُخٍّ ألكتروني يستطيع أن يحلّ بسرعة بعض المعادلات المعقدة المتعلقة بنظرية «الشدّ في اتجاهين» ولقد حقّقنا هدفنا باستخدام مئات من الأنابيب المفرّغة، والأدوات الكهربائية والميكانيكية، والدوائر المعقّدة.

وبعد اشتغالي باختراع هذا الجهاز سنة أو سنتين، وبعد أن واجهت كثيراً من المشكلات التي تطلّبها تصميمه ووصلت إلى حلّها، صار من المستحيلات بالنسبة إليّ أن يتصوّر عقلي أنّ مثل هذا الجهاز يمكن عمله بأية طريقة أخرى غير استخدام العقل والذكاء والتصميم.

وليس العالم من حولنا إلّا مجموعة هائلة من التصميم والإبداع والتنظيم. وبرغم استقلال بعضها عن بعض فإنّها متشابكة متداخلة، وكلٌّ منها أكثر تعقيداً في كلّ ذرّة من ذرّات تركيبها من ذلك المخّ الألكتروني الذي صنعته.

فإذا كان هذا الجهاز يحتاج إلى تصميم، أفلا يحتاج ذلك الجهاز الفسيولوجي الكيمائي البيولوجي الذي هو جسمي، والذي ليس بدوره إلّا ذرّة بسيطة من ذرّات هذا الكون اللانهائي في اتساعه وإبداعه، إلى مبدع يبدعه؟!.

نحن لا نستطيع إلّا أن نسلّم بوجود الله.

ومصمّم هذا الكون لا يمكن أن يكون مادّيّاً، وإنّي أعتقد أنّ الله لطيف غير مادّي، وإنني أُسلّم بوجود ما هو غير مادّي، لأنني بوصفي من علماء الفيزياء أشعر بالحاجة إلى وجود سبب أوّل غير مادّي...

فمن الحماقة أن أنكر وجوده بسبب عجز العلوم عن الوصول إليه، وفوق ذلك فإنّ الفيزياء الحديثة قد علّمتني أنّ الطبيعة أعجز من أن تنظم نفسها، أو تسيطر على نفسها».

* * *

٢ ــ وحين توجّه الدكتور «دونالد روبرت كار»[١] للبحث في موضوع وجود الله عزّ وجل، وهو أستاذ الكيمياء الجيولوجيّة، وإخصائي في تقدير الأعمار الجيولوجيّة باستخدام الإشعاعات الطبيعيّة، وجد نفسه مدفوعاً إلى الإيمان بدافعين:

- دافع شخصي روحي.
- ودافع عقلي علمي هداه إليه مجال اختصاصه.

فممّا ذكره في مقال له كتبه بعنوان «موجّهات جيولوجية» ما يلي:

«عندما يُطلبُ إلينا أن نبينّ الأسباب التي تدعونا إلى الإيمان بالله نستطيع أن نجد في بحوثنا العلمية ما يدعونا بقوّة إلى الإيمان به...

ولقد حصلتُ على الإيمان الروحي من عند الله، وهو الذي يسيطر على تفكيري عندما أجيب على مسألة وجوده، وعلى ذلك فإنَّ إيماني بالله قد يعتبر قائماً على أساسٍ شخصي... فلقد كان الدافع إلى هذا الإيمان حاجةً مُلِحَّةً شعرت بها في قرارة نفسي.

أمّا دراستي بعد ذلك للكيمياء الجيولوجيّة، فقد قادتني إلى الاعتقاد بوجود خالقٍ لهذا الكون، فليس من الغريب إذن أن أعتقد أنّ هذا الكون ليس إلّا مظهراً من مظاهر قدرة الله».

ثمّ لخّص النقاط التي يستدلُّ منها الباحث في الكيمياء الجيولوجيّة على وجود الله في نقطتين:

الأولى: تحديد الوقت الذي بدأ فيه هذا الكون.

الثانية: النظام الذي يسود هذا الكون.

ثم قال:

«أمّا عن تحديد عمر التكوينات الجيولوجيّة مثل موادّ الشهب وغيرها، فقد

---

(١) من كتاب «الله يتجلّى في عصر العلم».

أمكن باستخدام العلاقات الإشعاعية أن نحصل على صورة شبه كميّة عن تاريخ الأرض.

ويستخدم في الوقت الحاضر عدد من الطرق المختلفة لتقدير عمر الأرض بدرجات متفاوتة من الدّقة، ولكنّ نتائج هذه الطرق متقاربة إلى حدّ كبير، وهي تشير إلى أنّ الكون قد نشأ منذ نحو خمسة بلايين سنة، وعلى ذلك فإنّ هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليّاً، ولو كان كذلك لما بقيت فيه عناصر إشعاعيّة.

ويتفق هذا الرأي مع القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية.

أمّا الرأي الذي يقول: إنّ هذا الكون دوريّ، أي: إنّه ينكمش ثمّ يتمدّد، ثم يعود فينكمش من جديد... وهكذا، فإنّه رأيٌ لم يقم على صحته دليل، ولا يمكن أن يعتبر رأياً علميّاً، بل هو مجرّد تخمين..

وأمّا مبدأ الانتظام فيعتبر من البدهيّات في علم الجيولوجيا. وينصّ هذا المبدأ على أنّ جميع العمليّات الجيولوجيّة والكيميائية الجيولوجيّة التي تعمل الآن كانت تعمل أيضاً فيما مضى، وعلى هذا فإنّ فهمنا لهذه العمليّات يعيننا على تفسير التاريخ الجيولوجي، فانتظام الكون، ووجود القوانين الطبيعيّة هما أساس العلم الحديث.

والكون المنتظم الذي يعتبر على درجة كبيرة من الأهميّة بالنسبة إلى المشتغلين بالعلوم يتفق مع ما تُحدِّثنا عنه الكتب السماوية، من أنّ الله هو الذي أبدع هذا الكون، وهو الذي يمسكه ويحفظه...

ولولا انتظام الكون ما كان هنالك مكان لمعجزة من المعجزات، فكثير من المعجزات التي جاءت بها الرسُل هي قبل كلّ شيءٍ خروج على نواميس الطبيعة، ولا يمكن تقديرها ومعرفة قيمتها الحقيقية إلاّ في كون منظّم تسير ظواهره تبعاً لقوانين معيّنة وسنن مرسومة...

وأخيراً فإنّ الكيمياء الجيولوجيّة التي أدرسها تُعلّمنا أن ننظر إلى الأشياء نظرةً واسعة، وأن نفكّر في الزمان على أساس بلايين السنين، وإلى المكان نظرة تشمل الكون كلّه، وإلى العمليات المختلفة حتى تشمل دوراتها الكون كلّه.

إنّ مثل هذه النظرة إلى الأمور تجعلنا نزداد تقديراً لعظمة الله وجلاله . . » .

* * *

٣ ــ ورأى «جورج هربرت بلونت»[١] أستاذ الفيزياء التطبيقيّة أنّ وجود الله عزّ وجل أمرٌ بدهيٌّ من الوجهة الفلسفية، وأنّ الاستدلال بالأشياء على وجود الله ــ كما في الإثبات الهندسي ــ لا يرمي إلى إثبات البدهيّات، ولكنّه يبدأ بها، فإذا كان هناك اتفاقٌ بين هذه البدهيّة وبين ما نشاهده من حقائق هذا الكون ونظامه، فإنّ ذلك يُعدُّ دليلاً على صحة البدهيّة التي اخترناها.

وعلى ذلك فإنّ الاستدلال على وجود الله يقوم على أساس المطابقة بين ما نتوقّعه من وجود الله، وبين الواقع الذي نشاهده.

ورأى أن الاستدلال بهذا المعنى لا يعني ضعف الإيمان، لكنّه طريقة لقبول البدهيّات قبولاً يتّسم باستخدام الفكر، ويقوم على أساس الاقتناع بدلاً من أن يكون تسليماً أعمىٰ.

ذكر هذا في مقال له بعنوان: «منطق الإيمان» ثم ذكر فيه أنّ الأدلّة على وجود الله أنواع:

- منها الأدلّة الكونية.
- ومنها الأدلّة التي تقوم على إدراك الحكمة.
- ومنها الأدلة التي تكشف عنها الدراسات الإنسانية.

فالأدلّة الكونية تقوم على أساس أنّ الكون متغيّر، وعلى ذلك فإنّه لا يمكن أن يكون أبديّاً، ولا بدّ من البحث عن حقيقة أبديّة عُلْيا.

والأدلة التي تبنى على إدراك الحكمة، تقوم على أساس أنّ هناك غرضاً معيّناً أو غاية وراء هذا الكون، ولا بدّ لذلك من حكيم أو مدبّر.

---

(١) المصدر السابق.

وتكمن الأدلّة الإنسانية وراء طبيعة الإنسان الخلقية، فالشعور الإنساني في نفوس البشر إنّما هو اتّجاه إلى مشرّع أعظم.

ثم قال:

«ولمّا كان اشتغالي بالعلوم ينحصر في التحليل الفيزيائي، فإنّ الأدلّة التي يتّجهُ لها تفكيري تعتبر من النوع الذي يبحث عن حكمة الخالق فيما خلق.

ولاكتشاف القوانين التي تخضع لها الظواهر المختلفة لا بدّ من التسليم أوّلاً بأنّ هذا الكون أساسه النظام، ثم يتجه عمل الباحث نحو كشف هذا النظام».

ثم ذكر أنّه لا يمكن أن يتصوّر العقل أنّ هذا النظام قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم أو من الفوضىٰ، وعلى ذلك فإنّ الإنسان المفكّر لا بدّ أن يَصل ويُسلّم بوجود ربٍّ خالقٍ منظّم لهذا الكون، وعندئذ تصير فكرة وجود الله إحدى بدهيّات الحياة، بل هي الحقيقة العظمى التي تظهر في هذا الكون.

وقـــال:

«والمنطق الذي نستخدمه هنا هو أنّه إذا كان هنالك إلّه فلا بدّ أن يكون هنالك نظام، وعلى ذلك فما دام هنالك نظام فلا بدّ من وجود إلّه.

ويلاحظ أن للملحدين منطقهم، ولكنّه منطق سلبيّ، فهم يقولون: إنّ وجود الله يُستَدلُّ عليه بشواهد معيّنة، وليس ببراهين قاطعة، وهذا من وجهة نظرهم يعني عدم وجوده تبارك وتعالى.

إنّهم يردّون على الأدلّة الكونية بقولهم:

إنّ المادّة والطاقة يتحوّل كلٌّ منهما إلى الآخر، بحيث يمكن أن يكون الكون بذلك أبديّاً.

كما أنهم ينكرون النظام في الكون، ويرونه مجرّد وهم، وكذلك ينكرون الشعور النفسيّ بالعدالة والاتجاه نحو موجّه أعظم، ومع ذلك لا يستطيعون أن يقيموا دليلاً واحداً على عدم وجود الله، ومن منطقهم أنّ الأدلّة المقدّمة لإثبات وجود الله لا تعتبر كافية من وجهة نظرهم.

وهنالك فئة أخرى من الملحدين لا يعترفون بوجود ربّ خالق لهذا الكون لأنهم لا يرونه، لكنّهم لا ينفون احتمال وجود ربّ خالق في كون أو عالم غير هذا الكون. ولا شكّ أنّ هذا موقف مائع متضارب، لا يستند إلى أساس سليم.

فإذا قارنّا بين الشواهد التي يستدلّ بها المؤمنون على وجود الله، وتلك التي يستند إليها الملحدون في إنكار ذاته العليّة اتّضح لنا أنّ وجهة نظر الملحد تحتاج إلى تسليم أكثر ممّا تحتاج إليه وجهة نظر المؤمن، وبعبارة أخرى نجد المؤمن يقيم إيمانه على البصيرة، أمّا الملحد فيقيم إلحاده على العمىٰ.

وأنا مقتنع أنّ الإيمان يقوم على العقل، وأنّ العقل يدعو إلى الإيمان، وإذا كان الإنسان يعجز أحياناً عن مشاهدة الأدلّة فقد يكون ذلك راجعاً إلى عدم قدرته على أن يفتح عينيه».

* * *

٤ ــ ويقول الدكتور «سيسل هامان»[1] وهو عالم بيولوجي:

«أينما اتجهت ببصري في دنيا العلوم، رأيت الأدلة على التصميم والإبداع، على القانون والنظام، على وجود الخالق الأعلى.

سِرْ في طريقٍ مشمس، وتأمّل بدائع تركيب الأزهار، واستمع إلى تغريد الطيور، وانظر إلى عجائب الأعشاش.

فهل كان محض مصادفة أن تنتج الأزهار ذلك الرحيق الحلو، الذي يجتذب الحشرات، فتلقّح الأزهار، وتؤدّي إلى زيادة المحصول في العام التالي؟.

وهل هو محض مصادفة أن تهبط حبوب اللقاح الرقيقة على مبسم الزهرة فتنبت، وتسير في القلم حتى تصل إلى المبيض، فيتمّ التلقيح، وتتكوَّن البزور؟.

أفليس من المنطق أن نعتقد بأنّ يد الله التي لا نراها هي التي رتّبت ونظّمت هذه الأشياء، تبعاً لقوانين ما زلنا في بداية الطريق نحو معرفتها والكشف عنها؟...

---

(١) المصدر السابق.

وماذا عن عشّ طائر «بالتيمور»؟.

من الذي علّم هذا الطير ذلك الفنّ الرفيع؟ ولماذا تتشابه جميع الأعشاش التي تبنيها الطيور من هذا النوع؟.

إذا قلت: الغريزة، فإنّ ذلك قد يُعدّ مخرجاً من السؤال، ولكنّه إجابة قاصرة، فما هي الغرائز؟.

يقول البعض: إنّها السلوك الذي لا يتعلّمه الحيوان.

أليس من المنطق أن نرى قدرة الله تتجلّىٰ في هذه الكائنات التي خلقها، فسوّاها تبعاً لقوانين خاصة لا نكاد ندري عن كنهها شيئاً؟.

نعم. إنني أعتقد بوجود الله، وأعتقد أنّه هو القدير الذي خلق الكون وحفظه، وليس ذلك فحسب، بل هو الذي يرعى دُرّة خلقه وهو الإنسان».

ويقول أيضاً:

«عندما نذهب إلى المعمل، ونفحص قطرة من ماء المستنقع تحت المجهر، لكي نشاهد سكّانها، فإنّنا نرىٰ إحدى عجائب هذا الكون:

فتلك (الأميبا) تتحرّك في بطء، وتتجه نحو كائن صغير فتحوطه بجسمها، فإذا به داخلها، وإذا به يتم هضمه وتمثيله داخل جسمها الرقيق، بل إننا نستطيع أن نرى فضلاته تخرج من جسم (الأميبا) قبل أن نرفع أعيننا عن المجهر، فإذا ما لاحظنا هذا الحيوان فترة أطول، فإننا نشاهد كيف ينشطر جسمه شطرين، ثمّ ينمو كلٌّ من هذين الشطرين، ليكون حيواناً جديداً كاملاً.

تلك خليّة واحدة تقوم بجميع وظائف الحياة التي تحتاج الكائنات الكبيرة الأخرى في أدائها إلى آلاف الخلايا أو ملايينها.

لا شكّ أنّ صناعة هذا الحيوان العجيب الذي بلغ من الصغر حدّ النهاية تحتاج إلى أكثر من المصادفة.

ولقد كشفت قوانين الكيمياء الحيوية من أسرار الحياة وظواهرها ما لم تكشفه القوانين في أيّ ميدانٍ آخر من ميادين الدراسات العلمية.

لقد كان الناس ينظرون إلى خفايا عمليّات الهضم والامتصاص، ويستدلّون بها على وجود التدبير المقدّس.

أمّا في الوقت الحاضر فقد أمكن شرح هذه العمليّات، ومعرفة التفاعلات الكيميائية التي تنطوي عليها، والخميرة التي تقوم بكلّ تفاعل. ولكن هل يدلّ ذلك على أنه لم يعدُ لله مكان في كونه؟.

فمن إذن الذي دبّر لهذه التفاعلات أن تسير، وأن تسيطر عليها الأنزيمات تلك السيطرة الدقيقة المحكمة؟.

إنّ نظرة واحدة إلى إحدى الخرائط التي تبينّ التفاعلات الدائريّة العديدة، وما يدور بين كلٍّ منها والآخر من تفاعلات أخرى، كفيلة بأن تقنع الإنسان بأنّ مثل هذه العلاقات لا يمكن أن تتمّ بمحض المصادفة.

ولعلّ هذا الميدان يهيّء للإنسان من العلم ما لا يهيّئه أيّ ميدان آخر، بأنّ الله يسيّر هذا الكون تبعاً لسنن رسمها ودبّرها عندما خلق الحياة...

وكلّما وصل الإنسان إلى قانون جديد فإنّ هذا القانون ينادي قائلاً: إنّ الله هو خالق، وليس الإنسان إلّا مكتشفاً».

* * *

٥ ــ وكتب الدكتور «جون أدولف بوهلر»[١] وهو أستاذ في علم الكيمياء مقالاً بعنوان «الله والقوانين الكيميائية» ألخص فيما يلي أهمّ ما جاء فيه:

● قدّم الكاتب لمحة موجزة عن تاريخ علم الكيمياء، أبان فيها كيف تقدّم هذا العلم، حتى وصل إلى ما هو عليه الآن.

وذكر أنّ أمام هذا العلم آفاقاً لم يستطع الإنسان أن يدرسها ويعرف

---

(١) المصدر السابق.

أسرارها، لأنّه لا يملك المعايير التي يستطيع بها تحديد ما في هذه الآفاق، ولا الوسائل التي يكتشف بها بعض ما فيها، فلا بدّ من التسليم بأنّنا لا نعرف حتّى الآن كلّ ما يمكن أن يعرف عن المادّة والطاقة، فنحن لا نزال في بداية الطريق.

● ثم قال: «عندما يطبق الإنسان قوانين المصادفة لمعرفة مدى احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر في الطبيعة، مثل تكوّن جزيءٍ واحدٍ من جزئيات البروتين من العناصر التي تدخل في تركيبه، فإننا نجد عُمر الأرض الذي يقدّر بما يقرب من ثلاثة بلايين من السنين أو أكثر، لا يعتبر زمناً كافياً لحدوث هذه الظاهرة، وتكوين هذا الجزيء عن طريق المصادفة.

إنّ ذلك لا يمكن أن يحدث إلّا إذا كانت هنالك قوّة موجّهة تهدف إلى غاية محدودة...

إنّ الإنسان يشاهد التنظيم والإبداع حيثما ولّى وجهه في نواحي هذا الكون، ويبدو أنّ هذا الكون يسير نحو هدف معيّن، كما يدُلّ على ذلك النظام الذي نشاهده في الذرّات، فهنالك نظام معيّن تتبعه الذرّات جميعاً، من الأيدروجين إلى اليورانيوم، وما بعد اليورانيوم، وكلّما ازداد علمنا بالقوانين التي تتحكّم في توزيع البروتونات والألكترونات لإنتاج العناصر المختلفة ازداد إيماننا بما يسود عالم المادّة من توافق ونظام.

وقد يجيء اليوم الذي ينكشف لنا فيه كيف تتجمّع الطاقة لكي تكوّن تلك الكتل من المادّة.

ولقد كان «آينشتاين» أوّل من أظهر العلاقات الموجودة بين المادّة والطاقة.

ولا يزال الإنسان في بداية الطريق لكشف أسرار الطاقة الذرّية، وقد نستطيع في يوم من الأيّام أن نحوّل الطاقة إلى مادّة.

وتدلّ الشواهد على وحدة الكون من الوجهة الكيميائية، ولدينا من الطرق والوسائل ما يمكّننا من اختبار كثير من العناصر الموجودة في الكواكب الأخرى،

ومعرفة أنّها هي نفس العناصر التي توجد على الأرض، وحتى النجوم البعيدة عنّا فإنّها تشتمل على عناصر مشابهة لعناصر الأرض.

ويعتقد العلماء أنّ القوانين الطبيعيّة التي تتحكّم في هذا الكوكب هي القوانين عينها التي تخضع لها النجوم والكواكب الأخرى في أفلاكها النائية المترامية في الفضاء. فحيثما اتجهنا نجد الإبداع والنظام والتوافق، حتّى لم يبق هنالك ظلّ من شكّ عندي في أنّ ربّاً قديراً قد أبدع هذا الكون وبناه وحدّد وجهته وغايته...

وأحبّ أن أوجّه نظر القارىء إلى دورة الماء على الأرض، ودورة ثاني أكسيد الكربون، ودورة النوشادر، ودورة الأكسجين. التي تشهد كلٌّ منها بحكمة وتدبير وقوّة لا حدّ لها...».

● ثم قال: «والواجب أن نتلمَّس قدرة الله في النظام الذي خلقه، والقوانين التي أخضع لها جميع الظواهر والأشياء، فقد يستطيع الإنسان أن يفسّر ما كان غامضاً عليه باكتشاف القوانين التي تحكمها، ولكن الإنسان عاجزٌ عن أن يسُنّ تلك القوانين، فهي من صنع الله وحده. ولا يفعل الإنسان أكثر من أنّه يكتشفها، ثم يستخدمها في محاولة إدراك أسرار هذا الكون.

وكلٌّ قانون يكتشفه الإنسان يزيده قرباً من الله، وقدرة على إدراك وجوده. فتلك هي الآيات التي يتجلّىٰ بها الله علينا، وقد لا تكون هذه هي الطريقة الوحيدة في هذا التجلّي، فهو يتجلّىٰ أيضاً في كتبه المقدّسة مثلاً.

ومع ذلك فإنّ طريقة تجلّيه تعالى في آياته التي نشاهدها في هذا الكون تعتبر بالغة الأهميّة بالنسبة إلينا...».

* * *

٦ ــ وكتب الدكتور «ميريت ستانلي كونجدن»[1] وهو عالم طبيعي وفيلسوف، وعضو الجمعية الأميركيّة الطبيعية، مقالاً بعنوان: «درس من شجرة الورد» جاء فيه ما خلاصته:

---

(١) المصدر السابق.

١ ــ إنّ كثيراً من الأمور التي نسلّم بها إنما نعتمد فيها على الاستدلال المنطقي، ومن أمثلة ذلك كثير من استنتاجاتنا اليوميّة في حياتنا العادية.

ومن الأمثلة: العلوم الفلكيّة التي ليس بيننا وبينها اتصالٌ ماديّ مباشر، وبحوث الذرة، واستخدام قوانين الكتلة والطاقة، وفي استنباط صفات الذّرّة وتركيبها وخواصّها، مع العلم بأنّ العلماء لم يروا الذرة حتى الآن بطريقة مباشرة، وقد أيّدت القنبلة الذّريّة الأولى ما وصل إليه العلماء من قوانين ونظريّات حول تركيب الذّرّة غير المنظورة ووظائفها.

ومن هذه الأمثلة: وجود الله، فإننا نستطيع أن نصل إلى معرفته عن طريق الاستدلال المنطقي الذي يقوم على تفسير النتائج بنظائرها أو مثيلاتها.

٢ ــ برغم أن العلوم لا تؤيّد وجود عالم غير ماديّ تأييداً كاملاً، لأنّ الدائرة التي تعمل فيها تقع في حدود المادة، فإنّها لا تستطيع أن تنفي بصورة قاطعة وجود عوالم أخرى غير مادّية وراء العالم المادّي.

٣ ــ نستطيع بطريقة الاستدلال والقياس بقدرة الإنسان وذكائه، في عالم يفيض بالأمور العقليّة، أن نصل إلى وجوب وجود قوّةٍ مسيطرة مدبّرة تدير هذا الكون، وتدبّر أموره، وتعيننا على فهم ما يغمض علينا من أمر منحنيات التوزيع، ودورة الماء في الطبيعة، ودورة ثاني أكسيد الكربون فيها، وعمليات التكاثر العجيبة، وعمليّات التمثيل الضوئي ذات الأهمية البالغة في اختزان الطاقة الشمسيّة، وما لها من أهميّة بالغة في حياة الكائنات الحيّة، وما لا يُحصى من عجائب هذا الكون.

إذْ كيف يتسنّىٰ لنا أن نفسّر هذه العمليات المعقدة المنظّمة تفسيراً يقوم على أساس المصادفة والتخبّط العشوائي؟.

وكيف نستطيع أن نفسّر هذا الانتظام في ظواهر الكون، والعلاقات السببيّة، والتكامل، والغرضيّة «= القصد»، والتوافق، والتوازن، التي تنتظم جميع الظواهر، وتمتدّ آثارها من عصر إلى عصر؟.

كيف يعمل هذا الكون دون أن يكون له خالق مدبّر هو الذي خلقه وأبدعه ودبّر جميع أموره».

ثم ختم مقاله بقوله:

«إنّ جميع ما في الكون يشهد على وجود الله سبحانه، ويدلّ على قدرته وعظمته، وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها، حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية، فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته، ذلك هو الله الذي لا نستطيع أن نصل إليه بالوسائل العلميّة المادّية وحدها، ولكنّنا نرى آياته في أنفسنا، وفي كلّ ذرّة من ذرّات هذا الوجود. وليست العلوم إلا دراسة خلق الله وآثار قدرته».

□ □ □

الفصل السّابع

دَليلُ الإِمْكان في كُلّ جُزْء مِنْ هٰذا الكوَن

بين واجبات الوجود ومستحيلات الوجود التي هي واجبات العدم عقلاً، تأتي ممكنات الوجود التي أصلها العدم، ولا مانع من وجودها، إذا توجّه لها من واجب الوجود ما يقتضي وجودها، أو ممن أوجده واجب الوجود، ومنحه من القوة ما يستطيع بها إيجادها.

وكلّ ممكن الوجود له احتمالات إمكان متعدّدة متساوية عقلاً فيما بينها. فكلّ إمكان يقابله إمكان آخر أو أكثر من الإمكانات التي يتصوّرها الفكر.

والإمكانات التي يقبل الشيء الواحد واحداً منها على التبادل متساوية فيما بينها تساوياً تامّاً، وحينما تكون جميعها غير موجودة فمن المستحيل عقلاً وجود كلّ إمكان منها دون مقابلة الذي لا يجتمع معه، من غير مرجّح يرجّح وجوده على وجود مساويه ومكافئه في الإمكان.

هذا أصلٌ عقليٌّ بدهيٌّ، فالممكنان اللّذان يقبل الواحد أحدهما فقط على التبادل لأنّهما ضِدّان، هما متساويان قوّة فيما بينهما وهما معدومان، ككفّتي ميزان صحيح سليم من الخلل، فليس لأحداهما أيّ رجحان على الأخرى، ولا بدّ أن يظلّا كذلك أبداً حتى يأتي ما يرجّح أحدهما على الآخر، فمن المستحيل في الواقع وفي العقل رجحان أحد المتساويين على الآخر من دون مرجّح، وعلى هذا فمن المستحيل عقلاً وجود أحدهما وبقاء الآخر في جانب العدم مع تساويهما دون مرجّح يرجّح إيجاده.

وحين ننظر إلى أجزاء الكون كلّه وما اشتمل عليه من حادثات لا تستطيع الخلائق حصرها نجدها قد وُجدت ضمن إمكانات تساويها إمكانات أخرى بقيت في جانب العدم.

فما الذي رجّح هذه الإمكانات التي وجدت على مساوياتها التي لم توجد؟

هنا يوجب العقل حتماً وتوجب تجارب الحياة كلُّها أنّه لا بدّ من فاعل مختار رجّح وجود هذا الإمكان فأوجده، على مساويه ومكافئه عقلاً إذْ لم يُرجِّحْهُ فلم يُوجِدْه.

فلْنَتَتَبَّعْ ملاحظين كلَّ شيء في هذا الكون، سواءٌ أكان من الأشياء المادّية التي يمكن أن ندركها ببعض حواسنا كالأرض وما فيها، والكواكب والنجوم وآثارها، أو كان صفة من الصفات القائمة في الأشياء المادّيّة التي نستنبط وجودها بعقولنا، كالجاذبيّة الخاصة الموجودة في الموادّ التي تحمل المغناطيس، وكالجاذبيّة العامّة الموجودة بين الكتل المادّيّة، وكخواصّ المركبات المادّيّة التي لا حصر لها في الكون، سواءٌ في ذلك الظواهر الكيميائية أو الفيزيائية. ثُمَّ ما وراء ذلك مما نعقل عن جواهر الوحدات المستقلة التي لا تدخل في نطاق إحساسنا، كالملائكة والجنّ، وكيفية تكوينها وأعراضها وصفاتها.

لدى ملاحظتنا لجميع هذه الأشياء الكونية ندرك بداهة في كلّ واحد منها أنّه كان من الممكن عقلاً أن يتخذ صورة وصفة وحالة غير ما هو عليه الآن، فهنالك احتمالات كثيرة لا حصر لها في مجال الممكنات، ولا يرى العقل مانعاً من أن تتحوّل هذه الأشياء الكونية إلى واحد منها.

فالعقل لا يمنع من أن تتخذ مثلاً صورة غير الصورة التي هي عليها، أو شكلاً غير الشكل الذي هي عليه، أو حدّاً غير حدّها الواقع كمّاً وكيفاً، فتكون مثلاً أكبر مما هي عليه أو أصغر، أو مركَّبة على غير التركيب الذي هي عليه، أو في حيّزٍ من الكون وزمانٍ من الدهر غير حيّزها وزمانها، أو تكون لها صفات وقوى غير صفاتها وقواها، أو حركات ومدارات وسرعات مغايرة لما هي عليه.

كلّ هذا وأمثاله من الاحتمالات التي لا حصر لها ممّا يجوّزه العقل بداهة، ويعتبره من الممكنات العقلية التي لو كان تركيب الكون على وفقها لم يكن في ذلك منافاة لأصل عقلي.

- فما المانع العقليّ مثلاً من أن يكون الّليل والنهار سرمدين؟.

- وما المانع العقليّ من أن يكون الإنسان على غير هذا الوضع القويم، أو أكبر أو أصغر مما هو عليه جسداً وهامة؟.

- وما المانع العقليّ من أن يكون العقل والنطق في البهائم كما هما في الإنسان؟.

- وما المانع العقليّ من أن تكون الأرض أدنى إلى الشمس والقمر من الوضع الذي هي عليه، أو أكبر أو أصغر من الحجم الذي هي عليه؟.

- إلى غير ذلك من احتمالاتٍ وإمكانات لا تُحصى في كلّ شيء في هذا الكون.

فإن قيل: إنّ الحكمة تقتضي أن تكون هذه الأشياء كما هي عليه الآن، وإلّا اختلّ النظام، وفسدت النتائج المرجوّة من هذا الكون.

فإنّنا نقول: الحكمة في المصنوع أثر حكمة الصانع الحكيم، وذلك الحكيم هو الله تَبارك وتعالى.

ونقول من جهة ثانية: لّما كان كلّ شيءٍ في هذا الكون يحتمل أن يكون على واحد من أوضاع كثيرة غير الوضع الذي هو عليه، فإنّ عقولنا لا بدّ أن تحكُم بداهةً بأَنَّ ما كان كذلك لا بدّ له من مخصّص قد خصّصه باحتمالٍ موافق للحكمة والإتقان، من جملة احتمالات كثيرة، ولولا وجود المخصص للزِم ترجيح أحد المتساويين على الآخر من غير مرجّح، أو القول بأنَّ موافقة الحكمة فيما لا حصر له من الاحتمالات الممكنة كان على طريقة المصادفة، وكلاهما مستحيل عقلاً.

ونحن بوصفنا مفكّرين عقلاء في هذا الكون لا نقبل أن نلتزم المستحيلات ونقول بها، بينما نرى أنّ قوانين هذا الكون ثابتة لا تتخلّف، ومن قوانينه العقليّة الأساسيّة استحالة ترجيح أحد المتساويين أو المتساويات من دون مرجّح، واستحالة قيام نظام بديع دقيق من عناصر كثيرة متداخلة متشابكة على سبيل المصادفة.

وإذْ قد ثبت لدينا احتياج هذه الممكنات إلى المخصّص الحكيم، فإنّ عقولنا تحكم بشكل قاطع أنّ هذا المخصّص يجب أن لا تكون ذاته أو صفاته محلًّا لأيّ احتمال من الاحتمالات الممكنة التي تتعرّض لها هذه الأشياء الكونيّة في نظر العقل، وإنما يجب عقلاً أن يكون فريد الاحتمال وهو الكمال المطلق في الذّات وفي الصفات، وهو واجب الوجود عقلاً في ذاته وفي صفاته، وهو الذي يوجب العقل إسناد تخصيص الممكنات إليه، بواحد من احتمالاتها الكثيرة التي لا حصر لها، وهو الله عزّ وجلّ.

فعن طريق صفة الإمكان في الكون استطعنا أن ندرك حاجته إلى واجب الوجود، وأن نصل إلى الإيمان بالله ربّ العالمين.

وقد هدانا القرآن الكريم إلى دليل الإمكان في مواضع كثيرة منه، فمن ذلك النصوص التالية:

١ ــ قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ﴾.

٢ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (القصص ٢٨):

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

٣ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

٤ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الملك ٦٧):

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾ ﴾

٥ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الواقعة ٥٦):

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

هذه النصوص تهدي إلى حقيقة الإمكان في كلّ جزء من أجزاء هذا الكون الكبير، فليس شيء فيه واجب الوجود لذاته، بل كلّ شيء قد كان من الممكن أن لا يكون، وكان من الممكن أن يكون على غير الصفات التي هو عليها، ولو كان على غير الصفات التي هو عليها فقد لا تتحقّق فيه الغايات المرجُوَّة منه لمصالح الحياة والناس، وعندئذٍ فلا يستكمل النظام العامّ صورته الحكيمة الرائعة.

لقد كان من الممكن أن تكون الأرض ظلّاً ساكناً باستمرار، ليس فيه حركة امتداد وفيء وانحسار، وأمر ذلك يسير، فأحد وجْهي القمر ظلام دامس، وبرودة قاتلة، ولكنّ الرّبّ الحكيم القدير اختار للأرض مستقرّ الإنسان والأحياء الأخرى معه، أن تدور حول نفسها دورة نظاميّة لا تختلُّ أبَدَ الآباد، وبسبب هذه الدورة نفسها تشرق عليها الشمس وتغرب في كلّ موقع من

مواقعها، فيمتدّ عليها الظلُّ رتيباً، وتشرق عليها الشمس تباعاً، وتتحقّق بذلك مصالح للأحياء المستقرّة عليها.

وكان من الممكن أن يكون اللّيل سرمداً إلى يوم القيامة، أو أن يكون النهار سرمداً إلى يوم القيامة، والأمر يسير لا يحتاج أكثر من إيقاف دوران الأرض حول نفسها، أو إبعاد الأرض عن فلك الشمس، وعندئذٍ تكون الشمس كأحد النجوم البعيدة عنها في الفلك الكبير.

ومن الممكن أن تنقرض هذه الحياة القائمة على الأرض، ويأتي غيرها أو لا يأتي.

ومن الممكن أن يصبح الماء غوراً، فتنضب العيون، وتجفّ الآبـار، ولا تسوق الرّياح السُّحب، لتجود بالأمطار.

ومن الممكن أن تتحطّم الزروع بالجوائح والآفات، ومن الممكن أن يتغيّر النظام فتمطر السحبُ ماءً أُجاجاً.

وإذا كان ذلك ممكناً بذاته، فَمَنِ الذي رجّح وجود الممكن الآخر الذي سار عليه نظام الكون، لتحقيق الغايات الحكيمة؟ ومعلوم أنّ ترجيح أحد الممكنين على الآخر بدون مُرجّحٍ من المستحيلات العقلية.

إنّ الصور والأنظمة والأوضاع التي نشاهدها في الكون من الممكن أن تتخلّف وتتغيّر، وأن تتحوّل من وجود إلى عدم، ومن وضع إلى وضع آخر.

فلو أراد الخالق أن يغيّر شيئاً من أنظمة كونه، أو يبدّل شيئاً من سننه، فمن الذي يستطيع أن يسيطر على الكون بعد الخالق العظيم.

وإذا كان كلّ ذلك ممكناً، فلا بدّ أن يكون وضعها القائم فعلاً ممكناً أيضاً، لأنّه أحد الاحتمالات المقابلة للصُّور المفروضة، ولا بدّ أن يكون له مخصّص قد خصّصه بأحد ممكناته المحتملة، وهذا المخصّص هو الموجد الذي أوجدها من عدم، إذ الأصل في جميع الممكنات العدم، ولا تخرج من العدم إلى الوجود إلّا بموجد قادر عليم حكيم، وهو الله تباركت ذاته وتقدّست أسماؤه.

□ □ □

الفصل الثامن

دليل العناية

كلّ ما يحتاج الإنسان لغذائه وكسائه، ومسكنه ودوائه، ووسائل انتقاله ورفاهيته، وممتعات حواسّه ونفسه، ووسائل قوته وحمايته من الأشياء والأحياء، وردّ بأس ذوي البأس عنه، مهما تعاظمت قواهم، يجده الإنسان حوله حاضراً مُهيَّأً، أو ممكن التحصيل، بالتجزئة والتحليل، أو بالجمع والتركيب، أو بالبحث والتنقيب.

أمّا ضروريّات حياته فهي مهيّأة حَاضرة من حوله، على أحسن وجه وأكمله، وأتقنه وأنفعه وأفضله، مع اختلاف في الأصناف والأنواع والأجناس، وفق حاجة اختلاف الأذواق في النفوس والحواس.

وأمّا ما فوق ذلك فمخبّأٌ في خزائن السماء والأرض، والجبال والبحار، وفي استعداد الأشياء لأن تكون مسخَّرةً مطيعة للإنسان، تعطي من كنوز طاقاتها، وإمكاناتها للتغيير والتحويل، والتركيب والتحليل، فتقدّم له بذلك من المنافع ما لا حصر له، متى توصّل إلى مفاتيح إطلاق القوى والطاقات، وأحكم بصنعه تحليل الأجزاء وتركيبها، ووضعها في المواضع الملائمة التي يتخيّل فيها النفع والمصلحة، ثمّ أعطت بالتجربة العمليَّة ما تخيّله أو بعض ما تخيّله أو أكثر منه.

كذلك نلاحظ أنّ لكلّ ذي حياة ما يحتاج لحياته بحسب صفاته الجسديّة والنفسيّة المفطور عليها.

إذا تبصّرنا بهذه المقدّمة لا بدّ أن ندرك بعقولنا وأفكارنا القويمة أنّ إعداد

الأشياء بحسب حاجات الأحياء، وإعدادها للإنسان على وجه الخصوص، مع إعداد الأحياء أيضاً على وفق حاجاته وما يخدم مصالحه، حتى مستوى رفاهيته المترفة، لهو دليل قويٌّ، بل هو برهان قاطع، على وجود موجود عظيم من وراء هذا الكون المشهود، هو الذي قد أعدّ للإنسان كل ذلك، اعتناءً به، وتفضيلاً وتكريماً، وليختبره بها.

ولولا هذه العناية المقصودة لما وجدَ الإنسان في الكون من حوله كلّ ما يطلبه لجسده ونفسه وفكره ورفاهيته، حتّى ما يجدُّ له من مطالب، يقتضيها تحقيق مطالب سابقة.

هذه العناية التي تدلّ عليها ظاهرات الكون برهان جليل على وجود الرّبِّ الخالق، الذي هيّأ كلّ ما يلزم لما يطلُبه الإنسان في حياته، عن طريق المائدة الحاضرة، والموائد الأخرى التي يستطيع الإنسان بذكائه أن يجمع متفرّقاتها، ويحرّك مفاتيح قواها، ويعدّها وفق مطالبه وحاجاته.

وهذه العناية الجليلة بالإنسان، في الظاهرات الكونيّة، هي في حقيقتها من نعم الله التي أنعم بها على عباده.

وقد أرشدنا كتاب الله القرآن إلى التفكر والتبصر بها لعدة أمور:

الأول: أن نستدلّ بها على وجود الله عزّ وجل، الذي تفضل برحمته الواسعة، فوجّه للإنسان عناية فائقة، فأعدّ له نِعَماً جليلة كثيرة، تحقق له كلّ مطالب جسده، ونفسه، وقلبه، وفكره.

الثاني: أن نوجّه كلّ إمكاناتنا للانتفاع ممّا سخّر الله لنا في الكون، بالبحث، والاكتشاف، والاستنباط، وابتكار الوسائل، واستخدام الطاقات الكمينة في الأشياء بعد اكتشافها، والتوصل إلى معرفة مفاتيح استخدامها.

الثالث: أن ندرك بها ما يجب علينا من الإيمان بالله، وحمده وشكره، ومن استخدامها في طاعته، لا في معاصيه ومواطن سخطه، فحقُّ المالك المنعم الاعترافُ له بإنعامه، والثناء عليه، وشكره، واستخدام ما أنعم به في مراضيه، وهذا الحق أمرٌ تدركه العقول وفطر النفوس بأدنىٰ لافتٍ للنظر.

وقد اقترن الإرشاد القرآني إلى ظاهرة النعم الدّالة على المنعم الجليل العظيم بامتنان الله بها على عباده، وأنّه خلق ما خلق لهم وسخّر ما سخّر لهم في كونه، ليتعرّفوا عليه من خلال نعمه، وليتعرّفوا إليه بالإيمان به وحمده وشكره بالعبادة والطاعة والصالحات من الأعمال وابتغاء مرضاته، واجتناب جحوده، واجتناب الاستكبار عن عبادته وطاعته، واجتناب كل ما ينهاهم عنه، وكلِّ ضرّ وأذى لأنفسهم ولعباد الله، إلّا ما أمرهم به أو أذن لهم فيه ممّا فيه جلب خير أعظم، أو دفع ضرٍّ وأذى أكبر.

فكلّ آية فيها خطاب الله للناس بنحو قوله: «خلق لكم ـ جعل لكم ـ سخّر لكم ـ أخرج لكم ـ أنزل لكم» ففيها امتنان بنعمة يرى فيها المتفكر ظاهرة العناية بالناس، فتدلّه على أنّها ظاهرة مقصودة فيها العناية بهم، ولا يكون هذا القصد إلّا من قدير عليم خبير مختار. وتدلّه على أنّها أثر من آثار رحمته بهم، وإنعامه عليهم، ثمّ ينتقل به التفكير إلى أنّ النعمة تستدعي شكر المنعم، وأوّل شكره الإيمان به، والاعتراف له بالرّبوبيّة، وبأنها له وحده، ثمّ عبادته وتوحيده بالإلّهيّة لزوماً، إذْ لا ربّ غيره، ثمّ التقرُّب إليه بمراضيه لنيل رضوانه والفوز بالمراتب العليا من جنّته يوم الدين.

فمن هذه النصوص القرآنية المرشدة إلى دليل العناية، الهادي إلى الرّب الخالق ذي الرحمة، الذي أحاط عباده بالعناية، فأولاهم من النّعم الظاهرة والباطنة ما هو فوق حاجاتهم في الحياة وفوق مطالبهم، ما يلي:

١ ـ قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة ٢):

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾.

فدلّ هذا النصّ على أن الله عزّ وجلّ قد أعدَّ الأرض إعداداً ملائماً لسكنىٰ الناس فيها، وأمدَّها بما يحتاجون إليه في حياتهم الدنيا من نِعم، قبل أن يخلق

الإنسان بآمادٍ طويلة، كما نُعدُّ لمن سيولدون لنا قبل أن يولدوا ما يحتاجون إليه إذا وُلدوا.

وهذا من كمال عناية الخالق بعباده، ونحن بدورنا إذا شهدنا ما أُعِدَّ لَنا من قبل أن نوجد في هذه الحياة، فلا بدّ أن ندرك أنّ رحيماً قديراً عليماً حكيماً قد أحاطنا بعنايته فأعدّ لنا كلّ ما نحتاج من مطالب من قبل أن نوجد، ولا بدّ أن يكون هو الموجد لنا، لأنه لا يمكن أن يكون المعدّ لكل ما نحتاجه من قبل أن نوجد غير الخالق الموجود لنا، وإلّا لم يحصل التطابق التامّ بين حاجاتنا وبين ما تمّ إعداده لنا من قبل وجودنا، فالحادث لا تعلم صفاته قبلَ حُدوثه إلّا من قِبَلِ واضعِ خطّةِ ذاته وصفاتها، ومحدّد مقاديرها.

* * *

٢ ـ وقول الله عزّ وجل في سورة (النحل ١٦):

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ

أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَٰتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ أَفَبِالْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

ففي هذه النصوص المتعدّدة من سورة النحل امتنان من الله على عباده بنِعَمٍ كثيرةٍ أَعَدَّهَا لَهُمْ، قَبْل أن يُخْلَقُوا، وبعد أن خُلِقُوا، وَمِنْها مَا هُوَ حَاضِرٌ للانتفاع المباشر، ومنها ما هو مسخّر لهم، مطاوع لإراداتهم وأعمالهم، ومنها ما يُسَاق لهم بحَسَب حاجاتهم، كسوق السحاب وإنزال المطر وإنبات الزّرع.

فمن الحاضر المعدِّ على مائدة المنافع للانتفاع المباشر ما في الأرض من زروع وثمار، وما بَثَّ فِيها من أنعام وغير ذلك، وحشرات تقدّم الغذاء والدواء وهي النحل، ومنها تسخير الشمس والقمر واللّيل والنهار، وتسخير البحر لاستخراج اللّحم الطريّ منه، واستخراج الحلية كاللُّؤلؤ والمرجان، ولركوبه على ظهور الفلك التي تَمْخُر فيه فتجري كالجبال، إلى غير ذلك من تفصيلات فيها تنبيهٌ على مفردات من نعم الله على عباده التي تفوق قدراتهم على الحصر والإحصاء، وهي في حقيقتها آيات دالّات على رحمة الله بعباده وعنايته بهم، ومن ثمّ فهي برهان على وجوده عزّ وجلّ.

وشرح كلّ واحدة من هذه النّعم التي نَبَّهَتْ عليها هذه النصوص لا يكفيه سفر كامل لمن شاء أن يفصّل بمنهج علميّ ظواهر قدرة الله فيها، وظواهر إتقانه، وحكمته في الخلق، وعنايته بعباده، وعلى سبيل النظر السريع الإجمالي نذكر نِعْمَةَ الأنعام وما فيها من منافع وخيرات للناس:

فمنها يشرب الناس الألبان، ومنها يأكلون اللحوم والدهن والأجبان، ومنها يأخذون الأصواف والأوبار والأشعار، فيتخذون منها ملابس وفرشاً وأثاثاً، وبيوتاً متنقلة، ويستعملونها في مصالح كثيرة، تعود عليهم بالخير الكثير، والرزق الوفير.

ومنها ما يحملهم إلى بلد بعيد لم يكونوا بالغيه إلاّ بشقِ الأنفس، ومنها ما يحرث لهم الأرض، ويسخّرونه في شتى أعمال الزراعة والفلاحة، ومنها ما يكرّون عليه ويفرّون.

وإذا سألنا علماء الحيوان عن الأنعام وما فيها من ثروة عظيمة أتونا من ذلك بالعجب العُجاب.

هذه المخلوقات العجيبة التي سخّرها الله للإنسان وذلّلها له قد جمعت معظم حاجات العيش له، مع أنّها تعيش على نبات الأرض وأعشابها، فلا تزاحم الإنسان في رزق ولا ثمر إلّا إذا منحها هو من ذلك شيئاً، ولا تزاحم الإنسان في لحم ولا دهن لأنها حيوانات نباتية.

وقد جمعت بالإضافة إلى عطائها من نوامي أجسادها ومنتجات معاملها عطاءً آخر من طاقاتها وقواها، إذ تبذل ما تستطيع من ذلك بكدٍّ دائب، وجَهْدٍ متواصل، طائعةً هيّنة ليّنة.

ثم تقدّم في آخر أمرها أعناقها للذبح، لينتفع الإنسان من لحومها وجلودها وقرونها وعظامها، وكلّ شيء فيها.

من أجل كلّ ذلك قال الله عزّ وجل بشأنها في سورة (يس ٣٦):

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

* * *

٣ ـ وقول الله عزّ وجل في سورة (الحجر ١٥):

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

* * *

٤ ـ وقول الله عزّ وجل في سورة (طه ٢٠):

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿٥٤﴾ ﴾.

* * *

٥ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

* * *

٦ ــ وقول الله عزّ وجل في سورة (الحجّ ٢٢):

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾.

* * *

٧ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل ٢٧):

﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

* * *

٨ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (لقمان ٣١):

﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾.

ففي هذه النصوص من سورة الحجر وطه والأنبياء والحجّ والنمل ولقمان يمتنُّ الله على عباده بطائفة من نعمه التي خلقها لهم أو جعلها لهم أو سخّرها لهم في الأرض والسّماء، ليرشدهم بذلك إلى عنايته بهم، فيستدلّوا على وجوده، فما يجب عليهم نحوه، من الإيمان والإسلام والشكر.

وشرح ظاهرات النعم التي نبَّهَتْ عليها هذه النصوص قد يحتاج مجلّدات علميّة من متخصصين في بحوث الظاهرات الكونية وخصائصها وصفاتها.

ونلاحظ في بعض هذه النصوص أنّه موجّه للكافرين من المتخصصين في البحث العلمي الكوني الذين لم يكونوا موجودين زمن التنزيل، وإنّما وجدوا بعد نزول القرآن بما يزيد على ثلاثة عشر قرناً، فالنصّ الموجّه لهم موجود في القرآن منذ زمن التنزيل وهو ينتظر وجودهم في أزمانهم ليخاطبهم فيها كأنّه منزّلٌ لهم ليخاطبهم بخاصّة، كالنص الذي في سورة الأنبياء.

إنّ المتخصّصين في بحث تاريخ السماوات والأرض هم الذين قد يتوصّلون إلى معرفة أنّ السماوات والأرض كانتا رتقاً، أي: مجتمعة على بعضها ككتلة واحدة، ثمّ حصل الفتق بينها، فتباعدت عن بعضها وأخذت مداراتها وصارت تسبح في الفضاء الواسع، وهم الّذين يتوصّلون بالبحث العلمي إلى معرفة أنّ الجبال في الأرض هي بمثابة رواسٍ تثبت قشرة الأرض، حتى لا تميد بالساكنين عليها، وهم الذين يتوصّلون بالبحث العلمي إلى معرفة أنّ السماء سقف محفوظ.

وما تزال آيات قرآنية موجَّهة لمن سيأتي من الباحثين العلماء في الظاهرات الكونية، مما لم يكتشف سرّه حتى الآن، حتى إذا عرفوه ولو بعد قرون، وجدوا أنّ القرآن يخاطبهم بما عرفوا في أزمانهم، وهذا من إعجاز القرآن المدّخر لقادمات العصور.

والآيات القرآنية المرشدة إلى ظاهرات النّعم، الدالّات على المنعم ذي العناية بخلقه كثيرات، وفيما عرضت منها دليل كافٍ لمن شاء أن يعرف الحقّ ويؤمن به.

□ □ □

الفصل التّاسع

دليل استجابة الدّعاء

لو أنّ إنساناً وجد نفسه سجيناً داخل قصر كبير، أو ضيفاً في هذا القصر الكبير المحاط بما يحجبه عمّا وراءه من الكون، وهو لا يستطيع الخروج من هذا القصر، وأتاه من أخبره أنّ لهذا القصر مالكاً يعلم كلّ حركة وسكنة تجري منك ومن غيرك داخل قصره، عن طريق أجهزة موضوعة في أماكن خفيّة، تنقل له الصور والأصوات وكل ما يجري في أي مكان من هذا القصر، لكن مالِكَ هذا القصر محتجب لا يظهر بحالٍ من الأحوال أمام نزلاء قصره، إلّا أنّه أقام لهم دليلاً على أنّهم في ضيافته أنّهم متى ألجأتهم الضرورة، ونادَوْه ليساعدهم ويُلبّي مطالبهم وجدوا أنّ مطالبهم تحقّقت، فكشف عنهم ما أحاط بهم من شدّة، وفرّج عنهم.

إنّهم إذا امتحنوا ذلك فوجدوا أنّ مطالبهم صارت تتحقّق كلّما حزبهم أمرٌ ونادوه، فلا بدّ أن يتأكّدوا من صحة خبر من أخبرهم بأن لهذا القصر مالكاً محتجباً يعلم كلّ حركة وسكنة تجري من قِبَل نُزَلائه.

فإذا أنكر هذا الإنسان أنّ لهذا القصر مالكاً مع أنّه امتحن ظاهرة إجابته مطالبَهُ، وتلبيته فيما دعاه، فإنّه إنسان محروم من ملكة الفهم والتفكير، أو لئيم مستكبر مجرم حقير، يستمتع بخيرات مالك القصر وهو له جاحد منكر، فاجرٌ أو مستكبر.

فالقصر في المثل هو هذا الكون الذي نحن فيه في الممثّل له، ودارنا فيه ومحل إقامتنا هذه الأرض التي نعيش عليها.

وقد أخبرنا خالق هذا الكون ومالكه بقوله الذي بلّغنا إياه رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في سورة (البقرة ٢):

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

وبقوله عزّ وجلّ في سورة (النَّمل ٢٧):

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

فمن أراد أن يَمْتَحِنَ صدق وجود الله ووحدانيته في ربوبيّتِه فَلْيَدْعُه صادقاً من أعماق قلبه، لأمر من أموره التي ألجأته فيها الضرورة.

فإنّه سيجد الله عزّ وجلّ قد سارع إلى إجابة دعائه، فإذا كان في شدّة شديدة، أو ضرورة مُلحّة، أو مأزقٍ حَرِجٍ، فَلْيَدْعُ اللَّـهَ لأمره، فإنّه سيجيب دعاءه، ليقيم له برهاناً تجريبياً على أنّه حقٌّ لا شكّ فيه، يسمعُ نداءه الخفيّ، ويعلم سِرّه وعلانيته، وأنّه على كلّ شيءٍ قدير.

إنّ إجابة الدّعاء برهان تجريبي يستطيع أن يختبره كلّ إنسان راغب في التحقّق من وجود الرّبّ الخالق عزّ وجل، صادقٍ في البحث عن الحقّ ليؤمن به، غيرِ مُتَشَهٍّ في المطالب ولا متلاعب في المقادير والسنن الرّبّانيّة، مخلص لله في الدعاء.

وميدان التجربة الصادقة في ظاهرة الدعـاء واستجابتـه ضمن حدود حاجات الناس المعتادة، أو في حالات الضرورات الملجئة، ودون تعنّت في

تشهّي الخوارق وطلبها به، ميدان مفتوح لكلّ إنسان صادقٍ في البحث عن الدليل الذي يورثه الطمأنينة بأن الله حقّ.

وتجارب الناس المتكررة لهذه الظاهرة لا تحصى ولا تستقصى، ولعله ما من أحد إلّا مرت في حياته تجربة الدعاء واستجابته من الربّ الخالق عزّ وجل، ولكنّ الإنسان كفور، كلّما التجأ إلى ربّه في شدّة أحاطت به ليكشف عنه ضرّه، ثم كشف الله عنه ما أحاط به، عاد إلى جحوده، وكفران نعم الله عليه، وعلّل كشف الضرّ عنه بالأسباب وبالمصادفات، وقد ذكر الله هذا الوصف من صفات الإنسان بقوله في سورة (يونس ١٠):

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

□ □ □

الفصل العاشر

دليل قانون الطّاقة المتاحة

اكتشف العلم الحديث ما يُدْعَىٰ بالقانون الثاني للحرارة الديناميكيّة، ويسمّونه «قانون الطاقة المتاحة» أو «ضابط التغيّر».

وهذا القانون يثبت أنّه لا يمكن أن يكون وجود الكون أزليّاً، إذْ هُو يفيد تناقص عمل الكون يوماً بعد يوم، ولا بدّ من وقت تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات، وحينئذٍ لا تبقىٰ أيّة طاقة مفيدة للحياة والعمل، وتنتهي العمليّات الكيميائية والطبيعية، وبذلك تنتهي الحياة.

يذكر هذا التحقيق العلمي عالم أميركي في علم الحيوان، هو «إدوارد لوثر كيسل»[1] ثم يقول:

«وهكذا أثبتت البحوث العلميّةدون قصد أنّ لهذا الكون بداية، فأثبتت تلقائيّاً وجود الرّب الخالق، لأن كلّ شيء ذي بداية لا يمكن أن يبتدىء بذاته، ولا بدّ أن يحتاج إلى المحرّك الأوّل الخالق الإِلٓه».

ونجد مثل هذا التحقيق في كلام العالم الإنكليزي الفلكي الرياضي الكبير «السير جيمس جينز»[2] إذ يقول في كلام له:

«تؤمن العلوم الحديثة بأنّ عمليّة تغيّر الحرارة سوف تستمر حتى تنتهي

---

(١) في مقال له بكتاب: «الله يتجلّى في عصر العلم».

(٢) نقلاً من كتاب «الإسلام يتحدّى» لوحيدالدين خان، ص ٧٧.

طاقاتها كليّة، ولم تصل هذه العملية حتّى الآن إلى آخر درجاتها، لأنّه لو حدث شيء مثل هذا لَما كُنَّا الآن موجودين على ظهر الأرض حتّى نفكّر فيها. إنّ هذه العملية تتقدّم بسرعة مع الزمن، ومن ثمّ لا بدّ لها من بداية، ولا بُدّ أنّه قد حدثت عمليّة في الكون يمكن أن نُسمّيها خلقاً في وقتٍ ما، حيث لا يمكن أن يكون هذا الكون أزليّاً».

فحدوث هذا الكون أمرٌ معترف به عند العلماء المادّيين، ولكنّ الملحدين بالله يغالطون في الحقائق، ويتظاهرون بالانتماء إلى قافلة العلم والبحث العلمي ليحتموا بحماها.

فللإيمـان من العلم كلُّ الأسانيد العلميّة والمنطقيّة، أمّا الإلحاد فليس له من العلم أيُّ سند، كلُّ ما يصنعه الملحدون حينما يتسترون بالانتساب إلى قافلة العلم إيهامات ومخـادعات، وادّعـاءات كاذبـات، ومغالـطات وسفسطات، لا يعترف بها العلم، بل هو منها بَراء.

على أنّ الملحدين بالله جلّ وعلا قلَّةٌ قليلة في ركب كبار العلماء المادّيين، وهم في الحقيقة دخلاء، وليسوا بأصلاء.

وإذْ قد ثبت عن طريق العلم كما ثبت عن طريق نظرات العقل أنّ هذا الكون حادث، كان مفتقراً بحكم الضرورة العقلية الحتميّة إلى مُحْدث، أي: إلى خالق يخلقه ويوجده من العدم، ويجب عقلاً أن يكون هذا الخالق أزليّ الوجود، ليس له من الصفات ما يقتضي كونه حادثاً.

والمؤمن لا يناقش في ضرورة وجود موجود أزليّ لا أوّل لوجوده، فهذه حقيقة حتمية ليس في مستطاع أيّ مفكّر عاقلٍ إنكارها، لأنّ افتراض العدم المطلق يلزم منه أن لا يوجد في الوجود شيءٌ مطلقاً، إذْ لا يقوى العدم المطلق على أن يتحوّل إلى الوجود بنفسه.

إذن: فالأصل هو الوجود بالنسبة إلى الموجود الأزلي، وهو غير هذا الكون حتماً، لأنّ هذا الكون حادث، والحادثُ لا يكون أزليّاً، للتناقض بين الحدوث والأزلية.

والمؤمن يقرّر أنّ الحادث الذي لم يكن ثم كان، لا بدّ له من محدثٍ موجود سابق عليه، ومستنده في ذلك البديهيّة العقلية التي لا يجحدها إلّا فاقد أصوله الفكريّة، أو مكابر محروم من خلق الأمانة على المعرفة.

بهذه الأصول العقليّة الجليّة يتّضح لنا أنّ من أصله الوجود، ووجوده أزليّ لا أوّل له، لا يحتاج أصلاً إلى علة لوجوده، باعتبار أنّ وجوده هو الأصل، والذي يُسأل عن علّةٍ لوجوده هو ما كان أصله العدم.

فالسؤال عن علّة مَن أصله الوجود سؤال مخالف لأصول العقل السليم، ولا يقدّمه إلّا من يقبل اجتماع النقيضين، إذ السؤال عن علة وجوده يتضمّن ادّعاء حدوثه، بينما أثبتت الضرورة العقلية استحالة حدوثه، فيقع السائل في التناقض وهو غافل.

وبهذا يظهر لنا أنّ الوسوسة التي يطرحها الشيطان، إذ يقول كما جاء في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: هذا خلق الله الخلق فمن خلق الله؟ إنما هي مغالطة احتيالية قائمة على الإيهام بأنّ الخالق عزّ وجل حادث، وليس أزليّاً واجب الوجود، مع أنّ الضرورة العقلية قد أثبتت أنّه أزليٌّ وأنّ الأصل وجوده، وأنّه يستحيل عقلاً عدمه من الأزل إلى الأبد.

ويستغل الملحدون هذه المغالطة الشيطانية، فيطرحون على عوامّ المسلمين وصغار متعلّميهم فيقولون لهم:

ألستم تقولون: إنّ كلّ موجودٍ لا بدّ له من موجد، وإنّ هذا الكون موجود فلا بدّ له من موجد، وذلك هو الله؟

فيقول العاميُّ الذي لا يعرف أصول المغالطات: بلى.

عندئذ يستدرجه الملحد فيقول له: الله موجود، وهو بحسب الدليل لا بدّ له من موجد.

فيجد العامّيّ نفسه قد انقطع إذْ لم يستطع أن يجد جواباً.

لكنّ الخبير العارف لا يقبل أصلاً صيغة الدليل على هذا الوجه القائم على المغالطة.

وذلك لأنّ المقدّمة: «كلّ موجود لا بدّ له من موجد» مقدّمة كاذبة غير صحيحة، فالخبير لا يسلّم بها لفسادها، وإنما يقول بدلَها:

«كُلُّ موجود حادث لم يكن ثمّ كان لا بدّ له من محدث» أو: «كلُّ حادث لا بدّ له من محدث».

ثم يقول: وهذا الكون موجود حادث بشهادة العقل، وبشهادة البحوث العلمية التي توصل إليها العلماء المادّيّون بوسائلهم، إذن: فلا بدّ له من خالق خلقه، وهذا الخالق لا بدّ أن يكون موجوداً أزليّاً غير حادث، وليس له شيء من الصفات التي تدلّ على أنه حادث، وهذا الخالق هو الله عزّ وجل.

وأنبّه هنا إلى أنّ بعض الكاتبين في العقائد الإسلامية من المعلمين والأساتذة قد غفلوا عن هذه الغلطة الفاحشة، فساقوا الدليل على وجود الله، على الطريقة نفسها التي يسوقها المغالطون، إذ يقول قائلهم: من المعلوم بداهة أنّ كلّ موجود لا بدّ له من موجد، وهذا الكون موجود فلا بدّ له من موجد. وكان عليهم أن يكونوا على يقظة لدى سوق الحجّة، وأن يُنَبِّهوا على الفرق بين المقدمتين، ليحموا من يأخذ عنهم من السقوط في حبائل الشياطين.

□ □ □

الفصل الحادي عشر

دَليل الاختِــلاف في المخَلوقَاتِ

الاختلاف في المصنوعات الصادرة عن سبب واحد دليلٌ على أنّ الصانع مريد مختار يصنع صناعته بيديه، وأنّه يبدّل ويغيّر في صناعته من حين لآخر، لغاية يقصدها، وأنّه حينما يصنع مصنوعاً جديداً ـ ولو على مثالٍ سبق له أن صنعه ـ يميل بطبعه الفكريّ الإرادي إلى التجديد، وينفر من التقليد المطابق، ولو كان يقلّد ما كان قد صنعه بنفسه.

هذه الظاهرة ملاحظة في أهل الصناعات المتقنين من الناس، وكلّما ارتقت مهاراتهم وقدراتهم على الابتكار والتجديد كان نفورهم من المحاكاة المطابقة أشدّ، ولا يلجأ الإنسان إلى التقليد إلاّ في أوائل اكتسابه للمهارات، أو حينما يكون عاجزاً عن الابتكار والتجديد، وهو في هذه الحالة يلجأ إلى تغييرٍ ما، ما لم يكن يحاول تقليد المصنوعات الراقية جدّاً.

ويكره المتفوّقون المطابقة بين أعمالهم، لأنهم لا يرغبون في تكرير أنفسهم مع كلّ عمل، ويستنكِفُونَ عن أن يكونوا كالآلات التي لا علم لها ولا إرادة، فهي تدور في عمل المتطابقات بأعداد لا حصر لها، دون أن تغيّر شيئاً بإضافة أو حذف.

والدافع إلى ذلك في أعماق نفوس الناس أن تكون لهم ذاتيَّةٌ فكريّة إبداعيّة صناعيّةٌ مع كلّ عمل، حتى لو أراد كبار الصناعيين اليدويّين صُنع زوجين متطابقين تماماً لم يتيسّر لهم ذلك، لأنّهم خلال قيامهم بالعمل المطابق

يغفُلون ولو إلى لحظات عن المطابقة، فتظهر في أعمالهم نزعة التغيير. وهذا عند أصحاب الصناعات الراقية دليل على أنّ العمل صناعة يدويّة لإنسان مريد مختار، لا صناعة آلية لآلة تتحرك بالتوجيه الجبري، وبالقانون الطبعيّ لها، وعلى وفق ما رسم لها تماماً دون تغيير أو تبديل، إلّا ما يكون بسبب خلل طارىء أصاب أحد أجزائها.

وقد أقام الرّبّ الخالق العظيم تبارك وتعالى الدليل على أنّه الخالق المريد المختار الحكيم، وأنّه لا يعمل بالتلقائية الطبعيّة كما تفعل الأسباب مع مسبَّباتها، فخلق خلقه كلّه ضمن سنّة الاختلاف بين أجناس مخلوقاته، وأنواعها، وأصنافها، وأفرادها، وأجزائها مهما صغرت، حتّى لا نكاد نجد تطابقاً تامّاً لدى التعمق بين ورقتين من شجرة واحدة، ولا بين فاكهتين منها، ولا بين أخوين شقيقين ولو كانا توأمين، ولا بين الشّقّ الأيمن والشقّ الأيسر من إنسان واحد.

ودلّنا على ظاهرة الاختلاف في الخلق في قرآنه، فقال عز وجل في سورة (الروم ٣٠):

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الجاثية ٤٥):

﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَـٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

وقول الله عزّ وجل في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ

وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

وقول الله عزَّ وجل في سورة (النحل ١٦):

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

وقد تَنَبَّه إلى ظاهرة الاخْتِلافِ والتنوّع في المخلوقات الدكتور «رسل لويل مكستر» أستاذ علم الحيوان، فأعلن إيمانه بالله وحكمته وعلمه وعظيم قدرته وتدبيره، وأنه خالق مريد عليم حكيم، فجاء في مقال له كتبه تحت عنوان «الحائر الصغير يفكّر»[1] ما خلاصته:

«إنّني أرى أنواعاً عديدة من النباتات والحيوانات الحيّة التي عاشت على سطح هذه الأرض، والتي يبلُغ عددها الملايين...

فهل هناك نظام تخضع له هذه الأنواع؟.

نعم، هنالك نظام حيثما اتجهنا، فكل نوع من هذه الأنواع ينقسم إلى فصائل، وتنقسم الفصائل بدورها إلى أقسام أصغر فأصغر.

ولكننا مهما قسّمنا نجد أنّ هنالك صفات مشتركة بين جميع الأفراد التي تنتسب إلى نوع واحد أو صنف واحد.

فإذا نظرنا إلى أحد الطيور التي تُسمَّىٰ نقّارة الخشب، فإننا نجدها جميعاً قد بنيت على طراز واحد، وقد تتشابه مع غيرها من الطيور بقدر، وتختلف عنها بقدر.

وهنالك صفات مشتركة بين جميع الفصائل والأنواع الحيوانيّة الموجودة في الطبيعة بأسرها، فهي تشترك جميعاً في اللّحم، أو في البروتوبلازم.

---

(١) من كتاب «الله يتجلىٰ في عصر العلم».

ويُعدّ ذلك في نفسه دليلاً على أنّ وراء كلّ ذلك التنظيم خالقاً مدبّراً، هو الذي خلق المادّة الأساسيّة فيها، وأودع فيها من القوّة والتوجيه ما جعلها تتخذ هذه الصّور التي لا تحصى من الأفراد والأصناف والأنواع والأجناس.

إنّ المنطق السليم يدفعنا إلى التسليم بوجود عقل[1] مقدّس هو الذي خلق ودبّر تلك الاختلافات والاتفاقات التي تحدث عنها، بدلاً من أن يجعلنا نتصوّر أن تلك الأنواع المختلفة من الكائنات الحيّة والأجناس قد ظهرت بمحض المصادفة التي أدّت إلى اتّحاد بعض العناصر تحت ظروف البيئة.

إنّ المنطق السليم الذي يجعلنا نلاحظ أنّ الإنسان يستطيع أن يقوم بأمور معقّدة هو المنطق نفسه الذي يجعلنا نعتقد بوجود خالق عظيم هو الذي أبدع كلّ هذه الكائنات.

ومهما بلغت الاختلافات بين أفراد النوع الواحد، أو بين الأنواع التي عاشت في أقدم العصور الجيولوجيَّة، سواءٌ منها ما اندثر أو ما يزال حيّاً، فإنّ الإنسان لا يستطيع إلاّ أن يسلّم بأنّ هذه الكائنات جميعاً قد بدأت على هيئة مخلوقاتٍ متلائمة، مخلوقات من صنع الخالق الكبير».

وهكذا اهتدى هذا العالم بالتأمل في ظاهرة اختلاف الكـائنات رغم اشتراكها في صفات تجمع بينها، إلى معرفة أنّ لها خالقاً مدبّراً عليماً مريداً قديراً حكيماً.

□ □ □

---

(١) انظر الحاشية في الصفحة (٩١) تعليقاً على أمثال هذا التعبير.

الفصل الثاني عشر

دليل ظاهرة العدل

نلاحظ كثيراً من مظاهر الجزاء بالعدل تجري في ظروف هذه الحياة الدنيا، دون أن تأتي هذه الجزاءات العادلة من قِبل أحدٍ من الناس قاصدٍ إقامة العدل.

فكثير من القتلة الظالمين يتعرّضون لأحداثٍ يقعون فيها تحت وطأة من يظلمهم ويقتلهم، وندقّق في ظروف هذه الأحداث فنرى أنّها بمثابة جزاء عادلٍ لما كان قد جرى منهم من قتل وظلم.

وكثير ممّن يأكلون أموال الناس بالباطل يتعرّضون لألوان من الآلام في أنفسهم أو في أموالهم أو في أهليهم، وحين ندقّق في ظروف هذه الآلام، ونمعن النظر، نرى أنّها بمثابة جزاءٍ عادلٍ لما كان منهم من ظلم وأكلٍ لأموال الناس بالباطل.

ويأكل بعض الناس أموال اليتامى ظلماً وعدواناً، فنرى أنّ ذلك قد انقلب عليهم عذاباً كنار في بطونهم، أو محقاً في أموالهم وشقاءً في حياتهم.

ويسلك بعض الأبناء مسلك العقوق لآبائهم أو أمّهاتهم، ثم نرى أنّهم يتعرّضون في حياتهم لألوان شتّىٰ من العقوبات القاسيات، ولا نشكّ بأنّها كانت جزاءً عادلاً لما كان منهم من عقوق.

وفي خلوة تامّةٍ يقوم بعض المجرمين بجرائم يظنّون فيها أنّ أحداً لم يطّلع عليهم، وأنّ جرائمهم دفنت، وأنّ أدلّتها قد مُحيت تماماً، وتمرُّ حقبة من الزمن،

وتظلّ جرائمهم في طيّ الكتمان، ثم نلاحظ فجأة انكشاف جرائمهم بطريقة غريبة جدّاً، فيُقَدّمون إلى القصاص العادل.

وينتشر الفسق والظلم والطغيان في أمّة من الأمم، ويتطاول عليها العهد في ذلك، ولا تنفع فيها مواعظ الواعظين ولا تحذيرات المحذّرين، وتتمادىٰ في غيّها تمادياً شنيعاً، ثمّ نلاحظ أنّ سنّة العدل في أمثالها قد نزلت بها، إمّا من قِبَلِ عدوّ يُسلَّط عليها، أو جائحة كونيّة تهلكها، أو شقاق يقع بينها، فتنقسم إلى أحزاب وفرق متعادية متحاسدة، ثم يقاتل بعضها بعضاً قتالاً أشدّ من قتال من يتسلّط عليها من غيرها.

● وفي مقابل ذلك نلاحظ كثيراً من أصناف وألوان الجزاء بالثواب، للذين يفعلون الصالحات في حياتهم الدنيا، وندقق النظر ونمعنه فنرى أنّها بمثابة المكافأة لهم على ما كان منهم.

يبذل بعض الناس من ماله في سبيل الخير، ويرى مبدئيّاً أنّ ماله قد نقص بسبب ذلك، ثم يلاحظ أنّ نماءً مفاجئاً قد أتاه من حيث لم يحتسبْ، كتجارة رابحة، أو زراعة نامية، أو غير ذلك من وسائل.

ويساعد بعض الناس منقطعاً في طريق، فينقذه ويكرمه، ثم يرى أنّه قد تعرّض في حياته لشدّة قاسية، وفجأة يأتيه من يساعده وينقذه، ويشعر في قرارة نفسه بأنّ هذا قد كان مكافأةً له على صالح عملٍ قدّمه من قبلُ في حياته.

ويكرم بعض الناس الأيتام، فيمسح عنهم بؤسهم، ثمّ يرى أثر ذلك في نفسه وأولاده، إذ يجد ألواناً وأصنافاً من المعونات التي لا كسب له فيها قد جاءته أو جاءت أولاده من حيث لم يحتسب، ويشعر في قرارة نفسه أنّ هذا قد كان مكافأة مجزية لما كان قدّمه من عمل صالح.

ويعمل بعض الناس في السّرِّ أعمالاً خيّرة صالحة، لا يعلَمُ بها أحد من الناس، وتمضي الأيّام تباعاً، ثمّ يجدون أنّهم يكافأون على صالح أعمالهم من حيث لا يشعرون.

فمن الذي يرعى أحداث الناس ويراقب أعمالهم وهم لا يشعرون، ثم يدلّهم على وجوده، ورعايته، ومراقبته لهم، بما يجريه لهم من جزاءات عادلة بالثواب أو بالعقاب؟.

مَنْ هذا الذي هو من وراء العالم المادّيّ المشهود يحاسب الظالمين والمجرمين، ويلاحقهم بعقاب من عنده؟.

مَنْ هذا الذي هو من وراء العالم المادّيّ المشهود، يراقب أعمال المحسنين، ثمّ يكافئهم على بعض أعمالهم الصالحة، بما يجريه لهم من خيرات كثيراتٍ لم تكن في حسبانهم، ليدلّهم على وجوده ومراقبته لهم. وليدلّهم على عدله وجزائه الأكبر يوم الدين؟.

إنّ الجواب الإيمانيّ الذي تنطق به عقول المؤمنين وقلوبهم، وتنطق به الكتب المنزلة، والرّسل والأنبياء: هو الله الحكم العدل، الذي يجازي الناس على أعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ، أو يعفو ويصفح بحكمته.

والجواب المنطقي الذي تهدي إليه العقول الصحيحة السليمة هو أنّ من وراء العالم المادّيّ المشهود عليماً حكيماً قديراً حكماً عَدْلاً لا يجازي الناس على قدر مسؤولياتهم تجاه أعمالهم.

إنّه الله ربّ كلّ شيء، والعليم بكل شيء، والقدير على كلّ شيء.

* * *

وقد أرشدنا القرآن إلى واقع العقوبات التي أنزلها الله بالأمم السابقة، لأنّها كفرت بربّها، وكذّبت رُسُله، وأكثرت الفساد والطغيان في الأرض، باعتبار أنّ هذه العقوبات التي تكرّرت في تاريخ الناس، من الأدلّة الدالّة على وجود الله، لارتباطها بأسبابها السالفة الذكر ارتباط النتيجة بالسبب، ولأنّها كانت تأتي بعد إنذار الله لأقوامهم، ولأنّها كانت تأتي ضمن ظروف لا يمكن إسنادها إلى طاقة الرسُل البشرية.

نقرأ في سورة (الشعراء ٢٦) فنطالع فيها تكرير التنبيه على هذه الظاهرة،

باعتبارها آية تهدي ذوي العقول إلى الإيمان، إلاّ أنّ واقع حال الناس أنّهم يظلّون في غفلة عن آيات الله ودلائل وجوده وعدله فلا يؤمنون.

■ ففي قصّة موسى مع فرعون وملئه وجنده نلاحظ أنّها تنتهي بنجاة موسى ومن معه أجمعين، وغرق فرعون ومن معه، وكان ذلك بطريقة تتجاوز حدود القدرات الإنسانيّة، إذْ فلق الله البحر لموسى، فسار هو ومن معه في دروب البحر، ولحقهم فرعون وجنوده، وتمت المعجزة بوجهين:

● وجه نجا فيه الرسولان موسى وهارون ومن معهما من بني إسرائيل.

● ووجه آخر غرق فيه فرعون والكافرون معه.

وكان ذلك آية على صدق ما جاء به موسى وهارون عليهما السلام، وآية على أنّ الله حقٌّ، وآيةً على ظاهرة العدل وعلى سوء مصير المكذبين الطاغين، وآية على أنّ ما عليه مكذبو الرسل باطل.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾.

■ وفي قصّة نوح مع قومه نلاحظ أنّها تنتهي بنجاةِ نوح عليه السلام ومن آمن معه، وغرق الذين كذبوا وكفروا وطغوا، وكان ذلك بعد إنذارٍ لهم من نوح

عليه السلام، وبطريقة تتجاوز حدود القدرات الإنسانية، وتَمَّتِ المعجزة بوجهين:

- وجه نجا فيه نوح عليه السلام ومن معه في الفلك المشحون.
- ووجه آخر غرق فيه الكافرون حتى ولد نوح الذي كفر وكذب أباه نوحاً، ورفض أن يؤمن ليكون له نصيب في ركوب السفينة، ولم يملك له أبوه النجاة وقد أَصَرَّ هُو على كفره.

وكان ذلك آية على صدق ما جاء به نوح عليه السلام، وعلى أنّ الله حقّ، وعلى سوء مصير الكافرين المكذبين، وأنّ ما هم عليه باطل.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء ٢٦) أيضاً:

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

وعلى هذا النمط عرضت سورة الشعراء قصّة هود وقومه، وقصّة صالح وقومه، وقصّة لوط وقومه، وقصّة شعيب وقومه.

■ وأرسل الله عزّ وجلّ إلى ثمودَ إحدى القبائل العربيّة القديمة رسولاً منهم اسمه صالح عليه السلام، فدعاهم إلى الإيمان بالله وعبادته، فكذّبوه ولم يستجيبوا له، ثمّ بيّتَ تسعةُ رهطٍ منهم مفسدون في الأرض أن يقتلوه وأهله،

ويقولوا لأوليائه من قومه: ما شهدنا مَهْلِكَ أهله، وإنّا لصادقون، ليتخلّصوا بذلك من تبعة قتله وقتل أهله، أمام أوليائه من قومه وأهل قرابته.

لكنّ الله عزّ وجلّ انتصر لرسوله صالح، فبادَرَ تنفيذَ ما بيّتَهُ المفسدون من مكرٍ به فَدمّرهم ودمّر قومهم أجمعين، وأنجى صالحاً عليه السلام، ومن معه من المؤمنين الذين كانوا يتّقون، وأبقى من مساكنهم آثاراً، لتكون آيةً لقوم يعلمون، يتّعظون بها ويعتبرون.

وهذه آثارهم ما تزال باقية شاهدةً بما نزل بأصحابها من عقاب.

ولكي يعتبر الناس ويتعظوا قصّ الله قصّتهم في سورة (النمل ٢٧) فقال عزّ وجلّ فيها:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

■ وَأرسل الله عزّ وجلّ إلى أهل القرى الخمس التي كانت قائمةً في مكان البحر الميّت لوطاً عليه السلام، فدعاهم إلى الله وإلى عبادته، ونهاهم عن الفاحشة التي كانوا يمارسونها بصفة ما سبقهم بها من أحدٍ من العالمين.

فلم يستجيبوا له، وتمادَوْا في غيّهم يفسدون رغم إنذارات لوطٍ بعذاب

مدمّر، فأرسل الله عليهم الصيحة مشرقين (أي: عند إشراق الشمس) وجعل عالي بلادهم سافلها، وأمطر عليهم حجارةً من سجّيل، وأنجى لوطاً عليه السلام وأهله، إلّا امرأته كانت من المُهْلَكِينَ، وجعل ما جرى لهم من عقاب آية لِلْمُتَوَسّمين، الذين يدرسون الآثار والعلاماتِ، فيستدِلُّونَ منها على ما جرى من أحداث، ثمّ يدرسون الأحداث فيعلمون أنّها أحداث عقاب ربّاني، فيتعظون ويعتبرون.

وقد قصّ الله عزّ وجلّ قصتهم ليعتبر بها من يعتبر، فقال تعالى في سورة (النمل ٢٧):

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

وقال عزّ وجلّ بشأنهم في سورة (الحجر ١٥):

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

ففي العقوبات المعجّلة، وآثارها الباقيات في الأرض آياتٌ دالّاتٌ على أنَّ وَرَاءَ هذا الكون المنظور أو المشهود قوّةً قاهرةً عادلة، هي التي تسيّر هذا الكون وتدبّره، وتراقب ما فيه من أحداث، وتنفّذ بعض أحكامها العادلة، في ظروف هذه الحياة العاجلة. وتعتبر هذه الأحداث بمثابة أمثلةٍ يضربها مدبّر هذا الكون لعباده، حتى يعتبر بها أولو العقل وأولو العلم، فيتّعظوا ويؤمنوا بربّهم القاهر الذي يقيم عدله في عباده.

إنّ هذه الآيات من آيات العدل الرّباني برهانٌ قاطع على وجود الله وعظيم صفاته.

ولذلك أرشد القرآن إلى هذا الدليل بشكل عامّ، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (السجدة **٣٢**):

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦)﴾.

□ □ □

الفصل الثالث عشر

دليل ظاهرتي الحياة والموت

(١)

ظاهرتا الحياة والموت في هذا الوجود الذي نحن جزء منه ظاهرتان عجيبتان، تأتي الحياة إلى الحيّ دون اختيار منه أو استدعاء، ثم يأتيه الموت دون اختيار منه، ودون أن يستطيع دفعه.

فلا حيّ في هذا الكون المشهود لنا يملك حياته، أو يستطيع دفع الموت عن نفسه إذا جاء أجله.

ولا حيّ في هذا الكون اختار نوع حياته، ولا زمانها، ولا مكان ظهورها، ولا الأصل الذي انحدرت منه.

ولا حيّ يستطيع التصرّف في بناء جسده الحيّ، فهو لا يستطيع نقل كبده إلى موقع الدماغ، ولا نقل دماغه إلى موقع الكبد، ولا تحويل يمناه إلى موقع يسراه.

ولا حيّ يستطيع أن يجعل نفسه عملاقاً إذا كان هو قزماً من الأقزام، أو يجعل نفسه قزماً إذا كان هو من العمالقة، ولا أن يجعل نفسه وسيم الطلعة إذا كان دميماً، ولا أن ينافس الأذكياء إذا كان هو من الأغبياء.

إنّ قدراته تنحصر في مجموعة أعمال وتصرّفات قد يجني بها خيراً، أو يكتسب بها شرّاً، ولا ترتقي أعماله هذه إلى مستوى تغيير ذاته، أو تغيير أقداره، مما لا يعتبر مسؤولاً عنه من أعماله وتصرفاته.

فكيف جاءت الحياة للأحياء؟ وأيّ شيءٍ في الوجود يملك حياة هؤلاء الأحياء؟.

إذا كانوا هم لا يملكون أنفسهم، ولم تكن لهم خِيَرَةٌ في وجودهم، ولا في حياتهم، ولا تكون لهم خِيَرةٌ عند موتهم، فأيُّ شيء في الوجود يملك ذلك فيهم؟.

هل لآبائهم وأمّهاتهم قدرة على اختيار شيءٍ ممّا جاءوا مزوّدين به من صفات؟.

إنّ الجواب يأتينا من كلّ الآباء والأمهات بالنفي.

فهل تملك الأرض بترابها وصخورها ومعادنها ومائها وهوائها وسائر ما فيها شيئاً من ذلك للأحياء؟.

إنّ الجواب الذي تنطق به طبيعة الأرض وما فيها: إنّني مسخّرة للأحياء، ولا أملك منهم أو لهم شيئاً.

فهل الشمس أو شيءٌ من النجوم والكواكب في هذا الفلك الكبير يملك ذلك أو شيئاً منه؟.

إنّ الجواب الذي تنطق به النجوم والكواكب وفق معارف علماء الفلك: إنّنا مسخّرات في السماء، لا نملك لأنفسنا ولا لغيرنا شيئاً.

عندئذٍ ينفتح للعاقل السائل طريق هدايته إلى الحقيقة، فيقرّر بشكل قاطع: أنّ مالك الحياة والموت، ومالك ذوات الأحياء، ومالك كلّ شيء في هذا الكون المشهود هو موجود عظيم، لا تدركه الأبصار، إنّه مبدع هذا الوجود المشهود لنا، وهو مالكه، إنّه الموجود الأزليّ الأبديّ الذي لا يخضع لحدود الزمان والمكان والتجسّد. إنّه الذي ليس كمثله شيء، وهو على كلّ شيءٍ قدير، عجزت الحواسّ عن إدراك ذاته، واستطاعت العقول تصوّر وجوده، وإثبات كثير من جلائل صفاته وأسمائه الحسنى، إنّه الخالق القادر العليم الحكيم السميع البصير، إنّه الله لا إله إلاّ هو. إنّه القاهر فوق عباده، بيده الملك

وهو على كل شيء قدير، وقد خلق الكون لحكمة هو يعلمها، وخلق الموت والحياة ليبلو قسماً من الأحياء في مدّة حياتهم الدنيا أيُّهم أحسن عملاً. ووهبهم لذلك شروط التكليف، فمنحهم القدرة على المعرفة، ومنحهم اختيار أعمالهم ضمن دائرة استطاعتهم، وأوجد فيهم الأهواء والشهوات، ونوازع الخير، ونوازع الشرّ، وهداهم إلى الصراط المستقيم، وعَرَّفَهم طريق فعل الخير وطريق فعل الشرّ، وحذّرهم مواقع الشرّ والضلالة، ووعدهم بالجنّة إذا استقاموا، وأوعدهم بالعذاب الأليم إذا انحرفوا واختاروا الضلالة على الهدى، واستحبّوا العمى على البصر والظلمات على النور.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الملك ٦٧):

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾.

* * *

(٢)
لغز ظهور الحياة

لُغَزُ ظهور الحياة على هذا الكوكب الذي نعيش عليه ما زال يُحَيِّر الباحثين من علماء الطبيعة، وهو عند المؤمنين دليل واضح وقويٌّ على الخالق العظيم الحيّ القدير، الذي نفخ روح الحياة في المادّة الميتة فجرَت تسعىٰ، والذي أتقن كلّ شيء صنعاً، وأعطى كلَّ شيء خلقه ثم هدى.

بهذا التفكير المنطقيّ السليم القريب من مسلّمات الفطرة ينحلّ اللّغز، وتنفكّ العقدة، وبه تطمئن النّفس ويطمئنُّ القلب، ويصل الفكر إلى القناعة بلا شكّ ولا حيرة.

أمّا الملحدون فيلفّقُونَ من تخيُّلاتهم وأوهامهم أفكاراً لا وجود لها إلّا في أدمغتهم، فيزعمون أنّ العناصر قد تفاعلت تفاعلاً ذاتِيّاً خلال ملايين القرون حتى تحوّلت بذاتها وتطوّرت دون قدرة عليم حكيم مهيمن حيّ سميع بصير، وبعد سلاسل كثيرة من التحوّلات والتغيّرات والتطوُّر الذاتي نشأتِ الحياة على سبيل المصادفة، ثم ارتقت في درجاتٍ تصاعديّة على سبيل المصادفة أيضاً، حتى وصلت إلى قمتها المشاهدة في الإنسان.

وأخذ الباحثون من العلماء الطبيعيين يحاولون تأكيد هذا الفرض الاحتمالي عن طريق المعامل والمختبرات، وظلّ العلماء الروس قرابة ستين سنة يبحثون ويجربون بهدف تخليق خليّة حيّة واحدة من عناصر لا حياة فيها، وأنفقت الدولة الشيوعية الأموال الطائلة لتحقيق أفكارها الإلحادية، وباءت جميع الجهود

بالخيبة، وثبت بالتجربة المعملية أنّ الحياة لا تكون إلّا وليدة حياة سابقة لها.

وظلّ لُغَز ظهور الحياة واقفاً أمامهم دون حلّ، إلّا أنّ علماء الأحياء قد انتهوا إلى حقيقة أنّ الحياة لا تشتق من مادّة لا حياة فيها، وفق قوانين الكون المستقرّة.

وبقي الملحدون عاجزين عن إخضاع فرضيتهم للتجربة، وعن إثباتها ولو بتجربة واحدة فقط.

على أنّ فكرة التطوّر التي رفع لواءها وجمع أدلتها عالم الحيوان الإنجليزي «داروين» لم تحمله أول الأمر على إنكار وجود الله، فلم يزعم بسببها أنّ التطوّر إنما هو ثمرة التوالد الذاتي، بل كان في أوّل أمره على العكس من ذلك، فمن أقواله الدالة على إيمانه: «يستحيل على العقل الرشيد أن تمرّ به ذرّة من الشكّ، في أنّ هذا العالم الفسيح بما فيه من الآيات البالغة، والأنفس الناطقة المفكرة، قد صدر عن مصادفة عمياء، لأنّ المصادفة لا تخلق نظاماً، ولا تبدع حكماً، وذلك عندي أكبر دليل على وجود الله».

ثم إنّه تأثر بعد ذلك بمن دفعه إلى التوقف عن إعلانه إيمانه، والوقوف موقف الشك[1].

يضاف إلى ذلك أنّ فكرة التطوّر أو نظرية الارتقاء كما تُسمَّىٰ هي فرضيّة لم يدعمها أيّ دليل علميّ تجريبي، ولذلك جاء تعريفها في بعض الموسوعات العلمية الغربية: «بأنها نظريّة قائمة على تفسير بدون براهين».

ويظلّ ظهور الحياة لُغَزاً يستعصي على الحلّ، ما لم يُسْنَدْ ظهورها إلى الخلق الرّبّاني، لأنّ الجميع متفقون على أنّ ظاهرة الحياة لم تكن، ثم ظهرت بعد ذلك، فهي حدَث من الأحداث.

وأمّا إحالة ظهورها على المصادفة فقد عبّر عنه البروفيسور «ايدوين كونكلين» بقوله[2]:

---

(١) بقية الكلام حول داروين وفكرته في كتاب «كواشف زيوف» للمؤلف.

(٢) عن كتاب «الإسلام يتحدّى»، ص ١٠٧.

«إنّ القول بأنّ الحياة وُجِدت نتيجة حادثٍ اتّفاقيّ شبيهٌ في مَغْزَاه بأن نتوقّع إعداد معجم ضخم، نتيجة انفجار مصادفيّ يقع في مطبعة».

وعلى سبيل المكابرة في رفض الحقّ يقول «سير آرثر كيث»[٣]:

«إنّ نظرية النشوء والارتقاء غيْر ثابتة علميّاً، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان، ونحن لا نؤمن بها إلّا لأنّ الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخلق الخاص المباشر، وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه».

لماذا؟ لأنه معاند لا يريد أن يؤمن بالله الربّ الخالق.

* * *

---

(٣) المصدر السابق، ص ٥٨.

(٣)
خلق الإنسان في البيان الرّبّاني والدراسات العلمية الإنسانية

● جاء في البيان الرّبّاني حول خلق الإنسان نصوص قرآنيّة متعدّدة، منها النّصوص التالية:

١ ـ قول الله عزّ وجل في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾.

٢ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الزمر ٣٩):

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾.

٣ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الإنسان ٧٦):

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾.

٤ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجّ ٢٢):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ﴾.

● وجاء في الدراسات العلمية الإنسانية حول أطوار خلق الإنسان أمور كثيرة، منها حقائق علمية. ومنها نظريَّاتٌ قابلة للتعديل. ومنها فرضيّات دون مستوى القبول المبدئي.

فتقول لنا الدراسات العلميّة الإنسانيّة:

١ ـ يُبْنى جسم الإنسان من الغذاء النباتيّ والحيواني، والغذاء الحيوانيّ منه يرجع إلى مصدر الغذاء النباتي، والغذاء النباتي مصدره الماء، ومجموعةُ عناصرَ من التراب، مضافاً إليها الهواء والضياء، فالطين الذي امتدت إليه أشعة الشمس ومرّت عليه الرّياح هو مصدر بناء جسم الإنسان، وهذا ينطبق على قول الله عزّ وجل:

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ وقوله: ﴿فإنّا خلقناكم من تراب﴾.

٢ ـ ويتمّ خلق الإنسان باشتراك عاملين: أحدهما في الرجل، والثاني في المرأة.

أمّا العامل الذي لدى المرأة: فبُيَيْضة تتكوّن لديها، لو اصطفّ منها عشرة على خطّ مستقيم لما زاد طول الصفّ على ميليمتر واحد، فماذا يكون وزنها وهي

بهذا الصغر. وفي هذه البييضة الصغيرة محٌّ ذو قدر كبير بالنسبة إلى حجم البييضة، وفي داخل المحّ الحويصلة الجرثوميّة، وفي هذه النقطة الصغيرة التي لا يدركها الطرف تكمن مخطّطات تامّة لبناء إنسان إذا توافرت له الشروط الملائمة. وتتكوّن هذه البييضة الصغيرة في ظلمة مبيض المرأة ضمن حويصلة تحتوي على سائل «الأليوميني» وهي تسبح فيه، وتنمو الحويصلة حاملةً البييضة، ويزداد السائل الذي في باطنها، فيمتدّ غشاؤها ويرقّ، ثمّ ينفجر، وعندئذٍ تخرج البييضة من الحويصلة، ومن المبيض كلّه، وتسير في طريق ضيّق مظلم، في أنبوب يدعى قناة ڤالوب، وهو يصل ما بين مبيض المرأة ورحمها، هذه البييضة هي شطر الإنسان المرتقب.

وأمّا العامل الآخر الذي عند الرجل: فيبدأ بتكوّن النطفة المنوية لديه من الدم. وهذه النطفة تحتوي على سائل تسبح فيه ملايين من الحوينات الصغيرة قد تبلغ مئتي مليون، وواحد من هذه الملايين الكثيرة هو المطلوب لتلقيح بييضة الأنثى، والاشتراك معها في بناء الإنسان المرتقب.

ولكن كيف يصل إلى البييضة التي تنتظرُه داخل الأنبوب الرفيع، ليتّحدا ويعبرا المضيق إلى الرحم، حيث بيت الزوجيّة المعدّ أحسن إعداد لنموّ الجنين؟.

إنّه حين تندفع النطفة إلى المهبل، تتسابق الحوينات الملايين الصغيرة، ذوات الرؤوس والأذناب، التي لو اصطف منها نحو عشرين رأساً إلى ذنب لما زاد طول الصف على ميليمتر واحد. إنّها تتسابق سبحاً لولبيّاً لتعبُر الرّحِم، وتعبرُ بعد الرحم الطريق الضيّق الذي هبطت إليه البييضة، ثم إنّ السابق منها هو الذي يكون له حظٌّ عبور جدار البييضة نطحاً برأسه المدبّب الصغير، فإذا دخل رأسه انحلّت أنشوطة ذيله وانقطع، واتّحد الرأس بنواة البييضة وكوّنا خلية واحدة أولى، ثم أخذا بالانشطار والتنامي، وهبطا إلى الرحم، ليتخذا فيه سكناً مؤقّتاً لبناء الإنسان المرتقب.

أمّا ملايين الحوينات الأخرى التي فاتها السبق إلى البييضة، فإنّها تعود خائبة، وتموت حسرة على ما فاتها من نصيب لقاء بناء الحياة وتنتهي وظيفتها،

لأنّ البييضة تحكم إغلاق أبوابها لتمنع دخول أيّ زوج آخر من الحوينات الملايين الخاطبة الراغبة، وتقطع جاذبيتها التي كانت تبعث بها، وتحيط نفسها بما يمنع ويصدّ أيّ حوين آخر.

أمّا البييضة الملقحّة المتّحدة بالحوين المنوي، فإنها تهبط رويداً رويداً في المضيق الواصل بين المبيض والرحم، وتستمر الرحلة قرابة عشرة أيام أو أقلّ بيومٍ أو يومين، تقوم فيها الجرثومة الأولى الملقحة بأعمال التنامي والانشطار والانقسام، وتهيئة الأقسام للأدوار التي تقوم بها في بناء الجنين، أو في حفظه، أو في تغذيته.

ثم تصل البييضة الملقّحة التي ما تزال في طور النطفة إلى الرحم الذي هو بيت الزوجيّة العطوف الرحيم، المهيّأ لها على أحسن وجه، فإذا دخلته التصقت بجداره، وعندئذٍ تبدأ الخلايا المقسّمة أقساماً بحسب الوظائف المعدّة لها، أعمالها العظيمة متعاونة متآزرة، ويشترك معها في القيام بالمهمة الكبرى جدار الرحم، الذي انتفخت خلايا غشائه المخاطي، واتّسعت فيها الشعيرات الدموية، ونشطت فيها الغُدد.

ومن العجيب أنّ حماية الجنين اقتضت إحاطته داخل الرحم بأغلفة ثلاثة، ولذلك تبدأ الخلايا بصناعة هذه الأغلفة حوله:

- أمّا الغلاف الأول فهو «السَّلَىٰ» وهو الغلاف الظاهر الذي يحيط بالأغشية كلّها، وهذا الغلاف يلتصق من جانب من جوانبه بجدار الرحم، ليستمدّ منه التغذية الأوليّة.

- وأمّا الغلاف الثاني الباطن فتقوم الخلايا المختصة بنسجه، ليكون وعاءً يحيط بسائل يُسمَّى «السائل الأمينوسي» وهذا السائل يحيط بالجنين إحاطة مباشرة، وبذلك تتم حماية الجنين من كلّ صدمة أو رجّةٍ تأتي من الخارج.

- كلّ ذلك داخل رحم الأم، الذي هو الغلاف الثالث.

فلننظر بعد هذا في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزمر ٣٩):

﴿... يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ... ﴿٦﴾﴾.

٣ ـ ومن العجيب أنّ خلايا العمل في بناء الجنين تنقسم إلى قسمين:

● **القسم الأول**: خلايا تحمل مخطّطات بناء الجنين، وتقوم بوظائفها في هذا البناء وفق المخططات المرسومة لديها، فهي خلايا مخلّقة.

● **القسم الثاني**: خلايا وظيفتها تكوين أغشية الحفظ والوقاية، والإمداد بالتغذية، فهي خلايا غير مخلّقة.

والخلايا المخلّقة تقوم بأعمالها وفق اختصاصاتها، فما للمخّ تعمل في بناء المخّ، وما للعظام تعمل في بناء العظام، وما للقلب تعمل في بناء القلب، وما للأعصاب تعمل في بناء الأعصاب، وهكذا إلى سائر أجزاء جسم الإنسان، لا يتجاوز قسم منها حدود اختصاصه المرسوم له.

ويسير تكوّن الجنين، وبناؤه في أطواره، من نطفة إلى علقة، فإلى مضغة، ثم يكون خلقاً آخر، إذ تدب فيه الحياة الإنسانية.

فلننظر بعد هذا في قول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنين ٢٣):

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾

* * *

(٤)
دافـــع التـــزاوج

يتحدّث علماء النفس عن دافع التزاوج الذي يسمُّونه الدافع الجنسيّ، باعتباره أحد الدوافع الموجهة لسلوك الإنسان، ويقفون عند حدود الحديث الوصفيّ لهذا الدافع ولآثاره، ويغفلون عن الحكمة العظيمة التي رتّبت هذا الدافع، في خِطَّةِ وجود الأحياء المتكاثرة عن طريق التناسل، ليكون هو القوّة المحرّضة القاهرة في الكائن الحيّ لحفظ نوعه، وليكون في الأحياء المدركة العاقلة المكلّفة مجالاً لامتحان إراداتها في المواطن التي تجب فيها العفّة، وتقبحُ فيها تلبية الدافع.

أمّا المتفكّرون في نظام هذا الوجود المحكم، فإنهم يدهشون دهشاً عظيماً لهذا الترابط الغائي بين الدافع الموجود في الإنسان وبين الغاية منه في خطّة الوجود بوجه عامّ.

إنّه لولا هذا الدافع وما يرافقه من دوافع المودّة والرحمة، والأبوّة والأمومة، لما استجاب الإنسان لنداء الواجب الذي يدعوه لحفظ النوع، ولوجد ذلك عبئاً ثقيلاً هو عنه في غِنىً، ولَزَهِد الرجل بلقاء أيّ أنثى ولاستكبر عنه، ولكان من نتيجة ذلك انقراض النوع، وإلغاء عنصر مهمّ من عناصر الوجود، وعناصر امتحان الإنسان في الحياة الدنيا.

لكنّ حلقات الوجود قد تمّ تنسيقها وربط بعضها ببعض بإحكامٍ بالغ، وأودع في كلّ كائن حيٍّ من الخصائص والدوافع الذّاتيّة ما يجعله يؤدي وظيفته

المرسومة له في خطّة الوجود أداءً تامّاً، سواءٌ أكان ذلك عن طريق الغرائز التي توجد في الكائن الحيّ دون أن يتعلّمها، ودون أن يستطيع دفعها أو إلغاءها من كيان وجوده، أو كان ذلك عن طريق عقله وإرادته، وما يكتسبه بالتعلّم والخبرات المختلفات.

ولّما كان هذا الربط الحكيم الهادف إلى غاية مقصودة من ورائه خارجاً عن نطاق إرادة الكائن الحيّ، كان لا بدّ من إسناده إلى خالق عليم حكيم قدير مهيمن لطيف خبير، هو الذي رتّب كلّ هذه الحلقات المترابطة بشكل بديع وحكيم، فمن وجد عنده شيئاً لا يملكه ولا يستطيع السيطرة عليه، وهو سائر فيه بنظام بديع ولغاية مرسومة، فلا بدّ أن يدلّه ذلك على أنّ قوّة من غير ذاته هي التي تهيمن عليه وتسيّره.

إنّ من يولد في مركبة بحريّة عظيمة، ثم يصل إلى مرحلة الرشد فيها، وكان ربّانها محجوباً عنه وعن سائر الرّكاب، وهو يراها تتنقل بانتظام، وضمن خطّة مرسومة من مرفأ إلى مرفأ، وتمخر عُباب البحر بمهارة، فإنّه حتماً سيدرك بعقله أنّ تنقّله مع المركبة التي لا يملك من أمر سيرها وتنقّلها شيئاً، لا بدّ أن يكون خاضعاً لهيمنة قوة عاقلة حكيمة، وهي التي تسيّرها، وتدير حركة تنقُّلها، أو أن يزعم أن المركبة هي ذات القوة العاقلة الحكيمة، لكنّ هذا الزعم يسقط حين يلاحظ أنّ مركبته مادّة ميّتة لا حياة لها ولا عقل ولا إرادة.

إننا لنعجب أبلغ العجب حين نلاحظ في خصائص الحيوان ما يخدم بقاء النوع.

قالوا: إنّ الفراشة الأنثى تستطيع أن ترسل إشارة لاسلكيّة إلى الفراشة الذكر، ولو كانت بينهما مسافة بعيدة جدّاً، وتتلقّى الفراشة الذكر تلك الرسالة، وتردّ جوابها.

فهل كان هذا التنظيم ذو الحلقات العجيبة المترابطة التي لا تملك الكائنات الحيّة منها شيئاً عفو المصادفة العشوائية؟.

إنّ العلم يقول: لا. وإنّ العقل يقول: لا. وإنّ الواقع يقول: لا.

وهل كان التدبير في عمليات اللّقاح من عقل البييضة، أو من عقل جرثوم اللّقاح الصغير.

إنّ العلم يقول: لا. وإنّ العقل يقول: لا. وإنّ الواقع يقول: لا.

فما أخيب الملحد الجاحد بربه! وما أحمقه! وما أقل عقله!.

ويقول الله عزّ وجلّ في سورة (الروم ٣٠):

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

* * *

(٥)
المحـــرّض الـــذاتي

من بديع الحكمة المقصودة في الخلْق إيجاد المحرّض الذّاتي في الكائنات الحيّة لتحصيل مطالب حياتها، والحرص عليها، ودفع ما يؤذيها أو يضرّها أو يعرّضها للتهلكة، وهو من الأدلة على الله وحكمته في خلقه وبديع صنعه.

وقد تمثّل هذا بمشاعر اللّذة والألم، والرغبة والنفور، والرضى والغضب، والحبّ والكراهية.

وفي الإنسان محرّضٌ ذاتي آخر عميق يدفعه لتحصيل كمالاته الفكريّة والروحيّة والنفسيّة، وقد تمثّل هذا بمشاعر اللّذّات والآلام النفسيّة والروحيّة، ومشاعر الرغبة والنفور، والحبّ والكراهية، والغضب والرضىٰ، في مستوى أعماق النفس والروح، ولكنّ الكمالات كلّما ارتقت ضعف ارتباط الجسد بها.

فلولا ألم الجوع والاستمتاع بلذّاتِ الطعام والشراب لقعدت أكثر الكائنات الحيّة عن طلب أرزاقها، وتناول مادّة حياتها، ولقضت بنفسها على وجودها.

ولولا مشاعر الألم من مسّ المؤذيات لقتل الإنسان نفسه وهو لا يدري. ومن شواهد ذلك حالة الإنسان حينما يكون فاقد الإحساس بتأثير البنج، فقد أرادت إحدى الممرضات مساعدة مريضٍ بتدفئة أطرافه الباردة بالماء الساخن، والمريض ما زال فاقد الإحساس بتأثير البنج، فزادت نسبة حرارة الماء دون أن

تشعر، فصار الماءُ الساخن يطبخ جلده وهو لا يشعر بألم، فلمّا أفاق كان ضررُه وألمه ممّا فعلته الممرضة به أكثر من ضرره بمرضه السابق الذي كانت تعالجه منه.

فالإحساس بالألم من المؤذيات نعمة وقائية رائعة.

ولولا مشاعر الرغبة الشديدة بالتلاقي بين الزوجين، وما يُصاحب هذا التلاقي من استمتاعٍ ولذة، لما سعىٰ الزوجان إلى بعضهما، ولما أقبل ذكر على أنثى إلّا متكلّفاً عبئاً هو به زاهد، ولما أقبلت أنثى على ذكر إلّا متكلّفة عبئاً هي به زاهدة، ولتناقصت أنسال الأحياء تناقصاً يُنذر بانقراضها، وفناء أنواعها.

ولولا الغضب لما وُجد المحرّض للدّفاع عن النفس ضدّ قاصديها بسوء.

ولولا الحبّ والمودّة والدافع الجماعيّ، لما وُجد المحرّض الذاتي للتعاون الجماعيّ وتكوين الأمّة المترابطة.

ولولا الكراهية لما وُجد المحرّض الذّاتي للنفرةِ من الشرور والبعد عن القبائح والرذائل وأصحابها.

ولولا اللّذات الفكرية بتحصيل المعارف لما سعىٰ باحث لاكتساب علم زائد عن حاجة الجسد.

ولولا اللّذات النفسيّة باحتلال مراتب المجد بين الجماعة، لَما سعى كادحٌ للسّبق إلى الكمالات التي تزيد من قيمته، وترفع من قدره بين الجماعة.

ولولا آلام النفس من الشعور بالمهانة والاحتقار بين الناس، لقعد الناس في دركات المهانة والذّلّة، ولَمَا سَعَوا للتخلّص منها بارتقاء درجات المجد.

ولولا حبُّ الحقّ والفضيلة والعدل، وكراهية أضدادها، لآثـر الناس بأنانيّاتهم وشهواتهم الباطل والرّذيلة والظلم.

وتشرئب نفوس ممتازين من الناس إلى كمالات روحيّة راقية، ولذّاتٍ شاملة عميقة باقية، فيجدون سبيلهم إلى ذلك عن طريق إيمانهم بالله ربّهم، والاستزادة من التعرّف على كمالاته جلّ وعلا، والتعمّق بمراقبته وحسن عبادته،

وشغل الفكر بذكره، والقلب بمحبته، والنفس بالخضوع له. عندئذٍ يجدون أنّ أقوى لذّات الجسد الفاني، وأقوى لذّات النّفس الخياليّة الوهميّة لا تعادل جزءاً يسيراً من لذّات الروح بحسن الصلة بالله، والاستغراق في عبادته ومحبته، دون أن يعطّل ذلك شيئاً من واجبات الجسد، وحاجاته ولذّاته، ويعتقدون أنّ ما أعدّ الله لهم من نعيم مقيم، هو أجلّ وأكبر، وأوسع وأكثر، وأمتع وأسعد، وأبقى وأخلد، فيجهدون ويجتهدون في السعي لنيل مرضاة ربّهم، في كلّ أقوالهم وأعمالهم، في حركاتهم وسكناتهم، في سعيهم لاكتساب أرزاقهم، في قيامهم بحاجات أجسادهم، وممارسة لذّاتهم، في تعلّمهم وتعليمهم، في بذلهم وإنفاقهم، في عطائهم ومنعهم، في قبْضهم وبسطهم، في رضاهم وغضبهم، في جهادهم وتضحياتهم، في كلّ أمورهم وشؤونهم، يبتغون رضوان ربّهم.

* * *

ونظر الناس إلى المحرّض الذاتي وتأثيراته وتوجيهه للكائن الحيّ، فقالوا: هي الغرائز، وقالوا: هي الدوافع، توجّه الحياة إلى غاياتها، وتدفعها إلى نمائها وتكاثرها، وإلى حفظ نوعها، وإلى توريث خصائصها وصفاتها، وإلى الحنوّ على أنسالها، ورعايتها والقيام بخدمتها، وإلى الحنين إلى مواطن آبائها وأجدادها، وإلى أفعالٍ كثيرةٍ وعجيبةٍ جدّاً فيها هدايةٌ ورشد، ولكن ليس لها عقل ولا تدبير.

فمن هداها إلى أعمالها المتقنة الدقيقة الرشيدة، التي تحقّق عناصر مهمّة من غايات الوجود الكبير، وهي لا تملك شيئاً من العقل أو التدبير؟.

إنّ الغريزة تتصرّف بحكمة، ولكن من دون عقل ولا تفكير يدرك ما تتصرّف به، ولا ما هي الغاية منه، فمن أودع في الغرائز تصرّفاتها الحكيمة هذه؟

يصف لنا العالم الطبيعي «كريسي موريسون»[1] بعض عجائب أعمال

---

(١) انظر الفصل الثامن «غرائز الحيوانات» من كتاب «العلم يدعو للإيمان» والفصل (١٦) المصادفة.

الحيوانات الصادرة عن تصرّفاتها الغَرَزيّة، ثمّ يقرر أنّ الأدلة العلمية والرياضية تبطل آراء الملحدين الذين يُسندون كلّ ذلك إلى احتمال المصادفة في تكوين هذا الوجود المتقن العجيب، ويقرر أنه لا يمكن أن تكون هذه الأعمال نتيجة المصادفة إنما هي نتيجةُ إعدادٍ حكيم.

ويقول في وصفه لبعض عجائب أعمال الحيوانات الصادرة عن غرائزها:

«لقد وهب الله الطير غريزة الاهتداء إلى الرجوع إلى أعشاشها ومواطنها، فالعصفور المعروف «بالرُّبين» الذي يعشعش في أبواب بيوتنا، يذهب عند انقضاء فصل الخريف إلى البلدان الجنوبية فراراً من البرد، وطلباً للدفء، ولكن يرجع زمان الربيع إلى موطنه القديم.

وفي شهر أيلول نرى معظم أسراب الطير تطير إلى الجنوب، وأحياناً تطير فوق البحر مسافة ألف ميل، ولا تضلّ في طريقها، والحمام الزاجل إذا حُمِل في قفص إلى مكان بعيد، فقد يتحيّر أحياناً بكثرة الأصوات الطارئة عليه في سفره البعيد، ولكنّه يحوّم برهة قليلة، ثم يأخذ طريقه المستقيم، ويمضي قُدُماً إلى موطنه دون أن يضلّ.

والنحلة لا تضلّ في عودتها إلى خليّتها، ولا يصدّها عن ذلك هبوب الرياح العاصفات، التي تحرّك الأشجار وسائر النبات، وتطمس معالم طريقها.

أمّا الإنسان فحاسّة الاهتداء إلى العودة إلى وطنه ضعيفة لديه، ولكنّ الله وهبه عقلاً استطاع به أن يصنع آلات الملاحة التي يهتدي بها في ظلمات البحر والجوّ، فكان ذلك عوضاً له عمّا فقده من تلك الغريزة التي منحها غيره...

ولو تُركت الفرس وحدها، فإنّها تسير في الطريق في أشدّ اللّيالي ظلمة، وتستطيع أن ترى ولو في شيءٍ من الإلهام اختلاف درجات الحرارة في الطريق وعلى جانبَيْه بِعينين متأثّرتين تأثُّراً خفيفاً بالأشعّة تحت الحمراء التي في الطريق.

والبومة تستطيع أن ترى الفأرة الجميلة في نظرها، حارّة الجسم، تجري على العشب البارد في أشدّ اللّيالي ظلمة».

فهل كلّ ذلك نتيجة مصادفة، أو نتيجة إعداد حكيم؟.

* * *

ثم لننظر إلى الطفل الصغير، أفليس عجيباً أن يُلهم منذ ولادته عمليّة الرضاع، دون أن يتعلّم ذلك من معلم، ودون أن يُدرك شيئاً عن وظيفة الرضاع الحياتية بفكره، لأنّه يكون حينئذٍ غير قادر على أيّ تفكير مركّب، ومعظم حركاته ناشئة عن حاجات غرزيّة، أو هي ردود أفعال.

فمن علّم هذا الطفل الصغير فنّ الرضاع، وجعله يتقنه إتقاناً تامّاً، وأعطاه القدرة وهو بهذا العمر على المصّ، والمصُّ عمليّةٌ ثغريّة شاقّة، وكيف تمّ ترتيب ذلك مع إعداد الثدي الملائم الذي يمدّه بأحسن غذاء له وهو في هذا العمر، يُنشَّأُ إنشاءً رفيقاً، وكيف تمّ إنبات هذا الثدي في أحسن مكانٍ من الأم لحضانة طفلها وإرضاعه، وكيف تمّ غرس شجرة الحنان والأمومة في صدر الأمّ لترعى طفلها، وتحنو عليه، وتقوم بخدمته، وتدفع عنه الأذى، وتسهر من أجله، وتبكي لبكائه، وتضحك لضحكاته، حتى يبلغ مرتبة كماله ونضجه.

وكيف تمّ جعل ثدي الأمّ أحسن معمل لإنتاج أحسن لبنٍ يصلح لتغذية الطفل، وهذا المعمل يُعَدِّل من نِسَب عناصر اللّبن تعديلاً يلائم به حاجات الطفل بحسب عمره، ويقدّمه له دائماً طازجاً، دافئاً ملائماً لحرارة جسم الطفل، لا ساخناً مؤذياً، ولا بارداً مؤذياً، وهذا اللّبن المعدّ أحسن إعداد مزوّد أيضاً بما يُمدُّ الطفل بمناعة مناسبة، ضدّ كثير من الأمراض التي لا يقوى جسمه على احتمالها لولا ذلك.

وهنا لا بدّ لنا من ذكر طرف ممّا يقرّره الأطباء عن حليب الأمّ، المعدّ بقدرة الخالق أحسن إعداد لتغذية طفلها.

لقد اتفق الأطباء على أنّ حليب الأمّ أحسن من أيّ حليب حيوانيّ أو صناعي آخر، فهو يزوّد الطفل بكلّ ما يحتاج إليه.

قالوا: ومن أهمّ أسباب الوفيات في الأطفال إرضاعهم بوسائل أخرى غير وسيلة الأمّهات، ولذلك قرّروا أنّ على الوالدة أن ترضع طفلها، ولا يجوز بحالٍ

من الأحوال أن يستعاض عن حليب الوالدة بالحليب الحيواني أو الحليب الصناعيّ.

وقد وجد علماء النفس الاجتماعيّ أنّ نسبة الجرائم تكثر في الذين سبق لهم في طفولتهم أن كان رضاعهم عن طريق الحليب الصناعي، والسبب في ذلك حرمانهم في طفولتهم من حنان أمهاتهم في ساعات إرضاعهم.

لذلك فلا يجوز للوالدة أن تفكّر في العدول عن إرضاع طفلها، والاستغناء عن ذلك بأنواع الحليب المحضّر صناعيّاً، لما في ذلك من تغيير في كمال التكوين الطبيعي الذي أحكم الخالق ترتيبه بإتقان بالغ.

وذكر علماء التشريح أوصافاً مدهشة للثدي الذي هو معمل صناعة اللّبن الملائم للطفل، وذكروا أنّ الفراغات الغُدِّيّة في الثدي ـ والتي يسمّونها العنبات اللبنيّة ـ هي الّتي تصنع الحليب بجميع عناصره التي تستمدّها من الدّم، وهذه العناصر يحملها الدّم إلى الثدي، لتجري فيها العنبات اللبنيّة التحويلات اللازمة لتكوين الحليب الملائم للطفل.

أفلا يدعو كل ذلك إلى العجب، وإلى الإيمان بالرّب الخالق، العليم الحكيم الذي يفعل ما يشاء ويختار؟!



(٦)
حتميّة الموت بالقهر والجبر

ما زال الإنسان يطلب الخلود ويحلُم به، ويكره الموت وينفر منه، ويظلُّ الموت يُجْهِزُ على مطلبه، ويهدم أحلامه، ويظلُّ الموت غاية كلّ حيّ حادث، لا يستطيع له دفعاً ولا رفعاً، ولا يجد له علاجاً.

ويبحث الإنسان عن إكسير لدوام الحياة فلا يجد، ويبحث عن دواء لدفع داء الموت فلا يجد، وضاعت أحلام القرون الأولى سُدى، وانفجرت أمانيهم بَدَداً، واستجابوا لداعي الموت طوعاً أو كرهاً، وأحسُّوا بأنّهم واقعون تحت سلطان قاهر، ومسيّرون باختيار مهيمن قادر.

ورغم كلّ ذلك، ما زال الموت هو المكروه الذي لا بدّ من قدومه، وما تزال الحياة هي المحبوب الذي لا بدّ من فراقه، وتأتي الأجيال بعد الأجيال، والعلة هي العلة، والداء هو الداء، والإنسان في موقف العجز لا يتقدّم خطوة واحدة، وتظلّ الآجال أسوار الأحياء التي تنتهي عندها حياتهم، ويظلُّ الموت سرّاً من أسرار القضاء والقدر، وإن عرفت بعض أسبابه الظاهرة، كما أنّ الحياة سرٌّ من أسرار القضاء والقدر، وإن عرفت بعض أسبابها الظاهرة، إذْ تشتقُّ الحياة من الحياة عن طريق التناسل والتوالد.

لقد استطاع إبليس أن يوسوس لآدم وزوجته، إذْ زعم لهما أنّ إكسير الخلود موجود في الشجرة التي نهاهما الله عن أن يأكلا منها، فجعلهما يسقطان في

الخطيئة، حرصاً منهما على دوام الحياة، لكنّهما سقطا في الخطيئة، فلم يبقيا في الجنة، ولم يخلدا في الحياة.

قال الله عزّ وجلّ يقصُّ علينا ذلك في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

وجاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام بأمر الله، فَكَرِه موسى الموت، ثمّ لمّا علم أنّه مهما عاش فلا بدّ له من الموت، قال:

«فالآن من قريب، ربِّ أدنني من الأرض المقدّسة رميةً بحجر».

جاء هذا في حديث صحيح رواه البخاريّ ومسلم عن أبي هريرة. ويشعر كلُّ إنسان أنّه بين يدي سلطان الموت مقهور، وأنّ كلّ وسيلة لدفعه لا تنفع، ويشعُرُ أنّ الآجال مجهولة، لا ترتبط بقوة جسم ولا بضعفه، فكم من ذي جسم قويّ اخترمته المنيّة وهو في شرخ الشباب، أو في ميعة الصِّبَا، وكم من ذي جسم ضعيف نحيل تخطّى حدود الأمل في حياته، حتى عاش ضعف ما هو منتظر له أو أكثر.

إنها قضية آجال مرسومة، ومقادير مسطّرة معلومة، تهيمن عليْها قدرة خفيّةٌ، حاكمة قاهرة، إنّها آية من آيات الخالق العظيم الحكيم.

ويحدّثنا القرآن عن ظاهرة الموت في عدّة آيات:

١ ـ فيقول الله عزّ وجل في سورة (الواقعة ٥٦):

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ ﴾.

٢ ـ ويقول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ۝٥٦ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧ ﴾.

٣ ـ ويقول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ... ۝١٤٥ ﴾.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝١٨٥ ﴾.

٤ ـ ويقول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء ٤):

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ... ۝٧٨ ﴾.

٥ ـ ويقول الله عزّ وجلّ في سورة (الجمعة ٦٢):

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ ﴾.

٦ ــ وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾.

فالموت قرارٌ ربَّاني مقَدّرٌ على كلّ حيّ خلقه الله عزّ وجلّ، فكلُّ نفس ذائقة الموت، ومهما فرّ الإنسان من الموت فلا بدّ أن يدركه وإن احتمى بكلّ وسيلة، والله هو القاهر فوق عباده، والموت مقدّر بأجل محدّد لكلّ مخلوق حيّ، وهذا الأجل مكتوب مسجّل عند الله، فلا يستقدم أحد ساعةً ولا يستأخر، وما كان لنفس أن تموت إلّا بإذن الله، فالمنتحر لا يموت إلّا بإذن من الله وتمكين، والقتيل لا يموت إلّا بإذن من الله وتمكين.

وحتميّة الموت إحدى مظاهر اسم الله «القاهر» وهو من البراهين الجليّة على وجوده عزّ وجل.

□ □ □

الفصل الرابع عشر

دليل ظاهرة الرسل ومعجزاتهم

تتابع في تاريخ البشريّة رسلٌ هُداة دعاةٌ مصلحون، امتازوا بأكمل الخصائص الإنسانية، والفضائل الأخلاقية، والمحبّة للنّاس، والغيرة عليهم، والحرص على نجاتهم وسعادتهم.

ومع تباعد أزمنتهم واختلاف أمكنتهم وألسنتهم وأعراقهم وأقوامهم اتفقوا جميعاً على دعوة النّاس إلى الإيمان بالله الخالق الرازق المحيي المميت الْحَكَم العدل، الذي يجازي الناس على أعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ، واتفقوا جميعاً على تحذير الناس من مغبّة الكفر بالله وإنكار وجوده أو الإشراك به، وأمروا الناس بفضائل الأخلاق ومحاسن الأعمال، وحذّروهم من رذائل الأخلاق وسيئات الأعمال، وبيّنوا لهم أنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربىٰ، وبرّ الوالدين، وعبادة الله وحده لا شريك له، وأنّه ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي وعن الشرك بالله وعقوق الوالدين وقطيعة الرحم، وكلّ شرّ وضرّ وأذى. وبيّنوا لهم أنّ هذه الحياة هي حياةٌ دنيا، وأنّ بعدها حياةً أُخرى هي الحياة الخالدة الباقية المحفوفة بالسعادة الخالدة لمن آمن بالله وأحسن عملاً في حياته الدنيا، والمحفوفة بالعذاب والشقاء الخالد لمن كفر بالله وعصاه، وأمّا من آمن بالله وعصاه، لا عن تمرّدٍ أو استكبار، وإنّما ضعفت إرادته أمام شهواته، واعترف بذنبه، وخاف من عذاب ربّه، ورجا عفوه وغفرانه، فإنّما أمره إلى الله، إن شاء عذّبه بعدله على مقدار سيّئاته، ثم أدخله دار نعيمه بسبب إيمانه، وإن شاء عفا عنه بفضله وتجاوز عن سيّئاته.

وقد بيّن هؤلاء الرسل أنّ الله عزّ وجلّ قد أوحى لهم، وأرسلهم للناس رسُلاً، يبلّغون عن الله أصول الإيمان، ومنهاج التشريع، فمن صدّق بهم وأطاعهم نجا، ومن كذَّبَهم وأبىٰ هلك، وكان عرضة لنقمة الله وعقوبته، وأعطى الله كلّ رسولٍ من الآيات ما يكفي لإقنـاع العقلاء المنصفين بأنه صادقٌ فيما جاء به، وليس مدّعياً ولا كاذباً، وآيات كلّ رسول هي خوارق كبرى من خوارق العادات مقرونة بالتحديّ، وقد ظهـر معها عجز الناس عن الإتيان بمثلها.

وكان من ضمن ما اشتملت عليه رسالاتهم وتبليغاتُهم عن ربّهم إنذار قومهم بالهلاك والتدمير عليهم، إذا هم كفروا بربهم وكذّبوا رسله وطغوا وبغوا.

فكفر بالرسل من كفر من أقوامهم، وآمن بهم من آمن، ثم تحقّقت الإيعادات والنذر التي بلّغوها عن ربّهم، فنزل بالذيـن كفروا ما كانوا يُنْذرون به على ألسنة رسلهم، وحاقت بهم عقوبات الله المعجّلة.

وسجّل التاريخ هلاك أقوام كثيرين من القرون الأولى بسبب تكذيبهم رسل ربّهم وبغيهم في الأرض، وحفظت الآثار الأرضيّة بقايا مدنهم وقُراهم المدمّرةِ عليهم، لتكون عظة وذكرى لمن يأتي بعدهم من الناس، ولتكون آيات شاهدات بما جرى في تاريخ الأمم الذين كذّبوا رسل الله وطغوا وبغوا في الأرض.

وكان هلاك المكذبين الباغين في الأرض بطريقة هي فوق مستوى الطاقات الإنسانية لهؤلاء الرسل، فهي عقوبات للمكذبين من جهة، وهي من جهة أخرى معجزات تثبت صدق الرسل فيما أنبؤوا به عن الغيب، وتثبت أنّ وراء العالم المشهود قوّة غيبيّة تتحكم بهذا الوجود وتهيمن عليه.

وقد بين الرسل للناس سرّ هذه القوة الغيبيّة، وأعلموهم أنها قدرة الله الرّبِّ خالق الكون وموجـده ومدبّر أمره، والذي له كلّ صفات الكمال، وهو منزّه عن كلّ صفات النقصان.

وقد استدل بدليل ظاهرة الرسل ومعجزاتهم، الدكتور «روبرت موريس بييج» عالم الطبيعة، وأوّل من اكتشف الرادار في العالم سنة «**١٩٣٤ م**».

فقد جاء في مقالٍ له بعنوان «اختبار شامل»[١] ما خلاصته:

«وجدنا أناساً موهوبين يحدّثوننا عن الغيب، يقولون: إنهم رسل الله، وما حدثونا به قسمان:

- قسم يقولون فيه: إنّ لهذا الكون خالقاً واحداً يجب الإيمان به.
- وقسم يخبروننا فيه عن بعض أمور الغيب التي ستحدث.

أمّا القسم الثاني فقد وقع كما أخبرونا به بعد مئات السنين، وأيّدت الأيّام، وأثبت التاريخ صدق هذه النبوءات جميعاً، وهي من الأشياء التي عجزت العلوم حتى اليوم عن أن تجد لها تفسيراً، فدلّ ذلك على صحة رسالتهم، وصدق أخبارهم.

ووجب أن نصدّقهم فيما أخبرونا به عن الله تعالى وصفاته، وهو القسم الأول، لأنّ عقولنا لا تمنع منه، بل عندنا من الشعور الداخلي ما يثبته...».

□ □ □

(١) من كتاب «الله يتجلّى في عصر العلم».

الفصل الخامس عشر

دليل معجزة القرآن

● لقد تحدّى الله عزّ وجلّ في قرآنه الإنْسَ والجنّ أن يأتوا بمثل هذا القرآن إذا زعموا أنّه من كلام البشر وليس كلاماً منزّلاً من لدن حكيم حميد، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء ١٧):

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾.

ظَهيراً: مُعِيناً.

● ثُمَّ تحدّىٰ الذين ادَّعَوْا أنَّه مُفْتَرىٰ أن يأتوا بعشر سُورٍ مثْله مفتريات، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (هود ١١):

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾.

● ثم تحدّاهم بأن يأتوا بسورةٍ مثله، فقال عزّ وجلّ في سورة (يونس ١٠):

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: إن كنتم صادقين في ادّعاء أنّ البشر قادرون على الإتيان بمثله، وأنّ محمداً افتراه من عنده، ولم يُوحَ به إليه.

وآيات التحدّي هذه نزلت في أواسط المرحلة المكية.

ثم أنزل الله في أوائل المرحلة المدنية قوله عزّ وجلّ في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

أي: وادْعُوا شهداءكم من دون الله يشهدون لكم بأنّ ما جئْتُمْ به مكافىء للقرآن في إعجازه، كما زعمتم.

وإعجاز القرآن وصفٌ لكل جانب من جوانبه البلاغية، والفكرية، إذْ هو في تشريعاته، وأخباره، وألوان تربيته، وبياناته لما كان أو ما هو كائن أو سيكون حقٌّ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو لا ريب فيه، فهو من عند الله العزيز الحكيم العليم الحميد.

وقد أبان الله عزّ وجلّ وجه إعجازه الفكري، بأنّه حقّ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقال تعالى في سورة (فصلت ٤١):

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾.

وبأنّه يهدي للّتي هي أقوم تربية وتشريعاً، فقال عزّ وجلّ في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾.

وبأنه لو كان من عند غير الله لوجد الناس فيه اختلافاً كثيراً بينه وبين الحقّ، وبينه وبين التي هي أقوم في التربية والتشريع، وبين بعض أجزائه وبعض إذْ أُنْزِلَ مُنَجَّماً مفرّقاً على مدى ثلاث وعشرين سنة، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (النساء ٤):

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾.

فدلّ بهذا على أنّ أيّ كتاب علميٍّ وتوجيهيّ وخبريٍّ عن الماضي والحاضر والمستقبل وعن حقائق غيبيّة، لا يمكن أن يخلو من الاختلاف إلّا أن يكون منزّلاً من عند الله، ولا يمكن أن يكون من تأليف بشريّ، فكون القرآن خالياً من الاختلاف، وجه من وجوه إعجازه الدّالّ على أنه من عند الله، ولكن لا يكتشف ذلك إلّا المتدبّرون له.

والمعجزات الخوارق تدلّ على قضيتين:

الأولى: وجود القوّة الغيبيّة المهيمنة على قوانين الوجود، والقادرة على خرقها متى شاءت أن تدلّ على وجودها.

فمن هذه الناحية تدلّ على وجود الله لزوماً، لأنّ الصفة لا تكون إلّا لموصوف بها.

الثانية: صِدْقُ دعوى الرسول في أنّه رسول الله، ويبلّغ عن ربّه رسالته، لأنه لو لم يكن صادقاً لما أجرى الله على يده هذه المعجزة الخارقة.

ولمّا كانت معجزة القرآن تتناول جوانب مختلفة، بلاغية أدبية، وتربوية، وتشريعية، وعلميّة وغير ذلك، فإني أعرض لمحات موجزات من أهم ذلك في مقولات:

* * *

(١)

المقولة الأولى:
الإعجاز البلاغي الأدبـي

١ ــ اهتم الجمّ الغفير من أساطين الأدب والبلاغة، ببيان معجزة القرآن الأدبيّة البلاغيّة، وحاولوا تتبّع وجوه إعجازه في هذا المجال، واكتشفوا أمثلة كثيرة كافية لإثبات أنّه معجز.

وبهـدي إعجازه وضع علماء العربية من أساطين الأدب العربي علوم البلاغة (المعاني ــ والبيان ــ والبديع).

ومع ذلك فإنّ الطريق ما زال طويلاً لاكتشاف سائر عناصر إعجاز القرآن البلاغي الأدبي، في مختلف جوانبه البلاغية الأدبية، وفي كلّ سُوره وآياته.

٢ ــ وأمام تحدّي القرآن للعرب بأن يأتوا بمثله، ثم بمثل عشر سُور منه، ثم بمثل سورة منه، وهم أهل الفصاحة والبلاغة بين الناس في عصر التنزيل، لم يكن منهم أيّة جرأة على مقابلة هذا التحدّي بالمعارضة، ولا بادّعاء مشابهة معلقـاتهم، وخطب خـطبائهم من حكمـائهم وفصحائهم، وكـلام كهّـانهم المسجوع، لشيءٍ منه، ولا بادّعاء ارتقاء أيّ كلامٍ كانوا يمجّدونه من كلام العرب إلى مستوى مجاراة القرآن.

٣ ــ وأمام هذا التحدّي المستمرّ لم يستطع أدباء العربيّة وبلغاؤها وسائر الناطقين بها، من خصوم الإسلام وأعدائه، بعد قرن العرب الذين عاصروا تنزيل القرآن، حتى عصرنا الحاضر، مع ما درسوه وتذوّقوه من وجوه أدب

القرآن وبلاغته، أن يعارضوا القرآن متفرّقين ولا مجتمعين، بكلام يطاول شأوه، أو يقترب منه، وأن يشهد لهم شهود من نصرائهم ومؤيديهم على صلاحيّة ما قدّموه للمعارضة، وكثير منهم حريصون على التهوين من شأن إعجاز القرآن والتشكيك فيه.

وباءت محاولات بعض المتطاولين بالخيبة والهزيمة المنكرة.

فتأكّد للمؤمنين وللكافرين أنّ القرآن كتاب عظيم معجز، فمن أنصف من الذين كفروا آمن بأنّه كلام الله، وأنّ محمّداً الذي بلّغه عن ربّه هو رسول الله حقّاً وصدقاً.

٤ ــ وقد أفردت كتب كثيرة لبيان وجوه إعجاز القرآن البلاغي الأدبي، فمن شاء التوسّع فليرجع إليها.



(٢)
المقولة الثانية:
الإعجاز التشريعي

لقد أثبتت الدراسات النظرية التي قام بها المنصفون، وأثبتت التجارب العملية، والمقارنات بين الشرائع والنظم، وما تزال مثل هذه الدراسات والتجارب والمقارنات تثبت من حين لآخر، أنّ أحكام الشريعة الإسلامية القرآنية في الحلال والحرام، والمعاملات، وأسس الحقوق وضوابطها، وقواعد العدل، ومناهج الأخلاق والسلوك الفردي والجماعي، هي الأقوم لسعادة البشرية وسلامها وأمنها وضمان حقوقها، من سائر أوضاع البشر، على اختلاف منازعهم الفكرية، ومذاهبهم وفلسفاتهم.

ويجرّب المجربون البشريون ألواناً وأشكالاً مختلفة من التنظيمات والتشريعات والتقنيات الوضعية، لضمان سعادة المجتمع البشري وأمنهم وخيرهم، ثم يجدون أنّ مصلحة الناس وضمان العدل والأمن والسعادة تقضي بتعديلها، ولا يزال المقنّنون يُجرون تعديلاتهم على التشريعات الوضعيّة التي سبق أن ظهر بالتجربة نقصها عن تحقيق المطلوب، وعدم مطابقتها لما هو أصلح وأقوم، حتى إذا وصلوا إلى تجربة رأوا أنّها هي الأكمل، وجدوها إحدى أحكام القرآن.

إنّ عجز الناس عن أن يضعوا لأنفسهم أقوم التشريعات للمجتمع البشري، بسبب عجزهم عن الإحاطة بواقع النفوس الإنسانية وما يُصلحها وما لا يصلحها، وبسبب نزعات أهوائهم وشهواتهم التي تجنح بهم عن التزام

المنهج الأقوم، دليل على أنّ التشريع الأقوم الذي اشتمل عليه القرآن ليس وضعاً بشريّاً، وإنّما هو تنزيل من رب العالمين.

فالمعجزة التشريعية في القرآن إحدى ظواهر إعجازه الدالة على الرّب الخالق الحكيم الحميد، وعلى أن رسول الله هو رسول من عند الله حقّاً، لأنه لو لم يكن كذلك لما جاء بقرآن يشتمل على تشريع معجز.

* * *

(٣)
المقولة الثالثة :
الإعجاز العلمي

ذكر الله في القرآن بعض آياته في كونه، وأبان فيها بعض حقائق من الكون كان النّاس يجهلونها، وكان بعض السابقين من الفلاسفة وعلماء الطبيعة ينكرونها، أو ينكرون بعضها، لأن آراءهم أو ملاحظاتهم وتفسيراتهم كانت خاطئة أو مقصّرة عن تصوّر الحقّ فيها.

ثم تقدّمت البحوث العلمية وتطوّرت الدراسات، وانتهت إلى بعض حقائق عن أشياء تحدّث القرآن عنها حديثاً صريحاً أو أشار إليها ببعض عباراته، فوجدنا أنّ ما توصّلوا إليه من يقين مطابق لما ذكره القرآن صراحة، أو أشار إليه.

فدلّ هذا على أنّ القرآن حقٌّ من عند الله، إذ لم يكن أحد من البشر لدى إنزال القرآن يعرف هذه الحقائق العلمية التي توصل إليها الباحثون من العلماء بعدما يزيد على عشرة قرون من إنزال القرآن.

وكان هذا إحدى معجزات القرآن العظيم الدّالّة على أنه منزّل من لدن خالق الكون، العالم بكل كبيرة وصغيرة ظاهرة أو خفيّة فيه، وكان المؤمنون بالله وبكتابه يرفضون آراء الفلاسفة وعلماء الطبيعة المخالفة لما في القرآن، إيماناً منهم بأنّ خالق الكون العليم به، لا يمكن أن ينزل في كتابه إلّا حقّاً مطابقاً لما عليه الواقع، مع إيرادهم احتمال أن يكون فهمهم لنصوص القرآن خطأً، إذا كان ما توصل إليه الباحثون العلميّون صَواباً مطابقاً للحقّ والواقع.

وقد أطلق المفكّرون المعاصرون على هذه الظاهرة من معجزات القرآن عنوان «الإعجاز العلمي في القرآن».

وحتى لا تكون هذه المقولةُ مقولةً عامّة غير مدعّمة بالأمثلة الكاشفة عن هذه الحقيقة، فإنّي أقدّم في الفِقَرات التاليات طائفةً منها:

المثال الأول:

نظام الزوجية المطرد في الوجود:

الله واحد، له الوحدانية المطلقة في ذاته وفي صفاته، فلا شريك له، ولا صاحبة له، ولا ولد له، ولا كفؤ له.

ولئلا يشارك الله في صفة الوحدانية أحد، اختار سبحانه وتعالى أن يجعل أجناس خلقه وأنواع خلقه وأصناف خلقه كلّها خاضعة لنظام الزوجية، فهو نظام مطّرد في الوجود المشهود، في الإنسان، وسائر الحيوان، وفي النبات، وفي كلّ شيء.

وقد أبان الله عزّ وجلّ لنا في كتابه هذا النظام الذي جعل كونه خاضعاً له.

١ ــ فقال عزّ وجلّ في سورة (الذاريات ٥١):

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

٢ ــ وقال عزّ وجلّ في سورة (الرعد ١٣):

﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴿٣﴾﴾.

٣ ــ وقال عزّ وجلّ في سورة (النجم ٥٣):

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾.

٤ ــ وقال عزّ وجلّ في سورة (القيامة ٧٥):

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩ ﴾.

٥ ـ وقال الله عزّ وجلّ في سورة (يس ٣٦):

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦ ﴾.

هذه النصوص القرآنية تدلّ بجملتها، وبما جاء من تعميم شامل في آية الذّاريَات على أنّ نظام الزوجية نظام مطّرد في هذا الوجود الحادث.

وهذا النظام مشاهد للجميع فيما يرون من أنواع الحيوانات، ومشاهد لهم فيما خبروا من النبات والشجر، ومشاهد لهم في الكهرباء موجبه وسالبه، ومشاهد لهم في المغناطيس متجاذبه ومتنافره.

نسأل علماء الكونيّات كلاًّ منهم في مجال اختصاصه، فيحدّثوننا عن معارفهم في مجالات اختصاصهم بما يؤكد أنّ نظام الزّوجيّة نظام شامل.

● نسأل علماء النبات عن نظام الزوجيّة في عالم النبات فيقرّون به، ويوضّحون خصائصه وطرق اللقاح فيه.

فمن الّلقاح ما يتم عن طريق الرياح التي تحمل الموادّ الملقحة من الذكور إلى الإناث.

ومنه ما تنقله الحشرات بأرجلها وأجنحتها وأجسامها من الذكور إلى الإناث، إذْ تجذبها الأزهار بألوانها وروائحها، لتقوم بهذه الوظيفة الحياتية.

ومن الّلقاح ما يتمّ ذاتيّاً عن طريق النبات نفسه.

ألوان وأشكال، إلاّ أنّ الخطّة العامة واحدة في نظام الزوجية، وتختلف ظواهر الأساليب.

أفليس هذا في خطّة الوجود عجباً من العجب، يلفت أنظار ذوي البصائر إلى وحدة المبدع المنظّم؟.

● ونسأل علماء الحيوان عن نظام الزّوجية في عالم الحيوان، فيقرّون به، ويوضحون خصائصه، وطرق اللّقاح فيه، وأساليبه المختلفة في هذا العالم.

فمنه ما يتم عن طريق اللّقاح بين الذكور والإناث.

ومنه ما يتمّ عن طريق اللّقاء بين لقاح الذكور وبيوض الإناث، دون لقاء بين الآباء والأمهات، كما يجري لبعض الأسماك التي تلقي بيوضها في محاضنها في الماء، ثم تأتي الذكور فتقذف على البيوض لقاحاتها، فتتسارع إليها وتلقّحها.

هكذا شاءت إرادة الفاطر الحكيم أن يكون أسلوب التلقيح هنا بهذا النظام، مراعاة للحكمة القاضية بذلك، منها أنّ وفرة البيوض المطروحة لزيادة الثروة السمكيّة يقتضي لقاحها لقاحاً جماعيّاً في محاضن أوسع من بطون أمّهاتها.

ومنه ما يتمّ ذاتيّاً وإن كان هذا نادراً، فيأتي الجنين دون أن يتمّ تلقيح بيضته عن طريق أبٍ ذكر، وقلّما تتمّ لهذا ظروف حياة سويّة طبيعيّة.

● ونسأل علماء الذرّة عن نظام الزّوجيّة في عالم الذّرّات، فيقرّون به، ويحدّثوننا عن البروتون في نواة الذّرّة، وهو يحمل شِحْنَةً كهربائية موجبة، وعن الألكترون الذي يدور في مدارٍ حول النواة، وهو يحمل شحنة كهربائية سالبة، وهما مترابطان في بناء ذرّات هذا العالم المادّي.

فنظام الزوجيّة داخل إلى أعماق أصغر شيءٍ في الوجود المادّي وهو الذّرّة.

● ونلاحظ طاقة الكهرباء إذ نمدِّد أسلاكها في بيوتنا أزواجاً أزواجاً، وندرك أنّ أحدهما موجب والآخر سالب، وبتلاقيهما تظهر نتائج عجيبة، وآثار عظيمة من إنارات، وتحريك آلات.

● ونلاحظ الطاقة المغناطيسيّة المجهولة الهويّة، فنشاهد أنّ لها قطبين:

أمّا أحدهما: فموجب.

وأمّا الآخر: فسالب.

فنظام الزوجيّة هو النظام الذي يخضع له كلّ ما علمنا من هذا الكون: الطاقة المغناطيسيّة ـ الطاقة الكهربائية ـ الطاقة الذريّة ـ عالم النبات ـ عالم الحيوان.

إنّ هذا الاطّراد لأمرٌ عجيب يدلّ بداهة على أنّ واضع خطّة الوجود خالق واحد، ومنظم واحد، لا شريك له في إبداعه وخلقه.

وقبل أن تكتشف العلوم الحديثة بوسائلها المادّيّة هذه الحقائق كان القرآن العظيم قد عرضها بأخصر تعبير علميٍّ وأبدعه، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الذاريات ٥١):

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

وقال عزّ وجلّ في سورة (يس ٣٦):

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

المثال الثاني:

الشمس تجري:

قال الله عزّ وجلّ في سورة (يس ٣٦):

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾.

كان يُدَرَّس في مادّة العلوم الطبيعية قبل عشرات السنين من هذا القرن العشرين الميلاديّ أنّ الشمس ثابتة لا تجري، وأنّ الأرض والكواكب من حول الشمس هي التي تجري حولها.

وانطلقت يومئذٍ الأسئلة حول مخالفة الآية القرآنية لما هو مقرر في العلوم الكونية الإنسانية.

وأخذ المتشككون يومئذٍ يوجّهون المغامز نحو البيـان القرآني، وقـامت جدليّات بين المؤمنين بالقرآن والمؤمنين بمقالات العلوم دون تحفّظ. فالمؤمنون يبنون أقوالهم على أنّ القرآن من عند الله، والله عزّ وجل عليم بكلّ شيء، وأنّ الكون كونه وخلقه فهو العليم به، ولا يمكن أن يخبرنا إلّا بالحقّ والصدق، ولا يمكن أن ينزّل في كتابه إلّا حقّاً وصدقاً. أمّا مقرّرات العلوم فكثير منها مبنيٌّ على الحدس والظنّ، لا على البرهان القاطع واليقين، فإذا تناقضـا دون إمكان التأويـل أو تعديل الفهم فالحق ما جاء في القرآن، لا ما قرّرته النظرات الظّنّية الإنسانيّة.

ثم تقدمت البحوث العلميّة الفلكيّة وأثبت العلماء الفلكيون أنّ الشمس بالنسبة إلى مجموعتها الدائرة حولها والتي هي أسرتها ثابتة، لكنّها مع كلّ أسرتها تجري بحركة خاصة في فلك أكبر ضمن المجرّة، فهي بالنسبة إلى أسرتها ثابتة، وبالنسبة إلى وضعها مع أسرتها في المجرّة جارية غير ثابتة.

وصدق النصّ القرآني، وتحقق بذلك نقص النظرات الإنسانية الأولى التي كان يقول بها علماء الدراسات الكونية، ومطابقة البيان القرآني للحقّ والواقع.

وكانت هذه إحدى أمثلة الإعجاز العلمي في القرآن.

المثال الثالث:

الجلود وأعصاب الحسّ بالألم:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾ ﴾.

كان التّالُون للقرآن يتساءلون: ما سبب ربط الإحساس بألم العذاب بالجلود، حتى قال الله عزّ وجلّ في هذه الآية: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلناهمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾؟.

وجاء علم التشريح المعاصر فكشف عن سرّ هذا الربط القرآني، وأبان أنّ أشدّ الألم الذي يحسّ به الإنسان إنما يكون بواسطة أعصاب الحسّ المنتشرة على مستوى سطح الجلد والطبقة التي تحته مباشرة، وهي تنقل ما تحسّ به من خارج الجسد.

يقول الدكتور خالص جلبي[1]:

«إنّ انتشار الأعصاب تحت الجلد شيء لا يكاد يُصدّق، وتنتهي الألياف العصبيّة بجسيمات خاصة، يختصّ كلّ نوع منها بنقل حسٍّ معين. فهناك جسيمات تنقل الحرّ، وأخرى تنقل البرد، وثالثة للّمس والضغط، ورابعة لحسّ الألم، وخامسة تختص بنقل الحسّ العضلي أو ما يُسمّى بالحسّ العميق.

وهكذا تتنوّع الإحساسات وتتباين، وهذه الجسيمات تتباين في أشكالها، فهي إما بشكل سلال، أو دوائر متّحدة المركز فيها خطّ، أو متطاولة مع ألياف عصبيّة فيها.

وتبلغ في تعدادها أرقاماً هائلة، فهناك:

١ ــ من (٣ ــ ٥) ملايين جهاز حسّاس للألم.

٢ ــ (٢٠٠,٠٠٠) جهاز حسّاس للحرّ.

٣ ــ (٥٠٠,٠٠٠) جهاز حسّاس للّمس والضغط.

حتى يمكن أن يقال: إنّ الجلد البشريّ ما هو إلاّ سطح يغطّي شبكة هائلة من الألياف العصبيّة. وهذا الجلد عبارة عن خارطة مدهشة لتقاسم الأعصاب السيطرة عليها. . .

ولقد وُجد أنّ أشدّ الألم ــ كما في الحرق مثلاً ــ يتوضّع في الجلد السطحي، بحيث إنّ الحرق إذا أصاب المناطق العميقة فإنّه لا يؤلم بنفس الشدّة، وهذا يذكّرنا بالآية القرآنية:

---

(١) في كتابه «الطب محراب الإيمان» ص٢٣٠ ج١.

﴿كلّما نضجت جلودهم بدّلناهمْ جُلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إنّ الله كان عزيزاً حكيماً﴾.

المثال الرابع:

مرج البحرين يلتقيان

١ ـ قال الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾.

مَرَجَ: يأتي هذا الفعل بمعنى مَزَج وخلط. ويأتي بمعنى أرسل.

عَذْب فُرات: أي: حلوٌ شديد العذوبة مستطابٌ للشاربين.

أُجَاج: مِلْحٌ مُرّ.

برزخاً: حاجزاً، فاصلاً.

وحِجْراً مَحْجُوراً: مانعاً ممنوعاً، أي: وهذا الفاصل هو منطقة منع وتحريم، فلا تُخترق من ذات اليمين ولا من ذات الشمال، وهو نفسه محجور ممنوع من تجاوز حدوده، إلى ذات اليمين أو ذات الشمال.

٢ ـ وقال الله عزّ وجلّ في سورة (النمل ٢٧):

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

٣ ـ وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الرحمٰن ٥٥):

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾.

هذه الآيات الثلاث تحدثت عما عليه حال البحرين من تفاصل تمّ بقدرة قادر عظيم عليم حكيم ذي عناية بخلقه.

وقد كان ترتيب نزول هذه الآيات على الوجه الذي رتبتها به، فالفرقان هي السورة (٤٢) بحسب ترتيب النزول، والنمل هي السورة (٤٨) بحسب ترتيب النزول، وهما مكيَّتان، والرحمن هي السورة (٩٧) بحسب ترتيب النزول، وهي مدنيّة.

فما هما البحران المشار إليهما في كلٍّ من هذه الآيات الثلاث، وقد جاءا فيها معرّفين، لكن وصف أحدهما في آية الفرقان بأنّه عذب فرات، ووصف الآخر بأنه ملح أجاج، وترك وصفهما في آية النمل، ووصفا في آية الرحمن بأنه يخرج منهما اللّؤلؤ والمرجان.

فإذا أخذنا بمبدأ التكامل في النصوص، واستبعدنا فكرة التكرار استطعنا أن نفهم ما يلي:

أولاً: إنّ آية الفرقان أثبتت الخلق والتدبير لله عزّ وجلّ في ظاهرة من ظاهرات الماء، إذْ تحدثت عن الماء العذب الحلو والماء الملح الأجاج.

إنهما في الأرض بحران عظيمان خلقهما الله عزّ وجلّ لمنافع الحياة والناس. وكلٌّ منهما ينبغي لتحقيق المنفعة منه أن يظلّ على وصفه في النسبة المزيجيّة التي جعله الله عليها.

ومعلوم أنّ الماء الحلو فيه عناصر مخلوطة ممزوجة، قد مَزَجَها الله عزّ وجلّ، أي: خلطها وفق حكمته بِنسَب صالحة لحياة الناس والنبات، وأرسلها في الأرض، فاندفعت تؤدّي وظائفها. وأنّ الماء المِلْحَ الأُجَاج فيه عناصر إضافية مخلوطة فيه ممزوجة، قد مَرَجَهَا الله عزّ وجل، أي: خلطها وأرسلها.

وإيجازاً في التعبير استخدم القرآن كلمة «مَرَجَ» للدّلالة على معنى «خَلَطَ» العناصر، حتّى تكوّنت ماءً حلواً، أو ماءً ملْحاً أُجَاجاً، وعلى معنى «أَرْسَل» هذا

الماء بوصفيه العذب الفرات، والملح الأجاج، لما في الماء من سيولة قابلة للتدافع المتلاحق، كأنّ مرسلاً أرسله ليؤدي وظائفه التي أرسل من أجلها.

ودلّت هذه الآية أيضاً على العناية الرّبّانية التي حفّت هٰذين البحرين حتى لا يمتزجا، فتذهب خصائص الماء العذب الفرات، التي بها حياة الحيوان والنبات، ومصالح أخرى كثيرة للناس والحياة، وذلك بأن جعل الله بين البحرين حاجزاً، إذْ جعل تكوين الأرض في أوضاعها صالحة لاحتواء الماء العذب الفرات في تجاويفها ومساربها، ولإجرائه في السهول والوديان، وإخراجه من العيون، وبذلك أقام الحواجز والفواصل التي تفصل بين البحرين، حتى لا ينتهي أمرهما إلى الامتزاج والاختلاط ببعضهما، وتذهب الخصائص المطلوبة، وقد لزم لذلك تدبير قوانين طبيعية، والأمر التكويني بجعلها قوانين قدريّة لازمة.

وهذه الحواجز التي عبّر الله عنها بالبرزخ حواجز مشهودة يشهدها الناس جميعاً، إذ هي جبال وسهول وأتربة، ونحو ذلك.

ويزيد الباحثون العلميّون على ذلك ما توصّلوا إليه من قوانين تفسّر ظاهرة هذا البرزخ وتوابعه.

ووصفَ الله هذا البرزخ بأنه حِجرٌ محجور، أي: هو مانع من اختراقه إلى صنف الماء الآخر، وهو ممنوع من الذوبان والاختلاط بالماء. فلو لم يكن مانعاً لاختلط البحران، ولو لم يكن ممنوعاً لاختلط هو بالمائين. وهذا الوصف لهذا البرزخ وهو أنه حِجْر محجور يدلّ على أنّه مادّة ممّا قد يتصوّر فيه الانحلال في الماء، إلّا أنه محجور عن ذلك بما جعل الله فيه من صفات وخصائص.

ثانياً: وإنّ آية النمل قد وجّهت السؤال للمشركين بالله في العبادة، حول عدّة ظواهر كونيّة، هي آثار ربوبيّة الخالق وحده، ليدلّ بذلك على أنّ من له الربوبية وحده وجب أن يكون وحده هو الإلٰه المعبود، فيُفْرَدَ بالألوهية.

وهذه الظواهر المذكورة في الآية هي:

١ ــ جعل الأرض قراراً، أي: صالحة للاستقرار عليها والتمكن، لا قلقة مضطربة، لا تصلح للثبات عليها.

٢ ــ إرسال المياه الحلوة العذبة خلالها أنهاراً.

٣ ــ تثبيت قشرة الأرض بالجبال الرواسي، مع ما في الجبال من منافع أخرى.

٤ ــ إقامة الحاجز الفاصل بين البحرين: العذب الفرات، والمِلْح الأجاج.

ومن المفروض أن يأتي جواب السؤال من المنصفين الذين يؤمنون بالحق عقلاء وعلماء وحكماء، ولو بعد مراحل جدلية، أو مراحل زمنيّة من البحث العلمي، بأنّ الجاعل لكلّ ذلك هو الله الربّ الخالق وحده لا شريك له.

إذن: وجب أن تكون له وحده الألوهية، أي: أن تُوجّه له وحده عبادة العابدين جميعاً.

والظاهر أنّ البحرين في هذه الآية هما البحران المذكوران في آية الفرقان، فقد جاء الحديث عنهما في آية الفرقان على طريقة خبر تقريري، وجاء الحديث عنهما في آية النمل على طريقة سؤال المشركين عمّن جعل بين هذين البحرين هذا البرزخ، لانتزاع الإقرار منهم بأنّه هو الربّ الخالق، وسيلة لإلزامهم بترك الشرك وعبادة الله وحده.

ثالثاً: وأخيراً نزلت آية الرحمن في أواسط المرحلة المدنية، وفيها حديث عن البحرين الّلذين يلتقيان، ومع التقائهما يوجد بينهما برزخ فاصل، فهو مانع لهما من التمازج، لكنّه لم يوصف بأنّه محجور، أي: ممنوع من أن يختلط هو بهما، إذْ ليس هو ممّا يظنُّ فيه قابلية الانحلال والاختلاط. ومع التقاء هذين البحرين أيضاً يظلّ كلّ واحد منهما عند حدّه، فلا يبغي أحدهما على الآخر، فيغيّر من خصائصه، ومن نسبة العناصر المختلطة فيه.

وقد وُصِف هنا هذان البحران بأنهما يخرج منهما اللّؤلؤ والمرجان، إشارة إلى أنّ كلًّا منهما مِلْحٌ أُجَاج، إذ من المعروف أنّ اللُّؤلؤ والمرجان يستخرجان عادة من البحر المِلْح الأجاج.

وتحيّر المفسّرون في فهم المراد من هذه الآية:

● هل المراد بالبحرين بحرا الماء العذب الفرات والملح الأجاج، وذلك في ظاهرة دخول مياه الأنهر في مياه البحار ونحو ذلك، إذ يستمرّ الماء العذب الفرات على صفاته مسافة طويلة قبل أن يمتزج بماء البحر؟.

وأخذ الباحثون العلميون يفسّرون هذه الظاهرة بما يسمَّىٰ بقانون «المطّ السطحي» الذي يفصل بين السائلين، لأنّ تجاذب الجزيئات يختلف من سائل إلى سائل آخر، ولهذا يحتفظ كلّ سائل باستقلاله في مجاله.

● أم المراد شيءٌ آخر غير ذلك؟.

ثم جاءت الكشوف العلميّة المعاصرة، فأثبتت أنّ في البحار الموصوفة بأنّها ملح أجاج ظاهرة البحرين اللّذين يلتقيان، وبينهما برزخ، أي: فاصل، وهما لا يبغيان، أي: لا يبغي كل واحد منهما على جاره، ويخرج منهما اللّؤلؤ والمرجان.

فعلمنا أن وصف خروج اللّؤلؤ والمرجان من كلٍّ منهما قد كان مقصوداً للإشارة إلى أنّ كلًّا منهما بحر ملح أجاج، مع ما في ذكر هذا الوصف من امتنان الله على عباده باللّؤلؤ والمرجان، اللذين يتخذ الناس منهما حليّاً وزينة ومنافع أخرى.

ذكر تقرير لبعثة علميّة بين جامعة القاهرة المصرية وجامعة أدنبرة الإنكليزية: أنّ ماء البحر في خليج العقبة تختلف خواصه وتراكيبه عن ماء البحر الأحمر.

واستطاعت البعثة بوساطة قياس الأعماق اكتشاف حاجز مغمور عند مجمع البحرين، يبلغ ارتفاعه أكثر من ألف متر.

ولعلّ مجع البحرين هذا هو المجمع المشار إليه في قصة موسى إذ انطلق مع فتاه للقاء الخضر، في القصة المذكورة في سورة الكهف.

وكذلك استطاعت البعثة العلمية التي اتجهت في البحر على السفينة «مباحث» في رحلتها الأولى في المحيط الهندي والبحر الأحمر، إذْ توصلت إلى اكتشاف حاجز مغمور بين البحرين، وظهر لها بالتحاليل أنّ ماء المحيط الهندي مختلف في خواصه عن ماء البحر الأحمر[1].

المثال الخامس:

كتب الطبيب الفرنسي الدكتور«موريس بوكاي» كتاباً بعنوان «دراسة الكتب المقدّسة في ضوء المعارف الحديثة» أثبت أنَّ القرآن الكريم لا يحتوي على أيّة مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث، رغم كثرة الموضوعات فيه التي تناولت الظاهـرات الطبيعيـة، بخلاف العهـد القديم والأناجيل، رغم قلة الموضوعات فيهما التي تناولت الظاهرات الطبيعيّة، فإنّ كثيراً منها تتناقض مع الحقائق العلميّة، وهذا يدلّ على وجود التحريف فيها، أو أنّ النصّ فيها من وضع الناس، وليس وحياً من عند الله عزّ وجل.

وهذا يدّل على أنّ القرآن المحفوظ عند المسلمين هو النصّ الوحيد الموجود في عالم الناس اليوم، الموحى به حقّاً من عند الله، دون تحريف فيه ولا تبديل، وأنّ مطابقة ما جاء فيه عن الظاهرات الطبيعية للحقائق العلمية التي لم تعرف إلّا في عصر النهضة المعاصرة بعد قرون من تنزيل القرآن هو من إعجاز القرآن، الدّال على الربّ، وعلى أنّ محمّداً هو رسول الله حقّاً وصدقاً.

فقد جاء في مقدّمة كتابه ما يلي:

«لقد قمتُ أوّلاً بدراسة القرآن الكريم، وذلك دون أيّ فكر سابق، وبموضوعيّة تامّة، باحثاً عن درجة اتّفاق نصّ القرآن ومعطيات العلم الحديث.

---

(١) انظر «الإسلام والنظر في آيات الله الكونية» تأليف د. محمد عبدالله الشرقاوي، كتاب سلسلة دعوة الحق العدد ٤٧ طبع رابطة العالم الإسلامي بمكة ص١١٦، ١١٧.

وكنت أعرف قبل هذه الدراسة، وعن طريق الترجمات، أنّ القرآن يذكر أنواعاً كثيرة من الظاهرات الطبيعيّة، ولكنّ معرفتي كانت وجيزة.

وبفضل الدراسة الواعية للنصّ العربي استطعت أن أحقّق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أنّ القرآن لا يحتوي على أيّة مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث.

وبالموضوعية نفسها قمت بالفحص نفسه على العهد القديم والأناجيل.

أمّا بالنسبة إلى العهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأوّل، أي: سفر التكوين، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخاً في عصرنا.

وأمّا بالنسبة إلى الأناجيل فما نكاد نفتح الصفحة الأولى منها حتى نجد أنفسنا دفعة واحدة في مواجهة مشكلة خطيرة، ونعني شجرة أنساب المسيح، وذلك أنّ نصّ إنجيل متىّ يناقض بشكل جليّ إنجيل لوقا، وأنّ هذا الأخير يقدّم لنا صراحة أمراً لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض.

غير أنّ وجود هذه الأمور المتناقضة وتلك التي لا يحتملها التصديق، وتلك الأخرى التي لا تتفق والعلم، لا يبدو لي أنها تستطيع أن تضعف الإيمان بالله، ولا تقع المسؤوليّة فيها إلاّ على البشر، ولا يستطيع أحد أن يقول كيف كانت النصوص الأصليّة، وما نصيب الخيال والهوى في عملية تحريرها، أو ما نصيب التحريف المقصود من قِبل كتبة هذه النصوص..».

وقد استعرض المؤلف في كتابه مجموعة من الأمثلة من المفيد الاطلاع عليها في الكتاب نفسه، وهي تشتمل على جوانب مختلفة من الظاهرات الكونية التي تحدّث القرآن العظيم عنها بكلام مطابق لما انتهت إليه البحوث العلمية المعاصرة فيما قال فيه البحث العلمي كلمته الأخيرة.

المثال السادس:

انعقد في القاهرة سنة ١٩٨٥م مؤتمر الإعجاز العلمي في القرآن، الذي نظّمته نقابة الأطباء في القاهرة، وفي الليلة الختامية للمؤتمر، أعلن البروفيسير البريطاني «أرثر أليسون» رئيس قسم الهندسة الكهربائية والألكترونية في جامعة لندن إسلامه، أمام مُرَاسِلي وكالات الأنباء العالميّة، وكَمِراتُ التصوير التلفزيوني تنقلُ هذا المشهد إلى شاشات التلفزيون المصري، وأسمَىٰ نفسه «عبدالله أليسون» وأعلن أنّ الإسلام دين الحقّ والفطرة التي فُطر الناس عليها جميعاً.

لقد دُعي هذا الرجل إلى المؤتمر، مشاركاً بتقديم بحث يدور حول قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزّمر ٣٩):

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

وحمل معه أيضاً بحثاً آخر حول أساليب العلاج النفساني والرُّوحَاني في ضوء القرآن الكريم.

أمّا البحث الذي يدور حول النوم والموت وشاركه فيه الدكتور محمد يحيىٰ الشرفي، فقد استطاع الباحثان فيه إثبات أنّ النوم والموت متشابهان تماماً، إذْ تخرج فيهما النفس من الجسد، ثم تعود في حالة النوم، ولا تعود في حالة الموت، كما جاء في الآية القرآنية تماماً، فالنوم وفاة راجعة، والموت وفاة غير راجعة.

وقد ثبت هذا من خلال الدراسات الباراسيكولوجيّة وهي دراسات تتعلّق بثلاثة مجالات رئيسية:

المجال الأول: ما يسمَّى بتجارب خارج الجسم.

فبعض الناس يمكنهم الخروج خارج أجسامهم، فيرى أحدهم جسمه من مكان آخر مُلْقىً علىٰ الفراش، وتسمّى هذه حالات الشعور خارج الجسم.

وذّلت بعض التجارب العلمية الإحصائية على أنّ من عشرة في المئة إلى عشرين في المئة من الحالات التي أجريت عليها البحوث كانت تمارس ذلك.

المجال الثاني: ما يُسمّىٰ بحالات الغيبوبة التي تشبه الموت. فقد يُعلن البعض موت شخص، بما تؤكّده الفحوص الإكلينكيّة «= السريرية» ذلك أنّ رسم المخّ يؤكد أنّ المخّ قد وقف، وكذلك رسم القلب يؤكد توقفه عن العمل، وينقطع التنفُّس، وبسبب ذلك يُعلنُ الطبيب موت الشخص بمقتضىٰ المقاييس الطبيّة المستخدمة.

وقد يحدث أن تُجرى له بعض المساعدات الطبيّة فيعود إليه وعيه مرّة أخرى، فيصحو وكأنّه كان في غيبوبة.

والشخص الذي يتعرضّ لمثل هذه الحالة يعود بعد صحوه فيخبر عن أمور مدهشة تستحق الدراسة المتأنيّة علمياً في ضوء القرآن الكريم والسنة النبويّة.

المثال الثالث: نوع من الأحلام يحلُم فيها النائم وهو يعرف أنّه يحلُم.

وقال البروفيسير «آرثر أليسون = عبدالله أليسون»:

«هذه التجارب وغيرها أكّدت لنا، أنّ عمليّة النوم هي خروج شيءٍ مُعينً من الإنسان سماه الله النفس».

وقال أيضاً: «إنني عندما حضرت إلى مؤتمر الإعجاز الطبيّ في القرآن الكريم، ورأيت هذا الحشد الكبير من الحقائق القرآنية والنبوية، التي تتكلّم عن المخلوقات، والتي جاء العلم فأيّدها، أدركت أنّ هذا لا يمكن أن يكون من عند بشر، وأنّ ما جاء إلى محمد ﷺ من قبل ألف وأربعمائة عام يؤكد أنّه رسول الله حقّاً، ولذلك أعلنت شهادتي وآمنتُ وأسلمتُ»(١).

□ □ □

---

(١) انظر جريدة (المسلمون) العدد (٣٦) السبت ٢٨ محرم ـ ٤ صفر ١٤٠٦هجرية. من ١٢ ـ ١٨ أكتوبر ١٩٨٥م.

الباب الثالث

آياتٌ تفصِيليَّة مِنْ آياتِ الله في الكون

وفيه سبعة فصول:

الفصل الأول : آيات في الأرض.
الفصل الثاني : آيات في السماء.
الفصل الثالث : آيات في الماء.
الفصل الرابع : آيات في النبات.
الفصل الخامس : آيات في الحياة والأحياء.
الفصل السادس : آية المقادير.
الفصل السابع : آية الجمال.

الفصل الأول

آياتٌ في الأَرْض

في الأرض وما حولها من غلافٍ غازي آيات كثيرات دالّات على وجود الرّب الخالق، وهيمنته وتدبيره، وإحكام صنعته، وواسع لطفه ورحمته.

وأشير في هذا الفصل إلى طائفة يسيرة منها، أعتمد فيها على التوجيهات القرآنية، والدراسات العلميّة الإنسانية، وأقدّمها في مقولات:

* * *

(١)
المقولة الأولى

تقول بحوث علماء الكون:

● إنّ الأرض هي الكوكب السيّار الوحيد من المجموعة الشمسيّة، المعدّ بعناية فائقة لظهور الحياة عليه وتكاثرها وبقائها أحقاباً مديدة.

● فقد امتازت الأرض بكلّ الأسباب الصالحة لنشأة الحياة وتكاثرها وبقائها، من كثافة، وجاذبيّة، وحركة، ورياح، وماء، ودفء، وضوء يأتيها من الشمس بالمقدار الملائم لحاجة الأحياء والنبات عليها، وإمدادٍ بأسباب الرزق، وخزائن أقواتِ الأحياء، إلى غير ذلك من أسباب.

● ولو أن بعض هذه الأسباب تخلّف لربّما كانت الأرض مثل غيرها كوكباً ميّتاً لا حياة فيْه، وإنَّ أيّ خلل في رعاية نظام الأرض قد يفضي بها إلى الدّمار، أو تدمير الحياة التي عليها.

فهل كان استمرار النظام من غير خلل ولا فساد أثراً من آثار المصادفة أم هو من آثار التنظيم المراد والعناية المقصودة؟.

حين ندرس مع علماء الفلك كواكب المجموعة الشمسيّة، نلاحظ أنّ تغيُّر نظام كلّ كوكب منها عن نظام الأرض قد جعل هذا الكوكب كوكباً ميّتاً لا أثر للحياة فيه.

فالذي كان منها أقرب إلى الشمس كان شديد الحرارة غير مؤهّل لظهور الحياة عليه.

والذي يواجه منها الشمس بوجه واحد وهو يدور حولها كان وجهه المقابل للشمس شديد الحرارة لا يصلح للحياة، وكان الوجه الآخر شديد البرودة لا يصلح للحياة.

والذي يدور منها حول نفسه دورة أبطأ من دورة الأرض كان نهاره طويلاً تشتدّ فيه الحرارة فتقتل، وكان ليله طويلاً تشتدّ فيه البرودة فتقتل.

والذي يدور أسرع من دورة الأرض كان نهاره قصيراً وكان ليله قصيراً.

والذي كان منها أصغر حجماً من الأرض كان غير قادر على الاحتفاظ بغلافٍ جوّيٍّ له، يُمدّ الأحياء بالأنفاس الصالحة للحياة.

وهكذا...

وتقول بحوث علماء الكون:

● إنّ الجاذبيّة التي تتمتّع بها كثافة الأرض هي التي جعلتها تحتفظ بغلافها الجوّي، الذي هو أحد الشروط اللازمة للحياة هذه، ولولاها لما كان للأحياء ولا لمتحرّك على الأرض قرار.

● ولو كان حجم الأرض أكبر مما هو عليه أو أصغر، أو كان ثقلها وكثافتها أقلّ أو أكثر، لاختلّ أمر الحياة، أو تغيّر تغيُّراً منافياً للمصلحة والحكمة، فحجمها متناسب مع سرعتها ودورتها، وثقلها متناسب مع قوّة جذبها للأشياء.

● وإنّ الشمس هي مصدر الطاقات كلّها التي على الأرض حتى الفحم والبترول، إذ هما من طاقات الشمس المدّخرة منذ القرون القديمة جدّاً. ولولا حرارة الشمس لتجمّدت المياه وسكنت الرياح في الأرض. وأشعة الشمس هي مصدر نور النهار، إذ تمرّ في الغلاف الجوّي للأرض فتتناثر وتتشتت، فيخفف ذلك من شدّتها، ويُعمّم تواردها، فتضيء الأشياء في النهار، ولو كانت واقعة في الظلّ.

وكلّ ذلك من دقة النظام وإحكامه، وعناية الخالق بالأحياء على الأرض.

وقد أرشدنا القرآن إلى آيات عناية الله في الأرض بعدّة نصوص، منها ما يلي:

١ ــ قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

٢ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر ٤٠):

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا . . . ﴿٦٤﴾ ﴾.

٣ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر ١٥):

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

ففي هذه النصوص وأمثالها توجيه للبحث العلميّ في الأرض لاكتشاف آيات عناية الله بخلقه، وإتقان صنعه، وبديع حكمته، جلّ وعلا.

فمن بحث منصفاً وتوصّل إلى علم حقيقيّ قدّم شهادةً بأنّ الله هو الرّب الخالق وأنّه لا إله إلاّ هو.

* * *

(٢)
المقولة الثانية

تقرّر الدراسات العلمية الإنسانية حول الأرض:

● أنّ سطح الأرض لا يزال تَنْتابُه تقلّصات في أماكن كثيرة منه، يرتفع بها بعضه، وينخفض بها بعض آخر، وأنّ حركة هذه التقلّصات بطيئة إلى حدٍّ غير مُدرَكٍ بالحسّ.

ومن الأمثلة على حركة الخفض ما يُشاهد من مبانٍ قديمة، كمعابد أقيمت على بعض الشواطىء، وقد أصبح الماء يغمر جزءاً كبيراً من أسفلها.

● وأنّ القشرة الأرضيّة انتابتها فوق التقلّصات البطيئة المستمرّة فيها تقلّصات عنيفة واسعة النطاق، مرّات متعدّدة في أزمنة مختلفة، تغيّر بها وجه الأرض في كلِّ مرّة، فنشأت جبال، وظهرت أراضٍ واسعة كانت مغمورة بالماء، كما هبطت أخرى على نطاق واسع تحت سطح الماء.

● وأنّ الأرض بعد أن انفصلت عن الشمس وتكاثفت إلى سائل بانخفاض درجة حرارتها، وتغطّت بقشرة جامدة كانت تلفُّ حول نفسها مرّة كلّ أربع ساعات، فكان تتابع الليل والنهار تتابعاً سريعاً، كلٌّ منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً في هذه الحقبة.

● وأنّ للأرض حركتين: إحداهما حول نفسها، والأخرى في مدارٍ حول الشمس.

● وتعزو الدراسات العلمية الإنسانية نقصان سرعة التفاف الأرض حول نفسها من أربع ساعات إلى أربع وعشرين ساعة، إلى تأثير موجات المدّ والجزر التي يُحدثها جذب القمر والشمس للأرض.

● وتقول هذه الدراسات: إنّ الأرض تنقص بالتعرية، فتتفتت كتل الصخور السطحيّة المرتفعة، ويقل بذلك ارتفاعها تدريجيّاً، وتنفصل منها الأجزاء السطحيّة سهلة التفكّك، وتبقى منها الأجزاء الصلبة تقاوم عوامل التعرية، لذلك تصير الجبال بعد نشوئها ومرور أحقاب من الزمن عليها صلبة مندمجة وقائمة منتصبة، وقد تنمحي الجبال بالتعرية وتصير أراضي مبسوطة وطيئة.

ويشير القرآن إلى كثير ممّا ذكره رجال البحث العلمي المعاصرون، ممّا كان مجهولاً تماماً عند نزول القرآن، وإلى أمور أخرى قد يكتشفها العلماء الباحثون فيما سيأتي من الزمان، فهي مدّخرة لهم، لكي يجدوا فيها آيات من إعجاز القرآن العلمي، فيؤمنوا بالله وبكتابه وبرسوله، أو تكون حجّة عليهم عند ربّهم يوم الدين.

فمن هذه النصوص ما يلي:

١ ــ قول الله عزّ وجلّ في سورة (النبأ ٧٨):

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾.

٢ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف ٧):

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

ولعلَّ في التعبير بالطّلب الحثيث بين اللّيل والنهار إشارةً إلى السُّرعة في دوران الأرض خلال الحقب الأولى من دحْو الأرض، وفي نصوص أخرى

لا يذكر هذا الطلب الحثيث، وربما كان ذلك إشارة إلى حالة الفرق بين ما كان قديماً وما هو كائن الآن.

٣ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النازعات ٧٩):

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

والتعبير بدحو الأرض يتّفق مع ما تقول الدراسات العلميّة الإنسانية عن الأرض، فالدَّحْو في لغة العرب يأتي بمعنىٰ قَذْف كتلة من الحجر، فيكون لها بهذا القذف حركتان:

- إحداهما بالتقلُّب حول نفسها.
- والأخرى بالانتقال من مكان إلى مكان آخر قُدماً إلى هدفٍ ما في مسير.

وهذا المعنى اللّغوي للدحو هو المعنى المناسب لما عليه واقع حال الأرض العلمي، أمّا المعنى الآخر وهو البسط فقد يناسب ما يراه الإنسان ببصره من سهول الأرض الميسّرة لمنافع الناس.

٤ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الرعد ١٣):

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾.

ونقص الأرض من أطرافها قد يدخل فيه ما يحدث فيها من عوامل التعرية كما سبق، وأشياء أخرى قد تكتشف ببحوث علمية ستأتي في المستقبل، والله أعلم.

* * *

(٣)
المقولة الثالثة

وتقول الدراسات العلميّة الإنسانية:

إنّ الأرض مغلّفة ببحر عظيم من الرياح، وهذه الرياح تتكوّن من جملة من الغازات، مع شيء من بخار الماء.

ففيها من الأكسجين بمعدّل خمسها تقريباً، ومن النتروجين ما يقارب أربعة أخماسها، ونسبة قليلة من غازات أخرى، أهَمُّها ثاني أكسيد الكربون، وبخار الماء.

وهذا البحر الغازي الذي هو فوق أجسادنا يضغط علينا بمعدّل كيلو غرام واحد لكلّ سنتيمتر مربع، وقد منح الخالق الحكيم أجسادنا قوة ضغط داخليّة تعادل ما نحمله من أثقال هذا البحر الغازيّ على أجسادنا، ولذلك فإننا لا نحسّ بهذه الأثقال التي نحملها.

وتقلّ كثافة الغازات في الأجواء العالية للغلاف الجوّي حول الأرض، ويقلّ الضغط، ولذلك فإننا لو صعدنا إلى هذه الأجواء، وباشرناها دون احتياطات، لضاقت صدورنا، وأصابنا الاختناق، لأنّ ضغط أجسامنا الداخلي لا يجد ما يوازنه من الدفع الجوّي، فتنفجر الأوعية الدمويّة.

ونذكر هنا التشبيه القرآني البديع، في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام ٦):

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

ونلاحظ أنّ هذه الحقيقة لم تكن معروفة لدى أحد من الناس إبَّان نزول القرآن.

وعبْر هذا البحر الغامر لنا من الغلاف الغازي حول الأرض الذي يزيد ارتفاعه على ألف كيلو متر، تأتينا من الشمس طاقات الحياة في الأرض، ومن وظائفه تكسير أشعّة الشمس وتوزيعها، وردّ قسم منها إلى الفضاء، والسّماح لقسم منها أن ينفذ إلى الأرض.

فالأشعة التي هي فوق البنفسجيّة أشعّة ذات موجات صغيرة جدّاً، وهذه للإنسان والحياة مهلكات، ولذلك اقتضت حكمة الخالق العظيم أن يجعل من صفات الغلاف الغازي حول الأرض أنه يمنع وصول هذه الموجات شديدة الصغر إلى الأرض، حتّى لا تكون سبباً في إهلاك ما عليها من حياة، إلى وظائف أخرى كثيرة يقوم بها هذا الغلاف، أو هذا السقف المحيط بالأرض، فهو سقف واقٍ من توارد هبوط النيازك إلى الأرض، إذ يحرقها قبل أن تصل إلينا.

أفلا تنبّهنا هذه المعارف التي اكتشفها علماء الكون على طائفة من المعاني التي اشتمل عليها قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

تطلق السماء ويراد منها كلّ ما علا فيدخل فيها الغلاف الغازي حول الأرض.

سقفاً محفوظاً: أي: محفوظاً بتكوينه وأنظمته من أن تخترقه الأشعة الضارة المهلكة، والنيازك بأحجامها دون أن تحترق وتذوب قبل أن تصل إلى الأرض، ومن غير ذلك ممّا قد يكتشفه أهل البحث العلمي في المستقبل.

وشاءت إرادة الخالق أن يكون الدّفء الذي يأتي إلى الأرض من الشمس بعد التصفيات، بمقدار يتناسب مع نظام الحياة التي قدّرها سبحانه وتعالى على الأرض، وأن يكون بمقدار حاجاتها، وما يصلحها، وما يفني ما قُدّر فناؤه فيها.

من بحر هذا الغلاف الغازي نستنشق النسيم الذي نملأ به رئاتنا عن طريق الشهيق، ثم ندفعه عن طريق الزفير، فهو مادّة أساسيّة في الوجود لاستمرار حياتنا، وحين يحتبس عنّا النسيم فترةً وجيزة من الزمن يدركنا الاختناق، وكذلك إذا فسد أو فقد من تركيبه العناصر اللازمة لحياتنا.

وجاءت البحوث العلميّة الإنسانية، فكشفت عن بعض أسرار هذه المادّة الموفورة بكثرة على سطح كوكبنا هذا الذي نعيش عليه، والتي هي عامّة مباحة لكلّ الكائنات الحيّة، فهم شركاء فيها. فذكرَتْ لنا أنّ الأنسام التي نتنسَّمها من الجوّ المحيط بنا، فنستمدّ منها شرطاً من شروط استمرار حياتنا، تتألف من عدّة عناصر، فهي تتألف:

١ ــ من عنصر غاز الأكسجين بنسبة (٢١) في المئة تقريباً، وهو العنصر الأساسيّ الّلازم لاستمرار حياتنا، باعتباره الوقود الذي يحرق أغذيتنا.

٢ ــ ومن غاز النتروجين، وهو غاز معدّل يمنع الأكسجين من الالتهاب والاحتراق السريع، وهذا الغاز يوجد بنسبة (٧٨) في المئة تقريباً.

٣ ــ ومن بعض الغازات الأخرى، منها ثاني أكسيد الكربون، الذي ينتج من احتراق الأكسجين في رئات الكائنات الحيّة، ومن مؤثرات أخرى. وهذا الغاز مادّة سامّة قاتلة للكائنات الحية، لكنه في الوقت نفسه مادّة غذائيّة لازمة للنباتات، تمتصّها عن طريق ثغور أوراقها، فتحلّلها بطريقة عجيبة إلى عناصرها الأولى، الأكسجين والكربون، فتأخذ الكربون لصناعة الموادّ الغذائية داخلها، وتطرح ما نحتاج إليه من الأكسجين، فتقوم بعمليّة تنظيف الجوّ من هذه المادّة السامّة، وتعيد للجوّ ما كان قد احترق منه من أكسجين.

إنّها لدورة عجيبة متكاملةٌ متتامّة بين النباتات والكائنات الحيّة، فما يطرحه هذا يتلقفه ذاك، لأنّ حاجته متعلّقة به، وهكذا يقايض كلٌّ صاحبه مما لا حاجة له به، بل قد يضرّه ويؤذيه.

وكذلك الدورات العجيبة التي توجَد في نظام هذا الوجود كلّه، بين التراب والماء والرياح والنبات والأحياء والحرارة والحركة، سلاسل دائرة، وحلقات متّصلات، وكلّ حلقةٍ لها دور في خطّة الوجود، فإذا انتهى دورها استسلمت إمّا لعملية التحليل، وإمّا لعمليّة التركيب، ويؤدي كلٌّ وظيفته وفق حاجته، ولكنّ حاجته هي جزء من الخطّة العامّة في التنظيم.

إنّها الخطّة الشاملة العامّة المترابطة في الوجود، التي لا تدع جزءاً فيه يفلت من نظامها، مهما كان صغيراً. فسبحان المبدع المنظم المهيمن.

□ □ □

الفصل الثاني

آياتٌ في السَّماءِ

في آفاق السماء آيات كثيرات لا يحصيها العادّون، دالَّات على وجود الرّبّ الخالق، وهيمنته وتدبيره، وإحكام صنعته، وعظيم قدرته، ومحيط علمه بكلّ شيء، وكامل سلطانه على كُلِّ شيء.

وأشير في هذا الفصل إلى طائفة يسيرة منها، أعتمد فيها على التوجيهات القرآنية، والدراسات العلميّة الإنسانية، وأقدّمُها في مقولات:

* * *

(١)
المقـولــة الأولى

● يقول الله عزّ وجل في سورة (الذاريات ٥١):

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾.

بأيْدٍ: الْأَيْد القوّة، أي: بنيناها بقوّة.

● وتقول البحوث العلميّة الإنسانيّة في آفاق السماء أقوالاً مذهلة، تشرح الحقيقة التي أشار إليها هذا النّص، وحقائق أخرى اشتملت عليها أو أشارت إليها نصوص قرآنيّة أخرى.

يتحدّث علماء الفلك عن عدد النجوم في السماء، فيذكرون أنّها ذات أعداد مذهلة لا تحصر، وأنّها وأبعادها فوق مستطاع قدرة التوهّم عند الناس.

ويذكرون أنّ هذه النجوم ـ وهي كتل عظيمة ملتهبة ـ تدخل في بناء ما يُسمَّى بالمجرّات، والمجرّات في أعماق الفضاء السَّحيق كثيرة جدّاً لم يستطع البحث الإنسانيُّ حصرها، ولا التوصُّل إلى رؤية كثير منها بالمناظير المكبّرة جدّاً.

وكوكبنا الأرضي الذي هو جزءٌ صغيرٌ جدّاً من المجموعة الشمسيّة، التي هي جزء صغير جداً من المجرّة التي تبدو لنا في الفلك العظيم أوّل ما يبدو لنا منه، بعد منثور النجوم التي تظهر لنا بالعين المجرّدة.

إنّ كوكبنا الأرضيّ هو أحد بنات الشمس الدائرة حولها، والشمس نجم

واحد ليس بالكبير جدّاً من نجوم تزيد على مائة ألف مليون نجم من مجرّتنا هذه، وبعض هذه النجوم يملأ مساحة من فضاء المجرّة تعادل الفراغ الذي تنتشر فيه المجموعة الشمسيّة كلّها، ولكنّ بُعده السَّحيق عنّا هو الذي جعلنا نراه صغيراً، مع أنه يدخل في نظام مجرّتنا هذه، ويخضع لتراتيب حركات نجومها وكواكبها.

وقد لا نستطيع أن نتصوّر مدى أبعاد مجرّتنا هذه، إذا قلنا مع علماء الفلك: إنّ طولها يبلغ مائة ألف سنة ضوئيّة، أي: إنّ ضوء نجم في طرفها يسير مائة ألف سنة حتّى يصل إلى طرفها الآخر، مع العلم بأنه يسير في الثانية الواحدة (٣٠٠) ألف كيلومتر، ويسير في السنة الواحدة عشرة ملايين مليون كيلومتر.

ومجرّتنا هذه واحدةٌ من مجرّات لا تحصر.

ويتحدث علماء الفلك أنّ الكون في اتّساعٍ مستمر، وتمدّد في الفراغ العظيم متتابع.

فماذا نفهم بعد هذا من قول الله عزّ وجل:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾.

* * *

(٢)
المقولة الثانية

● ويقول الله عز وجل في سورة (الواقعة ٥٦):

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾.

● ويقول الله عز وجل في سورة (الأعراف ٧):

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

● ويقول الله عز وجل في سورة (يس ٣٦):

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

كالْعُرجون القديم: الْعُرجون هو أصل العذق من النخل الذي يَعْوَجُّ ويقطع منه الشَّماريخ حاملة التمر، فيبقى على النخل يابساً.

● وتقول البحوث العلميّة الإنسانية الحديثة:

إنّ القمر كوكب هو أقرب الأجرام السّماوية إلىٰ الأَرْض، ويصل نوره

إلَيْنا في أقلّ من ثانيتين، لأنّ بعده عن الأرض لا يزيد على أربعمائة ألف كيلومتر.

أمّا الشمس فضوؤها يصل إلى الأرض في نحو ثمانٍ دقائق، لأنّها تبعد عن الأرض بنحو مائة وأربعة وأربعين مليون كيلومتر.

وأمّا أقرب نجم إلى الأرض بعد الشمس، فيبعد عنها قرابة أربع سنوات ضوئية.

والنجم المسمَّى بالنسر الطائر يبعد عن الأرض نحو أربع عشرة سنة ضوئية.

والنجم المسمَّىٰ بالنّسر الواقع يبعد عن الأرض نحو ثلاثين سنة ضوئية.

والنجم المسمَّىٰ بالسّماك الرامح يبعد عن الأرض نحو خمسين سنة ضوئية.

ثم تأتي نجوم داخلة في نظام المجرّة التي تعتبر المجموعة الشمسيّة جزءاً منها، تبعد عن الأرض قُرابة ألف سنة ضوئية.

ثم وراء ذلك نُجُوم ونجوم ذوات أبعاد ومسافات لا يستطيع أن يتصوّرها الوهم.

ألا تذكّرنا أقوال العلماء هذه بقول الله عزّ وجل:

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النجوم. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

ويحدّثنا علماء الفلك أنّه يأتي وراء هذه المجرّة مجرّات، تصل إلى ألف مليون مجرّة، وبين كلّ مجرّة وأخرى أبعاد مذهلة كبيرة جدّاً، تزيد مائة مرّة على طول المجرّة.

كانوا يقولون: إنّ الشمس ثابتة لا تدور ولا تسير، والأرض والكواكب السيّارة هي التي تدور حول الشمس، وتسير في مداراتها، وظنّ الجاهلون بالقرآن الظنون.

وتقدّم علم الفلك، وطلع علينا بحقائق أثبت فيها أنّ الشمس تدور حول محورٍ لها، فتُتِمُّ دَورتها حول هذا المحور في أكثر من ثلاثين يوماً، وأثبت أنّها تسير هي ومجموعتها التي ترتبط بها بسرعة تقدر بنحو اثني عشر ميلاً في الثانية في اتجاهٍ نحو الكوكبة التي تُسمَّىٰ بكوكبة الجاثم، فهي بذلك تقطع في السّنة مسافة تساوي أربعة أمثال بعدها عن الأرض.

ولّما كانت في مسيرتها تجذب معها أسرتها من الكواكب السيارة، فإنّ أوضاع هذه الكواكب لا تتغيّر بالنسبة إلى الشمس، وإن تغيّرت بالنسبة إلى الفلك الأكبر.

ووضح للباحثين دقّة البيانات القرآنية، وأنّ ما جاء في القرآن حقٌّ من الله، وأنّه لا خلاف بين الثابت في الدين واليقين في العلم، فليتوّج العلماء المؤمنون بحوثهم حول الشمس بقول الله عزّ وجل:

﴿والشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيز العليم﴾.

وبقوله عزّ وجلّ:

﴿وَكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

ويحدّثنا علماء الفلك عن حركات النجوم المتداخلة، وحركات الكواكب المتداخلة، وحركات المجرّات، ما يدهش العقول، ويُحيّر الأفكار، لما فيها من نظام بديع عجيب لا يخرم قيد شعرة، ولا يعتريه خلل ولا اضطراب، رغم الأعداد الكبيرة التي لا يستطيع الوهم تصوّرها، والحركات المتداخلة بشكل عجيب.

فللأرض مثلاً حركة حول نفسها، وحركة أخرى في مدار حول الشمس، وحركة مع الشمس في مسيرتها نحو كوكبة الجاثم، وحَركة ضمن نظام مجموعة أكبر، وحركة ضمن حركة المَجَرَّة، وهكذا بتسخير مذهل.

كلّ ذلك بأمر العزيز العليم، الذي له الخلق والأمر، وبتدبيره الحكيم،

وسلطانه الشامل، وعلمه المحيط الذي لا يعزبُ عنه مثقال ذرّة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

فتبارك الله أحسن الخالقين.

﴿... والشَّمْسَ والْقَمَرَ والنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّـهُ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾.

وفي آفاق السماوات أمور كثيرة غيبيّة، لم يتوصّل الباحثون من علماء الفلك إلى معرفة شيءٍ عنها، وربّما توصّلوا يوماً ما فتحقّقوا من صدق ما جاء في القرآن عنها من بيانات، وفهموا ما جاء حولها فيه من إشارات، فعرفوا أنّ السماء قد مرّت عليها حقبة من الزمن كانت فيها دخاناً، وعرفوا أنّها صارت بعد ذلك سبع سماوات في حقبتين زمنيتين، بسلطان عزيز حكيم، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (فصلت ٤١):

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾.

* * *

(٣)
المقولـــة الثـالثـــة

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (نوح ٧١):

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾.

وقال عزّ وجلّ في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ ﴾.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾.

من قِطْمير: القِطمير: القشرة الرَّقيقة التي تكونُ في نواة التمرة.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

وقال عز وجل في سورة (يس ٣٦):

﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

وقال عزّ وجلّ في سورة (يونس ١٠):

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ ﴾.

وتقول البحوث العلميّة الإنسانية:

● إنّ القمر جرمٌ سماويٌّ غير منير بذاته، وهو كتلة تحتوي عناصر شبيهة بما في الأرض من عناصر، باستثناء الشروط اللازمة لظهور الحياة عليه، أو لسكنىٰ الأحياء، فهو جسم ميّت.

● وإنما يستمدّ نُورَه من ضوء الشمس الملتهبة، إذْ تبثُّ أشعتها فتمدّه بالنور والحرارة، وتنعكس هذه الأشعة عنه، فيبدو لسكّان الأرض منيراً بأنوارٍ باردة، ومثل القمر الكواكب الأخرى الميتة التي تبدو منيرة بهذا السبب.

ومن أجلِ هذا وصف القرآن الشمس بأنّها سراج وهّاج، وبأنّها ذات ضياء، ووصف القمر بأنّه منير، ولم يصفه بأنّه ذو ضياء.

● والقمر كوكب تابع للأرض، يسايرها ويدور معها، ويدور أيضاً حول نفسه وحول الأرض مرّة في كلّ شهر قمري، فيتمّ الدورتين في وقت واحد، ويبقىٰ في دورتيه متوجّهاً بأحد وجهيه إلى الأرض، لذلك فإن أهل الأرض لا يرون وجهه الثاني أبداً.

كلّ ذلك من أجل ترتيب نظام الأهلّة الشهري.

● ويغيّر القمر منازله في فلكه، وذلك لأنّ القمر في دورته الشهريّة حول الأرض يقطع كلّ يوم ثلاث عشرة درجة، ويتأخر كلّ يوم تسعاً وأربعين دقيقة نحو الشرق، ليكشف لنا عن جانبه المنير المواجه للشمس، الذي يعكس لنا أشعتها، وذلك بطريقة تدريجيّة، إذْ تبدأ هلالاً كخطّ الحاجب، ثم يتزايد حتّىٰ يكون بدراً، ثم يتناقص حتى يعود كالعرجون القديم، ثم يدركه المحاق.

وبعدئذٍ يستأنف دورة جديدة.

وقد كشف الله عز وجل في القرآن غاية هذا التنظيم، فيما أوردت آنفاً من نصوص، وترك للفكر الإنساني مجال البحث العلميّ، ليستجلي بالتأمُّل وبالدراسة النظريّة والواقعيّة أسرار هذا النظام البديع.

● وأقرب أجرام السماء إلى الأرض تابعها القمر، فهو يبعد عنها قرابة (٢٤٠) ألف ميل. وكتلته تعادل جزءاً من ثمانين جزءاً من كتلة الأرض.

● ولو تغيرت دورات القمر، أو اختلفت المسافة التي بينه وبين الأرض قرباً أو بعداً، أو اختلفت أحجام كلّ منهما، لاختلت ظواهر كثيرة من نظام التكوين البديع الملائم لظهور الحياة على الأرض، وبقاء أنسالها، فكيف تمّت هذه الملاءمة العجيبة، والترتيبات والتنظيمات الرائعة؟

□ □ □

الفصل الثالث

آياتٌ في الماء

وفيه ثلاث مقولات:

(١)
المقولة الأولى

وفي الماء آيات جليلات دالّات على الخالق القدير، الحكيم العليم الخبير، المنعم بالنّعم الظاهرة والباطنة.

ولعظم ما في الماء بخصوصه من آيات وآلاء امتنّ الله علينا به، مشيراً إلى طائفة من ظواهر تهيئته وإعداده للناس في الأرض، فمن النصوص القرآنية في ذلك ما يلي:

١ ـ قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

٢ ـ وقول الله عزّ وجل في سورة (النور ٢٤):

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ

سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾.

الودق: المطر.

٣ ــ وقول الله عزّ وجل في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾.

مَرَج البحرين: أَرْسَلَهُما. يُقال لغة: مرج الدابة إذا أرسلها ترعىٰ. ومرج البحرين: خلطهما، فكل من الماء العذب الفرات والماء الملح مؤلف من عناصر مخلوطة.

فُرات: بالغ العذوبة.

مِلْحٌ أُجَاج: أي: ممتزج بالملح مُرٌّ، والأفصح أن تقول: ماءٌ مِلْحُ، ويقال في لغة رديئة: ماءٌ مالح.

بَرْزَخاً: حاجزاً، فاصِلاً.

وحِجْراً مَحْجُوراً: أي: حدّاً مانعاً من أن يبغي عليه جاره، وممنوعاً من أن يَبْغِي هو على جاره، فهو فاصل لا يتجاوز حدّه، وكُلٌّ مِنَ البحرين لَا يَبْغِي عليه.

٣ ـ وقول الله عزّ وجل في سورة (الرحمن ٥٥):

﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾.

٤ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (طه ٢٠):

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾.

٥ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الواقعة ٥٦):

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

٦ ـ وقول الله عزّ وجل في سورة (الروم ٣٠):

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

٧ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر ١٥):

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

٨ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الرعد ١٣):

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ ﴾

٩ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الجاثية ٤٥):

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

١٠ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الذاريات ٥١):

﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ ﴾.

الذاريات: الرياح. **وِقْراً**: حِمْلاً.

في هذه النصوص بيان وإشارات إلى حقائق كثيرة حول الماء، مع امتنان الله به على عباده، وبيان أنه من آثار رحمته بهم.

وكلّما توصّل الباحثون العلميون بدراساتهم الإنسانية إلى حقيقة مهمّة من الحقائق التكوينيّة حول الماء، وقد تعرّض القرآن إليها ببيان تصريحي أو إشاري أو يستفاد بطريق اللوازم، وجدوا أنّ ما دلّ عليه القرآن يتفق مع ما توصلوا إليه من حقائق مقطوع بها علميّاً، فمن استبصر ذلك وأنصف آمن بالله العليّ القدير، وآمن بأن القرآن تنزيل من لدنه.

* * *

(٢)
المقولة الثانية

جعل الخالق العظيم الماء مادّة حياة كلّ ذي حياة، لولاه ما نبت نبات، ولا نما شجر، ولا تهيّأ غذاء لحيوانٍ ولا بشر، وقد أمدّ به الأرض إمداداً كبيراً، فجعل البحار مستودعاتٍ عظيمة جدّاً، تمدّ سكان الأرض بما يحتاجون إليه من ماء، ولو أنّ البحار كانت حلوة لأسرع إليها الفساد، فأنتن ماؤها وصار آسناً. ولكنّ حكمة الخالق حمت مياه البحار من الفساد بالمعقّم المخالط لها.

وبالعناية الفائقة وإتقان الصنعة جعل الله عزّ وجلّ نظام التبخُّر لا يُصعِّد إلّا الماء الخالص من العناصر المخالطة.

ويتجمع بخار الماء الذي يتصاعد من المحيطات العظيمة ومن غيرها على شكل سُحُب تجري في الفضاء، ويتراكم بعضها على بعض، وتسوقها الرياح، وتَرْكُمُ بعضها على بعض بأمر الله، وتسير بها إلى أرض قضى الله أن يسقيها ويُرويها وأهلها، ويُنبت زرعها، ويرسل الله رياحاً باردة ذات لقاح، فتتكثف الأبخرة، وتتجّمع على نويات اللّقاح ماءً، فتتساقط قطرات تكبر وتصغر بقوانين قدريّة، وتكون مطراً ينزل من السماء عند أمكنة تجمع السحاب، إلى الأرض التي قضى الله بسقياها أو أذن، فيحيي به الله الأرض بعد موتها، ويسقي الظِماء من النبات والحيوان والناس.

ويتجمع الماء، فتجري به الوديان والشعاب، وتمتلىء منه الأحواض

والمستودعات، ويسلك سبُله إلى العيـون والآبار، لتكـون موارد للواردين، ومشارب للظامئين.

ويخالط الماء التراب الطيّب، فتتفتح البزور بإذن ربّها، وتنفلق، وتمتدّ الجذور، ويشقُّ النّبات الأرض، ويتصاعد الزرع، ويتفرّع شطؤه، ويقوى جذعه، وتتنامىٰ فروعه، ويُزهر زهره، ويثمر ثمره.

فإذا البزرة التي كانت صغيرة كالعدسة أو الحمصة أو النواة، قد صارت شجرة عظيمة وارفة الظلال، ثقيلة الأحمال، عظيمة النفع، تؤتي أُكُلها كلّ حين بإذن ربّها، فيفد إليها الآكلون، يغتذون من غذائها، وينتفعون من ورقها وخشبها وكلّ شيءٍ فيها.

ومن النبات ما هو رزق البهائم والأنعام، تستمتِع به، وتربو عليه، فمنها رَكُوبٌ للإنسان ومنها حَلوب، ومنها لحم ودهن، ومنها صوف وريش ووبر، وكلّها للإنسان فائدة وخير، قد ذلّلت له تذليلاً، وسخّرت له تسخيراً، ولولا ذلك لم يستطع الاستفادة منها أو الانتفاع بها.

إنّها لأنظمة عجيبة، وسلاسل مترابطة غريبة، وهي جميعها تخدم غاية مرسومة معلومة، قد أحكمت من أجلها حلقات السلاسل أيَّما إحكام، ورُتِبّت بعناية فائقة ما فوقها لدى النظرة الكليّة الشاملة من مزيد، ضمن مقادير الغاية من هذه الحياة الدنيا.

فهل وجدت هذه السلاسل المحكمة البديعة الهادفة لغاية مقصودة على سبيل المصادفة، من طبيعة عمياء، لا عقل لها ولا إرادة؟!.

أفيريد منّا الملحدون أن نفقد عقولنا وأفكارنا وكلّ معارفنا في الوجود، حتّى نقبل ما يقولون، فنجحد الخالق العليم الحكيم القدير، الذي أتقن كلّ شيء صنعاً مثلما جحدوا، وننكر وجوده مثلما أنكروا، ونحمل على ظهورنا عبء هذا الإنكار، ونأتي ربّنا يوم الدين بأثقل الأوزار، ونفد عليه ولا أمل لنا بالنجاة مطلقاً؟!.

إنّ جحود الرّب الخالق أقبحُ انحراف خلقيّ ذميم، وتطاولُ غبـيٍّ أرعن أحمق، من ضعيفٍ ضئيل تمرضه بعوضة، وتقتله عقربة، وربّ جرثومة لا يراها تجعله من أتْعَس الناس، على من بيده ملكوت السماوات والأرض، وهو على كلّ شيء قدير.



(٣)
المقولة الثالثة

تذكر البحوث العلمية الإنسانية:

● أنّ الهواء يحتوي دائماً على مقادير كبيرة من بخار الماء الغازي، وأنّ الهواء حينما يأتي على شكل رياح مندفعة يصعد ببخار الماء هذا إلى طبقات عليا من الجوّ، إلى حيث يقلّ الضغط، وتنخفض درجة الحرارة، فيبرد إلى درجة يصير بخار الماء فيها فوق مقداره الذي يكون الهواء مشبعاً به، عندئذٍ يتكاثف على هيئة سحاب.

● وأنّ بعض دقائق الهواء مكهربٌ بنوعي التكهرب لأسباب متعدّدة، ووجود هذه الكهربية في دقائق الهواء يجعل نوىً يساعد كثيراً على تكاثف بخار الماء الغازيّ عليها، وذلك على هيئة دقائق مائيّة سحابيّـة مكهربـة بنوعي التكهرب الموجب والسالب في الطبقات العليا من الجوّ، حيث يندر هنالك وجود نوىً من هباءٍ أو غبار يتكاثف عليها بخار الماء الغازيّ. ولولا وجود هذه الكهربية الجويّة لقلّ تكوين السحاب إلى حدّ عظيم.

وعلى هذا يمكن أن نفهم من قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر ١٥):

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

ما يشمل تلقيح الرياح للسحاب بما تحمل هذه الرياح من كهربيات موجبة وسالبة، تكون هي النوى الذي يتكاثف عليه بخار الماء الغازي.

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: تُلقّح الرياح السحابَ والشجر.

● وأنّ السحاب الممطر يتكوّن عادة من نوعين:

الأول: سحاب عادي في الجوّ، مكوّن من خليط من دقائق موجبة التكهرب، وأخرى سالبة.

الثاني: سحاب رعديّ، ينشأ في الجوّ العاصف، بعضه سحاب من دقائق موجبة التكهرب فقط، وبعضه الآخر سحاب من دقائق سالبة التكهرب.

وأنّ التجاذب الكهربي بين نوعين من الدقائق السحابية يساعد كثيراً على تقريب بعضها من بعض عند تراكم السحاب، ثم يساعد على اجتماع بعضها على بعض، وتكون قطرات مائية، تسقط بغزارة وبسرعة على صورة المطر.

وتتحّد شِحنتا التكهرب على دقائق السحاب العادي الخليط بهدوء. بينما يتَّحِدان بشدّة من عظم قدرهما بين كتل السحاب الرعدي، فيحدث رعد وبرقٌ وصواعق أحياناً.

● وأنّ قطرات الماء المطرية قد تبرد في الجوّ العاصف قبل سقوطها برودة تصل بها إلى درجة التجمّد أو أقلّ منها، فتتجمّد، وتسقط على هيئة قطع مائية جامدة، مختلفة الأحجام، تسمّى برداً.

فإذا قارنّا بين هذا وبين النصّ الذي جاء في سورة (النور) والنص الذي جاء في سورة (الرعد) وجدنا أنّ القرآن قد أبان حقائق حول السحاب والمطر، ما عرفها العلماء إلاّ بعد نزوله بقرون.

وتذكر البحوث العلمية الإنسانية:

● أن نحو ثلاثة أرباع الأرض مغطّىً بالمحيطات، ومغمورٌ بالماء، وللماء

من الصفات والخصائص العجيبة ما يجعله مادّة الحياة، وهذه حقيقة كونية أثبتها القرآن العظيم، كالآية التي جاءت في سورة (الأنبياء).

● وأنّ للماء قُوّةَ انعكاسٍ جيّدةً للإشعاع الشمسي، ولذا كانت درجة حرارة ماء البحار في الليل والنهار ذات نسبة متقاربة، إذْ لا تختلف بأكثر من درجتين فقط.

● ودلّت الأبحاث العلميّة على أنّ أقصى أعماق البحار يُعادل أقصىٰ علو الجبال. وقد وصل الباحثون إلى أعماق بلغت تسعةً وثلاثين ألف قدم.

وصرّح الكابتن «جاك إيف كوستو» مكتشف أعماق البحر، في أوائل شهر أيلول «سبتمبر» لعام «١٩٥٦م» بأنه قد أمكن التقاط صور فوتوغرافية على عمق يزيد على خمسة وعشرين ألف قدم، وأنه اكتشف ألواناً جديدة من الحياة، وأنواعاً لا عهد للعلم بها.

● هذا الغمر العظيم، جامع القوى العظيمة الكبرى، التي تفتّت الصخور، وتهدّ الجبال، وتجلب الأهوال، إنما هو مجمع قطرات التقت بأمثالها وأمثالها من كلّ حدب وصوب. إنّه الماء.

● وأنّ الماء ناتج عن اتحاد ذرّاتٍ من أيدروجين مع ذرّات من أكسجين، ومن ذلك تكوّن هذا المركّب العظيم، الذي رُتّب بإتقان عظيم، ليكون مادّة الحياة العجيبة، على هذا الكوكب الذي نعيش عليه، وأجسادنا جزء من عناصره، مائِه وترابه.

● وقد زوّدت الأرض بهذا المقدار العظيم من الماء، ليكون كافياً لحاجة الأحياء الذين يقدّر لهم أن يعيشوا عليها.

● والماء على رقته وليونته وسهولته صعب المراس، شديد الخطر، إذا حركته الرياح، وأثارته العواصف، ثارت ثائرته، فتحدّى الجبال، وحطّم الأثقال، وكانت كلّ موجة منه كالطود العظيم، ترغي وتزبد، وتبطش بطشة الجبابرة، لا تكظم غيظها حدود ولا سدود.

قالوا: وقد يرتفع الموج أثناء العواصف إلى نحو مائةٍ وثلاثين قدماً، وأنّ في كلّ موجة قوّة مدمّرة زنتها ستة آلاف رطل في كلّ ارتفاع يقدّر بقدم واحدة، فكيف إذا ارتفعت عشرات الأقدام، إلى ما يزيد على مئة قدم.

وذكروا: أنّ موجة عاتية اقتلعت في اسكتلندا عام «١٨٧٢م» مرسىً حديديّاً زنته مليونان وسبعمائة ألف رطل. وفي عام «١٧٣٧م» هاج البحر في ميناء «بانكوك» فقتل ثلاثمائة ألف إنسان، ودمّر عشرين ألف مركب.

وكلّ هذه القوى في المياه مسخّرة للإنسان ألطف تسخير وأبدعه، فهو يركب الماء، ويستخدم الرياح، ويستفيد من قواهما في تحريك آليّاته، وفي توليد الكهرباء، وفي نشاطات صناعيّة وهندسية مختلفة.

وامتن الله على الناس بهذا التسخير، فانظر ما جاء في سورة (الجاثية) وغيرها حول هذا التسخير.

أفكان كلّ ذلك وليد ذاته دون خالق قدير عليم حكيم رحيم مهيمن على كُلِّ شيء؟!.

أفكان كلّ ذلك وليد ذاته دون قوة عظيمة عليمة حكيمة رحيمة مهيمنة؟!.

أليس عجيباً هذا المصنع الكوني الكبير لتحلية المياه وتصفيتها، وتطهيرها، ونقلها إلى مواطن الحاجة في البلاد الظامئة، وتخزينها في مستودعات حافظات في الأرض، وإخراجها ينابيع وأنهاراً؟!.

أليس عجيباً هذا المصنع الكبير القائم على عمليّات التبخير والسوق والتقطير؟!.

إنّ التبخّر يتمّ من فوق سطوح المحيطات والأنهار، ومنثور الماء في كلّ مكان، وما تدفعه الأحياء والنباتات من أجسادها الرطبة.

وتثير الرياح البخار، وتحمله إلى مستوىً ما من طبقات الغلاف الجويّ المحيط بالأرض. ثم تسوقه برفق وتسير به وفق أمر المقادير الحكيمة العليمة.

ثم تأتي رياح باردات فتلقحه، وتكثفه ، وتعيده إلى تماسكه المائي، فيتقاطر بالجاذبيّة إلى الأرض، فيعود إليها ليحيي فيها مواتاً، ويسقي فيها أنعاماً وأناسيّ كثيراً، ويسلك سبيله بتقدير الله الحكيم إلى مخازن الماء العذب في الجبال، وفجوات الأرض وأعماقها وشرايينها، مُعدّاً للانتفاع به حسب الحاجة، ولاستنباطه وتسييره وإجرائه، ويسلك سبيله أيضاً إلى الينابيع والجداول والأنهار الكبرى والصغرى وفق تقدير العزيز الحكيم.

أليس عجيباً جدّاً هذا المصنع الكونيّ العظيم، المعدُّ بعناية فائقة، لمصلحة الحياة على هذه الأرض من نبات وحيوان؟!.

وتقول البحوث الإنسانيّة:

● لم تكن أعجوبة المطر الكبرى تتمّ بهذا التنظيم الدوريّ الرائع، لولا أن اجتمعت لها في الأرض أسباب الحركة، والمدارِ، والوضع، والميلِ، واتّساع سطوح البحار، وحرارة الشمس، وأنظمة التبخّر، والتكاثف، والتميّع، والتحبّب، والتثاقل، والرياح، والبرق.

● ولولا هذا السطح الواسع من الماء الذي يغمر قُرابة ثُلُثَي الأرض لَما كفت عملية التبخّر ما تحتاجه سهول الأرض من ماء عذب طهور، وما يحتاج الأحياء عليها منه.

● ولو أنّ المحيطات كانت عذبة غير مالحة لدبّ إليها الفساد ولأنتنت. ولو أنّها كانت في جانب من الأرض، ولم تكن موزعة لاختلّت عمليات توزيع مياه الأمطار على اليابسة، على الشكل الملائم. ولو كان نظام التبخّر يسمح بأن يحمل بخار الماء معه أخلاطه، لكان ماء المطر أجاجاً غير صالح للحياة.

فهل كان لكلّ هذه الأسباب والنواميس والقوانين أن تجتمع دفعة واحدة بطريق المصادفة الجاهلة العمياء؟!.

كيف تمّ هذا النظام الرائع البديع، فأعطى النتائج وفق المطالب؟.

أقول مع صاحب قصة الإيمان حول نظام الدورة المائية:

هذا الإنبيق الأعظم الذي نصبه واضعه، ورفعه رافعه بين السماء والأرض، فسطّح بحاره، وأوقد ناره، وطيّر بخاره، وأثقل سحابه، وأسال قطاره، وجعل الجبال قراره، وفتق منها أنهاره، فجدّد بها مداره، من الذي أحكم أسراره؟.

وأحسن الدكتور «توماس دافيد باركسن» أستاذ الكيمياء في مقال كتبه بعنوان: «الماء يروي لك القصة»[1] جاء فيه ما خلاصته:

«إنّني أقرأ النظام والتصميم في كلّ ما يحيط بي من العالم غير العضوي، ولا أستطيع أن أسلّم بأن يكون كلّ ذلك قد تمّ بمحض المصادفة العمياء، التي جعلت ذرّات هذا الكون تتألف بهذه الصورة العجيبة. إنّ هذا التصميم يحتاج إلى مبدع. ونحن نطلق على هذا المبدع اسم الله».

● ثم تحدّث عن الترتيب الدوري للعناصر الكيميائية. فذكر أنّه يثير عجب الكيميائي ودهشته.

● ثم أشار إلى أنّ هذا النظام البديع ليس مظهراً من مظاهر القدرة على كلّ شيءٍ فحسب، بل إنّه يتصف فوق ذلك بالحكمة والاتجاه نحو تحقيق صالح الإنسان، ممّا يدلّ على أنّ اهتمام الخالق بنفع عباده لا يقلّ عن اهتمامه بالسّنن والقوانين التي تنظّم هذا الوجود.

● ثم لفت النظر إلى ظاهرة الماء، وخروجه عن العادة والمألوف عناية بالكائنات الحيّة، فقارن بين الماء وأشباهه من العناصر، وأوضح أنّه بقصدٍ حكيم قد جُعِلَ له قانون خاصٌّ يخرج به عن نظام الجدول الدوري للعناصر.

قال: «ولذلك فإنّ وجود الماء على الحالة السائلة في درجة الحرارة المعتادة يجعل الإنسان يقف ويفكر».

● ثم أوضح أنّ للماء خواص كثيرة تدلّ على التصميم والتدبير.

---

(١) من كتاب «الله يتجلّى في عصر العلم».

فالماء يغطّي نحو ثلاثة أرباع سطح الأرض، وهو بذلك يؤثر تأثيراً بالغاً على الجوّ السائد ودرجة الحرارة.

ولو تجرّد الماء من بعض خواصّه لظهرت على سطح الأرض تغيّراتٌ في درجة الحرارة تؤدّي إلى حدوث الكوارث.

وللماء درجة ذوبان مرتفعة، ويبقى سائلاً مدّة طويلة من الزمن، وله حرارة تصعيد بالغة الارتفاع، ولولا كلّ ذلك لتضاءلت صلاحيّة الأرض للحياة إلى حدٍّ كبير. . .

وللماء خواصُّ أخرى فريدة في نوعها، وتدلّ كلّها على أنّ مبدع هذا الكون قد رسمه وصمّمه بما يحقق مصالح مخلوقاته.

فالماء هو المادّة الوحيدة المعروفة التي تقلّ كثافتها عندما تتجمّد، وبسبب ذلك يطفو الجليد على سطح الماء عندما يشتد البرد، فيكوّن طبقةً عازلة تحفظ الماء الذي تحتها في درجة حرارة صالحة لبقاء الحيوانات المائية حيّة.

وللماء توتر سطحيٌّ مرتفع يساعد على نموّ النبات بما ينقله إليه من الموادّ الغذائيّة التي بالتربة.

والماء أكثر السوائل المعروفة إذابة لغيره من الأجسام. وهو يلعب دوراً كبيراً في العمليّات الحيويّة داخل أجسامنا، بوصفه مركّباً أساسيّاً من مركّبات الدم.

وللماء ضغط بخارٍ مرتفع على مدى واسع من درجات الحرارة، ومع ذلك فإنه يبقى سائلاً على طول هذا المدى المتسع اللازم للحياة.

● ثم قال: إنني أرى في كلّ ظاهرة من هذه الظواهر الكونية أكثر من مجرّد الخلق والتدبير المجرّد عن العاطفة. إنني ألمس فوق ذلك كلّه محبّة الخالق لخلقه، واهتمامه بأمورهم. . .».

□ □ □

الفصل الرابع

آياتٌ في النّبات

وفي النبات جليلُ آياتٍ دالّات على الخالق القدير، الحكيم العليم الخبير، الذي أتقن كلّ شيءٍ صنعاً، ورعىٰ عباده بعنايته ولطفه، وجوده وإحسانه وعطفه.

وأعرض في هذا الفصل طائفة منها، بادئاً بالتوجيه القرآني للنظر إلى عالم النبات وما فيه من آيات، ثم أذكر بعض ما توصل إليه البحث العلمي الإنساني حوله، وما عرفوه فيه من أمور عجيبة، مذهلة لمن أراد أن يتبصّر الحقّ بعقله ووجدانه، ودافعة إلى الإيمان بالله، والخضوع لسلطانه، والقيام بعبادته وطاعته، والتقرُّب إليه بمراضيه من نوافل الطاعات.

وأقدّم هذا العرض في مقولات:

* * *

(١)
المقولـة الأولى

١ ـ قال الله عزّ وجلّ في سورة (النّمل ٢٧):

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

ذات بهجة: ذات حسن وجمال.

٢ ـ وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

خَضِراً: نباتاً أخضر.

مُشْتَبِهاً: أي: يشبه بعضه بعضاً، وهذا في أصناف النوع الواحد، فالصنف يشبه الصنف شبهاً كثيراً، وليس عينه، كأصناف الزيتون، وأصناف الرمان. والناظر إلى الصنفين قد يشتبه عليه الأمر أنهما صنف واحد.

وغير متشابه: أي لا تشابه مطلقاً، وهذا في الأنواع المختلفة، فالناظر إلى النوعين يميزهما بسرعة دون أناة، لأنّه لا تشابه بينهما، شكلاً ولا لوناً، كصنفي الزيتون والرمّان.

٣ ــ وقال الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

وصِبغٍ للآكلين: الصِّبْغ ما يُصْبَغُ به، وفي وصف زيت الزيتون بأنه صِبغٌ للآكلين، توجيه للقدر الذي يحسنُ أن يؤخذ منه عند الأكل، وهو أن يكون بمثابة الصِّبغِ إداماً للخبز، فيصبغُ الخبز به صبغاً، ولا يشرب الزيت شُرباً كالحليب.

٤ ــ وقال الله عزّ وجل في سورة (الرعد ١٣):

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

٥ ــ وقال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل ١٦):

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

فيه تُسِيمون: تطلقون أنعامكم فيه لترعى، يقال لغة: أَسامَ الراعي ماشيته، إذا أخرجها إلى المرعى وأطلقها فيه.

٦ ـــ وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الواقعة ٥٦):

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

أأنتم تَزْرَعُونَهُ؟: أي: أأنتم تُنْبتونَهُ؟.

حُطاماً: مُحَطَّماً متكسّراً.

تَفَكَّهُونَ: تندمون.

لَمُغْرَمُونَ: لَمُصابُونَ بالْغُرْم والخسارة بعد ظهور ثمرات زرعنا.

بل نَحْنُ مَحْرومونَ: أي: لا يساعدنا الحظ، فنحن محرومون من مساعدة الحظ.

المُزْن: جمع مُزْنَة، وهي السحابة الممطرة، والسحابة البيضاء.

أُجَاجاً: مالحاً مُرّاً.

تُورون: تشعلون.

تذكرة: ظاهِرَةً تتذكّرون بها نار الآخرة، فتكون لكم واعظة.

لِلْمُقْوِين: أي: للمسافرين الذين ينزلون في أسفارهم في الأرض الْقَوَاء، وهي الأرض الخالية، فيأوون إلى الشجر فيستمتعون بظلّها ونارها.

٧ ـــ وقال الله عزّ وجل في سورة (يس ٣٦):

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

٨ ــ وقال الله عزّ وجل في سورة (يس ٣٦) أيضاً:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

في هذه النصوص بيان وإشارات إلى حقائق كثيرة حول النبات، مع امتنان الله به على عباده، وأنّه من آثار رحمته بهم.

وكلّما توصّل الباحثون العلميّون بدراساتهم الإنسانيّة إلى حقيقة مهمّة من الحقائق التكوينية حول عالم النبات، وقد تعرّض القرآن إليها ببيان تصريحيّ أو إشاري، أو يستفاد بطريق اللوازم، وجدوا أنّ ما دلّ عليه القرآن يتفق مع ما توصّلوا إليه من حقائق مقطوع بها علمياً.

فمن استبصر ذلك وأنصف آمن باللَّهِ العليّ القدير، وآمن بأنّ القرآن تنزيل من لدنه، إنّه هو العزيز الحميد.

* * *

(٢)
المقـولــة الثـانيــة

النبات عالم عجيب، ولونٌ من ألوان إتقان الصنع غريب، وما تزال الدراسات العلمية الإنسانية تتابع بحوثها فيه، وتتقدّم بدراسته خطوات واسعات، وتكتشف من خصائصه ما لم يكن في ضمن مكتشفاتها من قبل.

والنباتُ بصفة عامّة يخضع منذ نشأته لنظام انفلاق بزوره ونمائها بقدرة ربِّ الفلَق، خالق الأشياء وفالقها، كما تخضع الكائنات الحيّة لهذا النظام نفسه، فينبت النبات خارجاً من عمق بزوره الصغيرة عند انفلاق غلافها الخارجي، بعد وضعها في ظروفٍ ملائمة، وتهيئة شروط خاصّة لها حتى تنفلق وتنبت، وتوافر شروط خاصة فيها، وقد ذكر علماء النبات من ذلك:

١ ــ حيويّة الأجنّة في البزور.

٢ ــ وجودها ضمن محيط ترابيّ رطبٍ بالماء.

٣ ــ وجودها ضمن حرارة خاصة مناسبة لانفلاق البزرة وخروج النبات منها، فكلّ بزرة تنفلق وتنبت في درجة حرارة خاصة.

٤ ــ وللهواء وظيفة مهمة بالنسبة إلى النباتات.

٥ ــ وللشمس باعثة الضياء والحرارة وظيفتها الكبرى في النبات، فهي أمّ الحياة على ظهر هذه الأرض، إذ المركّبات الكيميائية التي تبدأ الأوراق

الخضراء بصناعتها لا تستطيع ذلك دون أن تمتصّ الطاقة الضوئية التي تأتيها من أشعة الشمس.

فلولا الشمس لما كان للنبات تكاثر، ولولا النبات لما كان للحيوان وجود.

والمخطّط المدبّر الحكيم العظيم العليم المهيمن على السّماوات والأرض، هو الذي ربط خزائن الأرض بأسبابٍ من السماء، ليدلّ على أنه هو ربّ الأرض والسماء، وبيده ملكوتهما، وهو على كلّ شيءٍ قدير.

إنّ النبات شأنه كشأن سائر الكائنات ذات الحياة، يعيش، ويتغذّى، ويشرب، ويتنفّس، بل ويحسّ أيضاً نوع إحساس، ودرجة إحساسه واستجابته للمؤثرات الخارجيّة قويّة وسريعة.

وذكر الباحثون في عالم النبات، أنّ النبات يقلق ويهدأ، وتصيبه أعراض تشبه الحزن، وأعراض تشبه الانشراح والسعادة.

وقد أجريت تجارب على نباتات وضعت في مركبات فضاء، فأوضحت التسجيلات التي سجلتها لها أجهزة قياس خاصّة، أنّ صدمات شبه عصبيّة أصابت هذه النباتات، فبدا عليها الاضطراب والقلق، ولمّا انتهت الرحلة الفضائية، وعادت المركبات إلى الأرض، عادت النباتات فيها إلى الاستقرار والهدوء.

وأثبتت الدراسات الوصفية لعمليّات نبات البزور، أنّ البزرة حين تنبت في الوسط الصالح لنباتها، تنشق عن جُنَين صغير نامٍ، فيتفتّق منه جُذير صغير جدّاً، ويبدأ هذا الجذير يتغذّى من الغذاء المدّخر له في البزرة التي هي أمّه التي تحمله، حتّى يستطيل عوده ويصل إلى التراب الرطب، عندئذٍ يمتصّ من الطين غذاءه، ويتغلغل في اتجاهين:

- أحدهما إلى أسفل حيث غذاؤه في الماء والتراب.
- والآخر إلى أعلى، إذ يشقّ الأرض إلى الهواء والشمس، ليأخذ بقيّة شروط حياته ونمائه منها.

فمن أودع في هذه البزرة الصغيرة خصائصها، وأودع في الأرض وما حولها، وفي السماء، حاجات هذه الخصائص، وأحكم التنسيق والملاءمة بين البزور وبيئتها، حتى تخرج الأشجار الباسقات، وارفات الظلال، كثيرات الأحمال، أرجلها جذور منثورة أو مفروشة، وأياديها فروع في جوّ الأرض منشورة أو معروشة، وثمارها وأزهارها لذّة للآكلين وبهجة للناظرين، ومتعة وسرور لكلّ الوافدات والوافدين.

وتختلف جذور النباتات بحسب اختلاف حاجاتها إلى الغذاء:

- فمنها الجذور الوتديّة.
- ومنها الجذور الدّرَنية.
- ومنها الجذور اللّيفيّة.
- ومنها جذور هوائية.
- ومنها جذور تنفّسيّة.

وقد أودع الخالق في كلٍّ منها خصائصها، لتتلاءم مع إمكان حصول النبات على حاجته من الغذاء.

ويلاحظ أنّ النباتات التي لا يوجد لها جذور مناسبة من هذه الأنواع، تكون لها ممصّات للتغذية، تمتصّ عن طريقها أغذيتها التي بها تحقّق غاية نمائها، ووصولها إلى قمّة سلّمها المرسوم لها في خطة الوجود، والذي به تتحقّق الغاية العامة، وهي حاجة الكائنات الحيّة إلى الغذاء من النبات.

وتنمو جذور النبات المختلفة، وتنمو عليها الشعيرات الجذريّة، التي تمتصّ المحاليل الأرضية بتأثير ما يسمَّىٰ بالضغط الأسموزي، فتنتقل العصارات انتقالاً تصاعديّاً إلى أعلى الفروع وأبعد الأغصان المرتقية، ويتمّ الانتقال بعمليّات معقّدة جدّاً، يعجز عن تركيبها أيّ معمل كيميائي، مهما أوتي من أجهزة دقيقة وتجهيزات محكمة.

إنّ النباتات تتغذّىٰ وتنمو وهي تحتاج في بنائها ونمائها إلى مجموعة عناصر

أساسية، منها: الضوء، والماء، والكربون، والأكسجين، والأيدروجين، والآزوت، والفوسفور، والكبريت، والبوتاسيوم، والكالسيوم، والحديد، وغير ذلك.

وحين نلاحظ أنّ النباتات كلّها تتغذّى بهذه العناصر مهما اختلفت أنواعها، واختلفت إنتاجاتها في أشكالها وألوانها وطعومها، فلا بدّ أن يستولي علينا العجب، من بديع صنع الله الخالق العظيم، الذي أودع في البزور على صغرها خصائص كلّ نوعٍ من أنواع النباتات، وخصائص كلّ صنف من أصنافها، فهي لا تنتج إلاّ ضمن المخطّط الأساسي الذي رسم لها، وكلٌّ منها لا ينمو إلاّ ضمن حدوده وصفاته المودَعَة في أعماق ذرّاته المتناهية في الصغر.

وتَعْرَقُ النباتات فتَطْرَح بالتعرُّق زوائد الماء الذي تمتصّه من جذورها، فيتبخّر عن طريق أوراقها، وهو ما يُسمَّى عند علماء النبات بالنَّتْح، وهذا النَّتْح المتواصل يساعد على صعود العصارات اللازمة لنماء النبات، وهي العصارات التي تمتصها الجذور مع ما تمتصُّ من ماء وفير.

قالوا: وقد تنتَحُ الشجرة في اليوم الواحد قرابة خمسمائة لِتْرٍ من الماء، وتزداد هذه النسبة إذا ارتفعت درجة الحرارة، وجفّ الجوّ، أو اشتدّت قوّة الرّياح.

وبسبب عملية النتح هذه يكون جوّ البساتين والحدائق كثيرةِ الأشجار معتدلاً رطباً، بخلاف الأرض الخالية من النباتات، ويُعزَىٰ سقوط الأمطار في المناطق الاستوائية ذات الغابات الغزيرة بالأشجار الضخمة إلى ظاهرة النتح.

وعمليّة النَّتْح في الأشجار وسائر النباتات تساعد على تلطيف درجة حرارة الأنسجة الداخلية لها، وتساعد على انتظامها.

أمّا هذه العمليّة البديعة فتتمّ بوساطة ثغور موجودة في الأوراق، ومن لطائف إتقان صنعة الخالق العظيم: أنّ النباتات تختلف أعداد ثُغور النَّتْح في أوراقها، بحسب اختلاف بيئة كلٍّ منها، إذ لاحظ الباحثون من علماء النبات أنّ

عدد ثغور أوراق النباتات الصحراويّة أقلّ من عدد ثغور أوراق نباتات الحقول، مراعاة لقلة الماء في الصحارى، ووفرته في الحقول الزراعية.

قالوا: والجهاز الثغري يتكوّن من خليتين حارستين بينهما ثغرٌ، كأنهما شفتان، تنفتحان وتنغلقان، وتعتبر الخلايا الثغريّة هي الحرّاس التي تحرس الثغور، فتنظّم فتحها وإغلاقها تبعاً لحاجة النبات.

وحين يزداد تركيز السائل في الخلايا الحارسة تسحب الماء من الخلايا المجاورة وتمتلىء، حتى تأخذ شكلاً كرويّاً، وبذلك ينفتح الثغر، فتبخّر المياه.

وحينما لا يكون النبات بحاجة إلى هذا الطرح، فإنّ الخلايا الحارسة تكون متهدّلة الجوانب، متماسكة ببعضها، وبذلك يكون الثغر مقفلاً.

أفكان كل هذا الإتقان العجيب، والإحكام الغريب، نتيجة المصادفة في طبيعة لا عقل لها، ولا علم عندها، ولا غاية تنشدها؟!



(٣)
المقـولــة الثـالثـــة

وذكر علماء النبات عدة أمور عجيبة عنها تشهد بعظيم صنعة الخالق، وجليل حكمته، وروائع إتقانه، منها ما يلي:

● أنّ النباتات تتنفّس، وبتنفّسها تأخذ الأكسجين من الجوّ ليلاً، وتطرح ما يُسمَّىٰ بثاني أكسيد الكربون، مثلها في ذلك كمثل الكائنات الحيّة المتحركة بالإرادة، ويصحبُ تنفُّسَ النباتات ارتفاع في درجة الحرارة.

● وأنها في عملية التمثيل الضوئي تمتصّ من الجوّ ثاني أكسيد الكربون نهاراً، وتعطيه بدله الأكسجين، وبهذه العمليّة تخلّص الجوّ من ثاني أكسيد الكربون الناتج من تنفّس الكائنات الحيّة، فلا يتراكم في الجوّ بنسبة تضرّ هذه الكائنات، وتزوّده بالأكسجين الصالح لتنفّسها، وهذه العملية العجيبة التي تقوم بها النباتات تنظّم كميّات الأكسجين وثاني أكسيد الكربون في الهواء، حتى يحافظ على ملاءمته لحاجة الأحياء على سطح الأرض.

● وأنّ عملية تكوين الغذاء للكائنات الحيّة في النباتات من أصعب وأعجب العمليات التي تقوم بها الحياة، وأنه لا يمكن لأية تركيبات أو أجهزة أن تعمل ما تعمله ورقة خضراء في أيّ نبات.

وقد ذكروا أنّ الغذاء يتكوّن في النباتات بإحدى عمليتين:

العملية الأولى: ما يسمّونه بالتمثيل الضوئي، وهي تتمّ بدخول ثاني

أكسيد الكربون من الجوّ إلى النباتات، عن طريق الثغور التي تمتلىء بها أوراقها، وبعد ذلك يقابل هذا الغاز المادة الخضراء والماء ولكن عمليّة التمثيل هذه تحتاج إلى طاقة ضوئية، والوسيط الوحيد الذي يستطيع الحصول على الطاقة الضوئية من الشمس هو المادّة الخضراء، وتتمّ الطبخة الغذائية الربّانيّة بطريقة عجيبة، فتتحدّ العناصر البسيطة، وتوجد المادّة الغذائية للكائنات الحيّة.

العمليّة الثانية: ما يسمّونه بالتمثيل الكيميائي، وهي تكون في النباتات التي تنعدم فيها المادّة الخضراء، ويحدث ذلك في كثير من النباتات الدقيقة، لا سيّما «البكتريا» وهي نباتات مجهرية وحيدة الخليّة، ولا توجد فيها مادّة خضراء، وهذه يمكنها أن تؤكسد مركبات غير عضوية بوساطة الأكسجين الجويّ، وتنطلق نتيجة لعمليّة الأكسدة طاقةٌ تستعملها في تهيئة السكر، وإعداده من خاماته الأساسيّة.

فالورقة الخضراء معمل معقّد كيميائي مدهش، لصناعة غذاء الإنسان والكائنات الحيّة التي تتغذّى على النباتات، على الرُّغم من صغر حجمها، وعدم ملاحظة التعقيد في مظهرها، واستهانة الناظر العاديّ بشأنها، وبقيمتها.

إنّ ورقة النبات نوع من الآلات الدقيقة الصنع التي تعمل وهي مكشوفة في العراء، وفي مختلف الأحوال الطبيعيّة في الجوّ.

إنّها العضو النباتي الذي يؤدي وظيفتين حيويتين للنبات هما: التنفس، وصناعة الغذاء.

وقد أعدّت إعداداً ملائماً لاستقبال أشعة الشمس الساطعة الحارّة طوال ساعات النهار، وتحمّل وابل المطر الذي قد يتساقط عليها أيّاماً عديدة. وبهذا الإعداد العجيب استطاعت أن تتكيّف للظروف المختلفة بالكيفيّات الملائمة، فلا تسمح بالتبخّر الزائد على المطلوب حينما تشتد عليها وطأة الشمس، ولا تسمح للأمطار الزائدة بأن تنفذ إلى داخلها، فتفسد مصنوعاتها السكرية.

ومع أنّ الورقة الخضراء في النباتات بالغة الرقّة والتفلطح، إلّا أنّها في واقع حالها تركيب معقّد من الخلايا والأنسجة، يغلّفه جلد علوي، وجلد آخر

باعتبار أنها قادرة على تحويل الموادّ المعدنية أو المواد غير العضوية إلى مواد عضويّة، دون أن تلجأ في ذلك، إلى موادّ أخرى سبق تجهيزها بوساطة كائنات أخرى. ولا توجد مثل هذه القدرة في غير النباتات الخضراء.

أمّا الكائنات الحيّة الأخرى التي تعتمد على أعمال غيرها في تحويل عناصر التربة إلى موادّ عضوية، فيطلق عليها أنّها غير ذاتيّة التغذية.

● قالوا: والتركيب الكيميائي للمادّة الخضراء النباتيّة «الكلوروفيل» غاية في التعقيد، وتركيبه الجزيئي عملٌ كيميائي ضخم. والحبيبات الخضراء في النبات بمثابة الكريّات الحمر في الدمّ، وهي دوّارةٌ في الخليّة النباتية، وليست ثابتة في أماكنها. وعندما تشتدّ أشعّة الشمس تتقارب متزاحمةً حول جوانب الخليّة، وتدير أطرافها ناحية الضوء، لتمتصّ الطاقة منه، وحين تُحجَبُ الشمس بالغيوم تحاول الحبيبات الخضراء في الخليّة النباتيّة استقبال كلّ ما يمكنها استقباله من الضوء، فتستدير في اتجاه المتابع الضوئية الواردة من الشمس. وتستخدم الحبيبات الخضراء ما تمتصّه من ضوء الشمس طاقةً لصناعة الموادّ العضوية، وذلك بتحويل الموادّ غير العضوية إليها.

● وبمقارنة عمل الورقة النباتيّة الخضراء بالأعمال الصناعية الكيميائية، التي تقوم بها التكنولوجيا الحديثة، تبدو الصناعة البشرية المتقدّمة بالنسبة إلى ما تقوم به الورقة الخضراء شيئاً ضئيلاً يكاد يكون تافهاً.

وقد عرف البحث الإنسانيّ أن المادّة الأوّليّة العاملة في التحويل الكيميائي العجيب داخل الورقة النباتية، هي الحبيبات الخضراء «الكلوروفيل».

● ووصفوا العمليّة العجيبة بما يلي:

يدخل ثاني أكسيد الكربون من الهواء خلال مسامّ الورقة النباتيّة، ويدخل الماء من التربة خلال العروق، وتتقابل هاتان المادّتان في الخلايا المكتظّة داخل الورقة، وعندما تلتقط الحبيبات الخضراء دقيقة من دقائق الطاقة الشمسيّة التي يطلق عليها اسم «فوتون» تتحوّل إلى طاقة كيميائية، وتعمل في طبخ الموادّ غير العُضويّة وتحويلها إلى موادّ عضوية.

باعتبار أنها قادرة على تحويل الموادّ المعدنية أو المواد غير العضوية إلى مواد عضويّة، دون أن تلجأ في ذلك، إلى موادّ أخرى سبق تجهيزها بوساطة كائنات أخرى. ولا توجد مثل هذه القدرة في غير النباتات الخضراء.

أمّا الكائنات الحيّة الأخرى التي تعتمد على أعمال غيرها في تحويل عناصر التربة إلى موادّ عضوية، فيطلق عليها أنّها غير ذاتيّة التغذية.

● قالوا: والتركيب الكيميائي للمادّة الخضراء النباتيّة «الكلوروفيل» غاية في التعقيد، وتركيبه الجزيئي عملٌ كيميائي ضخم. والحبيبات الخضراء في النبات بمثابة الكريّات الحمر في الدمّ، وهي دوّارةٌ في الخليّة النباتية، وليست ثابتة في أماكنها. وعندما تشتدّ أشعّة الشمس تتقارب متزاحمةً حول جوانب الخليّة، وتدير أطرافها ناحية الضوء، لتمتصّ الطاقة منه، وحين تُحَجَبُ الشمس بالغيوم تحاول الحبيبات الخضراء في الخليّة النباتيّة استقبال كلّ ما يمكنها استقباله من الضوء، فتستدير في اتجاه المتابع الضوئية الواردة من الشمس. وتستخدم الحبيبات الخضراء ما تمتصّه من ضوء الشمس طاقةً لصناعة الموادّ العضوية، وذلك بتحويل الموادّ غير العضوية إليها.

● وبمقارنة عمل الورقة النباتيّة الخضراء بالأعمال الصناعية الكيميائية، التي تقوم بها التكنولوجيا الحديثة، تبدو الصناعة البشرية المتقدّمة بالنسبة إلى ما تقوم به الورقة الخضراء شيئاً ضئيلاً يكاد يكون تافهاً.

وقد عرف البحث الإنسانيّ أن المادّة الأوّليّة العاملة في التحويل الكيميائي العجيب داخل الورقة النباتية، هي الحبيبات الخضراء «الكلوروفيل».

● ووصفوا العمليّة العجيبة بما يلي:

يدخل ثاني أكسيد الكربون من الهواء خلال مسامّ الورقة النباتيّة، ويدخل الماء من التربة خلال العروق، وتتقابل هاتان المادّتان في الخلايا المكتظّة داخل الورقة، وعندما تلتقط الحبيبات الخضراء دقيقة من دقائق الطاقة الشمسيّة التي يطلق عليها اسم «فوتون» تتحوّل إلى طاقة كيميائية، وتعمل في طبخ الموادّ غير العُضويّة وتحويلها إلى موادّ عضوية.

ويستخدم «الكلوروفيل» هذه الطاقة بمساعدة أملاح الحديد في تفتيت جزيئات ثاني أكسيد الكربون والماء وإعادة ترتيب ذرّاتها، لتكوين السكّر والنشا، وسائر ما يُسمَّىٰ بالمواد «الكربو هدراتية» وينطلق الأكسجين الناتج من التفاعل في الجوّ، وهو مستمدّ من تحليل الماء إلى عناصره.

● وحينما يتوقف عمل الحبيبات الخضراء أثناء اللّيل بسبب توقف الإمداد الضوئي، تتحوّل جزيئات النشا مرّة ثانيَةً إلى سكّرات تذوب في الماء، وتمرّ خلال جدران الخلية إلى العروق الناقلة، أو أوعية الورقة، ثمّ تمرّ منها إلى جميع أجزاء النبات، وإذا كان النبات يختزن غذاءه في صورة مادّة النشا، كالقمح والشعير والذرة والبطاطا، فإنّ جزءاً من السكّرات يُعاد تَحوّله إلى «نشا ثانوي». أمّا الباقي فيظلّ مصدراً للكربون العضوي، إذ يمكن اتحاده مع العناصر المعدنية غير العضوية التي تمتصّها الجذور لتكوين البروتينات والدهون وغيرها.

● ونشاط المادّة الخضراء «الكلوروفيل» ذو أهميّة أساسيّة للحياة على الأرض، لأنه الوسيلة الوحيدة لترويض الطاقة، من أجل بناء المادّة الحيّة.

والنباتات هي الكائنات الوحيدة التي تتمكّن من القيام بهذه العملية.

● قالوا: ومساحة أوراق شجرة متوسطة يبلغ حوالي (٩٠٠) متر مربّع، وهي تصنع من نصف إلى كيلو غرام من النشا في الساعة الواحدة، أي: قرابة عشر كيلوات في نهار صيف طويل.

فما هذه المعامل النباتية الضخمة، التي هيأها الله لنا في الأرض، بإتقان عجيب، وعناية فائقة؟!.

إنّ القدرات الإنسانية المتقدّمة لتعجز عن محاكاة أعمالها الصناعية، بأكبر المعامل وأتقنها.

أفلا يدلّ ذلك على الخالق العليم الحكيم القدير، الرحيم بعباده الذي أحاطهم بعنايته ورعايته؟.

* * *

(٤)

المقولة الرابعة

وذكر علماء النبات من عجائب النباتات:

● أنّ في النباتات الصحراوية من عجائب إتقان الصنع ما يدهش، فلهذه النباتات صفات في أشكالها وتركيباتها وتحوّراتها، تمكّنها من مقاومة الجفاف والرّياح، والضوء الشديد، وارتفاع درجة الحرارة.

ولأوراق هذه النباتات الصحراويّة جُدُرٌ خارجيّة ثخينة، مغطّاة أحياناً بطبقة من الشمع تساعدها على تحمل الجفاف والحرّ.

إلى غير ذلك من صفات دقيقة تساعدها على قسوة البيئة التي هي فيها، وعلى شدّة أعراضها.

● وأنّ في عالم النبات نباتات توصف بأنّها آكلة الحيوانات، فإذا كان الحيوان يأكل النبات في معظم الأحيان، فليأكل بعض النبات الحيوان، إذا لم تساعده بيئته على أن تمدّه بالموادّ العضويّة.

فقد ذكروا أنّه توجد أنواع من النباتات تنمو في أرض فقيرة، تنقصها المواد العضوية، فكان التعويض عن ذلك لهذه النباتات بما يمكّنها من اصطياد الحشرات، لتأكلها وتمتصّ أجسادها، وكلُّ نوع من هذه النباتات قد زُوّد بخصائص تلائم بيئته وغذاءه على شكل مدهش يثير العجب.

ومن هذه النباتات نبات «الدّيونيا». والغريب العجيب فيه أنّ ورقته ذات

مصراعين يتحرّكان على العرق الأوسط، وكلٌّ واحد من هذين المصراعين مزوّد بأسنان شوكيّة على سطحه الأعلى، فإذا وقعت حشَرةٌ ما على النبات تنبّه المصراعان، فأقفلا على الحشرة فجأة إقفالاً آليّاً، وتغدو الحشرة بينهما سجينة فريسة صيّادٍ نباتي.

ثم يفرز هذا النبات عصارات خاصّة «أنزيمات» تهضم الحشرة الفريسة وتذيبها، ثم يمتّص النبات السائل المذاب.

وحين تنتهي العملية تنفتح الورقة على مصراعيها، وتعود سيرتها الأولى، لتستقبل فريسة جديدة.

ومن هذه النباتات نبات «النيسز». وقد ذكروا في وصفه أنّ أوراقه مخلوقة على شكل جرّة لها غطاء، وهذا الغطاء يكون مقفلاً حينما تكون الورقة صغيرة، وحينما يتمّ نماء الورقة ينفتح الغطاء فجأة، وتمتلىء الجرّة بسائل مائيّ حمضي، يُفْرز من الغدد الموجودة على السطح الداخلي للورقة، ومهمّة هذا السائل جذب الحشرات التي تقع على حافة الورقة وإزلاقها على سطحها الأملس مع شعيرات دقيقة تجذب الحشرة إلى قاع الجرّة، وحين تسقط الحشرة في السائل يقفل الغطاء لمنعها من الفرار، ثم يقوم النبات بإفراز العصارات الخاصة لهضم جسم الحشرة وامتصاص مذابها.

ومن هذه النباتات نبات «الدروسيرا». وقد ذكروا في وصفه أنّ أوراقه مغطّاة بزوائد كثيرة، تنتهي أطرافها بغدد تفرز مادّة لزجة حمضية، وحين تهبط حشرة على رأس هذه الزوائد تعلق بها، ومهما حاولت الفرار زاد اشتباكها بزوائد أخرى، حتى تتجمّع أسلحة هذه الزوائد عليها، وتحصرها حصراً تامّاً، وعندئذٍ يفرز النبات الموادّ الهاضمة التي تذيب جسم الحشرة، وبعد امتصاصها ترجع هذه الزوائد إلى اعتدالها السابق، وتعود الورقة إلى شكلها العادي.

وهكذا توجد أصناف أخرى من النباتات آكلة الحيوانات، ولكلٍّ منها صفات خاصة، وطريقة خاصة في اصطياد الحشرات وافتراسها.

● وأنّ من بديع إتقان الصنعة في عالم النبات، ما زُوّد به النبات من قدرة على حفظ النوع، عن طريق البزور التي ينتجها.

فبزور النبتات الصحراوية التي تحملها الرياح صغيرة وملساء، وقد تنمو عليها شُعيرات لتخفف وزنها، أو تنمو عليها زوائد كالأجنحة.

ولبزور النباتات المائية زوائد تساعدها على الطفو في الماء، وجُذُرٌ سميكة تحفظها من التعفّن.

وتوجد أنواع من البزور ذات لـون جذّاب، أو مـذاق حلو، لتغري الحيوانات بها، فتنقلها، ثم تنثرها في أماكن أخرى، أو ذات زوائد تعلق بما يمرّ عليها، لينقلها إلى أمكنة أخرى.

إلى غير ذلك من حيل عجيبة.

* * *

(٥)
المقولة الخامسة

ويحدّثنا علماء النبات عن الإحساس عند النباتات، أو ما لها من ردود أفعالٍ آلية تشبه الإحساس المقترن بالإدراك لدى الكائنات الحيّة المدركة.

قالوا: إنّ النبات يميل في اتجاه الضوء، وهو ما يسمّونه بالانتحاء الضوئي، وذلك لأنّه يحسّ بالضوء، فينتحي إلى جهته، أو تستدير أوراقه نحو مصدره، وذلك لأنّ جميع النباتات تحتوي على مادّةٍ كيميائيّة تسمّى «الأوكسين» ولهذه المادّة قدرة على إحداث استطالة في خلايا النبات، وحين تتعرّض هذه المادّة للضوء يُصيبها التلف، أو يضعف نشاطها، وبسبب ذلك يقلّ نشاط خلايا الجانب الذي يواجه الضوء في الساق، فيقلّ نموّ هذا الجانب، ويستمرّ الجانب الآخر في نموّه الطبيعي، فيحدث هذا الانعطاف في النبات نحو الشمس.

● ويلاحظ في أوراق بعض النباتات كالخسّ والبرسيم وغيرهما، أنّها تختلف أوضاعها بين اللّيل والنهار، وذلك يرجع إلى إحساسها بتغيّرات الضوء، واستجابتها لذلك بالحركة، ففي النهار قد تستوفز إلى الأعلى، بينما ترتخي في اللّيل إلى الأسفل، أو تغمض كالنّائمة.

وآليّة التوفُّز والارتخاء ترجع إلى أنّه توجد عند نقطة اتصال الأوراق بالساق أسطوانة من خلايا ممتلئة بعصارةٍ خاصة، يطلقون عليها اسم «سَبّ». وتكون هذه الخلايا عند امتداد الضوء ممتلئة بهذه العصارة، وبسبب هذا الامتلاء تحمِل

أوراق النبات قائمةً إلى أعلى، أمّا في الظلام فإنّ نسبة هذه العصارة تقلّ، فترتخي هذه الخلايا، فلا تقوى على حمْلِ ثقل الأوراق.

● وتستجيب أجزاء النبات المختلفة للجاذبيّة الأرضيّة، فالنباتات لا تنمو على شكل زاوية قائمة مع سطح الأرض المائل، كالتي تنمو على الجبال والمنحدرات، وإنّما تنمو نموّاً راسيّاً إلى الأعلى، كأنّ سطح الأرض الذي تنبت فيه مستوٍ لا انحدار فيه، فالنبات يعادل جسمه مع الجاذبيّة الأرضية لا مع السطح المائل الذي يقف عليه.

ولو أنّ النبات كان بوضعه الطبيعي في أحواض صغيرة تنقل، فأملنا حوضه يَمنةً أو يَسْرة، لأخذ يلتفّ ساقه حتى يكون نموّه رأسيّاً.

وقد ذكروا في آلية هذه الحركة: أنّ العصارة في بعض خلايا ساق النبات تحتوي على حبيبات نشويّة لا حصر لها، وهذه تستقر على الجدار السفلي للخليّة، ويطلق على هذه الحبيبات اسم «حصى التوازن» وهي تحفز نشاط «الأوكسين» في الجزء السفلي من الخلايا، حتى تستطيل الخلايا في جوانبها المواجهة لمركز الأرض، وهذا يجعل النبات يتخذ وضعاً رأسيّاً.

فكأنّ هذه الحبيبات المسمّاة بحصَىٰ التوازن ثقّالات متحركة داخل إناء دوّار، فهي تتجمّع متوازنةً باتجاه الجاذبيّة الأرضيّة، وتضبط عمل ما ينشط بتحفيزها باتجاهٍ رأسيٍّ معاكس للجاذبيّة.

وكثير من الحيوانات لها أعضاء تعمل بهذه الطريقة نفسها، إلاّ أن استجابة الحيوان أسرع من استجابة النبات للتوازن.

● وتُحسّ جذور النباتات بمواطن الماء والسماد، فتتّجه شطرها، فإذا كانت في جهة معاكسةٍ لاتجاهها الطبيعي، أخذت تنتحي وتدور صوب ذلك الاتجاه، حتى تأخذ مطالبها الكيميائية والحيويّة منه.

● وكثير من النباتات تُحسّ باللّمس، فتستجيب لذلك استجابات

مختلفات وفق مصالحها، ويتحقّق ذلك بآليّاتٍ معقّدات، ونشاطات مختلفات، شبيهة بما ذكر في استجابة النبات للضوء.

ومن ذلك إحساس النباتات آكلة الحشرات بالحشرات التي تلمسها.

● وتستجيب بعض النباتات لتعاقب الليل والنهار في أوقات مستذكرة لديها، فإذا اختلفت هذه الأوقات بأن أدخلت في ظلمة وسط النهار، ظهر لديها استجابة مضطربة، كأنّ الأمر قد اختلط عليها في تذكّر الليل والنهار.

● وتستجيب بعض النباتات للحرارة، وإن كانت الحرارة طفيفة خفيفة، كشقائق النعمان، والزعفران.

● ولبض النباتات استجابة للموسيقى وللأصوات، ولبعضها استجابة للألوان، فتنشط خلاياها فتنمو.

ولكلّ ذلك آليات معقّدةٌ جدّاً، تدلّ على أنّ متقناً حكيماً عليماً قد أحاط بكلّ شيءٍ حكمة وعلماً، وهو الذي أبدع في كونه كلّ هذه المتقنات، فسبحانه من ربّ خالق مهيمن.



(٦)
المقولة السادسة

ويحدّثنا علماء النبات عن التربة الخصيبة التي تعلو سطوح الأراضي الصالحة للزراعة فيقولون:

● إنّ هذه التربة التي لا يزيد عمقها على ثلاثين سنتيمتر، هي بمثابة معمل ضخم دقيق معقّد للكيمياء، قائم على حسابات شديدة التعقيد، وتتمّ في هذا المعمل الكيميائي المعقد تغييرات كيميائية كثيرة جدّاً، ومعقّدة جدّاً، وذات أهميّة بالغة، حتى تكون التربة صالحة للإنبات، وصالحة لإمداد النباتات بما تحتاج إليه من أغذية.

● وعمّال هذا المعمل الكيميائي الضخم أعدادٌ هائلة لا حصر لها من الكائنات الحيّة الدنيا، كالديدان، والحشرات، والبكتيريا، والفطريات.

ومن موادّ هذا المعمل الماء، والهواء، وبعض الغازات الأخرى، وجذور النباتات.

ويعمل عمّال هذا المعمل بحركة دائبة، وجدّ لا يفتر، مع صمت تامّ، لتهيئة هذا السطح الترابي حتى يكون صالحاً للإنبات، وحتًى يمكّن الإنسان على الأرض من العيش الرغد.

● فإذا تجاوزنا هذا السطح الترابي الذي يقلّ عن نصف ذراع، رأينا تربة غير صالحة للزراعة حاليّاً، حتى يقوم فيها معمل الحياة، وتنشط فيه العمّال

من الكائنات الحيّة، فخصوبة الأرض تنجم عن أعداد وفيرة من الكائنات الحيّة الحيوانيّة، والكائنات النباتية.

● والتربة الدقيقة التي نشاهدها في الحقول، إنّما هي مستعمرات من بلايين الكائنات العضوية المجهريّة التي هي على غرار وحيدة الخلية، والطحالب، والفطريات، ولا سيّما البكتيريا.

وهذه الأنواع الدنيا من صور الحياة هي التي تجعل التربة كأنّما هي معمل للكيمياء، يستمرّ فيه العمل بنشاط عظيم، ونظامٍ محكم، خدمة لظاهرة الحياة على الأرض، وفي قمتها الإنسان المقصود بأوفر قسط من العناية.

● وإن بكتيريا الحديد تمتصّ الحديد من التربة، وبعد إتمام عملية التمثيل الغذائي يترسّبُ على جدار الخليّة الخارجي، وعندئذٍ تتمكّن النباتات من امتصاصه.

إنّها عملية كيميائية معقدة، تقوم بها هذه البكتيريا، لخدمة ما فوقها في سلّم الحياة.

● وتقوم بكتيريا خاصة بإحراق الكربون العضوي، وذلك بأن تجعله يتّحد مع أكسجين الهواء الذي ينساب خلال التربة، فيتكوّن بذلك حامض الكربونيك «ثاني أكسيد الكربون» مع انطلاق مقدارٍ ما من الحرارة.

● وتقوم بكتيريا الآزوت بتحويل آزوت الهواء إلى مركّبات آزوت عضوية، يُمكن أن تخضع للتمثيل الغذائي لحياة النبات، وذلك إذْ تُتلِف هذه البكتيريا المادة العضويّة الموجودة في الأرض، وهي بقايا حيوانات وموادّ نباتية، وتحوّلها إلى فضلات عضوية، عندئذٍ تأتي بكتيريا أخرى فتبدأ عملها على الآزوت الموجود بالفضلات العضويّة، وتستخلص النوشادر الذي يحتوي على الآزوت اللاّزم لعدد وفير من النباتات، وتقدّمه بالوضع المناسب لامتصاص النبات له.

● وبعض النباتات لا تستطيع امتصاص النوشادر وهو بهذا الوضع، لذلك فإنّ نوعاً آخر من البكتيريا تقوم بتحويل النوشادر إلى نيتريت، ثم يأتي

نوع آخر من البكتيريا، فتقوم هذه البكتيريا بتحويل النيتريت إلى آزوتات، أو نترات يمتصّها النبات عن طريق جذوره، ويحوّلها إلى بروتين.

● وتدور الدورة، وتختلط بتراب الأرض النباتاتُ الميتةُ، وتتعفّن وتتحلّل، وتأتي بكتيريا خاصة فتقوم بنشاط تطلق فيه بعض الآزوت الموجود في النباتات الميّتة، ليعود إلى الجوّ تعويضاً عمّا كان قد خسره من قبل.

وتأتي بكتيريا أخرى، فتمتصّ الآزوت الباقي، لتُهيّئه لامتصاص نباتات هي في دورة الحياة، وتبدأ الدورة من جديد.

● وتقوم الديدان بعمل عظيم جدّاً في التراب، فهي بمثابة مطاحن، تقدّم الرغام الدقيق الذي يصلح للإنبات، إذْ هي تلتهم التراب وتطحنه داخل أجسامها، وتأخذ منه ما يلائم غذاءها، وتطرح الفضلات على سطح الأرض، بعد أن تكون قد حوّلتها إلى رغام دقيق.

ما أعجب هذه المطاحن التي تعمل بجدٍّ كبير مذهل لخدمة الحياة، فتطحن لها التراب، وتعملُ فيه ليكون غنيّاً بما يمدُّ بالخير.

● وتقوم الديدان وغيرها من الكائنات الحيّة الأرضيّة بحفر الأنفاق في الأرض، ليتخلّل الماء والهواء عن طريقها داخل التربة.

● وتموت الكائنات الحيّة فتدفن في الأرض، فتتغذّىٰ البكتيريا على أجسادها، ثم تنتج هذه البكتيريا الأمونيا التي تساعد على ثراء التربة، ومدّها بالخصوبة.

● وتحوّل البكتيريا فوسفات الكاليسيوم إلى وضع كيميائي صالح ليتمثّله النبات ضمن غذائه.

فهل كلّ هذا التنظيم المترابط لخدمة الحياة، بعمّال من الحياة نفسها، وفي نظامٍ دوريٍّ عجيب قد كان على سبيل المصادفة العمياء؟!.

● وقد لفت الدكتور «لورنس كولتون ووكر» أستاذ علم الغابات الأنظارَ

إلى ما في الغابات من سجلٍّ حافلٍ يدفع إلى الإيمان بالله، باعتباره متخصصاً في بحوث الغابات، ومهتمّاً بدراسة علم البيئة، وفسيولوجيا النباتات، فقد جاء في مقال له بعنوان «حقائق من سجلّ الغابات»[1] ما خلاصته:

«١ ــ ذكر قولاً قاله: «كارل هايم» جاء فيه:

إنّ عجائب الكون لا تسمح بالإيمان فحسب، بل تدعو الناس إلى هذا الإيمان. وإنّ الاستدلال بالكون على وجود الله قد عاد إلى الظهور من جديد في عصر النهضة والتفكير العقلي، بسبب انهيار النظريّة الآلية في تفسير الكون، بعد أن كادت هذه النظرية تقضي على هذا النوع من الاستدلال.

٢ ــ يحاول الإنسان التدخّل في تراتيب نظام الحياة، فيقع في أخطاء كثيرة، ينتج عنها خسارات عظيمة.

٣ ــ أغرت سهولة طبيعة الأرض فوق سهول «أديروندداك» سكّان تلك المناطق باقتلاع أشجار الغابات التي كانت عليها، منها أشجار الصنوبر، والشوكران، للاستفادة من زراعة أرض هذه الغابات.

ونظراً إلى أن أشجار الغابات كانت تعوّض نقص هذه الأرض الطبيعي من عنصر البوتاسيوم، فإن الزراعة العنيفة قد استنفدت عناصر التربة، وأضعفت خصوبتها إلى حدٍّ كبير، الأمر الذي دفع إلى إعادة زراعتها بأشجار الغابات من جديد.

وتجلّت معونة الله بنظامه البديع في معاونة الإنسان على إصلاح الأخطاء التي كان هو سبباً في حدوثها.

٤ ــ لقد هيّأ الله بفضله الطريقة التي تعيننا على تحديد الأماكن التي تصلح لزراعة بعض الأشجار، من دراسة ما يظهر فيها من بعض النباتات وتحليله تحليلاً كيميائيّاً.

---

(١) من كتاب «الله يتجلّى في عصر العلم».

فالصنوبر الأبيض مثلاً تظهر عليه دلائل نقص البوتاسيوم عندما تنخفض نسبة البوتاسيوم في أوراقه الإِبْريّة عن نصف في المئة. ويمكن الاستدلال بنسبة البوتاسيوم الموجودة في هذه الأوراق، على نسبة البوتاسيوم الموجود في التربة، والذي هو قابل للامتصاص.

٥ ــ وأثبتت الملاحظة أنّ لأشجار القان قدرة كبيرة على تجديد خصوبة التربة التي تكون عناصرها قد استنزفت بسبب الإِجهاد المترتب على طول فترات زراعتها.

٦ ــ ومن الظواهر العجيبة الأخرى: أنّ شجر السّدر الأحمر يستطيع بمصاحبة خرطون الأرض «وهو نوع من الدود» أن يزيد من عنصر الكالسيوم في التربة.

فأوراق السّدر الأحمر تتساقط على قاع الغابة، وعندئذٍ تنجذب ديدان الأرض إليها بسبب ارتفاع نسبة الكالسيوم فيها، وسرعان ما تلْتهم الديدان هذه الأوراق وتهضمها، وبذلك تطلق في التربة عنصر الكالسيوم في صورةٍ يسهل على النبات امتصاصه بها.

والسّدر الأحمر يفيد أيضاً في تحسين جميع الخواصّ الطبيعيّة للتربة، مثل مساميّتها، وسرعة رشح الماء خلالها، وقدرتها على الاحتفاظ بنسبة الماء المطلوب فيها.

ولجميع هذه الصفات علاقة كبيرة بالاستفادة من مياه الفيضانات والسيطرة عليها.

٧ ــ يؤدي تدخّل الإنسان في أمر بعض الغابات الطبيعية باقتلاع أشجارها وزراعتها واستنزاف خصوبتها إلى نقص صلاحيتها لنموّ الأشجار.

وعندئذٍ نكون قد خسرنا الأشجار والتربة، ويعقب ذلك حدوث الفيضانات.

٨ ــ إنّ الإنسان يبذل أموالاً طائلة لكي يقلّل من أخطار الفيضانات،

بإقامة مشروعات السدود الضخمة، ولكن إقامة هذه السدود ليست إلّا حلاًّ مؤقتاً ضدّ قوّةٍ جبّارة، لا تستطيع أن تصدّها حواجز من الصخـر أو البناء المسلّح، ولا بدّ أن يقوم العلاج الحقيقي لمشكلة الفيضانات على مهاجمتها في مصدرها، ولا يتمّ ذلك إلّا بإعادة الأشجار والنباتات إلى الأرض، وهو أمر تقوم به الطبيعة من نفسها. . . .

٩ ــ ونقل عن «جوث» قوله:

«إنّ الطبيعة لا تعرف الإسراف، إنّها دائماً صادقة، وعظيمة وعنيفة. إنّها دائماً صائبة. أمّا الخطأ فإنه لا يحدث إلّا من جانبنا. إنّ الطبيعة تحارب العجز، ولا تكشف أسرارها إلّا للقادرين المخلصين الأتقياء».

ونقل عن «إسحاق واطسن» قوله:

«إنّ الطبيعة تحمل كتابها المفتوح. . وتسبّح بحمد الله وجلاله».

ونقل عن الفيلسوف «بول» قوله:

«إنّ قدرة الله تتجلّىٰ في كلّ شيء، وكلّ شيء يقوم بقدرته».

* * *

(٧)
المقولة السابعة

لفت القرآن أنظارنا إلى ظاهرة من ظواهر الخلق الربّانيّ في النبات، وهي ظاهرة اختلاف النباتات واختلاف ثمراتها في أشكالها وألوانها وطعومها، واختلاف خصائصها ومنافعها للناس، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الرعد ١٣):

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

صِنْوان: مثنًىٰ وجَمْعُ «صِنْو» وهي النخلة التي تخرج مع غيرها من أصل واحد، فكل واحدة من اثنتين أو أكثر «صنو» والمثنى والجمع «صِنْوان».

هذه الظاهرة يدركها الإنسان البدائي الأميُّ الفطري، فتدلّه على أنها فعل خالق مدبّر مختار، ويدركها العالم الباحث المتفكر، فتدلّه على أنّها أثر لتصميم وإبداع، وفعل حكيم مختار، وهي صفات خالق عليم قدير يفعل ما يشاء ويختار.

فالأرض المزروعة بمختلف الأصناف قطع متجاورات، والماء الذي تسقىٰ به ماءٌ واحد، ومع ذلك فإن النباتات تخرج مختلفة الأصناف. فما هو السّر في ذلك؟

يأتي البحث العلمي فيهدي علماء النبات ليقولوا لنا:

إنّ ذلك يرجع إلى مخطّطات مرسومة في نَوَيَات بزور النباتات، والنباتات تنبُت وفق هديها، وتأخذ حاجاتها من التراب والماء وفق مخططاتها المعدّة إعداداً تامّاً، فهي لا تحيد عن هدي هذه المخططات.

والنباتات في هذا تشبه الحيوانات، إذ الحيوانات تنمو أيضاً وفق المخطّطات المرسومة المعدّة إعداداً تامّاً ضمن نواةِ خليّتها الأولى، وكلّ هذه المخطّطات مرسومة بالتفصيل الكامل في النواة التي لا يدركها الطرف، داخل غرفة الخليّة التي قد لا يدركها الطرف أيضاً.

ويدرك العالم المنصف هذه الحقائق فيعلن أنّ هذا الإعداد المتقن العجيب يستحيل في العقل أن يكون نتيجة مصادفة، وإنّما هو تدبير قادر عليم حكيم خبير، لطيف لما يشاء ويختار.

وقد خصّ الله عزّ وجلّ بعض النباتات والأشجار بالذكر، ممتّناً بها على عباده، مع أنّ أصناف النباتات تُعدُّ بالملايين:

- فذكر سبحانه من النباتات الخضِر التي يُخْرِج منها حبّاً متراكباً.
- وذكر من الأشجار الزيتون، والنخيل، والأعناب، والرُّمّان.
- وعمّم فذكر الزرع والجنّات والحدائق ذات الأشجار الكثيرة.

ويعجبني في تعليل التخصيص بالذكر لما خصّصه به ما ذكره بعض الباحثين المتفكرين، من أنّ في تخصيصها بالذكر إشارةً إلى وجود القصد والعناية في الخلق.

إذْ أن الأغذية التي يحتاج الناس إليها تتألف من الموادّ النشويّة، والسكّريّة الكربونية، والموادّ الدّهنيّة، والمواد البروتينيّة.

أمّا النشويّات فنستخرجها من الحبوب على اختلافها، وقد ذكرها القرآن تحت عنوان الحبّ.

وأمّا السكّريّات الكربونية، فنستخرجها من الثمار الحلوة، وأهمُّها الأعناب والنخيل والرُّمَّان.

وأمّا المواد الدهنية فأنفع مصادرها الزيوت النباتية، وأفضلها الزيتون.

وأمّا البروتينات فنأخذها من الحيوانات المأكولة، وقد امتنّ الله علينا في القرآن بالأنعام، وامتنّ علينا بالصيد.

فكان بذلك التنبيه على أهمّ أنواع وأصناف الغذاء للناس.

* * *

وفي تخصيص شجرة الزيتون بأنّها شجرة تنبت بالدّهن وصبغٍ للآكلين، وبأنها شجرة مباركة، تنبيه على ما في هذه الشجرة من فوائد جليلة.

فهي شجرة دائمة الخضرة، كثيرة النضرة، دائمة الظلال، كثيرة الأحمال، مباركة الأغصان، متينة البنيان، راسخة الأركان، طويلة العمر، تنبت في السهل والوعر، سندسيّة الورق، جميلة الحدق.

في وسط من الأرض مواطنها، وفي مهد الحضارات والديانات مساكنها، ولها في جبال النور مستقرٌّ وثبات، ولها في طور سيناء مخرجٌ ونبات.

إنّها شجرة كلُّها منافع، فيها قوتٌ مستطاب يدّخر، وفيها زيت نافع من ثمرها يعتصر، نأكل منه، وندّهن به، ونصنع منه مختلف الصناعات، ونستعمله في شتّىٰ الغايات.

إذا نبتت في أرض لا شرقية ولا غربية أعطت زيتاً يَكادُ يضيء من صفائه، ويتلألأ من نقائه. مددٌ للمصابيح الدّرّيّة، في عصور الحضارات الغوابر.

شجرة تُمدّ بالنار ولو كانت خضراء نديّة، ليّنةً طرية.

فهي نور ونار، وقوتٌ للادخار، ودهنٌ هو غذاء ودواء، وزينة ورواء.

فلا شيء فيها إلاّ هو مبارك نافع.

أفكان هذا الإبداع الرائع، والإتقان البارع من نتاج المصادفة العمياء؟!
أم هو خلق خالق حكيم عليم قدير؟

تعالى وتبارك وتقدّست أسماؤه وصفاته.

* * *

وأبان القرآن العظيم لنا أنّ النار التي نوريها في الأرض هي عطاء النبات، فهي الطاقة المختزنة في شجرته، على اختلاف أطوارها، وما تتعرّض له من تغييرات[1].

هذه النار التي خلقها الله لنا من الشجر، فيها نفع عظيم، وفيها خطر جسيم، فنحن منها ما بين خوف وطمع، بين رَغبة ورهبة، بين جرأة لاستخدامها وحذر منها.

إنّها قوة معمّرة وقوة مدمّرة، وذلك يتوقف على ذكاء الإنسان في حسن تصريفها والانتفاع منها، أو غبائه في إطلاق قوتها من مكمنها دون ضوابط تحدّ من اندلاعها والتهامها الأخضر واليابس.

إنّ الفاطر العليم الحكيم لم يجعل هذه القوّة الهائلة في الوجود مادّة جاهزة في الأرض، لأنها لو كانت كذلك لأهلكت وأحرقت ودمّرت كلّ شيء، ولجعلت الأرض خالية من كلّ أثر للحياة. لكنّه عزّ وجل جعلها كمينة تتفجّر أحياناً بمقدار ليستدلّ عليها الإنسان.

وتكمن النار في الشجر الأخضر الذي يستمد طاقته من الشمس، وفيما يتحوّل إليه الشجر الأخضر من حيوان، وأدهان، وما يحمل من زيوت نباتية، وما ينتجه من مادة الأكسجين الذي لا مصدر له في الأرض إلّا النبات الأخضر، ثم ما يكون من وراء ذلك بالتحولات إلى موادّ نفطيّة، تتسرّب إلى مخازن حصينة في باطن الأرض.

إنّ هذه النار وما رافقها من موازين ضبط في دنيا الناس عجب من

---

(١) راجع الآيات من سورتي (الواقعة) و (يس).

العجب، يدلُّ على حكمة الصانع العليم القدير، وعنايته بخلقه، ورحمته بعباده، إذ جعلها بوضع يستطيع الإنسان فيه أن يسخّرها في مصالحه ومنافعه، ويستخدم ما فيها من طاقة هائلة في أعمال عظيمة جدّاً، فيحرّك بها آليّاته الضخمة من مصانع ومراكب وغير ذلك، حتّى عبَر بوساطتها الفضاء، وجال في أرجاء السماء الدنيا، وهبط على سطح القمر، فانطلق بها فوق ذلك.

ونسأل علماء طبيعة الكون عن النار فيقولون:

إنّ النار ظاهرة تبدو من ارتفاع درجة حرارة المادّة القابلة للاحتراق. والحرارة نوع من الحركة مرتفع في المادّة، إذ تتفاعل المادّة مع الأكسجين تفاعلاً كيميائيّاً فينتج من ذلك اللّهب. وأهمّ الموادّ التي تتّحد بغاز الأكسجين مادة الكربون، وهي موجودة بكثرة في النباتات، وفيما تعيش عليه النباتات من حيوانات، وفيما يتحوّل إليه كلٌّ منهما من زيت ونفط وفحم. والذي يُهيّىء هذا الاتحاد هو ارتفاع درجة حرارة المادة التي تتحد بغاز الأكسجين في الهواء، أو في الأنابيب التي يحضّر فيها، إذ ينطلق منها لدى ارتفاع درجة حرارتها الغاز الذي يتّحِدُ بالأكسجين. وعندئذ يلتهب العنصران، وتحدث النار المحرقة الخطيرة، وترتفع درجات الحرارة التي هي زيادة حركة في أجزاء المادّة.

إنه نظام عجيب، وإحكام في الصنعة مدهش وغريب، فتبارك الله الخالق الذي أتقن كلّ شيءٍ صنعاً.

* * *

(٨)
المقـولــة الثـامنـــة

أوضح الدكتور «وولتر إدوارد لاميرتس» وهو متخصّص في علم الوراثة وتربية بعض النباتات، بعض نظراته التي هدته إلى الإيمان بالله، في مجال اختصاصه، وذلك فيما كتبه بعنوان: «ما وعاه ابن صاحب البستان»[١] إذ جاء فيه ما خلاصته:

١ ـ كثيراً ما لفت نظرهُ ما يحدث لأشجار الفواكه المختلفة، من تكيُّـف جزئي، لتلائم الجوّ عندما تنخفض درجة حرارة الهواء، إلى عشرين درجة تحت الصفر، فتبدو هذه الأشجار هامدة مجرّدة من الحياة طوال فصل الشتاء، حتى إذا جاءها الربيع اهتزت وربت وأخرجت من الأزهار والثمار ما يأخذ جماله بالألباب.

٢ ـ نظر إلى الأشجار التي لم يتمّ بعدُ تلاؤمُها مع البيئة التي وجدت فيها، وهي غير بيئتها الأصلية، فرأىٰ أنّ محصولها يتعرّض لخسارة كبيرة بسبب موجات الصقيع التي تداهمها بعد ظهور براعم ثمارها، أو تفتّح أزهارها. ثم قال:

وكثيراً ما كنت أسائل نفسي: كيف يرضىٰ العدل الربّانيّ بهذه الخسارة الفادحة في محصولنا؟!

ولكنني أدركت الجواب بعد قليل، فليس الخطأ من جانب الله سبحانه،

---

(١) المصدر السابق.

وإنّما الخطأ من أنفسنا، وذلك لأنّنا نحاول أن نزرع في بلادنا أنواعاً من النّباتات غير متلائمة مع الظروف الجوّيّة عندنا.

٣ ــ نظر إلى ظاهرة التكيّف في النباتات والحيوانات، حتى تتلاءم مع بيئات غير بيئاتها الأصلية، فقال:

ومن ذلك نرىٰ أنّ جميع النباتات والحيوانات لم تخلق لكي تعيش في بيئة ثابتة محدّدة الأوصاف، بل إنّ لديها من الاستعدادات ما يجعلها قادرة على مسايرة الأجواء والظروف الأخرى في حالة الضرورة والاضطرار.

وتُعنىٰ دراسة الوراثة بمعرفة مدى استعداد الحيوانات والنباتات المختلفة لهذه الملاءمَة.

٤ ــ نظر إلى ظاهرة التوافق العجيب بين الأزهار والحشرات التي تقوم بتلقيحها. فتساءل: كيف تمّ ذلك؟!. ثم قال:

وهيأت لي قراءة ذلك الكتاب الرائع الذي ألّفه «هنري فابر» عن عجائب الغرائز في الحشرات وحياتها الاجتماعية المعقدة، دليلاً على ما يسود هذا الكون من نظام محكم، وتدبير عظيم.

أمّا عوامل الفساد في الأرض التي ينتج عنها نقص في المزروعات والمحاصيل، فقد توصّل أخيراً إلى أنّها عقوبات إلٰهيّة بسبب معاصي الناس، وعدم استقامتهم على طريق الخير.

وهو المعنى الذي اشتمل عليه قول الله عزّ وجلّ في سورة (الروم ٣٠):
﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

٥ ــ بحث في فكرة التطوّر المادّي المعروفة بـ «الداروينية» وأبان ما عاناه من الصراع العقلي في صددها، ثم قال:

وقد اتّضح لي كثير من الحقائق، فعلم الوراثة مثلاً لم يقدّم لنا دليلاً على صحة الفرضَيْن الأساسيّين اللّذين أقام عليهما «تشارلز داروين» فكرته في نشأة الأنواع، وهما:

(أ) أن العضويات الصغيرة في كلّ جيل من الأجيال تنزع دائماً إلى أن تختلف اختلافات طفيفة عن آبائها في جميع الاتجاهات الممكنة.

(ب) أنّ التغيُّرات المفيدة تورثُ في الأجيال التالية، وتتراكم نتائجها، حتى ينتج عنها تغيّرات جسيمة.

ثم وجّه الانتقادات العلميّة إلى فكرة التطوّر المادّي، منها الانتقادات التالية:

● إنّ اعتماد فكرة التطوّر المادّي على ظاهرة الطفرات اعتمادٌ لا يمكن أن يعطي بحسب الواقع هذا الاختلاف في الأنواع المشاهدة في الكون، فلا يمكن أن تكون الطفرات في الحقيقة وسيلة للتطوّر.

● وتدلّ الدراسة الطويلة المتصلة لظاهرة الطفرات على أنّ الغالبيّة العظمى منها هي من النوع المميت.

أمّا غير المميت منها فالتغييرات المصاحبة لها هي من النوع الذي يؤدّي إلى التشويه، أو إلى التعادل.

● وعلى فرض تسليم حدوث طفرات تؤدّي إلى تحسين بعض الصفات، فكم تحتاج مثل هذه الطفرات من الأجيال لكي تتراكم هذه الصفات الحسنة، ويظهر أثرها، وينتج عنها نوع جديد؟.

لقد أوضح «باتو» في كتابه «التحليل الرياضي لنظرية التطوّر» أنّ تعميم صفة من الصفات عن طريق الطفرة في سلالة من السلالات، لا يمكن أن يستغرق أقل من مليون جيل من الأجيال المتتابعة.

٦ ـ ثم انتهىٰ إلى أن فكرة التطوّر المادّي لا تستطيع أن تفسّر لنا تلك الاختلافات العديدة التي نشاهدها في عالم الأحياء.

إنّها جميعاً تشير إلى وجود خالق حكيم هو الذي جعل هذه الكائنات الحيّة قادرة على أن تتحمّل ظروفاً غير الظروف التي نشأت في ظلّها، وعلى أن تتلاءم مع هذه الظروف.

□ □ □

الفصل الخامس

آياتٌ في الحياةِ والأحياءِ

الحياة أعظم ظاهرة من ظواهر الوجود المشهود، وهي سرٌّ عجز العلماء عن تفسيره، وتحدٍّ لكل ذي فكر وقدرة صناعية وحيلة كيميائية وفيزيائية معجز في محاكاته بأدنى كائن حيّ، وهذا التحدّي موجّه للإنس والجنّ متفرّقين ومجتمعين.

زعم الماديّون أن المادّة تتطوّر بالارتقاء الذاتي، حتى تظهر فيها الحياة، فبذلت دولهم الإلحادية عشرات السنين من سني كبار علمائها المادّيّين الطبيعيّين، والألوف المؤلفة من ملايين الدنانير، وتضافرت الجهود العلمية الغربية والشرقية، لعلّهم يظفرون بتحوّل التراب الميّت الذي لا حياة فيه إلى خلية حيّة أولىٰ، وعقب محاولات من ملايين المرّات لخلق البروتوبلازم الحيّ، باتحاد مختلف تراكيب الكربون والماء والضوء، وتحت مختلف الظروف الطبيعية والكيميائية والصناعية، باء البحث الإنساني العلميّ التجريبي بالفشل التامّ، وأعلن العلماء الغربيّون والشرقيون عجزهم، وقرّروا أنّ الحياة لا تكون إلّا وليدة حياة قبلها، وأنها لا يمكن أن تشتق بنفسها من المادّة الميتة.

فمن أقوال علمائهم التي يعترفون فيها بهذه الحقيقة ما يلي:

١ ــ يقول عالم الأحياء «سير وليم هارفي»:

«كلّ بيضة تنشأ عن بيضة، وكلّ خلية تنشأ عن خليّة، وكلّ حياة من شيءٍ حيّ».

٢ ـ وأعلنت روسيا في أوائل عام **١٩٥٩**م أنّ العالم الروسي المشهور «أوبريان» رئيس معهد الكيمياء الحيوية، بحث هذه المشكلة منذ سبعة وعشرين عاماً وقد وصل بعدها إلى النتائج التالية:

«إنّ الحياة لا يمكن أن تبدأ من العدم، وإنّ الحياة المعقدّة للإنسان والحيوان والنبات لا بدّ أنّها بدأت من حياة، ولهذا يستحيل أن تُخلق الحياة من لا حياة، أو أن تخلق موادّ حيّة من موادّ ميّتة. . .».

ثم يقول «أوبريان»:

«أيمكن تحويل الأحجار والرّمال إلى إنسان، ولو بعد ملايين السنين؟. هذا مستحيل».

وعجز العلماء أيضاً عن فهم سرّ نسمة الحياة، وكيف تدب في المادّة ضمن السنّة القائمة في الوجود، وحاروا في الأمر وأعلنوا حيرتهم.

فالحياة من آيات الله كما قال عزّ وجلّ في سورة (يس ٣٦):

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا ﴿٣٣﴾﴾. . .

وقديماً قال المعرّي:

والَّـذِي حَـارَتِ الْـبَـرِيَّـةُ فِيـهِ حَيَـوَانٌ مُسْتَحْـدَثٌ مِـنْ جَمـادِ

وقد أبان الله لنا أنّه خلق الإنسان من تراب، فقال عزّ وجل في سورة (الروم ٣٠):

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

وقد انتهى العلم الإنساني التحليلي الحديث، إلى أنّ عناصر جسم الإنسان، والعناصر التي يتألف منها دمه فيما عدا الماء هي العناصر نفسها التي يتألف منها التراب، ولكن ضمن نِسَبٍ خاصّة.

فجسم الإنسان يتألف من العناصر التالية:

«الكربون ـ الأكسجين ـ الأيدروجين ـ الفوسفور ـ الكبريت ـ

الآزوت ـ الكـاليسيوم ـ البـوتاسيـوم ـ الصوديـوم ـ الكلور ـ المغنسيوم ـ الحديد ـ المنجنيز ـ النحاس ـ اليود ـ الفلورين ـ الكوبـالت ـ الزنـك ـ السلكون ـ الألمنيوم». وهذه العناصر هي العناصر نفسها التي يتكوّن منها التراب.

ومعجزة الخلق الرّباني تظهر لنا في تحويل التراب الميت إلى كائن حيّ، إلى إنسان، إلى أيّ نوع من أنواع الحيوان.

وقد أدرك عقلاء العلماء أنّ الحياة من آيات الله الكبرى في الخلق، فآمنوا به، وخضعوا له، وخشعوا بين يديه.

وفي هذا الفصل طائفة من آيات الله في الحياة والأحياء، أقدّمها في مقولات:



(١)
المقولة الأولى:
آيات في الخليّة

جولةٌ في عالم الخلايا التي تنفجر منها النباتات والكائنات الحيّة كافية لأن تقدّم للعالم الباحث البرهان القاطع على وجود الخالق المتقن الحكيم المدبّر.

الجرثومة الأولى التي تظهر منها الناميات من نباتات أو حيوانات، هي الخلية، إنّها أعجوبة الخلق المتقن المحكم العظيم.

لقد اكتشف العلم الحديث بعض أسرار الخليّة الأولى، أو اللّبنة الأولى التي تتكوّن منها الكائنات الناميات، نباتات كانت أو حيوانات، وهي ذوات أعداد كبيرة جدّاً، وصنوف وأجناس كثيرة تقارب مئتي مليون في أرضنا هذه.

وكلّ صنف منها له خريطة تامّة وسجلٌّ كامل في نواة بزرتـه، التي لا تدركها أبصار الناس.

فما من وصف يظهر في أيّ كائن حيّ عندما ينمو ويكبر، إلّا وهو مظهر من مظاهر قَدَرٍ مرسوم في نواة خليته الأولى، التي كان منها نماؤه، ثم جاءت البيئة بعد ذلك، فساعدت على بلوغ الكائن الحيّ غاية درجات سلّم التخليق المرسوم له، أو لم تساعد على ذلك، أو عطّلت منه بعض الخصائص والصفات بعامل من عوامل نقص الشـروط، أو وجود بعض المعـوقات أو المفسـدات المخرّبات.

فمثلاً: يوجد في نواة خلية الإنسان الأولى التي لا يدركها الطرف كلّ

صفات الإنسان وخصائصه الوراثية، وهي في هذه النواة مرسومة محدّدة على شكل جزيئات صغيرة جدّاً.

إنّ العلماء رغم كلّ الوسائل المتقدّمة يعجزون عن بلوغ كثير من أسرار أعضاء الإنسان وهي مكبّرة بلايين المرّات أو ملايينها، كدماغه، أو عينه، أو بعض غدده، فكيف بها وهي مصغّرة على شكل خريطة كاملة، أو سجلٍّ توجيهيٍّ لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها، ضمن جُزَيْءٍ صغيرٍ جدّاً، داخل نواة الخليّة، التي هي جُزيءُ صغيرٌ جداً لا يُدركه الطرف.

إنّها سلسلة من المصغّرات متداخلة عجيبة التخليق، وهي بالنسبة إلى حواسّنا في عالمٍ من عوالم الغيوب.

وكلّ خليّةٍ عند نمائها إذا اتّجهت لتُبْرِز كائناً حيّاً في الوجود الظاهر، فلا تعدُو ما هو مرسوم مسجّلٌ في داخل نواتها الصغرى.

وكلّ كائن حيٍّ أسير قدره التكويني المسجّل المرسوم في نواة خليته الأولى، فما أحد من الخلايا يضلّ عما هو مرسومٌ فيه.

إنّ نواة الإنسان لا تنمو إلّا على صفة إنسان، وعلى وفق الصفات الوراثية المرسومة له، وإنّ نواة الجمل لا تنمو إلّا على صفة الجمل، كذلك نواة البعوضة لا تنمو إلّا على صفة البعوضة. ونواة النخلة لا تنبت إلّا نخلة، ونواة حبّةِ الشعير لا تنمو إلّا شعيراً، وهكذا سائر الخلايا.

فمن يهديها في طريقها المرسوم فلا تضل؟.

أليس هو ربّنا الذي أعطى كلّ شيءٍ خلقه ثمّ هدى؟.

* * *

إنّ مئتي مليون من نباتات وحيوانات، كلّها تخرج من خلايا أولى متشابهة في الخطّة العامة، مختلفة في تصميماتها الداخليّة، وخرائطها، وسجلّاتها، وصفاتها الوراثية المرسومة فيها، وهي ما نسمّيه بالعوامل الوراثية «= الكروموزومات» أو « = الصبغيّات».

● ففي بيضة الدجاجة نواة صغيرة جدّاً، مرسومٌ فيها خريطة دجاجة كاملة، ومرقوم فيها سجلٌ كامل لكلّ ما يمكن أن تكون عليه فيما بعد، إذا تهيّأ لها أن تكون كائناً حيّاً، يتابع تخليقه في سلّم كماله.

● وفي بيضة النعامة نواة صغيرة جدّاً، مرسومٌ فيها خريطة نعامة كاملة، ومرقوم فيها سجلّها الكامل.

● وفي بيضة الذبابة نواة صغيرة جدّاً، مرسومٌ فيها خريطة ذبابة كاملة، ومرقومٌ فيها سجلُّها الكامل.

● وفي بييضة الأنثى من الحيوانات بما فيها الأنثى من البشر، وفي حيوان التلقيح الذي يقترن بها من الذكر، قد رسمت خريطة تامّة للكائن الحيّ، ورُقِم سجلٌ كامل لنشأته، وحياته، وأقداره التكوينية.

● وكذلك في النباتات على اختلافها وتنوّعها.

فما أحد من هذه الخلايا يتجاوز حدوده المرسومة له في خريطة نواته، وهي جرثومته الأولى، المعدّة لنشأته، ولا يتعدّى دقائق الصفات التي حدّدت له. وإن قصّر عن بعض منها، فلقصورٍ في البيئة عن إمداد العامل الوراثي بما يلزمه، أو لعارضٍ مخرّب، أو لسبب معوّقٍ مفسد.

قالوا: لقد كشفت وسائل العلم الإنساني التجريبـي عن أنّ الخليّة فيها كتاب مرقوم، فيه تفصيلات كلّ التصميم الذي قُدِّر أن يبرُز فيما بعدُ للكائن الحيّ، ومخططاتٌ عجيبة مصغّرة إلى ما دون ما يدركه نظر الإنسان بمجاهره ومكبّراته، كمخططات المهندس البارع المتقن، الذي يريد أن يبني معملاً ضخماً بمختلف آلاته الدقيقة، وقد اشتملت هذه المخططات على كلّ ما يحتاجه هذا المعمل من كبير وصغير، حتى ألوان القطع الصغيرة، وأشكال التزيينات الخارجيّة التي لا تؤثر في جوهر البناء.

وقالوا: إنّ العالم الباحث ينظر إلى الخليّة عن طريق المجهر الذي يكبّر الرؤية ألوف المرّات، فيجد الخلية لبنة الحياة الأولى، قد أحاط بها غلاف فحدّد

أبعادها. وامتلأ هذا الغلاف بسائل بين الرّقة والكثافة، وفي وسط هذا السائل نقطة صغيرة كسمكة في بركة، هي أكثر كثافة من السائل الذي حولها. وهذه النقطة هي نواة الخليّة، إنّها نقطة الحياة وسرّها. ولو جمعت نقط الأحياء كلّها لوسعها إناء واحد ليس بالكبير.

وحين تنطلق هذه النواة لتكوّن الكائن الحيّ المرتقب وفق الخطّة المرسومة له فيها، تحدث حركة فيها، وبهذه الحركة تتمطّط وتتمدّد، فتكْبُر شيئاً قليلاً، وعندئذٍ تظهر منها خيوط كأنّها الديدان الرفيعة، ثمّ تصطفّ هذه الخيوط صفّاً واحداً بدقة متناهية، ثم تنقسم بالطول أنصافاً، ويذهب نصف منها إلى جهة اليمين، والنصف الآخر إلى جهة اليسار، ثمّ يقوم بين النصفين حائل، عندئذ تكون الخليّة الواحدة خليتين، والنواة نواتين.

ويكون تتابُع عمليّات الانشطار والتكاثر، وفق سلسلة هندسيّةٍ إلى حدٍّ مرسوم، حتى يبلغ الحي كماله المرسوم له، وفي كلّ طورٍ يمرّ به خطط من السلوك تظهر، وكوابح تُلجِم، تدلُّ على أنّ قيادة حكيمة عليمة مهيمنة تشرف على كلّ العمليات في كلّ أطوارها، وتشرف على أجزاء الطور الواحد منها مهما صغر.

وقالوا: إنّ هذه الخيوط التي تظهر من النواة الأولى عند تمدّدها في حركة النماء، هي الخرائط والمخططات التي تشتمل على جميع أوصاف الحيّ، المرسومة له قبل نشأته والـمُودَعَة في جرثومة خليته.

وقالوا: إنّ هذه الخيوط التي أسموها «كروموزومات» تتألف من جُسيمات صغيرة جدّاً، وكثيرة، وهي مثل الأقراص التي تصطفّ فيتكوّن منها ما يشبه العمود، وقد أسَمْوا هذه الأقراصَ «جينات».

وهذه الجينات هي التي تحمل لكلّ جزء في الكائن الحيّ صفاته ومخطّطاته التفصيليّة، وقد رقم فيها قضاؤه وقدره التكويني الذي أعدّ لبناء جسمه.

هذا الإتقان العجيب في عالم الخلايا، المتناهي في الصغر، مع وحدة الخطّة العامّة في الخلق، مهما اختلفت صفات الخلائق، ألا يدلّ على الربّ

الواحد الخالق القدير العليم الحكيم المهيمن، الذي له الخلق والأمر والملك **والتدبير**، وهو على كلّ شيء قدير؟.

* * *

وقالوا: إنّ كلّ حيٍّ يبدأ من بيضة، باستثناء البسيط الأبسط منها، **كالأميبا**، وكدودة الأرض، فتكاثرهما يكون عن طريق الانشطار مباشرة. وكنجمة البحر، فهذه قد تتفاصل أذرعها الخمس، وتبدأ كلّ ذراع حياة مستقلّة جديدة، فتستكمل جسمها.

وقالوا: إنّ من النباتات ما يكفي لتكاثره غرس أقلامٍ من شجره، دون حاجة إلى نواة البزرة التي تحتويها ثمرته.

ولكنّ السنّة الغالبة في عالم الأحياء، أن يكون تكاثرها عن طريق نواة خلاياها الأولى، ذات التركيب الدقيق المعقّد.

وقالوا: ومن الكائنات الحيّة التي تبيض ما يقذف ببيضه إلى محاضن داخل جسده، كإناث الحيوانات الولود، وتتهيّأ البيوض لإنشاء حياة جديدة بعد اللقاح، وتأخذ النشأة تجري في أطوارها المرسومة، ضمن خطط رائعة باهرة حكيمة.

إنّ الدهشة لتستولي على كلّ باحثٍ عالمٍ في عالَم الخلايا، فأيُّ شيء يدفع الجرثومة الملقّحة الأولى، حتى تتنامى وتتكاثر إلى غايتها المرسومة، فتكون كائناً حيّاً يؤدّي وظائف إراديّة عجيبة، ضمن جسدٍ تتحرّكُ خلاياه من غير إرادة صاحبها، وهي تتحرّك تحرّكاً حكيماً إلى غايات بناء الجسد، ومنحه القوّة والحركة ومقادير محدودة من التصرّفات الإراديّة؟!.

ينظر علماء الأحياء عن طريق مجاهرهم إلى جرثومة الحياة الأولى، فلا يرون إلّا خلايا متشابهة في أشكالها، ولا يرون فروقاً بين خليّة وأخرى من أخواتها.

ولكنّ الخلية حينما تنشطر وتنمو، وتقدّم لبناء الجسم الكبير خلاياه،

تقدّمها مختلفة في أعدادها وأشكالها، ثمّ تسير هذه الخلايا كأنها جنود مجنّدة مأمورة لا تعصي الأوامر التي توجّه لها.

ويذهب كلّ فريق منها صفوفاً صفوفاً إلى موطنه في بناء الجسد.

فمنها ما يذهب إلى موطنه من العظام، ومنها ما يذهب إلى العصب، ومنها ما يذهب إلى القلب، ومنها ما يذهب إلى الكبد، ومنها ما يذهب إلى المخّ، ومنها ما يذهب إلى العين أو اللسان أو النخاع، إلى غير ذلك من سائر مواضع الجسد. ويؤدّي كلّ منها عمله وفق خصائصه، وعلى وفق صفات المكان الخاصّ من العضو الذي هو سائر إليه.

فكيف اختلفت النتائج، وتعدّدت الظواهر والاختصاصات، مع أنّ الأصل فيما يظهر للناظرين من العلماء الباحثين واحد؟.

هل هذه الخلايا عاقلة مدركة تدرك وظائفها، فتذهب بأنفسها إلى أمكنتها، ضمن ملايين الخلايا، فلا تتعثر، ولا تخطىء مواضعها؟

أم هي مأمورة مسيَّرة بألطاف المقادير، يسيّرها المهيمن القدير، العليم اللطيف الخبير؟

سبحانه وتعالى، هو الرّبّ الخالق الذي أعطىٰ كلّ شيءٍ خلقه ثمّ هدى.

* * *

وقالوا: قد دلّت التجارب على أنّ اقتطاع جزء من جرثومة الحياة الأولى في أوّل تنشئتها، لا يؤثر في نموّها، ولا يؤثر على اكتمالها إلى غايتها المرسومة، إذ تبقى كسائر نظيراتها التي لم يقتطع منها شيء.

لكنّ اقتطاع جزء منها من بعد أن تأخذ سبيلها في النشأة لتكوين الكائن الحيّ يؤثر على كمال الكائن الحيّ في جانب من جوانبه، ويظهر ذلك عند تمام النشأة.

فإذا اقتطع منها ما كان معدّاً منها للاتجاه للعين مثلاً، نشأ الكائن الحيّ ولا عين له. وإذا اقتطع منها ما كان معدّاً للاتجاه للرجل، نشأ الكائن الحيُّ

ولا رجل له. أمّا إذا اقتطع منها ما يؤثر على عضو رئيسي، فلا بدّ بالقياس على ما أجري من تجارب أن تفقد الخليّة الأولى قدرتها على النماء لتكوين الكائن الحيّ.

فقد أجرى عالم نمساوي تجارب متعدّدة على عدد من الخلايا التي تحمل جرثومة الحياة الأولى للكائن الحيّ، فاقتطع بعد اتجاه الخليّة في مسيرة التخليق قطعة أقلّ من نصف مليمتر من مكان قدّر أنه ستتكوّن منه عين الحيوان، وهذه القطعة في وضع تشابه فيه سائر ما في الجرثومة. ومضت الخليّة في نمائها، وجاء حيوان لا عين له، في ذلك الجانب الذي اقتطع منه القطعة.

وتعدّدت تجارب العلماء الباحثين في هذا، وأكّدوا الأمر نفسه.

ولكن يختلف الأمر قبل هذا الطور، إذ لا يؤثر الاقتطاع مثل هذا الأثر.

ومن هذا ظهر للباحثين أن التخصّص في الخلايا لا يبدو في الطور الأوّل من النشأة، وإنما يأتي بعد ذلك.

فمن أين جاءت أوامر التخصّص، بعد أن كانت أجزاء الخليّة في أوّل الأمر متماثلة؟.

إنّه الرّبّ الخالق، الذي أعطىٰ كلّ شيءٍ خلقه، ثُمَّ هدىٰ.

* * *

كتب الدكتور «رسل تشارلز آرتست» مقالاً بعنوان: «الخلايا الحيّة تؤدّي رسالتها»[١] جاء فيه ما خلاصته:

١ ــ نظر إلى الخليّة النباتية في أبسط النباتات وأدناها، وأبان بعض روائع صنعتها المتقنة العجيبة.

فالعشب المائي الذي يُسمَّىٰ «الإيلوديَا» إذا فحصت طرف وُريقة صغيرة من وُريقاته تحت العدسة الشيئية الكبرى للمجهر، فسوف تلاحظ مظهراً من

---

(١) من كتاب «الله يتجلّىٰ في عصر العلم».

أكثر مظاهر الحياة انتظاماً، وأروعها جمالاً. فلكلّ خليّة من خلاياها تركيب رائع. ويبلغ سمك الورقة عند طرفها طبقتين من الخلايا. ويفصل الخلايا بعضها عن بعضٍ جدرانٌ ثابتة متماسكة. وتتكوّن الورقة من آلاف من هذه الخلايا المتراكمة التي تبدو وكأنّها بنيان مرصوص.

٢ ـ وتحدّث عن تشريح هذه الخليّة النباتية العجيبة التركيب، وما فيها من حركة حياتية عجيبة، لا يمكن أن تكون إلّا أثراً لصنعة خالق مدبّر حكيم.

٣ ـ ثم نظر إلى الخليّة الحيوانية في أبسط الحيوانات وأدناها، وأبان بعض روائع صنعتها المتقنة العجيبة.

فالْأميبا التي هي أدنىٰ الكائنات الحية وأبسطها تركيباً مخلوق عجيب، فإذا وضعت قطرة من ماء تشتمل على فوج من الأميبا، فوق شريحة زجاجيّة دافئة، ثمّ فحصتها بالمجهر، فإنك تستطيع مشاهدة «الجِبْلَة» وهو «البروتوبلازم» يتحرّك حركة عجيبة.

فالأميبا لا تسبح في الماء، ولا تطفو على سطح قطرة الماء، أو تندفع في جوفها، ولكنّها تتحرّك كما لو كانت تنسكب أو تسيل.

أمّا جسم الأميبا فهو كتلة عارية من البروتوبلازم، وهو يختلف عن الخليّة النباتيّة في أنّه لا يحيط به من الخارج جدارٌ صلب، بل مجرّد غشاءٍ رقيق يحدّد جسمه.

وكلّما تحرّكت الجِبْلة «البروتوبلازم» في اتجاه من الاتجاهات، أطاعه ذلك الغشاء، وتحرّك معه في نفس الاتجاه، وبذلك يتغيّر شكل الحيوان، وتتكوّن له زوائد لا تلبث أن يتغيّر شكلها بعد قليل. وبهذه الطريقة يتحرّك الحيوان مستعيناً بهذه الزوائد التي تشبه الأقدام، والتي تسمّىٰ بسبب ذلك «الأقدام الكاذبة».

٤ ـ وتحدّث الكاتب عن تشريح هذه الخليّة لحيوان الأميبا، وأوضح ما فيها من عجائب صنعةٍ محكمة، وأنّ حركة الجِبْلَة «البروتوبلازم» فيها تعتبر أبسط أنواع الحركة في المملكة الحيوانية.

٥ ـ ثمّ ذكر أنّ هٰذين النوعين من الخلايا يعتبران من الخلايا البسيطة الدنيا، ومع ذلك فإنّ كلّ خليّة منها إنّما هي جهازٌ معقّدٌ، يقوم بطريقته الخاصة بجميع الوظائف المعقدة الضرورية للحياة، ومنها الحركة التي شاهدنا أحد مظاهرها، وتؤدّي كلّ خليّة من الخلايا وظائفها الحيوية العديدة بدرجة من الدّقة يتضاءل بجانبها أقصى ما وصل إليه الإنسان من دقّةٍ في صناعة الساعات الدقيقة.

٦ ـ ثم ذكر أنّ النواة في الخليّة هي التي تنظّم العمليّات الحيويّة في الخلية، وتسيطر عليها، فإذا زال هذا الإشراف توقفت الحياة.

وهكذا نرى أن خالق هذا الكون ومدبّره ومنظمه يعتبر ضروريّاً لخلق الخليّة والإنسان، بل لخلق العقول المفكرة التي تبحث عن الحقيقة وعن السبب الأول.

٧ ـ تحدّث أخيراً عن النظريّات التي وضعت لتفسير نشأة الحياة من عالم الجمادات، ثم قال:

وقد يخيّلُ إلى بعض الناس أنّ هذه النظريات قد سدّت الفجوة، التي تفصل بين عالم الأحياء، وعالم الجمادات. ولكن الواقع الذي ينبغي أن نسلّم به هو أن جميع الجهود التي بُذلت للحصول على المادّة الحيّة من غير الحيّة قد باءت بخذلان وفشلٍ ذريعين. ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلّع على أنّ مجرّد تجمُّع بعض الذرّات والجُزَيْئات عن طريق المصادفة يمكن أن يؤدّي إلى ظهور الحياة وصيانتها، وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخليّة.

٨ ـ ثم ذكر أن قبول التفسيرات المادّيّة التي تقول بها النظريات المختلفة يحتاج إلى تسليم بأمرٍ هو أشد إعجازاً وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله الذي خلق هذه الأشياء ودبّرها.

* * *

(٢)
المقــولـــة الثـــانيـــة
آيات في الطاقة الفكرية العقلية

من آيات الله في أنفسنا هذه الطاقة الفكرية العجيبة، التي نتصوّر فيها، وندرك بها الأشياء على اليقين أو الظن الراجح، أو الشكّ، أو الظن المرجوح «= الوهم» أو بالخاطرة دون حكم عليها بشيء.

ونحلّل بها ونركّب، ونتخيّل بها ما لم يسبق لنا أن شهدناه على هيئته التركيبيّة بأيّة حاسّة من الحواسّ الظاهرة أو الباطنة.

إنّها طاقة ذات قوانين وموازين ثابتة، بها نزن المفاهيم والمعارف، وبها نقيس ما يُعرض علينا من أفكار، وما يرد علينا من خواطر، وما نتخيّله ونبتكره من صور ومركّبات جديدة، وبها نحتال على حلّ المشكلات الفكريّة أو العمليّة.

ونتساءل: من أين جاءتنا هذه الطاقة العجيبة؟. وهل كنا نملك إيداعها قوانينها التي تحكم هي بها على الأشياء؟. وهل كنا نملك تعديل موازينها التي تزن بها الأمور؟.

فمن أين لها أحكامها، وقوانينها، وموازينها، وضروراتها؟.

إذا كنّا نحن لم نملك لها شيئاً من ذلك، بل بها نحكم على الأشياء، وبها نحكم على المعارف، وبها ندرك الحقّ حقّاً، وندرك الباطل باطلاً، فمن أين جاءتها هذه الأمور؟. ومن أين جاءتها قوّتها العجيبة؟.

إنّ أرقى الحيوانات من دون الإنسان لم تستطع منفردة ولا مجتمعة أن

تتجاوز حدود غريزتها، فتبتكر لنفسها سلاحاً خاصّاً تصنعُه من الحديد أو غيره، ولم تستطع أن تخترع لنفسها آلةً من الآلات لطعامها أو شرابها أو منامها أو ركوبها.

أمّا الإنسان فهو صاحب كلّ هذا التقدّم الحضاريّ المشهود في عصرنا هذا، لأنّه أوتي من وراء غريزته هذه الطاقة الفكريّة الراقية، التي يفكّر فيها، ويتخيّل، ويبتكر، ويخترع.

وقد كشفت الأبحاث الإنسانية الحديثة عن بعض خصائص هذه الطاقة العجيبة في الإنسان، منها الخصائص التالية:

١ ــ أنّها بذاتها لا ينتابها ما يسمَّىٰ بالتعب العقلي، وما يكون من شعور بالتعب بعد إجهاد فكريّ، منشؤه تعب في جملة أعضاء أخرى، غير مراكز التفكير بالذات.

٢ ــ أنّ مقدرة المخّ على العمل تكاد تكون غير قابلة للنفاد، بحسب مستوى أعمار الناس.

قالوا: وتتكوّن أهمّ محتويات الدماغ العامل في أنواع النشاط الفكري من نحو عشرة إلى اثني عشر بليوناً من الخلايا الصغيرة، ولكلٍّ من هذه الخلايا مجموعة من الخيوط الدقيقة التي تتمكّن بوساطتها الرسالة الكهركيميائية من الانتقال من خليّة إلى خليّة، ويرتبط التفكير والذاكرة بانتقال هذه التيّارات الكهربائية الكيميائية.

ومن طريف ما ذكروا: أنّ أعقل الناس وأعلمهم لم يستخدم طوال حياته القدرات الكاملة لمستودعه العقلي العجيب. وأنّ عامّة الناس يستغلّون نحواً من عُشرِ قدرات أدمغتهم فقط.

٣ ــ أنّ مستوى الذكاء العالي يرتبط بزيادةٍ ظاهرةٍ في عدد التلافيف السطحيّة للّحاء المخي، وهو قمّة المخّ الكبرى، مع اقتران ذلك بدورة دمويّة جيّدة في المخّ.

٤ ــ أنّ كبر السنّ لا يمنع من متابعة البحث والدرس.

٥ ــ أنّ القوى العقليّة تنمو بالعمل والممارسة، وتضمر بالإهمال والخلوّ من العمل.

٦ ــ أنّ ما تحتويه هذه الطاقة هي من مستودع العقل الباطن. والعقل الباطن هو أعجب جزءٍ وأكبره في دماغ الإنسان، وهو يقع تحت الذاكرة الواعية، ويكبُرُها بآلاف المرّات.

ولقد أثبتت التجارب العلميّة: أنّ جميع أفكارنا تحفظ في شكلها الكامل، ولسنا بقادرين على محوها أبداً.

وأثبتت هذه التجارب أيضاً: أنّ الشخصيّة الإنسانيّة لا تنحصر فيما نسمّيه بالشعور، بل هناك أجزاءٌ أخرى من الشخصيّة الإنسانية تبقىٰ وراء الشعور، وهذه الأجزاء تشكّل جانباً كبيراً من شخصيتنا، بل هي الجانب الأكبر منها.

هذه هي الطاقة الكبرىٰ التي امتاز بها الإنسان عن غيره، ولم تعرف البحوث العلميّة حتّىٰ الآن إلّا النزر اليسير عنها.

وفي فطرة هذه الطاقة الكبرى الأصول العقليّة التي تهدي الإنسان إلى إدراك وجود الله، ومعرفة مقدار ما من صفاته الجليلة معرفة ضروريّة. وقد تجنح بدافعٍ من انحراف خلقي، فيُزَيّن لها الباطل، فتراه حقّاً، ويشوّه لها الحق فتراه باطلاً، ولكن هذه عوارض مَرَضية سَقميّة.

* * *

يقول «أ. كريسي موريسون»[1] الرئيس السابق لأكاديميّة العلوم بنيويورك، ورئيس المعهد الأميركي لهذه المدينة، وعضو مدى الحياة للمعهد الملكي البريطاني:

«١ ــ إنّ وجود الخالق تدلّ عليه تنظيمات لا نهاية لها، تكون الحياة بدونها مستحيلة.

---

(١) بترجمة الدكتور الهلالي، انظر مقدمة كتاب «العلم يدعو للإيمان».

٢ ــ إنّ وجود الإنسان على ظهر الأرض، والمظاهر الفاخرة لذكائه، إنّما هي جزء من برنامج ينفذه بارىء الكون.

٣ ــ وإني لأورد قول «أوسبورن» في هذا المجال:

«بين جميع الأشياء التي لا يمكن إدراكها في الكون، يقف الإنسان في الطليعة. وبين الأشياء التي لا يمكن إدراكها في الإنسان تتركّز الصعوبة الكبرى فيما له من مخٍّ وذكاء، وذاكرة، وآمال، وقوّة كشف وبحث، وقدرة على تذليل العقبات».

٤ ــ وإنّ التصوّر هو من أعجب كفايات الإنسان، فهو في تصوّره قد يسافر على الفور إلى حيث يشاء. والخطيب قد ينتقل بسامعيه إلى حيث يريد، فهو إذا وصف في تصوّره جزيرة مرجانيّة من جزر الهند الشرقية، فإنّه يرى بذهنه هذه الجزيرة، وكذلك سامعوه يرون أيضاً بأذهانهم سلسلة صخور مرجانية تحيط بها، ويرون الشاطىء المرجاني، وتغيّرات لون البحر، والسماء المطلّة عليها، والنخيل التي تهزّها الريح، و جزيرة في الوسط في حلّة قشيبة من نباتات المناطق الحارّة.

وقد يصف لهم الخطيب البحيرة الرائعة، وهي زرقاء مثل صفحة السماء، صافية كالمرآة، وإذا انتقل به الفكر إلى أبعد من ذلك، فقد يرى سامعوه أعماق تلك البحيرة.

ومن هذا المنظر من مناظر المناطق الاستوائيّة يستطيع الخطيب أن ينتقل بسامعيه توّاً إلى نهرٍ جليديٍّ، بألوانه الزرقاء والخضراء والبيضاء، وبحركته البطيئة، ويلفت أنظارهم إلى الجبال التي يغطّي قممَها الجليد، والتي تقع خلف ذلك النهر، وهي تسطع في أشعّة الشمس بلونٍورديٍّ جميل.

٥ ــ والتعليم والتجربة والبيئة والمهارة كلُّ هؤلاء قد تُحيل الخيال الرائع إلى قطعة فنّيَّة...

٦ ــ والأفكار إنّما هي بنات التصوّر...

٧ ــ ولا مندوحة لنا في أن نستنتج في النهاية أنّ قوّة التصوّر قريبة جدّاً من القوّة الروحانيّة، فإذا كان هناك خلودٌ للروح فهناك أيضاً خلود للتصوّر. . .

٨ ــ وإذْ ترتفع روح الإنسان الخالدة صوب الله كاسبةً في طريقها سعة من الفهم، إذْ ترتقي نحو الملكوت الأسْمَىٰ، فإنّ جمال خلق الله في العالم المادّيّ يتباعد عن النظر، كما تضمحلّ قصص الطفولة من ذهن الإنسان حين ينضج.

وهكذا تهبط الكرة الأرضية حقّاً إلى درجة التفاهة مع تأمّل الكون.

وإذن ففي روعة الإدراك الروحاني قد تصبح المادّة مثل الظلّ الذي يبهت أمام الشمس المشرقة، وتصبح كأنها لا شيء.

وهكذا يستطيع الإنسان بكفايته الروحانيّة أن يتصوّر القدرة الربّانية.

ومع تطور روحانيته سيكون أقرب إلى إدراك جلال الخالق وقدرته وعظمته. . .».

* * *

(٣)
المقولة الثالثة :
آيات في النوم

● النوم ظاهرة عجيبة لدى الكائنات الحيّة، إنّه من آيات الله الدالة على وجوده وسلطانه وهيمنته على كلّ ذي حياة.

● إنّه نعمة من نعم الله، يكتسب بها الكائن الحيّ راحة جسمه من متاعب الحركة والعمل، واليقظة الطويلة، وما يترسّب بسببها في الجسم من عناصر كيميائية ضارّة في مواطن النشاط والحركة في العضلات أو على الأعصاب.

إنّ استرخاء الجسم في حالة النوم يساعد على تنظيم الدورة الدمويّة، ومدّها بالنشاط الجديد، ليساعد ذلك على طرد ما علق في أنحاء الجسم من موادّ ضارّة، كان الإجهاد أو اليقظة الطويلة السبب في علوقها وترسّبها.

● لذلك امتن الله علينا بالنوم، وأبان أنّه راحة لنا، فقال عزّ وجل في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾.

سُبَاتاً: راحة.

وقال عزّ وجلّ في سورة (النبأ ٧٨):

﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ ﴾.

أي: وجعلنا نومكم راحة لأبدانكم.

وكلّ ذي حياة بحاجة إلى نوم، إلّا الرّبّ الخالق فهو الحيّ الذي لا ينام.

● وفي النوم يتعطّل من النائم حسّه الظاهر، فيكون كالميت الذي لا يستجيب لشيءٍ ممّا حوله، ولذلك بين الله عزّ وجلّ أنّ النوم جزء من وفاة الأنفس، وأنّه وفاةٌ دون وفاة الموت، إذ تعود الأنفس إلى الحياة الجسدية عند اليقظة، وأمّا الموت فهو وفاة تامّة للأنفس، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

● وإذا كان كلّ ذي حياة بحاجة إلى النوم على ما نعلم عن طريق الاستقراء العلمي. فمن يدبّر أمر الأحياء وهي نائمة فاقدة شعورها الظاهر؟.

إنّ منطق حقائق هذا الكون يهدينا إلى ضرورة وجود موجود عظيم حيّ لا تأخذه سنة ولا نوم، وهو ما بينه الله عز وجل بقوله في سورة (البقرة ٢):

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ ... ﴿٢٥٥﴾﴾.

وهو جلّ وعلا يدبّر الأمر بقيّوميّته، ويحفظ خلائقه ومقاديره بعلمه وقدرته وحكمته.

● ومن عجيب ظاهرة النوم أنه عمليّة تتم في الإنسان عن غير طريق سلطان إرادته. فهو لا يملك بإرادته السيطرة على النوم، وقد يتمنّاهُ فلا يستطيعه، وقد يشتهي السهر فيغلبه سلطان النوم.

وحين يبدأ النوم يتسلّل إلى جسم الحيّ تأخذ قواه في التناقص، وتعتريه حالة من الاستعداد للنوم، ثمّ يغلبه النوم، فيفقد شعوره الظاهر.

● وقد اتضح للباحثين من علماء الطبيعة أنّ النوم أهمّ للحياة من الطعام والشراب.

وفي هذا نذكر ما قرّره علماء الروس من أنّ التجارب التي أجريت على صغار الكلاب أثبتت أنها لم تستطع الحياة لأكثر من خمسة أيام بغير نوم، بينما عاشت مثيلاتها التي تنام عشرين يوماً بغير أكل.

● ومن آيات الله التي اكتشفها العلماء الطبيعيون في ظاهرة النوم، أنّ ملايين الخلايا في المخّ تنفصل عن مقابلاتها حالة النوم، وتتصل فَتتماسُّ ببعضها حالة اليقظة. فالحادثة شبيهة بفصل مجمّع كهربائي ذي أسلاك اتّصالٍ تُعدَّ بالملايين، وكلٌّ منها يؤدّي وظيفة خاصة تتصِّل بناحية من أنحاء المدينة العظيمة.

● ومن آيات الله أنّ الحيوانات تنام وتصحو كالإنسان، بما في ذلك الحيوانات الدنيا، والحشرات، والأسماك في الماء، وأنّ لكلٍّ منها طريقته الخاصة في النوم.

وقد أسعفت العناية الربانية الطائر الذي ينام على غصن شجرة، فحمته من أن يسقط إذا استولى عليه النوم، واسترخى جسمه، فجعلت نظام مخالبه تشتد قبضتها على غصنه إذا نام، وهذا يحميه من السقوط والتعرّض للمخاطر.

* * *

(٤)
المقولة الرابعة:
آيات في العين

يقول «أ. كريسي موريسون»[١] بترجمة الدكتور الهلالي:

«وهل تعلم أنّ إنسان عينك يُلقي صورةً على الشبكيّة، وحينئذٍ تعمل العضلات عملها، فَتُرَتِّبُ الإنسان بطريقة آلية، وتوجهه إلى بؤرة متقنة الوضع؟.

وتتألف الشبكيّة من تسع طبقات، ينفصل بعضها عن بعض، ومجموعها لا يزيد في الغلظ على قرطاسٍ رقيقٍ جدّاً، والطبقة الأخيرة من الداخل تتألف من مادّة تشبه الشعر، أو الخيوط الرقيقة، بعضها مخروطيّ الشكل، وعددها يبلغ ثلاثين مليوناً من الخيوط غير المخروطية، وثلاثة ملايين من المخروطيّة، وكلُّها قد أُلّفت ونُظِمّت على غاية التناسب والتناسق والكمال، بعضُها مع بعض، وكلُّها مع إنسان العين، ولكنّها قد ولّت ظهورها إلى إنسان العين، وتوجّهت إلى الداخل لا إلى الخارج، ولو استطعت أن تنظر من خلال الإنسان لرأيت عدوّك مقلوباً أسفله إلى أعلاه، ولرأيت يمينه شماله، وذلك أمرٌ يوقعك في ارتباك إذا حاولت أن تدافع عن نفسك.

وقد علم الله ما كان سيحدث لو لم يجعل تلك الأجزاء التي تتألف منها

---

(١) انظر الفصل الثامن «غرائز الحيوان» من كتابه: «العلم يدعو للإيمان».

العين على ذلك الترتيب الخاصّ، قبل أن تبصر العين بالفعل، ولذلك رتب الله سبحانه الإبصار بوساطة ملايين الأعصاب الدقيقة التي تشبه الخيوط، وهي متصلة بالدماغ. وهو نظام تتحيّر العقول في إتقانه وإحكامه، وقد رفع مدى إدراكنا الحسّي بواسطة ذلك من الحرارة إلى الضوء، ولذلك صارت العين شديدة الإحساس باللون.

ولذلك نحن نرى صورة ملوّنة للدُّنْيا من الجانب الأيمن إلى الأعلى، وهو ترتيب بصري في غاية الإحكام والاحتياط.

وطبقات إنسان العين التي تُسَمَّىٰ بالعدسات تختلف في الكثافة، وبذلك تجلب الأشعة إلى البؤرة، ولا يستطيع الإنسان أن يجد مثل ذلك في جنس واحدٍ كالزجاج مثلاً.

وكلّ هذا النظام العجيب في العدسات من الخيوط غير المخروطية، والمخروطية، والأعصاب، وغير ذلك، لا بدّ أنّها وجدت في وقت واحد، إذْ قبل وجود كلِّ واحد منها على الترتيب المذكور يكون الإبصار مستحيلاً.

فكيف استطاع كلّ عامل متحتم الوجود من تلك العوامل العديدة أن يعرف ما يحتاج إليه في خاصة نفسه، وما يحتاج إليه ليتّفق مع العوامل الأخرى في العمل المشترك، وينظّم كلّ واحدٍ نفسه مع شركائه ليُتمّ العمل المطلوب، وهو الإبصار.

● والمحارة العادية التي نأكل عضلاتها تحتوي على اثنتي عشريات من العيون الجميلة، وهذه العيون الجميلة شديدة الشبه بعيوننا، وهي تلمع، لأنّ كلّ عين منها تشتمل على عدد لا يُحصى من العاكسات الصغيرة، التي يُظن أنها تمكّنها من رؤية الأشياء من اليمين إلى الأعلى. وهذه العاكسات لا وجود لها في عيون البشر.

فهل خلق الله عزّ وجلّ تلك العيون الكثيرة في المحارة، لأنها ليس لها قوة دماغٍ كالإنسان؟.

ولمّا كان عدد العيون في الحيوان ما بين عينين اثنتين إلى آلاف العيون في المخلوق الواحد، كان على الطبيعة أن تلاقي مشقّة عظيمة لا قِبَلَ لها بها في تطوير علم المرئيات.

إلّا إذا صحبها صُنع الذي أتقن كلّ شيءٍ صنعاً».

* * *

(٥)

المقولة الخامسة:

آيـــات في النحـــل

ذكر علماء حياة الحيوان جملة من الحقائق الغرائب عن عالم النحل. منها ما ألمح إليه «أ. كريسي موريسون». ومنها ما ذكره «موريس مترلنك» ومنها ما ذكره «ماك لوروين».

وألخّص فيما يلي طائفة ممّا ذكر هؤلاء عن النحل:

● إنّ نحلة العسل لا تجذبها الأزهار الزاهية كما نراها، ولكنها تراها بالضوء فوق البنفسجي الذي يجعلها أكثر جمالاً في نظرها.

● إنّ العدد الأكبر من النحل يؤلف من نفسه حين يصمّم على بناء مملكته ستاراً مثلّثاً كثيفاً متلاصقاً متماسكاً، أشبه بمخروط مقلوب الرأس، ويظلّ كذلك مدّةً من الزمن تتراوح ما بين ثماني عشرة إلى أربع وعشرين ساعة.

ثم تظهر بعدها طبقات بيضاء شفّافة تحت صدر كلّ نحلة، وتكون جماهير غيرها قد تولّت كنس الأرض وتنظيفها، ومسحها، وسدّ شقوقها.

وفجأة تأتي نحلة من المخروط المقلوب، وتصعد إلى أعلى موضع من البيت، وتنزع بفمها إحدى طبقات الشمع المتدليـة من بطنهـا، وتدحـوها بأرجلها، ثمّ تلصقها بأعلى نقطة في البيت، وبهذا تصنع حجر الزاوية في مدينة النحل، ثم تغادر المكان.

وتأتي غيرها فتضيف إلى حجر الزاوية قطعاً أخرى من الشمع، حتّى إذا

بلغ سمك هذا المكان حدّ الكفاية، خرجت نحلة من الجماعة مختلفة عنها شكلاً، وتدلّ هيئتها على أنّها مهندس قدير، وهذه لا تنتج شمعاً، فتأخذ في الطيران والوقوف. وبتكرير هذه العملية تحدّد مواقع الغرف التي يقوم ببنائها العمّال.

ثم تقوم عاملات النحل بإنشاء عدّة أنواع من الغرف، وهي: «الغرف الملكية ــ وغرف الذكور ــ وغرف خزن الطعام ــ والغرف الصغيرة التي هي مُهود العمال والمخازن العادية ــ وغرف الانتقال فيما بين الغرف ــ وتعدّ غرفة خاصة للملكة الحامل».

والنحلة الملكةتضع بيضاً غير مخصب في الخلايا المخصصة للذكور، وبيضاً مخصباً في الحجرات الصحيّة المعدّة للعاملات الإناث والملكات المنتَظَرات.

وتقوم العاملات بإعداد الغذاء لصغيرات النحل بتعاون جماعي منقطع النظير.

أمّا الإناث اللائي يكُنَّ في حجرات الملكة، فإنّهُنَّ يعاملن معاملة خاصّة، وتستمرّ تغذيتهُنَّ بنوع من العسل يسمّى عسل النحل الملكي، ولهذا العسل قدرة على إفناء جميع أنواع الجراثيم.

وقد ذكروا في وصف غرف النحل أنّ كلّ غرفة هي عبارة عن أنبوبة مسدّسة الأضلاع، على قاعدة هرميّة.

ويقول الدكتور «ريد»: «إنّه لا يوجد سوى ثلاثة أشكال هندسية ممكنة للغرف، تجعلها كلّها متساوية ومتشابكة، دون أن تكون بينها مسافات ضائعة، وهذه الأشكال هي: المثلث المتساوي الأضلاع، والمربع، والمسدّس المنتظم، إلّا أن المسدّس أصلحها، وهو ما يعمله النحل.

وعين الباحثون الزاوية التي تلتقي عندها السطوح للحصول على أعظم اقتصاد فوجدوا أنّها هي الزاوية نفسها التي يلتقي عندها سطح أرض غرفة النحل.

وقالوا: حينما نتأمّل أسرار الخليّة لا يسعنا إلّا أن نظل على ذكر آية من آياتها، ألا وهـي الحجرة المسدّسة، التي تكاد تبلغ درجة الكمال المطلق، فلا تستطيع أن تزيد عليه كلّ عبقريات البشر أيّة تحسينات».

أفكانت النحلة تصنع بغريزتها كلّ هذه الأعمال المتقنة دون أن تكون هي أثراً من آثار خالق عظيم عليم حكيم قدير محيط بكل شيء علماً؟!.

* * *

(٦)
المقولة السادسة:
آيـــات في العنكبوت

هذا الحيوان الصغير طويل القوائم، الذي ينسج بيوته الواهنة في دورنا، فنلاحقه بالكنس والتنظيف، فيه آيات باهرات من آيات إتقان الصنعة، وإحكام التنسيق والترتيب، والإبداع المدهش.

فلنطالع بعض ما اكتشفه البحث العلمي الإنساني من صفاته وخصائصه.

● تقوم الإناث من العناكب بعمليات صناعيّة ثلاث:

(أ) طبخ مادّة الحرير العجيب بأوعية خاصّة تشبه الأثداء في الحيوانات الثدييّة الحلوب.

إنّها تأخذ ما تهضمه من غـذاء ـ وغذاؤهـا الحشرات التي تصيـدها كالذباب ـ فتطرح عليه أنزيمات تفرزها، فيتحوّل إلى مادّةٍ حريريّة عجيبة.

(ب) صناعة الخيوط التي تنسج منها بيوتها، فلديها فوق مصنع المادّة الأساسية مصنع للغزل، مؤلف من عدّة وحدات، تقدّم كلّ وحدة منها خيوطاً تمتاز ببعض الخصائص والصفات.

(ج) نسج البيوت، إذ تقوم بنفسها ـ فوق طبخ مادّة الحرير وصناعة الخيوط وغزلها ـ بعمليات نسج بيوتها، وفق هندسة محكمة متقنة، ملائمة للغاية المعدّة لها هذه البيوت.

قال علماء الحيوان: والعناكب مزوّدة بجهاز للغزل في الطرف من بطنها،

يخرج منه خيط رفيع جدّاً لا يكاد يُرى. وهذا الخيط يكون سائلاً عند خروجه من أنبوب الدفع، فإذا مسّه الهواء تجمّد، شأنه كشأن المعامل التي تنسج خيوط النايلون.

وجهاز الغزل لدى العناكب ينتج نوعين من الخيوط الحريريّة:

النوع الأول: جافٌّ لا مرونة فيه، وهو لإقامة الهيكل الذي يعتمد عليه البيت.

النوع الثاني: مَرِنٌ لزج، يلصقُ به كلُّ ما يمسّه، ليكون الشبكة الصالحة لصيد الحشرة التي تكون غذاء صاحبة البيت.

وصاحبة البيت إذا تنقّلت فيه لم تمسّ الخيوط المرنة اللاصقة المعدّة شبكة للصيد، وإنما تمشي على الخيوط الجافة التي هي هيكل البيت وعَمَده.

وتجلس في العادة في أوسط بيتها، تترصّد ما تصيده شبكتها، ولها في رأسها عيونٌ متعدّدة ترى بها كلّ الجهات.

ومغازل العناكب فيها عدد كبير من الأنابيب الغازلة، قد يصل في بعض العناكب إلى ألف أنبوب.

وخيط الحرير الذي يخرج عادة من هذه الأنابيب، يبلغ قطره ثلاثة أعشار ميكرون[1]. وكما أنّ مصانع الغزل تجمع بين عدد من الخيوط الرفيعة فتغزلها، وتجعلها خيطاً واحداً قويّاً، فإنّ العناكب تقوم بمثل هذه العمليّة الصناعية المتقنة.

ومن العجيب أنّ حرير العناكب أدق وأرق وأخف وأمتن من حرير دود القزّ، إلاّ أنّه من الصعب جدّاً تسخير العناكب لصناعة حريرها بكميّات تجاريّة.

---

(١) الميكرون: جزء من ألف جزء من المليمتر.

وقالوا: إنّ حرير العناكب يستخدم في صنع الأجهزة البصريّة، وخياطة جراحتها، لأنّه أدق خيط معروف حتى اليوم.

● والعنكبوت متدلٍّ ماهر جدّاً على الخيط الذي يصنعه، إذ يلصق طرفه في المكان المرتفع، كالسقف مثلاً، ثمّ يغزل ويتدلّى محمولاً بخيطه الذي يغزله، فإذا أراد العودة تسلّق على خيطه نفسه بمهارة فائقة.

● ويجعل من خيوطه جسوراً يتنقّل عليها بين الأشجار المتباعدة، مستخدماً هبوب الرياح، التي تحمل أطراف هذه الخيوط إلى الأشجار التي لا تكون عالقة بها.

● ولكل فصيلة من فصائل العناكب شكل خاصٌّ لبيوتها، ومن هذه الأشكال ما هو كالملاءة، ومنها ما هو كالقمع، ومنها الهندسيّ الدّائري، ومنها غير ذلك.

فهل كان لهذا الحيوان الصغير العجيب كل هذه الخصائص من نفسه، ومن صنع ذاته؟!. أم هل كان على سبيل المصادفة العشوائية؟! أم هو صنع ربّ خالق؟



(٧)
المقولة السابعة :
آيـــاتٌ في الخفّاش

الخفّاش أو الوطواط: حيوان يشبه الفأر، وهو من فصيلة الثدييّات، إلّا أنّ له جناحين من رقائق جلدية يطير بهما.

● وهو طير إلّا أنّه لا يبيض مثل الطيور، وليس له ريش على جسده، ولا في أجنحته. وجناحاه شبيهان بعباءةٍ غمس فيها جسده وقوائمه إلّا رأسه وإبهاميه.

● إنه طائر اللّيل الذي فيه من إتقان الصنعة آيات وآيات دالّات على الخالق العظيم الذي أتقن كلّ شيءٍ صنعاً، وأعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى.

فلنطالع بعض ما اكتشفه علماء الحيوان عن هذا الحيوان العجيب:

● إنّه يطير بأجنحة وليس بطير، وهو مثل الفأر شكلاً وليس بحيوان أرضي، أنثاه تلد وترضع أولادها وتحنو عليها. إنّه من فصيلة الحيوانات الثدييّة إلّا أنّه شذّ عنها بأنه غير قارض، وبأنّ له جناحين يطير بهما بسرعة فائقة.

● وهو صياد للحشرات ماهر، يصيدها وكلٌّ منهما طائر، وبسرعة فائقة عجيبة يتحوّل ويتقلّب في الجوّ مبتعداً عما يصدمه، وملتقطاً لما يأكله ويلتهمه.

● جناحاه من جلد رقيق انضمّ فيه ذراعاه ورجلاه وذيله.

إنّه غاسقٌ قوّام اللّيل نَـؤوم النهار، يحبّ من المساكن المظلمات كالأقبية والكهوف.

● ضعيف البصر، وإذا اضطرّ أن يصل إلى الأرض ويمشي عليها مشى زحفاً، مستعيناً بإبهاميه الخارجين من عباءته. ثم هو لا يستطيع أن يطير حتى يعلو على مشرفٍ ويقذف بنفسه إلى الهواء، وعندئذٍ يحمله الهواء بوساطة أجنحته الجلديّة.

● ومن عجيب أمره وهو ضعيف البصر وسريع الطيران ولا يطير إلّا في الليل، أنّه لا يصطدم بجدار مرفوع، ولا بعمود منصُوب، ولا بحبل ممدود، ولا بأيّ غصن تحرّكه الرياح.

● وإذا أراد التقاط أيّة حشرة طائرة، اتّجه لها كالصاروخ الذي يتحرك بحركة الهدف، فجعلها تدخل في فيه، وتصطدم بمبْلَعِه، وعندئذٍ يزدردها هنيئاً مريئاً، وحلالاً طيّباً.

وقد أجرى بعض الباحثين من العلماء تجربة على مجموعة من الوطاويط، أطلقوها في غرفة مدّوا في فراغها حبالاً كثيرة متعامدة متعارضة متشابكة، فلم يصطدم أحد منها بأحد من هذه الحبال الكثيرة، ثم حجبوا عيونها فطارت دون أن تصطدم بشيءٍ من الحبال، فعلموا أنّ لديها جهازاً غير الجهاز البصري، وهذا الجهاز هو الذي يحميها من الاصطدام بالأشياء.

وتتبع الباحثون هذا الحيوان بالدراسة، فتوصّلوا إلى حقائق مدهشة.

لقد عرفوا أنّ هذا الحيوان يخرج أصواتاً على شكل نبضات، ذات ذبذبات عاليات، تقارب مئة ألف ذبذبة في الثانية، وهذه الأصوات هي فوْق مستوى سمع الإنسان، لأنّ سمع الإنسان لا يدرك من الأصوات ما تفوق ذبذبته على عشرين ألف ذبذبة في الثانية.

وهذه النبضات الصوتية التي يرسلها الوطواط إذا اصطدمت بشيءٍ عاد رجعها إلى سمعه، فأدرك أنّ أمامه ما يصطدم به، مع الشعور بمقدار سطحه، فينعطف عنه ولا يصطدم به.

وفي أذن الوطواط قدرة على إدراك رجع هذا الصوت بذبذبته العالية...

فمن أبدع في هذا الحيوان هذا الرادار العجيب، قبل أن يصل الإنسان إلى اكتشاف سرّ الرادار بمئات الألوف من القرون؟!

سبحان الله ربّنا الذي أعطى كلّ شيءٍ خلقه ثم هدى.

* * *

(٨)

المقولة الثامنة:

آيات في طائر البطريق

في النصف الجنوبي من الكرة الأرضيّة يعيش طائر عجيبٌ فيه آيات من آيات الخالق العظيم، يطلق عليه اسم «البطريق».

إنّه طير لكنه لا يطير، يسبح ويغوص وليس بسمك، يمشي على قدميه منتصب القامة وليس بإنسان.

إنّه يكوّن أمّة جماعية تتآزر وتتعاون، وتأوي جماعاتها الكبيرة في منازل تنفرد بها، بعيدة عن مواطن العمران. وهو من سكان المناطق الباردة.

فلنطالع شيئاً ممّا ذكره علماء الحيوان عن طائر «البطريق». قالوا:

● إنّ له جناحين، ولكن ليس لجناحيه هٰذين قوادم يطير بها، إنّهما جناحان ضيّقان، فهو يستخدمهما مجدافين، يدفعانه وهو يسبح في الماء دفعاً شديداً، ليلاحق فريسته من السّمك، إذ السمك طعامه.

● وهو ينزل من الأرض منازل بعيدة عن العمران، في المناطق الباردة، وعلى ثلوج القطب الجنوبي، فوق القارّة التي تعرف اليوم بقارة القطب الجنوبي. وقليل من أصناف هذا الطائر ما يذهب شمالاً.

● وجماعات هذا الطير تعيش في مساكنها الواسعة المنعزلة، وفيها تتوالد وتتكاثر، وتجد أرزاقها في الماء، فهي تسبح في الماء أفضل ممّا يسبح السمك، وتغطس فيه أفضل من غطسه، فتأكل منه، وتحمل منه لصغارها في البرّ.

● وجماعة طائر البطريق تجتمع على الأرض زُمراً زُمراً، قد تبلغ كلّ زمرة منها مئات الألوف عدداً.

● تكاد تحسب طائر البطريق وهو واقف من بعيد إنساناً صغيراً واقفاً. قد ارتدى على ظهره رداءً أسود، ولبس قلنسوة سوداء، وقميصه الأبيض قد ظهر من قِبَلِ صدره، حتى مشارف قدميه. ويمشي فينقل قدماً من بعد قدم، في تؤدة ورزانة ووقار.

● وتبيض أنثى البطريق بيضة أو بيضتين، فيتولّى أمر احتضانها الذكر، ولما كانت الأرض شديدة البرودة فإنّه يحتضن البيضة على ظهر قدمه الدافئة، ويغطيها بريش بطنه المتدلي، ويظلّ يحتضنها مدّة شهرين يغالب فيهما قسوة الجوّ البارد الذي يعيش فيه.

● ويفقد من وزنه في مدة الاحتضان نحواً من خمسة وعشرين رطلاً، وهذا المقدار يعادل ثلث وزنه.

● فإذا فقست البيضة وظهر الفرخ الوليد الجديد، جاءت الأمّ فحلّت محلّ الأب، وقامت على تربية طفلها.

● ومن غريب أمر طائر البطريق أن حاضن البيض إذا أضناه التعب، وكان أمامه جار ليس له بيض يحضنه، دحرج إليه بيضته، فتلقّاها هذا الخليّ وقام بحضانتها. إنّه تعاون جماعيّ غاية في العجب.

● ومن مظاهر التعاون الجماعيّ عنده، أنّ الكبار تخرج إلى البحر لتصطاد أرزاقها، فتخلّف عند صغارها نفراً منها ليقوموا بواجب حراسة الصغار، وتقف الصغار هادئة منتظمة صفوفاً، تنتظر تعليمات المشرفين عليها.

فسبحان من أعطى كلّ شيء خلقه ثم هدى.

* * *

(٩)
المقولة التاسعة :
آيــات في السّمك

يحدّثنا علم الحيوان عن عالم السمك وما فيه من عجائب وغرائب، تدهش الناظر المتفكّر، وتجعله يذعن للخالق العظيم، الذي أتقن كلّ شيءٍ صنعاً، وأعطى كلّ شيءٍ خلقه ثمّ هدى.

١ ــ في هذا العالم البحري ما يُسمَّى بثعبان السمك. إنّه يعيش في الأنهار والبرك، فإذا اكتمل نموّه هاجر منها، وعبر إلى المحيط الأطلسيّ، ثمّ يواصل رحلته التي يقطع فيها آلاف الأميال، حتى يصل إلى الأعماق السحيقة في جزر الهند الغربية، وهنالك يتزاوج، ويطرح بيوضه، ويلقحها، ويموت، وبذلك تنتهي مهمته وحياته.

وبعد مدّة من الزمن تفقس البيوض الملقّحة، وتخرج صغار هذا الحيوان، كأنها خيوط صغيرة لها عيون بارزة، فإذا هي استطاعت أن تتحرّك في الماء، وتشق العباب، أخذت تتهيّأ للعودة إلى مواطن آبائها، وترحل رحلتها مهديّة بقوّة خفيّة، ويتّجه كلٌّ منها إلى المكان الذي كان قد قدم منه أبواه، وتواصل رحلتها عبر البحور، والمضيقات، والخلجان، والأنهار المتصلة بالبحار، حتى تصل إلى مواطن آبائها، وقد تستغرق رحلتها ثلاث سنوات فأكثر، ولا تخطىء في مسيرتها الطويلة الشاقة، التي لم تصاحب فيها آباءها عند قدومها إلاّ ضمن ظهورها بيوضاً ولقاحات.

فمن يهديها السبيل في رحلتها الطويلة الشاقة هذه، فلا تعود ذرّيات ثعابين الأنهار الأوروبية إلى الأنهار الأميركية، ولا تعود ذرّيّات ثعابين الأنهار الأميركية إلى الأنهار الأوروبيـة، وكذلـك لا تخطىء ذرّيـات ثعابـين الأنهار الإفريقية، أو الآسيوية.

فهل كان لها أن تفعل ذلك من ذاتها، لولا أنّ الله عزّ وجلّ أعطاها خصائص خلقها، ثمّ هداها سبيلها؟!

٢ ــ وفي هذا العالم البحري ما يسمّى «سمك السلمون». إنه صنف من السمك يعيش في البحار، ولكنّه حين يبلغ مرحلة النضج التزاوجي يتهيّأ للرحيل إلى الأنهار ذات المياه الحلوة، لتضع إناثه في المياه الحلوة بيوضها، ولتصبّ عليها ذكوره حيواناتها اللقاحيّة، ثمّ إذا خرجت المواليد الجديدة أمضت قُرابة سنتين من حياتها في مواطن ولادتها، ثمّ ترحل بعد ذلك إلى البحر، كأنها تعرف طريق رحلتها منذ كانت في بطون أسلافها.

ثم حين تغدو قادرة على الإخصاب تعود إلى مواطنها في الأنهر، لتستأنف الوظيفة الحياتية التي قامت بها آباؤها وأمهاتها من قبل.

قالوا: ولو أن ناقلاً نقل حوتاً من نوع السلمون من نهره إلى نهر آخر وألقاه فيه، لأدرك هذا الحوت في الحال أنّ هذا النهر ليس موطنه، وعندئذٍ يرجع بكل قواه شاقاً طريقه إلى نهره الخاصّ به، ولا يصدّه عن ذلك شدّة التيّار المعاكس.

فمن يهدي هذا الحوت سبيله؟.

ومن يُرَشِّده طريقه؟.

ومن يدلّه على مواطنه ومواطن آبائه؟.

لقد وقف علماء الحيوان حيارى، لا يدرون سرّ اهتداء الحيوان إلى موطنه

الأصلي، لا سيما إذا كان قد ولد في غيره، وليس معه من أصوله قائد يقوده ويهديه.

إن قالوا: هي الغريزة. قلنا: ما هو الربط بين الغريزة وبين المواطن التي يبتعد عنها الحيوان آلاف الأميال.

وإنْ قالوا: هو الإلهام. قلنا: الإلهام هديٌ خفيٌّ من هدي الخالق العظيم الذي أحاط بكلّ شيء حكمةً وعلماً، والذي أعطى كلّ شيء خلقه ثم هدى.

إنها حقائق يقف المتفكر عندها مذهولاً، وهذه الحقائق تهدي كلّ ذي عقل رشيد، ورأي سديد، وخلق حميد، إلى الإيمان بالله المهيمن على الوجود كلّه، والمدبّر للأمر كلّه.

□ □ □

الفصل السّادس

آيـــةٌ في المقــابر

أبان الله لنا في كتابه أنه قد خلق كلّ شيءٍ بقدر، وأنّه ينزّل ما ينزّل بقدر، وأنّه يشرع لعباده ما يشرع بقدر.

فنظام تحديد المقادير في كلّ كبير وصغير هو النظام الشامل للوجود كلّه. وقضاءُ الله في الخلق إنّما يتمّ بعد تحديد مقدار كلٍّ شيءٍ فيما يريد خلقه، وتتناول المقادير كلّ كمٍّ من وحدات المادّة، ووحدات الطاقة، والحركة، والسرعة، والزمن، والمكان، والسبب، وكل الأعراض والأوصاف الظاهرة والباطنـة، ما يدركه الناس منها وما لا يدركون، ما يبصرونه وما لا يبصرون.

فكلّ ما يخضع لإرادة الله وقدرته وخلقه وأمره ونهيه إنّما يتم بقضاء وقدر، فبالقدر يتمّ تحديد المقادير، وبالقضاء يتمّ تنفيذ المراد أو تقريره.

وتقرّر البحوث العلمية الإنسانيّة أنّ كلّ شيءٍ في هذا الكون مدبّر بنظام المقادير الحكيمة. وأنّ أيّ تغيير في نسب المقادير يسبّب نقصاً أو خللاً أو فساداً أو تدميراً كبيراً.

فمن شاء أحْكمَ الأمرِ وأتقنَه، فليلزم المقادير المرسومة للأشياء، مستفيداً من ملاحظته وتجاربه وخبراته، وليحذر التلاعب بنسب مقادير المكوّنات والتغيير فيها، لأنه سيُسيء إلى نفسه وقد يجني عليها، وربّما أهلك ودمّر، أو أضاع جَهْده وبدّده سُدى مع ما يتلف من ذوات قيم.

* * *

وتقول البحوث العلميّة الإنسانيّة مقالات كثيرات حول المقادير وحدودها ونسبها، منها ما يلي:

١ ـ لو زاد حجم الأرض أو نقص عمّا هي عليه، لتغيّرت سرعة سيرها ودورانها، ولاختلّ بذلك نظام ليلها ونهارها وفصولها.

فحجم الأرض محسوب بعناية فائقة، للمهمة المعدّة لها.

٢ ـ ولو قلت كثافة الأرض وقلّ وزنها لقلّ جذبها للأشياء، ولتفلّت بسبب ذلك ما حولها من الغاز الضروري لحياة الأحياء عليها.

فكثافة الأرض ووزنها محسوبان بعناية فائقة للمهمة المعدّة لها.

٣ ـ ولولا الدورة اليومية التي تدورها الأرض حول محورها، لما كان لسكّان الأرض ليلٌ ونهار متعاقبان دائبان ثابتان.

٤ ـ ولو زادت سرعة دوران الأرض حول نفسها عن ألف ميل في الساعة، لتقاصر نظام الليل والنهار، ولما كانا مناسبَيْنْ تماماً لحاجة الإنسان إلى العمل والراحة.

٥ ـ ولو نقصت سرعة دوران الأرض حول نفسها، فكانت مثلاً مائة ميل في الساعة، لأصبح طول النّهار عشرين ومئة ساعة، ولاحترقت بسبب ذلك الزروع تحت وطأة حرارة الشمس في النهار الطويل، ولأصابها مثل ذلك في زمهرير اللّيل الطويل. ولاختلّت الملاءمة الفضلَى بين نظام الليل والنهار، وحاجة الأحياء على الأرض.

لكن عناية الخالق العظيم قد أحكمت الملاءمة أيّما إحكام، فلم يختَلَّ النظام السويّ الأمثل في الأرض، ولم يجر فيه تعديل ولا تبديل بثانية واحدة منذ الملايين الملايين من السنين.

فما هذا الضبط الرائع لهذه الساعة الدهريّة؟!.

٦ ـ ولولا نظام الجاذبيّة الذي يشدّنا إلى الأرض لطرنا عن ظهرها،

وانتثرنا انتشاراً في الفضاء الجويّ، نحنُ ودورنا وأشياؤنا وكلّ ما على الأرض ممّا ليس متماسكاً بها وفق نظامٍ آخر.

ولولا التعادل العجيب بين مقدار قوّة الجاذبيّة، والقوّة النابذة عن المركز التي تحدثها سرعة الدوران لقذفتنا القوة النابذة، ولأزيحت البحار عن وسط الأرض إلى القطبين، أو لأثبتتنا في الأرض قوّة الجاذبية، فلم نطق الحركة عليها، ولزاد وزن الأشياء عليها، واشتدت الحياة، وصعبت أسبابها.

لكن تمت الملاءمة وفق نظام المقادير الأمثل، وذلك لا يمكن أن يكون على سبيل المصادفة؟ وإنّما يتمّ بتخطيط سابق، وعلم محيط شامل، وقدرة على التنفيذ لاحدود لها.

٧ ـ وأن نظام الّليل والنهار، ونظام الفصول الأربعة السنوية المتنقلة على الأرض، ونظام توزيع الإشراق الشمسيّ على الأرض بشكل يضمن مصالح أنواع الأحياء المختلفة عليها، التي يتلاءم مع كلّ نوع منها قدر مُعَيَّنٌ من الإشراق، ويحتاج مُناخاً معيّناً وبيئة خاصة تزيد فيها الحرارة أو تنقص، إنّما هي ظواهر وآثار كونِ الأرض كرويّة تقريباً، تدور حول نفسها في كلّ أربع وعشرين ساعة، وتدور حول الشمس في مدار على شكل إهليلجي، بوضع مائل على المدار بزاوية قدرها «٢٣» درجة.

وقد امتنّ الله علينا بهذه الظواهر، ليرشدنا إلى البحث عن الأسباب الكونية التي تقتضيها، فنكتشف آيات قدرته وعلمه وكمال حكمته. فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥ ﴾.

التكوير المتلاحق بين الليل والنهار ظاهرةٌ من ظواهر الدوران الكروي،

الذي تقوم به الأرض حول نفسها في مواجهة الشمس، فالأرض مُسَخَّرةٌ بالدوران، والشمس مسخّرة لإطلاق أشعتها، ومدّ الأرض بالطّاقة والضوء.

وتقول البحوث العلمية الإنسانية:

إنّ سرعة مسيرة الأرض في دورتها السنوية حول الشمس طَوال العام الشمسي؛ تعادل ثمانية عشر ميلاً في الثانية، أي: ألفاً وثمانين ميلاً في الدقيقة الواحدة.

ولو أنّ هذه السرعة زادت أو نقصت ثانية واحدة في كلّ سنة، بل في كلّ مئة سنة، لاختلّ نظام الفصول الأربعة، على الأرض، ولاختلّ معه نظام المطر العجيب.

وكذلك لو كان الفلك الذي تدور فيه الأرض حول الشمس أطول أو أقصر، أو لو أنّ شكل الفلك الذي تدور فيه لم يكن إهليلجيّاً لاختلّ نظام الفصول الأربعة أيضاً.

وكذلك لو لم تكن الأرض في دورتها مائلة بزاوية قدرها (٢٣) درجة، لاختلّ أيضاً نظام الفصول الأربعة المتنقّلة على الأرض، ولكان وسط الأرض صحراء تحترق في صيف دائم، ولكان طرفاها مغمورين بركام كثيف من الثلوج.

ولو أنّ هذا الميل زاد عمّا هو عليه لعانت المنطقتان المعتدلتان من ليل طويل وشتاء طويل، أو من نهار طويل وصيف طويل.

لكنّ درجة الميل التي عليها الأرض هي الدرجة المحكمة اللازمة لهذا النظام البديع.

فسبحان مُقَدِّر المقادير بحكمته البالغة، إنّه سريع الحساب، ومحيط بكل شيءٍ علماً.

* * *

ومن ظواهر تحديد المقادير بإتقان وإحكام، تسخير الأشياء والأحياء بعضها لبعض، وربط بعضها ببعض، وإيجاد التكامل فيما بينها بتقديرات عجيبات غاية في الدقة والإبداع.

فالتكامل التزاوجيّ بين الذكر والأنثى لم يتمّ إلّا بتحديد مقادير صفات كلٍّ منهما، وضبط علاقات هذه المقادير.

وأسباب حياة الأحياء، وربط منافع كلّ شيء بشيءٍ آخر، وربط مصالح كلّ ذي مصلحة مع الكائنات الأخرىٰ بتشابك في الوجود مدهش، لم يتمّ إلّا بتحديد مقادير تعجز العقول عن تصوّرها، وتصوّر الترابط فيما بينها.

والعلاقة التكاملية الحياتية بين النبات والكائنات الحيّة المتحركة بالإرادة، وبين عناصر التراب والماء والهواء والشمس والقمر وغير ذلك في الكون، لم تتمّ إلا بتحديد مقادير مذهلة في إحكامها وإتقانها.

ومن شواهد ذلك في الدراسات العلمية الإنسانية ما يلي:

كتب الدكتور «جون وليام كلوتس» عالم في الوراثة، وأستاذ علم الأحياء والفسيولوجيا، مقالاً بعنوان «الله والكون المعقّد»(١) جاء فيه ما خلاصته:

«١ ــ إنّ هذا العالم الذي نعيش فيه قد بلغ من الإتقان والتعقيد درجة تجعل من المحال أن يكون قد نشأ بمحض المصادفة.

إنّه مليء بالروائع والأمور المعقّدة التي تحتاج إلى مدبّر، والتي لا يمكن نسبتها إلى قدَرٍ أعمىٰ.

٢ ــ لا شكّ أنّ العلوم قد ساعدتنا على زيادة فهم وتقدير ظواهر هذا الكون المعقّدة. وهي بذلك تزيد من معرفتنا بالله، ومن إيماننا بوجوده.

٣ ــ تحدّث عن ظاهرة العلاقات التوافقية العجيبة بين بعض الكائنات.

---

(١) من كتاب «الله يتجلّى في عصر العلم».

فذكر من أمثلتها العلاقة الموجودة بين فراشة «اليوكا» ونبات «اليوكا» وهو أحد النباتات الزنبقية.

فزهرة «اليوكا» تتدلّى إلى أسفل، ويكون عضو التأنيث فيها أكثر انخفاضاً من عضو التذكير. والجزء الذي يتلقّى حبوب اللقاح يكون على شكل الكأس، إلّا أنه موضوع بطريقة لا يسمح بأن تسقط فيه حبوب الّلقاح.

وهنا يأتي عمل فراشة «اليوكا» فهذه الفراشة تنقل حبوب الّلقاح وتبدأ عملها بعد مغيب الشمس بقليل، فتجمع مقداراً من حبوب اللقاح من الأزهار، وتضعها في فمها المبني بطريقة خاصّة لأداء هذا العمل، ثم تطير به إلى نبات آخر من النوع نفسه، وتثقب مبيضها بطرفٍ مدبّب يشبه الإبرة في مؤخر جسمها، فينزل منه البيض، وتضع الفراشة بيضة أو أكثر، ثم تزحف إلى أسفل الزهرة حتى تصل إلى القلم، وهنالك تترك ما جمعته من حبوب اللقاح على صورة كرة فوق مبسم الزهرة.

وينتج النبات عدداً كبيراً من الحبوب، يستخدم بعضها طعاماً ليرقة الفراشة، وينضج بعضها لكي يواصل دورة الحياة.

٤ ــ وذكر من الأمثلة أيضاً علاقة مشابهة بين نبات التين ومجموعة من الزنابير الصغيرة، إذْ ينتج هذا النبات نوعين من مجموعات الأزهار، يحتوي أحدهما على الأزهار المذكرة والمؤنثة معاً، أمّا الآخر فجميع أزهاره مؤنثة، ويقوم بتلقيح الأزهار المؤنثة في كلا النوعين السابقين إناث الزنابير.

وفصّل الطريقة المعقَّدة التي تسلكها الزنابير لأداء وظيفتها هذه. واستدلّ من كلّ ذلك على التدبير الحكيم الذي يهيمن على هذا الوجود، وأنّه لا يمكن أن ينشأ عن محض المصادفة، ولا أن ينسب إلى قدر أعمى.

وذكر أنّه توجد أزهارٌ كثيرة تسجن الحشرات داخلها، لتقوم هذه الحشرات بوظيفة التلقيح بين ذكور النَّبات وإناثه.

ومن أمثلتها الزهرة المسمّاة «جاك في المقصورة» فلهذا النبات نوعان من

المجموعات الزهرية، ذكور وإناث. وهي تتكوّن داخل مقصورات تضيق عند منتصفها. ويتم التلقيح بوساطة ذبابة دقيقة تدخل إلى المقصورة، ولا تكاد تجتاز المنطقة الضيّقة الوسطى، حتى تجد نفسها سجينة، ليس بسبب الضيق فحسب، بل بسبب تغطية الجدران الداخليّة بمادّة شمعيّة منزلقة، يتعذّر معها على الحشرة أن تثبّت أقدامها، وعندئذٍ تدور الحشرة بصورة جنونيّة داخل المكان، فتعلق هباءات اللّقاح بجسمها.

وبعد قليل تتصلّب جوانب المقصورة بعض الشيء فتستطيع الحشرة الخروج، بعد أن يكون جسمها قد تغطّى بهباءات اللقاح.

فإذا زارت الحشرة مقصورة مذكرة أخرى تكرّرت العملية السابقة، أمّا إذا دخلت مقصورة أنثى فإنّها تُسجن في داخلها سجناً دائماً حتى تموت هي، وعند محاولتها اليائسة أن تخرج تقوم بتلقيح الأزهار الأنثىٰ.

إنّ النبات في هذه الحالة لا يهتمّ بخروج الحشرة، لأنّها تكون قد أدّت رسالتها، أمّا عند زيارتها للمقصورات المذكرة فإنّه يُسمح لها بالخروج لأنّها لا تكون قد أدّت رسالتها بعد.

٦ ــ وقال: «ونستطيع أن نلمح أدلّة أخرى على وجود الله وقدراته في تلك الحالات العديدة التي حاول الإنسان فيها أن يتدخّل في توازن الطبيعة، أو يعمل على تعديله».

وضرب مثالاً على ذلك ما جرى في أستراليا:

وذلك أن المهاجرين الأولين إليها لم يجدوا فيها ما كانوا يستمتعون به من صيد الأرانب في أوروبّا. فاستورد «توماس أوستين» قرابة اثني عشر زوجاً من الأرانب، وأطلقها في أرض أستراليا، وكان ذلك في سنة «١٨٥٩» ولم يكن لهذه الأرانب أعداءٌ طبيعيون في هذه الأرض، ولذلك تكاثرت بصورة مذهلة، وكانت النتيجة سيّئة للغاية.

فقد أحدثت الأرانب أضراراً بالغة بتلك البلاد، إذ قضت على الحشائش والمراعي التي ترعاها الأغنام.

وبذلت محاولات عديدة للسيطرة على الأرانب، وبُنيت أسوارٌ في القارّة بلغ امتدادها «٧٠٠٠» ميل.

ومع ذلك ثبت عدم فائدتها، فقد استطاعت الأرانب أن تتخطّاها.

ثم استخدم نوع من الطعم السامّ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل أيضاً.

ولم يمكن الوصول إلى حلّ إلّا في السنوات الأخيرة، وكان ذلك باستخدام فيروس خاص يسبّب مرضاً قتّالاً لهذه الأرانب، هو مرض الْخَرَض المخاطي.

وذكر: أنّه قد لا يكون هذا هو الحلّ الأخير، فقد أخذنا نسمع أخيراً عن ظهور أرانب حصينة لديها مقاومة كبيرة لهذا المرض في أستراليا، إلّا أنّ الحالة قد تحسّنت جدّاً باستخدام هذا المعدّل الطبيعي في ميزان الكائنات الحيّة.

ثم قال: «ومن الطريف أنّ استخدام فيروس الأرانب في أوروبّا قد أحدث أثره هنالك.

فقد أحضر طبيب فرنسي من المهتمين بالموضوع ــ بسبب ما أحدثته الأرانب من الأضرار للأشجار في حديقته ــ بعض هذا الفيروس، وحقن به بعض الأرانب البريّة التي اصطادها، ثم أطلقها بعد ذلك.

وقد ترتب على ذلك انخفاض عدد الأرانب في فرنسا، بل في الأقاليم الأوروبيّة المجاورة أيضاً».

٧ ــ ثم قال: «فالتوازن الذي خلقه الله في جميع مظاهر الطبيعة، يعتبر من النوع الدقيق.

وقد تؤدّي أيّة محاولة للتدخل فيه إلى أضرار بالغة، ولذلك ينبغي أن

يتريث الناس قبل أن يقدموا على أيّة محاولة لتعديل موازين الطبيعة، فذكاء الإنسان أقلّ من أن يحيط بحكمة الخالق».

٨ ــ وقال: «أفلا تدلّ كلّ هذه الشواهد على وجود الله؟.

إنّه من الصعب على عقولنا أن نتصوّر أنّ كُلّ هذا التوافق العجيب قد تمّ بمحض المصادفة.

إنّه لا بدّ أن يكون نتيجة توجيه محكم يحتاج إلى قدرة وتدبير».

□ □ □

الفصل السّابع

آيــةُ الجَــمَال

الجمال في الكون ظاهرة عجيبة، ليس باستطاعة أيّ متعنّتٍ مكابر أن يفسّرها بالتطوّر الذاتي، لأنّ فكرة التطوّر الذّاتي على سخفها، وبُعدها عن الحقّ، واستحالتها استحالة قطعيّة عند مختلف أهل الفكر والعلم من المنصفين الذين لا يتّبعون الأهواء ولا يستكبرون، فإنّها مرتبطة بالحاجة إلى التطور، وفق مزاعم أصحاب هذا المذهب.

لكن ما هي الحاجة العضويّة الحياتية إلى الجمال في مختلف الكائنات، بدءاً بالجامدات غير النامية، فإلى النباتات النامية، فإلى الحيوانات، حتى غاية سُلّم الكائنات الحيّةِ المريدة؟!

ما هي حاجتها إلى أن تكون جميلة محلّاةً بما يزينها؟!

ما سبب هذا الفنّ البديع الذي نجده في هندستها، وفي ألوانها؟!

لـمَ كانت الوردة الجميلة مطبّقة الأوراق، ليّنة الأطباق، بديعة الأصباغ، محكمة القصّ والتصفيف، تنفح عطرها الزكي؟؟

أفكان كلّ ذلك ثمرة حاجتها إلى التطوّر فتطوّرت بنفسها، دون إتقان مُبدعٍ حكيم، أعطاها وجودها وزينتها، ورسومها وألوانها المختلفة وعطرها.

كم في الجامدات والنباتات والحيوانات من خطوط وألوان وأشكال ورسوم وحجوم بديعة لا تستدعيها أيّة حاجة من حاجات التطوّر المزعوم.

إذا كان الجمال حاجة من حاجات الوجود، فهو حاجة الفكر المشرق، والذوق المدرك، والحسّ المرهف، والشعور المترف، وليس شيءٌ من ذلك في زهرة ولا وردة ولا ثمرة، لأنّ جمالها يغري بها فيسبّب تلفها.

ما هي حاجة الحصان لأن يكون أغرّ الناصية، محجّل القوائم، مهيّأ الظهر بعناية لركوب الإنسان والكرّ والفرّ عليه؟. لو أنّ ذلك ثمرة حاجاته لاستقام ظهره، ولمنع الإنسان من تطويعه وتسخيره وركوبه، فقد كان يوماً ما شرساً، لا يلين لراكب، ولا يذلّ لراغب.

ما هي حاجة حمار الوحش لأن يكون جلده مخططاً خطوطاً ذات زينة، لا تأتي بهذا النسق البديع إلّا من عالم بالجمال محبّ له، يرسُم صنائعه على ما تقتضيه غاية التجميل والتزيين للناظرين؟.

ما هي حاجة الطاووس لهذا الريش المزيّن بأبدع زينة، والملوّن بأجمل الألوان، والمرسوم بأجمل الرسوم وأبدعها، تنمو مؤتلفة، وتصل إلى كمالها بغاية الائتلاف، لا يشذّ منها شاذّ، ولا يندّ منها نادّ؟.

ما هي حاجة الديك إلى ريشات ذيله القوسيّة، ذات الألوان البديعة، والشكل الجماليّ الرفيع، فهو يطوف مزهواً بجماله، متبختراً بأناقته، مستكبراً بالتاج الذي على رأسه؟

ما هي حاجة الهدهد لتاج الريش الذي على رأسه؟

ليس وراء ذلك غرضٌ تستدعيه حاجات هذه الأحياء، وليس وراء ذلك إلّا غاية الإبداع الفنّي الجمالي في الوجود، ليكون الجمال والإبداع الفنّي مذكّراً لذوي الأفهام والأذواق الجماليّة، بأنّ وراءه في سجوف الغيب عناية وقصداً، من قبل قادر عليم حكيم، يقدّم للعقول والأفكار المدركة آيات من آيات وجوده وكمال صفاته، كي يؤمنوا به وبعظيم صفاته، ولو لم يشاهدوا ذاته بأعينهم، فقد شهدوا بديع صنعته، وظواهر الجمال التي بثّها فيما خلق.

* * *

وقد دلّنا القرآن على ظاهرة الجمال في نصوص كثيرة:

١ ــ فقال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل ١٦):

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

فمن آيات الله في خلق الأنعام أنه عزّ وجلّ جَعَلَ فيها للناس جَمالاً يستمتعون به. وقد كان من الممكن أن تخلق بأشكال أخرى تؤدي معها المنافع الأخرى دون أن يكون فيها جمال.

فالجمال مقصود لذاته وليس شرطاً لازماً لتأدية الوظائف والمنافع الأخرى.

٢ ــ وقال الله عزّ وجلّ في سورة (النمل ٢٧):

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

ذات بهجة: أي: ذات حسن وجمال.

فَمِنْ آيات اللَّـهِ في إنبات الأشجار وجعل الحدائق أنّه عزّ وجلّ صاغها صيغة جمالية، لتكون متعة للناظرين.

وقد كان من الممكن أن تخلق بأشكال أخرى تؤدي معها وظائفها والمنافع الأخرى المقصودة منها دون أن يكون فيها جمال.

فالجمال عمل فني مقصود لذاته بغية إمتاع الناظرين، وليس لازماً لتأدية الوظائف والمنافع الأخرى.

٣ ــ وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الحج ٢٢):

﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾.

٤ ـ وقال الله عزّ وجلّ في سورة (ق ٥٠):

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ ﴾.

زوج بَهيج: صنف جميل حسن.

طَلْعٌ نَضِيد: ثمرٌ منضُودٌ أي: مرصوف بتناسقٍ جمالي.

فمن آيات الله في النبات والثمار أنّها مصوغة صوغاً جماليّاً، لتكون مع تأدية وظائفها النفعية ذات أشكال جمالية تسرُّ الناظرين.

٥ ـ وعرض القرآن لنا لوحة فنّيّةً مما خلق الله من جمال في الطبيعة، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الغاشية ٨٨):

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ ﴾.

إنّ هذه المذكورات مجتمعةً تقدّم لوحة فنّيّة يرى الناظر إليها أول ما يرى مسيرة قافلةِ الإبل في الصحراء، ثم يرى السماء أرضيّة لهذه اللّوحة، ثمّ تبرز له الجبال، ثم يهبط إلى الأرض فيرى انبساطها، ويلتقط ذو الفنّ الرفيع هذا المشهد من الطبيعة فيرسم له لوحة رائعة الجمال.

وقد ثبت عن النبـي صلى الله عليه وسلم أنّه كان يتجمل ولا يتبذّل، وكان يدعو إلى التجمّل في اللبس والهيئة والمأكل والمشرب.

وروى الإمام مسلم عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ من كان في قلبه مثقال ذرّةٍ مِنْ كِبْر».

فقال رجلٌ: إنّ الرجل يحبّ أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً. قال: «إنّ اللّـهَ جَميلٌ يُحِبُّ الْجَمالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الْحقّ وغَمْطُ الناس».

□ □ □

خـــاتمـــة

هذا ما فتح الله به عليّ في هذا الموضوع لهذا السفر، على أنّ الأدلّة على ربوبيّة الله ووحدانيّته فيها، التي يلزم عنها إلٰهيته ووحدانيته فيها لزوماً مباشراً، تظلّ تتوارد منها أمثلة من ظواهر خلق الله دون حدّ تقف عنده، ما دام البحث العلمي يتابع اكتشافاته الدالة على عظيم صنع الله وحكمته في خلقه، وعنايته بعباده، وكمال صفاته.

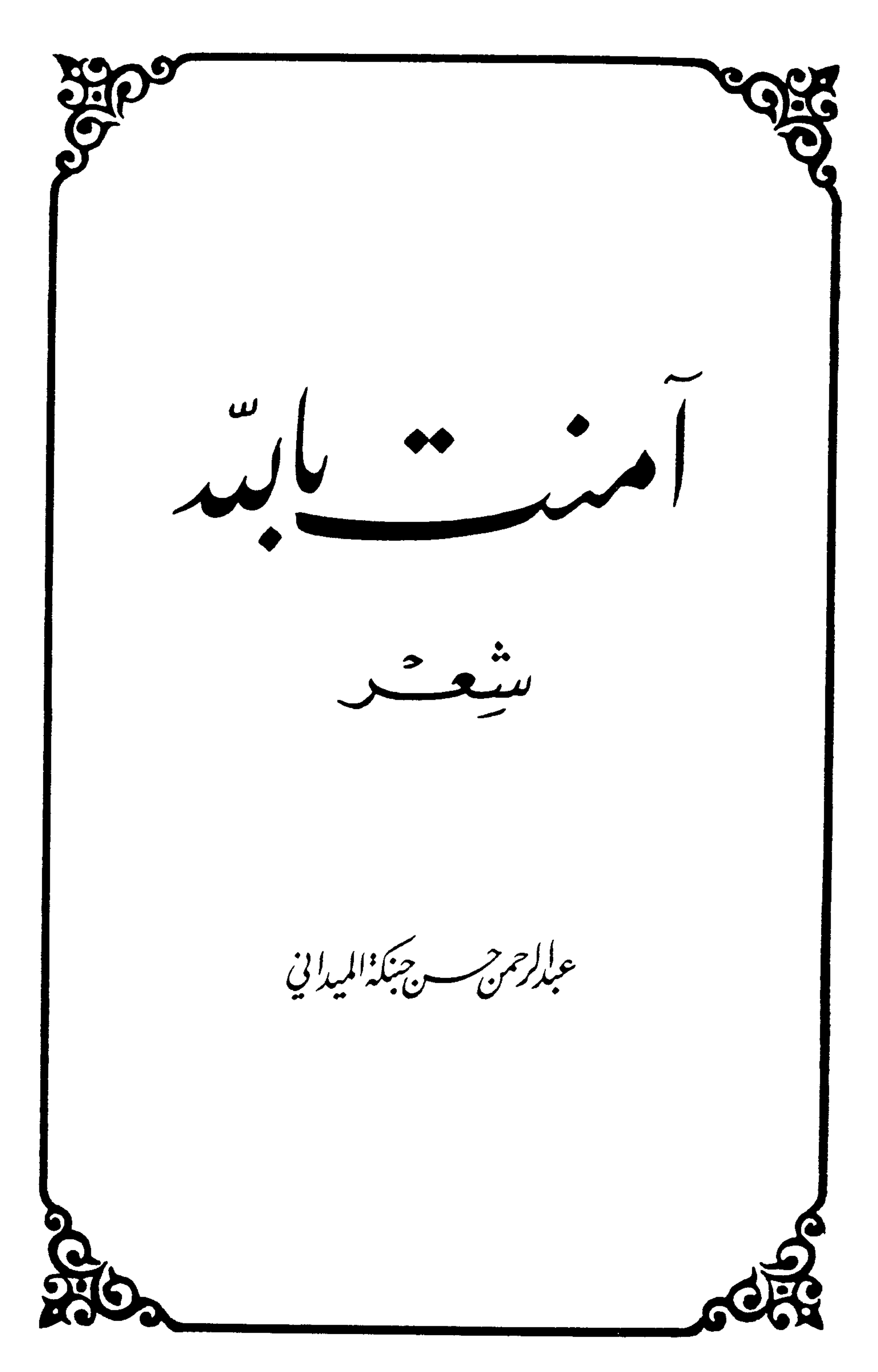
وإني أضيف هذا المصنف إلى جهود الكثيرين من الباحثين في هذا الموضوع الجليل، مساهمة منّي بتوفيق الله ومعونته، في تبصير الأجيال المعاصرة والقادمة، وإقناعها بالحقيقة الكبرى من حقائق الدين، وهي حقيقة الإيمان بالله ربّاً خالقاً واحداً لا شريك له، وإلهاً له العبادة وحده لا شريك له.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وكان الفراغ من كتابة مبيّضته في الثامن من ذي الحجة لسنة ١٤٠٦ هجرية، والحجّاج قد بدؤوا يخرجون إلى مناسكهم في منىٰ فعرفات، أدام الله للمسلمين تأدية هذا النسك العظيم في يسر وسهولة وسعة.

مكة المكرمة، يوم الأربعاء ٨/١٢/١٤٠٦هـ ـ ١٣/٨/١٩٨٦م.

عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني



آمنت بالله

شعر

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الشعر في النفس البشرية هبةٌ فطرية، تنمّيها ممارسة فنّية، ويغذّيها حسٌّ مُرْهَف، وذوقٌ نقّاد، ومشاعر متدفقة، وخيالٌ خصب. والشعراء في هذه الهبة متفاوتون، كسائر الهبات والخصائص الفطرية، الفنّية الجمالية، أو الفكرية العلميّة، أو الجسدية ما يتصل منها بالقوى، وما يتّصل منها بالمهارات.

والشعر من وسائل البيان وطرقه، وإنّ من البيان لسحراً، وهو من الفنون التي لها سلطان آسر، على كثير من المشاعر، فلا يجوز أن يكون بمعزل عن جهاد الدعوة إلى الله، ما دام ملتزماً بشروط الوسائل العامة لهذا الجهاد.

فمن آنس من نفسه موهبة البيان الشعري، وكان من جنود الدعوة إلى الله، فعليه أن يساهم ببيانه الشعري في هذا المجال، عسى أن يهديَ الله به ضالاًّ، أو يعلّم به جاهلاً، أو يردّ به إلى صراط الحق شارداً، أو يوقظ به إلى فعل الخير نائماً، أو ينبّه به غافلاً، أو يحرّك به ساكناً، أو يثبّت به متردّداً.

وقد دعتني إذاعة المملكة العربية السعودية محمودة مشكورة إلى تقديم برنامج يومي بعنوان «آمنت بالله» فقدمت هذا البرنامج خلال دورتين كاملتين، والتزمت في بعض حلقات هذا البرنامج أن أبدأ بآية أو بجملةٍ قرآنية، ثمّ أنظم قصيدة حول ما أشارت إليه هذه الآية أو الجملة القرآنية من آيات الله في الكون الدّالاّت على وجوده وعلى عظيم صفاته، ثمّ أتمّم الحلقة ببيان نثري في الموضوع نفسه، مقتبساً ممّا توصّلت إليه العلوم الإنسانية من معارف حول هذا الموضوع.

وكان قد ذكر لي الكثيرون ومنهم زملاؤنا المدرسون في الجامعة أنهم كانوا يتتبّعون حلقات هذا البرنامج، وتعجبهم القصائد الشعرية التي كانت تُصدَّر به بعض حلقاته.

ثم أشار عليّ من أثق برأيه أن أنشر هذه المجموعة من الشعر بعد أن أسمعته طائفة منها، لينتفع منها شباب الدعوة الإسلامية في هذا العصر.

فأنا أقدّم للقرّاء هذه المجموعة من القصائد الإيمانية بعنوان البرنامج نفسه «آمنت بالله» مع قصائد أخرى سبق أن نظمتها في الموضوع نفسه، مساهمةً بالشعر في مجال الدعوة إلى الله، والله أسأل أن ينفع بها ويهدي. إنه سميع مجيب.

ومعظم هذه القصائد قد نظمتها مع كتابة الأحاديث المتعلقة بموضوعاتها سنة **١٣٩٥** هجرية بمكة المكرمة.

أمّا ذوات الأرقام من (١) إلى (٩) ففي دمشق خلال السبعينات الهجرية حتى الثمانين ١٣٨٠هـ.

(١)
مناجاة

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ٨١﴾ (سورة غافر)

إلهي

عَرَفْتُكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ظَهَرْ عَرَفْتُكَ مِمَّا اخْتَفَىٰ واسْتَتَرْ
عَرَفْتُكَ مِنْ حَاضِراتِ الْوُجُودْ وَمِمَّا مَضَىٰ في زمانٍ غَبَرْ
عَرَفْتُكَ مِنْ لَفَحَاتِ الرِّيَاحْ وَمِنْ نَفَحَاتِ نَسِيمِ السَّحَرْ
عَرَفْتُكَ مِنْ وَطْأةِ الحَادِثَاتْ وَمِنْ رِقَّةٍ مِثْلِ خَمْلِ الزَّهَرْ
عَرَفْتُكَ مِنْ حِكَمٍ غُلِّفَتْ بِمَظْهَرِ خَيْرٍ وَمَظْهَرِ شَرّْ
عَرَفْتُكَ مِنْ كُلِّ عُمْقٍ لَدَيّ عَرَفْتُكَ مِنْ مِسْمَعِي والْبَصَرْ
عَرَفْتُكَ مِمّا وَرَاءِ الشُّعُورْ عَرَفْتُكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ شَعَرْ
بأنَّكَ أنتَ الإلٰه الأَحَدْ

* * *

إلهي

فَطَرْتَ حَيَاتي عَلَى الفَقْرِ لَكْ وَفِكْرِي وَقَلْبِي على الْعِلْمِ بِكْ
وَنَفْسِي عَلَىٰ حُبِّ مَا قَدْ وَهَبْتْ ورُوحِي عَلَىٰ الأُنْسِ في حَضْرَتِكْ
لِذَلِكَ يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكْ خُضُوعَاً وَحُبًّا وأسْلَمْتُ لَكْ
عَلَىٰ رُغْمِ أنْفِ الْجَحُودِ الكَنُودْ آمَنْتُ بِكْ. ثُمَّ آمَنْتُ بِكْ

رَضَيْتُـك رَبّـاً. فـأَذْلَلْتُ قَلْبـاً   وَرُوحَـاً ولُـبّـاً إلـى عِـزَّتِـكْ
وَأَخْضَعْتُ نَفْسِي وَفِكْري وَحِسِّي   وَوَجْـهي وَرأسِـي إلى قُـدْرَتِـكْ
وسَلَّمْتُ أمْرِي بِجَهْرِي وسـرِّي   وَخَيْـري وَشَـرِّي إلى حِكْمَتِـكْ
صَـلاَتِي ونُسْكِيْ خُشُوعِي وَحُبِّي   خُضُـوعي وَقُرْبـي إلى حَضـرَتِـكْ
ومَحْيَـايَ رَبِّـي وَغُفْـرَانُ ذَنْبـي   وَمَـوْتـي وَبَعْثِي إلـى رَحْمَتِـكْ
إلَـهي إلَـهـي تَـبَـارَكْتَ فِـي   عُـلاَكَ فَـإِنِّـيَ آمَـنْـتُ بِـكْ
إلَـهي إلَـهـي تَـعَـالَيْـتَ في   سَنَـاكَ. فَـإنِّـيَ أسْلَمْتُ لَـكْ

* * *

إلَهِــي

عَـرَفْتُـكَ مِنْ لاَمِعَـاتِ الأُفُـقْ   عَـرَفْتُـكَ مِنْ مُـوحِشَاتِ الْغَسَقْ
عَـرَفْتُـكَ مِنْ نَفَحَـاتِ الْفَلَقْ   عَـرَفْتُـكَ مِنْ خَلْقِـكَ الْمُتَّسِـقْ
بِـأَنَّـك أَنْـتَ الإِلَـهُ الأَحَـدْ
عَـرَفْتُكَ مِنْ بَهْجَـةٍ فِي القَمَـرْ   عَـرَفْتُكَ مِنْ نَسْمَـةٍ في السَّحَـرْ
عَـرَفْتُكَ مِنْ بَسْمَـةٍ في الزَّهَـرْ   عَـرَفْتُكَ مِنْ نَـامِيَـاتِ الشَّجَـرْ
بِـأَنَّـكَ أَنْـتَ الإِلَـهُ الأَحَـدْ
عَـرَفْتُـكَ مَـا لاَحَ نُـورٌ وَنَـارْ   وَمَهْمَـا يَدُرْ كَـوْكَبٌ في مَـدَارْ
عَـرَفْتُكَ مَهما الزَّمَـانُ اسْتَدَارْ   وَمَهْمَـا أَتَىٰ اللَّيـلُ بَعْـدَ النَّهَـارْ
بِـأَنَّـكَ أَنْـتَ الإِلَـهُ الأَحَـدْ
وَأَنَّـكَ أَنْـتَ الْعَـظِيـمُ الصَّمَـدْ

* * *

إلَهِــي

عَـرَفْتُكَ بِـالسُّحُبِ الْهَاطِـلاَتْ   لِـتُـحْـيِيَ كُـلَّ بِـلادٍ مَـوَاتْ
بِـكُـلِّ نَبَـاتٍ عَـجِيـبِ النَّبَـاتْ   بِـمُـخْـتَـلِفَـاتٍ ومُـشْـتَـبِـهَـاتْ
بِـأَنَّـكَ أَنْـتَ الإِلَـهُ الأَحَـدْ

عَـرَفْتُـكَ حينَ سَلَكْتُ الْقِفَـارْ وَسَارَ بِنَـا في السُّهُـولِ الْقِطَارْ
عَـرَفْتُـكَ حِينَ رَكِبْتُ الْبِحَـارْ وَحِينَ جَـرَتْ بـي جَـوارٍ كِبَـارْ
بـأنّـكَ أَنْـتَ الإِلَـهُ الأَحَـدْ
عَـرَفْتُـكَ حِينَ رَكِبْتُ الْهَـوَاءْ وَطَـوَّفْتُ في جَـنَبَـاتِ الْـفَضَـاءْ
وَحِينَ تَـأمّلْتُ هٰـذي السَّمـاءْ وَكُـلَّ عَـظِيمٍ بِهَـا ذِي بَـهَـاءْ
بـأنّـكَ أَنْـتَ الإلَـهُ الأَحَـدْ
وأنّـكَ أَنْتَ الْعَـظِيمُ الصَّمَـدْ
* * *

إلَهِـي

عَرَفْتُـكَ مِنْ ذِي جَنَـاحٍ يَطِيـرْ عَـرَفْتُـكَ مِنْ ذِي قَـوَامٍ يَسِيـرْ
عَرَفْتُكَ مِنْ سَابِحٍ في الْغَدِيـرْ عَـرَفْتُكَ مِنْ زَاحِفٍ في الْهَجِيـرْ
بـأنّـكَ أَنْـتَ الإِلٰـهُ الأَحَـدْ
عَـرَفْتُـكَ لمّـا نَـظَرْتُ الْجِبَـالْ عَـرَفْتُـكَ من رائِعَـاتِ الْجَمَـالْ
عَـرَفْتُـكَ حِينَ شَـرِبْتُ الـزُّلَالْ عَـرَفْتُـكَ إذْ ظَلَّلَتْنِي الـظِّلَالْ
بـأنّـكَ أَنْـتَ الإلَـهُ الأَحَـدْ
عَرَفْتُـكَ مِنْ لَمْسِ لِينِ الْحَرِيـرْ وَمِنْ لَمْسِ ذِي قَسْوَةٍ فِي الصّخُورْ
عَـرَفْتُـكَ مِنْ نَفَثَـاتِ السَّعِيـرْ وَمِـنْ بَـارِدٍ قَـاتِـلٍ زَمْـهَـرِيْـرْ
بـأنّـكَ أَنْـتَ الإِلَـهُ الأَحَـدْ
وأنّـكَ أَنْتَ الْعَـظِيمُ الصَّمَـدْ
* * *

إلَهِـي

عَـرَفْتُـكَ مِنْ نَبَضَـاتِ الْجَنَـانْ وَمِنْ مَنْـطِقٍ عَجَبٍ في اللّسَـانْ
عَـرَفْتُـكَ مِنْ حَـرَكَـاتِ الْبَنَـانْ وأرْشَـدَنِـي لِـعُـلَاكَ الْـيَـدَانْ
بـأنّـكَ أَنْـتَ الإِلَـهُ الأَحَـدْ

عَــرَفْتُــكَ مِنْ أَكْبُــدٍ ظَــامِئــاتْ   عَــرَفْتُــكَ مِنْ مِعَــدٍ جَــائِعَــاتْ
عَــرَفْتُكَ مِنْ حَــرَكَاتِ الْحَيَــاةْ   عَــرَفْتُكَ مِنْ سَكَنَــاتِ الْمَمَــاتْ
بــأنّــك أَنْــتَ الإلَــهُ الْأَحَــدْ

عَــرَفْتُكَ مِنْ مُعْجِــزَاتِ السُّــوَرْ   وَمَــا جَمَعَتْ مِنْ جَلِيــلِ الْعِبَــرْ
وَعَــرَّفَــنِــي بِــكَ طَــهَ الأغَــرّ   رَسُــولُــكَ أحْمَــدُ خَيْــرُ الْبَشَــرْ
بأنّــكَ أَنْــتَ الإلَــهُ الْأَحَــدْ
وأَنّــكَ أَنْــتَ الْعَــظِيــمُ الصَّــمَــدْ

دمشق، حوالي سنة ١٣٧٨هـ

* * *

(٢)
أقسام قرآنية

(أ)

﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾ (سورة التكوير).

﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ۝٣٤﴾ (سورة المدثر).

طَوَىٰ اللَّيْـلُ أَسْتَـارَهُ الْمُسْـدَلَـةْ ... وَلَـفَّ ذَوَائِـبَـهُ الْـمُـرْسَـلَةْ

وَهَبَّ ضِيَـاءُ الصَّبَـاحِ الْعَلِيـلْ ... فَـعَـفَّـىٰ رَوَاسِـبَـهُ الْـمُـهْـمَـلَةْ

وَمَـرَّ بِـأَنْـفَـاسِـهِ كَـالْـحَـيَـاةْ ... فَـأَيْـقَظَ أَعْـيُـنَـنَـا الْـمُـقْـفَـلَةْ

وَأَلْقَىٰ الشَّـذَا فِي بُـرُودِ النَّـدَىٰ ... عَلَىٰ الزَّهْرِ وَالْأَغْصُنِ الْمُخْضَلَةْ[1]

وَذَرَّ عَلَىٰ الـطَّيْـرِ نَفْـحَ النَّشِيـدْ ... فَـغَنَّـتْ جَمَـاعَـاتُـهـا الْمُـقْـبِـلَةُ

* * *

فَـأَمْعَنْتُ فِي حُسْنِـهِ الْبَـاهِـرِ

فَـآمَـنْـتُ بِـالْـخَـالِقِ الْـقَـادِرِ

وَفِي الصُّبْـحِ لِلنَّـاظِـرِ الْمُعْتَبِـرْ

رَوَائِـعُ آيَـاتِ رَبِّ الْـبَـشَـرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

دمشق حوالي سنة ١٣٨٠هـ

● ● ●

---

(١) المخضلة: الندية الرطبة.

(ب)

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١﴾ (سورة الشمس).

هِيَ الشَّمْسُ فِي خَفَرٍ[1] تُشْرِقُ تَكَادُ عَلَىٰ بُعْدِهَا تُعْشَقُ
تَمُدُّ عَلَىٰ الْأَرْضِ أَسْبَابَها فَيَعْلَقُ بالزَّهْرِ مَا يَعْلَقُ
تَمُرُّ فَتَشْطُرُ قَلْبَ السَّمَاءْ وَأَنْهَارُ أَنْوَارِهَا تَدْفُقُ
فَتَقْسُو عَلَىٰ بَلَدٍ بِاللَّهِيبْ وَفِي بَلَدٍ نَاعِمٍ تَرْفُقُ
تَجُرُّ الْحَيَاةَ فَتُحْيِي الْبِلَادْ كَأَنَّ بِهَا خَالِقاً يَخْلُقُ

* * *

فَأَمْعَنْتُ فِي سِرِّهَا الباهِرِ
فَآمَنْتُ بِالْخَالِقِ القَادِرِ
وفي الشمس لِلنَّاظِرِ الْمُعْتَبِرْ
رَوَائِعُ آياتِ رَبِّ الْبَشَرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

دمشق حوالي سنة ١٣٨٠هـ

• • •

(ج)

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢﴾ (سورة الشمس).

وَوَافَىٰ مَعَ اللَّيْلِ نُورُ الْقَمَرْ يُنَاظِرُنَا مِنْ خِلَالِ الشَّجَرْ
يُذَكِّرُنَا وَجْهُهُ بِالْحَبِيبْ وَيَنْفَحُنَا بِالنَّسِيمِ الْعَطِرْ
يَلَذُّ لَنَا فِي هُدَاهُ السُّرَىٰ وَيَحْلُو لَنَا فِي سَنَاهُ السَّمَرْ
أَنَامِلُ أَضْوَائِهِ فِتْنَةٌ تَجُسُّ الْمَشَاعِرَ جَسَّ الْقَدَرْ
فَتَتْرُكُنَا فِي بَدِيعِ الْخَيَالْ نُقَلِّبُ فِيهِ بَدِيعَ الصُّوَرْ

* * *

---

(١) الخفر: شدة الحياء.

فَـأَمْعَنْتُ فِي سِـحْـرِهِ الْبَـاهِـرِ
فَـآمَـنْـتُ بِـالْـخَـالِـقِ الْـقَـادِرِ
وَفِي الْبَـدْرِ لِلنّـاظِـرِ الْمُـعْـتَـبِـرْ
رَوَائِـعُ آيَـاتِ رَبّ الْـبَـشَـرْ . . . فَآمَنْتُ بِهْ

دمشق حوالي سنة ١٣٨٠هـ

● ● ●

(د)

﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ ﴾ (سورة الشمس).

أَضَـاءَ الـنَّـهَـارُ وَصَـحَّ الْـعَـمَـلْ وَمَـزَّقَـتِ الشَّمْسُ ثَـوْبَ الْكَسَـلْ
وَأَسْـرَعَ كُـلٌّ إِلَـىٰ رِزْقِـهِ يُـكَـابِـدُهُ بِـلَـذِيـذِ الْأَمَـلْ
فَتَحْـظَى بِلَحْمِ الـطُّـيُـورِ النُّسُورْ وَتَـهْـنَـأُ بِـالْـمُـنْـتِـنَـاتِ الْجُـعَـلْ
وَتَسْعَـدُ بِـالْحِـرْصِ نَمْلُ الْقُـرَى وَلَـوْ غَـمَـرُوهَـا بِكُـلِّ الـسَّـبَـلْ
بَـدَائِعُ شَـاهَـدْتُهَـا فِي النَّـهَـارْ لَـهَـا سَـبَـبٌ بِـالْـهُـدَىٰ مُـتَّـصِـلْ

* * *

فَـأَمْعَنْتُ فِي سِـرِّهَـا الْـبَـاهِـرِ
فَـآمَـنْـتُ بِـالْـخَـالِـقِ الْـقَـادِرِ
وَفِيهَـا لِـذِي الـنَّـظَـرِ الْمُـعْـتَـبِـرْ
رَوَائِـعُ آيَـاتِ رَبِّ الْـبَـشَـرْ . . . فَآمَنْتُ بِهْ

دمشق حوالي سنة ١٣٨٠هـ

● ● ●

(هـ)

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾ (سورة الشمس).

عَلَىٰ صَفْحَةِ الْأُفُقِ السَّاهِرِ ... وَفِي لَيْلَةِ الْبَاحِثِ الشَّاعِرِ
وَمِنْ نَظْرَةٍ تَتَحَرَّىٰ الْهُدَىٰ ... فَتَلْقَفُ كُلَّ هُدَىً عَابِرِ
رَأَيْتُ الْكَوَاكِبَ مَبْثُوثَةً ... بِمَظْهَرِهَا الْفَاتِنِ السَّاحِرِ
بِإِتْقَانِ تَسْيَارِهَا فِي الدُّجَىٰ ... تُغَلْغِلْنَ فِي الْأُفُقِ الْغَائِرِ
تَنَاءَتْ مَدىً. وَتَدَانَتْ هُدَىً ... وَرَدَّتْ سُدَىً نَظَرَ النَّاظِرِ

* * *

فَأَمْعَنْتُ فِي سِرِّهَا الْبَاهِرِ
فَآمَنْتُ بِالْخَالِقِ الْقَادِرِ
وَفِي اللَّيْلِ لِلْبَاحِثِ الْمُدَّكِرْ
رَوَائِعُ آيَاتِ رَبِّ الْبَشَرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

دمشق حوالي سنة ١٣٨٠هـ

• • •

(و)

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾ (سورة الشمس).

تَوَجَّهْتُ أَنْظُرُ شَطْرَ السَّمَاءْ ... وَمَا جَمَعَتْ مِنْ بَدِيعِ الرُّوَاءْ
وَسِرْتُ مَعَ الْوَهْمِ مَا شَاءَ لِي ... وَأَرْسَلْتُهُ سَابِحاً فِي الْفَضَاءْ
فَجَالَ طَوِيلاً بِأَرْجَائِهَا ... وَأَمْعَنَ فِي بَاعِثَاتِ الضِّيَاءْ
وَلَمَّا رَأَى الْمُعْجِزَاتِ الْكِبَارْ ... تَجَلَّتْ بِإِبْدَاعِ هَذَا الْبِنَاءْ
تَضَاءَلَ حَتَّىٰ رَأَىٰ نَفْسَهُ ... أَمَامَ السَّمَاءِ كَمِثْلِ الْهَبَاءْ

* * *

فَـأَمْعَنْتُ فِي صُنْعِهَـا الْبَـاهِـرِ
فَـآمَـنْـتُ بِـالْـخَـالِـقِ الْـقَـادِرِ
سَـمَـاءٌ بِهَـا لِلْفَتَـى الْمُـعْـتَـبِـرْ
رَوَائِـعُ آيَـاتِ رَبِّ الْـبَـشَـرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

دمشق حوالي سنة ١٣٨٠هـ

• • •

(ز)

﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾ (سورة الشمس).

لَقَدْ طُفْتُ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَرِّهَـا إِلَـىٰ جَـوِّهَـا وَإِلَـىٰ بَـحْـرِهَـا
بِـأطْـوَادِهَـا عَـالِيَـاتِ الـذُّرَىٰ وَدُونَ الْـهِـضَـابِ إلىٰ غَـوْرِهَـا
وَشَـاهَـدْتُ أَنْهَـارَهَـا الْجَـارِيَاتْ وَنَـبْـعَـاً تَـفَـجَّـرَ مِـنْ صَـخْـرِهَـا
وَشَـاهَـدْتُ أَشْجَـارَهَـا بَـاحِثَـاً وَغُـصْتُ إِلىٰ مُسْتَـوَىٰ جِـذْرِهَـا
وَحَـرَّكْـتُ ضِـرْسِـي عَلَىٰ حُلْوِهَـا وَحَـرَّكْـتُ سِنِّـي عَـلَىٰ مُـرِّهَـا
وَنَـقَّـلْـتُ جِـسْـمِـيَ فِـي بَـرْدِهَـا وَقَـلَّبْـتُ جِسْـمِـي عَـلَىٰ حَـرِّهَـا

* * *

وَأَمْعَنْتُ فِي صُنْعِهَـا الْبَـاهِـرِ
فَـآمَـنْـتُ بِـالْـخَـالِـقِ الْـقَـادِرِ
وَفِي الْأَرْضِ لِلْبَـاحِثِ الْمُعْتَـبِـرْ
رَوَائِـعُ آيَـاتِ رَبِّ الْـبَـشَـرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

دمشق حوالي سنة ١٣٨٠هـ

• • •

(ح)

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾ (سورة الشمس).

لَمَسْتُ بِنَفْسِيَ فِعْلَ الْحَيَاةْ	وَأَحْسَسْتُ فِيهَا كَمِينَ الْمَمَاتْ
وَيُدْهِشُنِي النُّطْقُ عِنْدَ الْكَلَامْ	وَيُدْهِشُنِي فَهْمِيَ الْحَادِثَاتْ
وَأُدْرِكُ أَنِّي سَمِيعٌ بَصِيْرْ	فَأَعْجَبُ كَيْفَ أَتَتْنِي الصِّفَاتْ
وَأَعْجَبُ كَيْفَ يَسِيرُ الطَّعَامْ	فَيَمْنَحُ جِسْمِي غِذَاءَ الْحَيَاةْ
وَقَدْ أَتَمَنَّىٰ خَفِيفَ الْمُنَىٰ	فَأَعْجِزُ أَنْ أَجْلُبَ الْأُمْنِيَاتْ

* * *

فَأَمْعَنْتُ فِي عَجْزِيَ الظَّاهِرِ
فَآمَنْتُ بِالْخَالِقِ الْقَادِرِ
وَفِي النَّفْسِ لِلْبَاحِثِ المدّكِرْ
رَوَائِعُ آيَاتِ رَبِّ الْبَشَرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

دمشق حوالي سنة ١٣٨٠هـ

* * *

(٣)
سبحان من قدّر فهدى

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم . . . ﴿٣٨﴾﴾
(سورة الأنعام).

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾
(سورة طه).

﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾
(سورة الأعلى).

(أ) «الغريزة»

بِفِعْلِ الْغَرِيزَةِ يُهْدَى الصَّغِيرْ ... وَبِالعَقْلِ والرَّأيِ يُهْدَى الْكَبِيرْ
وَكُلُّ الْبَهَائِمِ تُهْدَى إِلَىٰ ... وَظَائِفِهَا بِأَدَقِّ الْمَسِيرْ
فَتَغْدُو الطُّيُورُ لِأَرْزَاقِهَا ... بِنَفْسِ الْغَنِيِّ وَكَدِّ الْفَقِيرْ
تَطُوفُ الْخَمَائِلَ مَزْهُوَّةً ... وَتَعْبَثُ فِي صَفَحَاتِ الْغَدِيرْ
وَتَنْضَحُ فِي الأَرْضِ طَلَّ الْجَمَالْ ... مُسَبِّحَةً لِلْبَدِيعِ الْقَدِيرْ
وَتَبْنِي عَلَىٰ الأَمْنِ أَعْشَاشَهَا ... مَسَاكِنَ صَالِحَةً لِلطُّيُورْ
وَتَحْضُنُ فِي رَحْمَةٍ بَيْضَهَا ... وَتَرْقُبُهُ بِحَنَانٍ كَثِيرْ
وَتَرْعَاهُ مُضْنِيَةً[1] نَفْسَهَا ... لِيَخْرُجَ ذَاكَ الْخَبِيْءُ الصَّغِيرْ

---

(١) أضناه المرض: إذا اشتد عليه.

فَمَنْ رَاقَبَ الطَّيْرَ فِي سَعْيِهَا لِأَفْرَاخِهَا أَدْهَشَتْهُ الْأُمُورْ

• • •

تَبَصَّرْتُ فِي سِرِّهَا الْبَاهِرِ
فَآمَنْتُ بِالْخَالِقِ الْقَادِرِ
هُنَا لِذَوِي النَّظَرِ الْمُعْتَبِرْ
رَوَائِعُ آيَاتِ رَبِّ الْبَشَرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

• • •

(ب) «الفرخ»

يَا لَهَا إِحْدَىٰ الْعَجَائِبْ يَا لَهَا إِحْدَى الْغَرَائِبْ
مَا الَّذِي أَنْشَأَ هَذَا الْفَرْخَ مَنْضُودَ التَّرَائِبْ
مُتْقَنَ الصَّنْعَةِ قَدْ تَمَّتْ لَهُ كُلُّ الْمَطَالِبْ
مِنْ نَوَاةٍ دُونَ دَرْكِ الطَّرْفِ قَدْ صِينَتْ بِذَائِبْ
ضِمْنَ سِجْنٍ مُحْكَمِ التَّـ ـشْيِيدِ مِنْ كُلِّ الجوَانِبْ
دَخَلَ الدِّفْءُ إِلَيْهِ فَنَمَا وَهُوَ يُغَالِبْ
يَأْكُلُ الذَّائِبَ مِمَّا حَوْلَهُ قَيْدَ مُحَاسِبْ
فَإِذَا السِّجْنُ خَلَا مِنْ رِزْقِهِ قَامَ يُطَالِبْ
يَنْقُبُ السِّجْنَ بِنَقْرٍ حَسَنِ الحِيلَةِ دَائِبْ
أَيُّهَا السِّجْنُ تَمَزَّقْ وَتَنَاءَيْ يَا عَصَائِبْ
قَدْ نَمَا رِيشِي وَمِنْقَا رِي وَأَصْبَحْتُ أُغَالِبْ
لَسْتُ أَرْضَاكَ مُقَامِي الْيَوْمَ إِنِّي ذُو مَخَالِبْ
فَتَحَطَّمْ إِنَّنِي فَوْ قَ بِسَاطِ الرِّيحِ رَاكِبْ
أَنْشُدُ الْحُرِّيَّةَ الْحُلْوَةَ فِي سَامِي الْمَرَاتِبْ
هٰذِهِ قِصَّةُ هٰذَا الْفَرْخِ فِي كَوْنِ الْعَجَائِبْ
مَنْ حَبَاهُ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَاهُ فِي الْمَسَارِبْ

* * *

تَـأَمَّلْتُ فِـي خَـلْقِـهِ الْبَـاهِـرِ
فَـآمَـنْـتُ بِـالْـخَـالِـقِ الْـقَـادِرِ
وَفِي الْفَـرْخِ لِلنَّـاظِـرِ الْمُعْتَبِـرْ
رَوَائِـعُ آيَـاتِ رَبِّ الْـبَـشَـرْ ... فآمَنْتُ بِهْ

• • •

(ج) «الطَّيْرُ الْمُغَرِّدْ»

هُـوَ بِـالـتَّغْـرِيـدِ مُـغْـرَمْ يَـتَـغَـنَّـىٰ يَـتَـرَنَّـمْ
كُـلَّمَـا شَـاهَـدَ صُـبْـحَـاً أَوْ رَأَىٰ زَهْـراً تَـبَـسَّـمْ
عَـبْـقَـرِيٌّ بِـلِسَـانٍ عَـالَـمِـيٍّ يَـتَـكَـلَّمْ
وَلَـهُ فِـي الْـصَّـوْتِ وَالتَّغْـرِيـدِ مُـوسِيقَىٰ وَسُلَّمْ
وَاضِـعُ الأَلْـحَـانِ مِـنْ أَلْـحَـانِـهِ كَـمْ يَـتَـعَـلَّمْ
أَيْـنَـمَـا طَـارَ رَأَىٰ مَـا يَـشْـتَـهِـي لاَ يَـتَـبَـرَّمْ
وَلَـهُ فِـي الـدَّوْح مَـأْوَىً وَلَـهُ فـي الـدَّوْح مَـغْـنَـمْ
إِنْ رَأَى الـرَّوْضَ تَـقَـضَّـىٰ أَوْ رَأَىٰ الْـغُـدْرَانَ حَـوَّمْ
هُـوَ بِـالْحُسْـنِ وَبِـالْمَـاءِ وَبِـالْـخُـضْـرَةِ مُـغْـرَمْ
مَـنْ هَـدَىٰ الـطَّيْـرَ لِهٰذَا الْـفَـنِّ أَمْ كَـيْـفَ تَـعَـلَّمْ؟

* * *

تَـأَمَّـلْتُ فِـي أَمْـرِهِ الْـبَـاهِـرِ
فَـآمَـنْـتُ بِـالْـخَـالِـقِ الْـقَـادِرِ
وَفِي الـطَّـيْـرِ لِلنَّـاظِـرِ الْمُعْتَبِـرْ
رَوَائِـعُ آيَـاتِ رَبِّ الْـبَـشَـرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

• • •

(د) «الطِّفْلُ الصَّغِير»

مَـنِ الـذِي عَـلَّمَـنِـي فَنَّ الـرَّضَـاعِ فِي الصِّغَـرْ؟
وَمَـنْ هَـدَانِـي أَنْ أَمُصَّ الـثَّـدْيَ فِـعْـلَ مَـنْ مَـهَـرْ؟
مِـنْ بَـعْـدِ أَنْ أَعَـدَّهُ أَفْـضَـلَ إِعْـدَادٍ قُـدِرْ
مُعَـلَّقـاً فِـي صَـدْرِ أُمِّـي حَـيْـثُ أَهْـوَى وَأُسَـرّ
مُـزَوَّداً بِـرَحْـمَـةٍ وَمَـعْـمَـلٍ وَمُـدَّخَـرْ
يَـمْـنَـحُـنِـي خَـيْـرَ حَـلِيْـبٍ لِـطُفُـولاتِ الْـبَـشَـرْ
مَـهْـمَـا أَتَـيْـتُـهُ رَأَيْـتُ طَـازَجَ الْأَكْـلِ حَـضَـرْ
يُـعَـدِّلُ التَّـحْـضِـيـرَ لِـي وَفْقَ احْتِيَـاجَـاتِ الْعُـمُـرْ
مُـنَـاسِـبٌ بِـدِفْئِـهِ لِـمـعْـدَتِـي وَلِـلْمَـمَـرّ
فَـأَغْـتَـذِي مِـنْـهُ وَمِـنْ حَـنَـانِ أُمّـي الْـمُـنْـهَـمِـرْ
تَـضُـمُّـنِـي وَحُـبُّـهَـا وَحضْنُـهَـا لِي قَـدْ غَـمَـرْ
كُـلُّ الظُّـرُوف الـصَّـالِـحَـات جُـمِـعَـتْ لِـي بِـقَـدَرْ
وَكُـلُّ مَـا يَـصـنَـعُـهُ الـنَّـاسُ بَـدِيـلٌ لاَ يَـسُـرّ
لِأَنَّـهُ يَـظَلُّ نَـا قِصَ الـشُّـرُوطِ والْأَثَـرْ
هَـلْ كُـلُّ هٰذَا قَـدْ جَـرَىٰ مِـنْ دُونِ رَبٍّ مُـقْـتَـدِرْ؟
هَـلْ تَـمَّ هٰذَا صُـدْفَـةً يَـا خُسْـرَ جَـاهِـلٍ كَفَـرْ

* * *

تَفَكَّـرْتُ فِي حَـالِنَـا الْبَـاهِـرِ
فَـآمَـنْـتُ بِـالْـخَـالِـقِ الْـقَـادِرِ
وَفِي الـطِّفْـلِ لِلنَّـاظِـرِ الْمُعْتَبِـرْ
رَوَائِـعُ آيَـاتِ رَبِّ الْـبَـشَـرْ ... فَآمَنْتُ به

• • •

(هـ) «النحـــل»

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (سورة النحل).

مَـنْ عَـلَّمَ الـنَّـحْـلَـةَ أَنْ   تَـبْـنِـيَ أَحْلَى مَـمْـلَـكَـةْ
أَسْـرَابُـهَـا تَـسْـعَـىٰ إِلَـى   الـزَّهْـرِ بِـأَبْـهَىٰ حَـرَكَـةْ
تَـرْقُصُ رَقَـصَـاتِ الْـوَصِـيْـفَـاتِ لِـتَـرْضَـىٰ الْـمَـلِـكَـةْ
تَـشُـمُّـهُ تَـضُـمُّـهُ   تَـطُوفُ حُـبّـاً فَـلَـكَـهْ
كَـعَـابِـدٍ فِي الْـمَـسْـجِـدِ   الْـحَـرَامِ يَـقْـضِي نُـسُـكَـه
تَـرْشُـفُ مِـنْ رَحِـيـقِـهِ   ولا تَـخَـافُ شَـرَكَـهْ[1]
تَـسْـلُكُـهُ لِـمَـعْـمَـلٍ   جَـلَّ قَـدِيـرٌ سَـلَكَـهْ
تَـطْـبُـخُـهُ شَـهْـداً بِـهِ   شِـفَـاؤُنَـا وَالْـبَـرَكَـةْ
تَـبْـنِـي بِـنَـاءً مُـتْـقَـنـاً   حُـجُـرَاتُـهُ كَـالـشَّـبَـكَـةْ
كَـأَنَّـهُ سَـبِـيـكَـةٌ   أَيُّ خَـبِـيـرٍ سَـبَـكَـهْ؟!
أَفْـعَـالُـهَـا غَـرِيـزَةٌ   هَـادِيَـةٌ لَا مَـلَـكَـهْ
جَـلَّ الَّـذِي أَلْـهَـمَـهَـا   وَقَـالَ: كُـونِـي مَـمْـلَـكَـةْ

* * *

تَـأَمَّـلْـتُ فِي خَـلْـقِـهَـا الْـبَـاهِـرِ
فَـآمَـنْـتُ بِـالْـخَـالِـقِ الْـقَـادِرِ
وَفِي الـنَّـحْـلِ لِـلنَّـاظِـرِ الْـمُـعْـتَـبِـرْ
رَوَائِـعُ آيَـاتِ رَبِّ الْـبَـشَـرْ.. فَآمَنْتُ بِهْ

● ● ●

---

(١) الشرَك: حبائل الصيد.

(و) «الْخُفَّــاش»

إنّ فِـي الْـخُـفَّـاش مِـنْ اتْـقَـانِ صُـنْـعٍ أَلْـفَ آيَـةْ
إنَّ جُـنْـحَـيْـهِ شِـرَاعَـانِ أُعِـدَّا بِـعِـنَـايَـةْ
جِـذْعُـهُ. أَطْـرَافُـهُ. مُـنْـغَـمِـسَـاتٌ بِـعَـبَـايَـةْ
غَـيْـرَ إِبْـهَـامَـيْـهِ ظَـلَّا خَـارِجَـيْـنِ لِـلنِّـهَـايَـةْ
هُـوَ ذُو ضَـرْعٍ وَلٰـكِـنْ شَـذَّ إِذْ طَـارَ لِـغَـايَـةْ
وَهْـوَ طَـيْـرٌ شَـذَّ لَا يَـحْـتَـاجُ مِـنْ رِيشٍ وِقَـايَـةْ
هُـوَ طَـيْـرُ الـلَّـيْـلِ جَـوَّابُ الـدَّيَـاجِـي بِـرِعَـايَـةْ
فَـاتِـحـاً لِلصَّـيْـدِ ثَـغْـراً مُـتْـقِـنـاً فَـنَّ الـرِّمَـايَـةْ
وَهْـوَ إِذْ يُـبْـصِـرُ قَـدْ يُـبْـصِـرُ مِـنْ دُونِ الْـكِـفَـايَـةْ
يَـتَـحَـدَّىٰ كُـلَّ دَيْـجُـورٍ إِلَـى حَـدِّ الْـعَـمَـايَـةْ
كَـيْـفَ لَا تَـصْـدِمُـهُ الأشْـيَـاءُ؟ مَـا هٰـذِي الْـحِـمَـايَـةْ؟
إِنَّـهُ يَـعْـطِـفُ عَـنْـهَـا بِـعَـجِـيـبٍ مِـنْ دِرَايَـةْ
بَـحَـثُـوا. قَـالُـوا: هُـو «الـرَّادَارُ» يُـعْـطِـيـهِ الْـهِـدَايَـةْ
هُـوَ بِـالـصَّـوْتِ وَرَجْـعِ الـصَّـوْتِ يَـفْـرِي بِـعِـنَـايَـةْ

* * *

تَـفَـكَّـرْتُ فِـي أَمْـرِهِ الْـبَـاهِـرِ
فَـآمَـنْـتُ بِـالْـخَـالِـقِ الْـقَـادِرِ
خَـفَـافِيشُ فِـيهَـا لِـمَنْ يَـعْـتَـبِـرْ
رَوَائِـعُ آيَـاتِ رَبِّ الْـبَـشَـرْ.. فَآمَنْتُ بِهْ

(ز) «الْعَنْكَــبُوت»

نَسِيـجٌ عَـجِيبٌ وَغَـزْلٌ غَـرِيبٌ   تَـجِـدُّ الْـعَـنَـاكِـبُ فـي أَمْـرِهِ
وَصُـنْـعُ الْحَـرِيـرِ بِـأَثْـدَائِـهَـا   تَـحَـارُ الْـخَـلائِـقُ فِـي سِـرِّهِ

تَبُثُّ الْخُيُوطَ أَدقَّ الْخُيُوطْ فَمَا زَادَ خَيْطٌ عَلَىٰ قَدْرِهِ
وَتَغْزِلُ مَا بَيْنَهَا كَالَّذِي تَعَلَّمَ غَزْلاً مَدَىٰ عُمْرِهِ
وَتَنْسُجُ أَبْيَاتَهَا الْمُحْكَمَاتْ كَفِعْلِ الْمُهَنْدِسِ فِي قَصْرِهِ
فَمِنْ أَيْنَ جَاءَ إِلَىٰ الْعَنْكَبُوتْ مَا يَعْجِزُ النَّاسُ عَنْ سَبْرِهِ
وَمَا يَعْجِزُ النَّاسُ عَنْ مِثْلِهِ وَإِنْ عَرَفُوا السِّرَّ مِنْ خُبْرِهِ

* * *

تَبَصَّرْتُ فِي أَمْرِهِ الْبَاهِرِ
فَآمَنْتُ بِالْخَالِقِ الْقَادِرِ
وَفِي الْعَنْكَبُوتِ لِأَهْلِ النَّظَرْ
رَوَائِعُ آيَاتِ رَبِّ الْبَشَرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

• • •

(حـ) «طَائِرُ الْبَطْرِيق»

طَائِرُ الْبَطْرِيقِ يَسْتَرْعِي النَّظَرْ هُوَ ذُو جُنْحَيْنِ لٰكِنْ لَمْ يَطِرْ
إِنْ مَشَى تَحْسَبُ إِنْسَاناً مَشَى نَاصِبَ الْقَامَةِ لَا يَخْشَى الْخَطَرْ
رَازِناً مُتَّئِداً تَحْسَبُهُ فَيْلَسُوفاً فِي الْمَعَانِي يَفْتَكِرْ
يَرْتَدِي مِعْطَفَهُ الأَسْوَدَ فِي ظَهْرِهِ مِثْلَ رِدَاءٍ مِنْ حَبِرْ
وَالْقَمِيصُ الأَبْيَضُ الْحُلْوُ عَلَىٰ صَدْرِهِ وَهْوَ لِكَعْبَيْهِ سَتَرْ
وَوِشَاحٌ جَاءَ مِنْ مِعْطَفِهِ زَيَّنَ الصَّدْرَ وَأَرْخَىٰ وَنَشَرْ
هُوَ سَبَّاحٌ خَطِيرٌ مَاهِرٌ يَسْبِقُ الْحُوتَ إِذَا الحوتُ نَفَرْ
وَهْوَ غَوَّاصٌ عَلَىٰ الْحُوتِ إِذَا زَاغَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَقَدَرْ
ضَاقَ جُنْحَاهُ فَكَانَا عِنْدَهُ مِجْدَفَيْنِ فِيهِمَا سِرُّ الظَّفَرْ
إِنَّهُ إِنْ لَمْ يَطِرْ فِي جَوِّهِ طَارَ عَبْرَ الْمَاءِ طَيْرَ الْمُقْتَدِرْ
إِنْ تَبِضْ أُنْثَاهُ أَلْقَتْ حَمْلَهَا وَأَتَىٰ يَحْضُنُهُ الزَّوْجُ الذَّكَرْ

قَـدَمُ الـزَّوْجِ سَـرِيـرٌ دَافـئٌ يَحْضُنُ الْبَيْضَـةَ وَالـرِّيشُ غَمَـرْ
وَيَكُـونُ الْحَضْنُ شَهْـرَيْنِ هُمَـا لِـهُـزَالٍ وَسَـقَـامٍ وَسَـهَـرْ
وَإِذَا كَـلَّ رَجَـا جِـيـرَانَـهُ فَتَـوَلَّىٰ الْحَضْنَ مِنْهُمْ مَنْ حَضَـرْ
أُمَّـةٌ تَـجْـمَـعُـهَـا رَابِـطَـةٌ وَإِخَـاءٌ فِـي مُـقَـامٍ أَوْ سَـفَـرْ
إِنْ سَعَى الْجُمْهُورُ لِلْكَسْبِ ثَوَىٰ يَحْرُسُ الأَطْفَالَ فِي الْمَأْوَى نَفَرْ
يَـا بَنِي الْبَطْـرِيق هَيَّـا انْتَظِمُـوا فِي صُفُـوفٍ مُمْتِعَـاتٍ لِلنَّـظَرْ
أَنْتُمُـو تُـرْعَـوْنَ فِـي مَـدْرَسَـةٍ فِي الْهَوَاءِ الطَّلْقِ فِي الْجَوِّ الْعَطِرْ
فِـي رُبُـوعِ الثَّلْجِ فِـي آمِنِـهَـا فِي شُعَاعِ الشَّمْسِ فِي ضَوْءِ الْقَمَرْ

* * *

تَـفَـكَّـرْتُ فِي خَـلْقِـهَـا الْبَاهِرِ
فَـآمَـنْـتُ بِـالْـخَـالِـقِ الْقَـادِرِ
بَـطَارِيـقُ فِيـهـا لِـمَـنْ يَعْـتَـبِـرْ
رَوَائِـعُ آيَـاتِ رَبِّ الْـبَـشَـرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

• • •

(ط) «الأنعـــام»

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ (سورة يس).

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾ (سورة النحل).

عَجِبْتُ لَهَا ثَرْوَةً فِي الدِّيَارْ تَفِيضُ عَطَاءً بِخَيْرَاتِهَا
فَمِنْهَا رَكُوبٌ تَجُوبُ الْقِفَارْ تَشُقُّ الصُّفُوفَ بِهِمَّاتِهَا
تَشُدُّ الْمَحَارِيثَ طَوْعَ الْكِبَارْ وَطَوْعَ الصِّغَارِ بِعَزْمَاتِهَا
عَجِبْتُ لأَصْوَافِهَا الزَّاهِيَاتْ عَجِبْتُ لِثَرْوَةِ أَوْبَارِهَا
عَجِبْتُ لأَثْدَائِهَا الدَّافِقَاتْ عَجِبْتُ لِخَيْرَاتِ أَشْعَارِهَا
عَجِبْتُ لأَلْبَانِهَا الطَّيِّبَاتْ عَجِبْتُ لِوَافِرِ آثَارِهَا

* * *

عَجِبْتُ لَهَا ثَرَّةً بِالْعَطَاءْ مِنْهَا وَمِنْ فَيْضِ أَنْسَالِهَا
تَجُودُ إِلَىٰ حَدِّ بَذْلِ الدِّمَاءْ وَلَيْسَتْ تَمُنُّ بِأَفْضَالِهَا
فَتُعْطِي الْغِذَاءَ وَتُعْطِي الْكِسَاءْ وَتَمْنَحُ مِنْ كَدٍّ أَعْمَالِهَا

* * *

عَجِبْتُ لَهَا نِعَماً لاَ تُعَدُّ تَجُودُ بِهَا وَادِعَاتُ النَّعَمْ
فَلاَ شَيْءَ فِيهَا خَبِيثٌ يُرَدُّ عَدِيمٌ مِنَ النَّفْعِ عِنْدَ الْفَهِمْ
إِلَىٰ الرَّوْثِ مِنْهَا فَهٰذَا يُعَدُّ لِمَدِّ الزُّرُوعِ بِرِزْقٍ دَسِمْ

* * *

تَأَمَّلْتُ فِي صُنْعِهَا الْبَاهِرِ
فَآمَنْتُ بِالْخَالِقِ الْقَادِرِ
وَفِيهَا لِذِي النَّظَرِ الْمُعْتَبِرْ
رَوَائِعُ آيَاتِ رَبِّ الْبَشَرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

• • •

(ي) «الإبـل»

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧﴾ (سورة الغاشية) .

سَلَكْتُ الْبَوَادِيَ عَبْرَ الرِّمَالْ تُصَاحِبُنِي رِفْقَةٌ مِنْ جِمَالْ
بِأَخْفَافِهَا صَنْعَةٌ أُحْكِمَتْ مُلائِمَةٌ لِفَيَافِي الرِّمَالْ

لَقَدْ أَدْهَشَتْنِي بِمَا زُوِّدَتْ   بِهِ مِنْ صِفَاتٍ لِشَدِّ الرِّحَالْ
وَأَدْهَشَنِي صَبْرُهَا فِي الْمَسِيْرِ   بِحَرِّ الْهَجِيرِ وَفَقْدِ الْبِلَالْ
وَفِي طُولِ أَعْنَاقِهَا صَنْعَةٌ   تُلائِمُ رَفْعَ الرِّحَالِ الثِّقَالْ
إذا هِيَ سَارَتْ بِقُرْبِ الْجِبَالْ   تَوَهَّمْتَهَا مِنْ صِغَارِ الْجِبَالْ
ويَحْسَبُها شَاعِرٌ سُيِّرَتْ   عَلَامَةَ أَحْدَاثِ يَوْمِ الْمَآلْ
فَكَمْ مِنْ دَلِيلٍ بِهَا مُثْبِتٍ   لِحِكْمَةِ خَالِقِهَا ذِي الْجَلَالْ

* * *

بَصُرْتُ بِإِتْقَانِهَا الْبَاهِرِ
فَآمَنْتُ بِالْخَالِقِ الْقَادِرِ
جَمَالٌ حِسَانٌ جِيَادُ الْعِبَرْ
لِأَهْلِ الْبَصِيرَة أَهْلِ الْبَصَرْ
بِهِنَّ لِكُلِّ امْرِئٍ مُعْتَبِرْ
رَوَائِعُ آيَاتِ رَبِّ الْبَشَرْ   ... فَآمَنْتُ بِهْ

● ● ●

(ك) «الخيــل»

﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ ﴾ (سورة العاديات).

تَهُزُّ النُّفُوسَ تُثِيرُ الْعَجَبْ   جِيَادُ الْهُجُومِ جِيَادُ الْهَرَبْ
جَمَالٌ وَعِزٌّ وَعَدْوٌ بِهِ   أَمَارَاتُ كِبْرٍ جَمِيلٍ مُحَبّ
إِذَا سِرْنَ مُخْتَالَةً لَمْ تُذَمّ   فَمِنْ خَلْفِ ذَلِكَ دَرْكُ الطَّلَبْ
تُغِيرُ بِقَلْبٍ مِنَ الصَّخْرِ قُدَّ   فَلا يَعْتَرِيهِ وَجِيفُ الرَّهَبْ
تُشِمُّ الْأُنُوفَ تَشُقُّ الصُّفُوفَ   تَخُوضُ الْحُتُوفَ. هَوَى مَنْ رَكِبْ
إِذَا شِئْتَ كَرَّتْ فَمَا أَدْبَرَتْ   وَإِنْ شِئْتَ أَتْقَنَتِ الْمُنْقَلَبْ

لَهَـا فِي الْمَـلاَحِمِ مِمَّـا مَضَىٰ مَـقَـامٌ رَفِـيـعٌ وَعَـتْـهُ الْـكُـتُـبْ
لَهَـا فِي الجَمَالِ نَصِيبٌ يَـظَلُّ مَـدَىٰ الـدَّهْـرِ زَاداً لِحُلْوِ الأَدَبْ
تَـنَـاسُـقُ تَـكْـوِيـنِـهَـا لِلَّذِي أُعِـدَّتْ لَـهُ فَـوْقَ حَـدِّ الْعَجَبْ

* * *

بَـصُـرْتُ بِـإِتْقَـانِـهَـا الْـبَـاهِـرِ
فَـآمَـنْـتُ بِـالْـخَـالِـقِ الْـقَـادِرِ
وَفي الْخَيْـلِ لِلنَّـاظِـرِ الْمُعْتَبِـرْ
رَوَائِـعُ آيَـاتِ رَبِّ الْـبَـشَـرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

* * *

(٤)
المـــاء

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ (سورة الواقعة).

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (سورة الروم).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ (سورة النور).

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾ (سورة الذّاريات)(*).

(*) **المفردات:**
الْمُزْن: السَّحَاب. أُجاجاً: غَيْرَ صَالِحٍ للشُّرْبِ لشدة ملوحته ولمرارته. كِسَفاً: قِطَعاً مُتَرَاكِمَةً. الْوَدْقُ: الْمَطَر. يُزْجِي: يَسُوْق. رُكاماً: بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ.
الذَّارِيَات: الرِّياح تَذْرُو الْأَشْيَاءَ وَمِنْهَا ذَرَّاتُ الْبُخَار والْمَاء. فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً: أي السُّحُب الَّتِي تَحْمِلُ الماء.

(أ) «الدّورة الْمائِيَّةُ»

يَتَمَطّىٰ يَتَبَخَّرْ يَتَسَامَى يَتَفَطَّر
قَدْ أَثَارَ الرِّيْحُ فِيهِ بَعْضَ كِبْرٍ فَتَكَبَّرْ
رَكِبَ الرِّيح صُعُوداً وَتَهَادَى وَتَبَخْتَرْ
وَمَضَىٰ فِي الْجَوِّ يَجْرِي سُحُباً لا تَتَعَثَّرْ
جِسْمُهُ امْتَدَّ فَخَفَّ الْوَزْنُ مِنْهُ فَتَبَخَّرْ
وَتَلاقَىٰ فَوْقَ مَتْنِ الرِّيحِ كَالْقُطْنِ الْمُبَعْثَرْ
هُوَ فِي الْأَجْوَاءِ يَعْلُو بَيْنَ بَيْنٍ لَيْسَ أَكْثَرْ
قَدْرَ مَا خَفَّ تَسَامَىٰ وَلَو ازْدَادَ تَجَبَّرْ
وَرِيَاحٌ لَمْلَمَتْ مِنْ نَثْرِهِ مَا قَدْ تَبَعْثَرْ
فَغَدَا فِي الْجَوِّ أَكْوَا مَاً مِنَ الْبَحْرِ الْمُبَخَّرْ
كَقَطِيعٍ مِنْ جِبَالٍ مَلأَ الْجَوَّ وَأَعْصَرْ
ثُمَّ سَاقَتْهُ رِيَاحٌ شَطْرَ مَا مَاتَ فَأَقْفَرْ
مِنْ بِلادٍ ظَامِئَاتٍ وَجْهُهَا حَرَّانُ أَغْبَرْ
ثُمَّ جَاءَتْ بَارِدَاتٌ تَضْغَطُ السُّحْبَ وَتَعْصِرْ
فَتَلاقَىٰ الْمَاءُ فِيهَا وَتَدَانَى وَتَقَطَّرْ
وَهَوَىٰ مِنْ ثِقَلٍ يَهْمِي عَلَى الْأَرْضِ وَيُمْطِرْ
فَجَرَىٰ الْوَادِي وَعَمَّ الْقَفْرُ بِالْمَاءِ الْمُقَطَّرْ
عَادَ لِلْأَرْضِ لِيُرْوِي ظَامِئَاتٍ تَتَحَيَّرْ
عَادَ نَفَّاعاً كَمَا كَا نَ إِلَىٰ الْأَرْضِ وَأَطْهَرْ
وَخَلا مِمَّا اعْتَرَاهُ قَبْلَ أَنْ يَسْمُو وَيَقْطُرْ
هٰذِهِ حِكْمَةُ رَبٍّ أَتْقَنَ الْخَلْقَ وَدَبَّرْ
نَظَّمَ الْكَوْنَ عَلَىٰ مَا شَاءَ مِنْ أَمْرٍ وَسَيَّرْ

إنَّ إيـمَـانِـي بِـرَبِّي مِـلْءُ إدراكي الْمُـفَـكِّـرْ
مِـلْءُ وِجْـدَانِـي وَقَـلْبِي وَأَحَـاسِـيـسِـي وَأَكْـثَـرْ

* * *

بَـصُـرْتُ بِـدَوْرَةِ هَـذَا الْـمَـطَرْ وَسِلْسِلَةِ الْمُتْقَنَاتِ الْكُبَـرْ
وَمَـا جَمَعَتْ مِنْ جَلِيلِ الْعِبَـرْ فَـآمَنْتُ بِـالْخَـالِقِ الْمُـقْتَـدِرْ

• • •

(ب) «الماء الذي نشربه»

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ (سورة الواقعة).

أَضَـاءَ عَلَىٰ الْأَرْضِ نُـورُ الْحَيَـاةْ وَزَيَّـنَهَـا بِـجَـمِـيـلِ الـصِّـفَـاتْ
بَـصُـرْتُ بِـهِ فَـإِذَا زَيْـتُـهُ مِنْ الْبَحْرِ والنَّهْرِ والنَّابِعَاتْ
وَتَحْمِلُهُ الْمُـزْنُ عَبْـرَ الْفَـضَـاءْ فَتَسْقِي الظِّمَـاءَ بِشَتَّى الجِهَـاتْ
وَتَـبْـتَـلِعُ الْأَرْضُ مِـنْـهُ الْكَثِيـرْ وَتُعْطِيهِ بِـالْأَعْيُنِ الـدَّافِقَـاتْ
فَـتَـحْـيَـا بِـأَمْـدَادِهِ الْـوَارِدَاتْ وَيَنْبُتُ مِنْهَـا بَـدِيْـعُ النَّبَـاتْ

* * *

تَـبَـصَّـرْتُ فِـي سِـرِّهِ الْبَـاهِـرِ
فَـآمَـنْـتُ بِـالْخَـالِقِ الْـقَـادِرِ
وَفِي الْمَـاءِ لِلنَّـاظِـرِ الْمُـعْـتَـبِـرِ
رَوَائِـعُ آيَـاتِ رَبِّ الْـبَـشَـرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

• • •

(ج) «الماء العذب»

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠﴾ (سورة الأنبياء).

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤٥﴾

(سورة النّور).

أَنْتَ حُلْوٌ طَيِّبٌ يَا ابْنَ السَّحَابْ ... سَائِغٌ أَلْطَفُ أَنْوَاعِ الشَّرابْ
سَائِلٌ مِنْكَ الْحَيَاةُ انْبَعَثَتْ ... وَجَرَتْ أَصْنَافُهَا بَيْنَ الشِّعَابْ
إِنَّمَا أَجْسَامُنَا مِنْكَ وَمِنْ ... حَفْنَةٍ مِنْ بَعْضِ أَخْلاَطِ التُّرَابْ
لَوْ عَصَرْنَاكَ جَميعاً لَمْ نَدَعْ ... غَيْرَ نَحْوِ الْعُشْرِ مِنَّا فِي الْإِهَابْ
لَوْ تَخَلَّىٰ عَنْكَ مَا نَطْعَمُهُ ... لَمْ يَكُنْ فِي الْكَوْنِ شَيْءٌ مُسْتَطَابْ
جَلَّ مَنْ قَدْ رَكَّبَ الْمَاءَ لَنَا ... بِنِظَامٍ رائِعٍ وَفْقَ الطِّلاَبْ
هُوَ لِلْإِرْوَاءِ. لِلتَّنْظِيفِ. لِلْغَسْلِ ... لِلتَّطْهِيرِ مَخْلُوقٌ عُجَابْ
هُوَ لِلتَّذْوِيبِ مَا أَحْسَنَهُ ... ذُو مِزَاجٍ نَافِذٍ مِنْ كُلِّ بَابْ
إِنَّهُ خَيْرُ وَسِيطٍ نَافِعٍ ... يَصِلُ الْأَشْيَاءَ مِنْ خَلْفِ حِجَابْ
مَرْكَبٌ يَحْمِلُ مَا انْحَلَّ بِهِ ... مِنْ غِذَاءٍ نَاعِمِ الْجِسْمِ مُذَابْ
وَبِهِ يَسْرُبُ فِي لُطْفٍ إِلَىٰ ... كُلِّ شِرْيَانٍ وَنَبْتٍ وَذُؤَابْ[1]
إِنَّنَا نُرْوِي بِهِ أَحْيَاءَنَا ... وَلَكَمْ نَرْكَبُهُ فَوْقَ الرِّكَابْ
تَمْخُرُ الْفُلْكُ بِهِ عَابِرَةً ... مِثْلَ أَطْوَادٍ جرتْ جَرْيَ السَّحَابْ

* * *

هُوَ حَقْلٌ نَزْرَعُ اللَّحْمَ بِهِ ... فَنُوَافِي اللَّحْمَ وَفْراً فِي الْوِعَابْ[2]
أَيُّهَا الصَّيَّادُ فَاذْكُرْنِي إِذَا ... صِدْتَ مِنْ مَائِكَ مَا لَذَّ وَطَابْ

* * *

(١) الذؤاب: جمع مفرده ذؤابة، وذؤابةُ كل شيء أعلاه...
(٢) الوعاب: الأوعية الواسعة، تقول: وِعَاءٌ وعيب، أي: واسع، وأوعية وِعَاب.

كُـلُّ مَـا يَبْـرُدُ يَنْضَمُّ سِـوَى الْـــمَاءِ إن يَجْمُدْ غَدَا رَحْبَ الْجَنَابْ
إنَّــهُ يَـمْتَـدُّ كَـيْ يَـطْفُـو فَـلاَ يَقْتُـلَ الأَحْيَـاءَ فِي غَمْرِ الْعُبَـابْ

* * *

جَـلَّ مَنْ قَـدْ خَلَقَ الْمَـاءَ لَنَـا بِـنِـظَامٍ رَائِـعٍ وَفْـقَ الـطِّلاَبْ
إنَّـهُ لَـوْ جَفَّ لَمْ نَـلْقَ الَّـذِي ذَاكَ فِي الأَفْوَاهِ مِنْ لِينِ الرُّضَابْ
إنَّـهُ لَـوْ غَـاضَ فِـي أفْـوَاهِنَـا لَمضَغْنَا الشَّوْكَ مِنْ فَـرْطِ الْعَذَابْ
إنَّـهُ لَـوْ غَـاضَ فِـي أَعْـيُـنِـنَـا لَغَدَتْ كالْجَمْـرِ مِنْ فَرْطِ الْتِهَـابْ

* * *

تَبَصَّـرْتُ بِـالْمَـاءِ أَصْـلِ ٱلْحَيَـاةْ
فَـآمَـنْتُ بِـالْـخَـالِقِ الْـمُـقْـتَـدِرْ
وَفِـي الْمَـاءِ للباحِثِ الْـمُـدَّكِـرْ
رَوَائِـعُ آيَـاتِ رَبِّ الْـبَـشَـرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

• • •

(د) «الـبحـر»

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ (سورة الجاثية).

وَقَـفْتُ عَـلَىٰ الشَّـاطِـىء الأَزْرَقِ أُرَاقِـبُ بِـالـنَّـاظِـرِ الْـمُـحَـدِقِ
إذَا مَـوْجُـهُ مِنْ تِـلاَلِ الـزُّجَـاجْ تَـكَـسَّـرُ كَـالأَمَـلِ الأَخْـرَقِ
شَـظَايَـاهُ تَنْبَثُّ فَـوْقَ الصُّخُـورْ لِيَـحْـتَـفِـلَ الـشَّطُّ بِـالـرَّوْنَـقِ
كَـأَنَّ تَـدَافُـعَ أَمْـوَاجِـهِ هُـرُوبٌ مِـنْ الْخَـطَرِ الْـمُـغْـرِقِ
أَأَمْـوَاجُ عُـودِي وَلاَ تَـحْـذَرِي فَـإِنَّـكِ فِي الْبَحْـرِ لَنْ تَغْـرَقِي
أَتَـبْغِيْنَ فِـي الْـبَـرِّ حُلْوَ الأَمَـا نِ أَمْ مِنْـهُ لِلْبَحْـرِ أَنْ تَسـرِقِـي
تُلِحِّينَ. لاَ تَسْـأَلِينَ الـزَّمَـانْ: مَـاذَا مَضَىٰ مِنْـهُ؟ مَـاذَا بَقِـي؟

رَوَائِـعُ فِـي الـشَّطِّ لاَ تَـنْـتَـهِي تَـسِـيـرُ مَـعَ الـنَّـظَرِ الْـمُـطْلَقِ
تَـدَبَّـرْتُـهَـا بِـدَقِيـقِ الْـفُـهُـومْ لَـعَـلِّيَ بِـالْـحَـقِّ أَنْ أَلْـتَـقِـي

* * *

وَأَرسَلْتُ طَـرْفِيَ فَـوْقَ الْعُبَابْ[1] فَـطَافَ يَـعُـومُ بِـلا زَوْرَقِ
وَشَـاهَـدَ فِيـهِ الْجَـوَارِي الْكِبَـا رَ تَـسْبَـحْـنَ كَـالْـبَطِّ والـلَّقْـلَقِ
عَلَىٰ بِـرْكَـةِ الْقَصْـرِ بَيْنَ الْمُـرُوجْ تَــهَـادَىٰ بِـهَـا وَرَقُ الـزَّنْـبَـقِ
تَـدَبَّـرْتُـهَـا بِـدَقيـقِ الْـفُـهُـومْ لَـعَـلِّيَ بِـالْـحَـقِّ أَنْ أَلْـتَـقِـي

* * *

فَشَـاهَـدْتُ فِيهَـا أَيَادِي الْقَـدَرْ تَـهُـزُّ الْقُـلُوبَ تَـهُـزُّ الْـفِـكَـرْ
تُـنَـبِّـهُ أَنَّ الْـعَـلِيمَ الْـحَـكِـيـمْ وَرَاءَ السُّجُـوفِ هُـوَ الْـمُقْـتَـدِرْ
وَفِي الْبَحْـرِ لِلنَّـاظِـرِ الْمُعْـتَـبِـرْ
رَوَائِـعُ آيَـاتِ رَبِّ الْـبَـشَـرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

* * *

---

(١) العُبَاب: معظم الماء.

(٥)
السحاب والبرق

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ (سورة النور).

تَكَاثَفَتِ السُّحْبُ مِلْءَ الْأُفُقْ ... ثِقَالَ الْبُطُونِ بِمَاءٍ غَدَقْ

وأظْلَمَتِ الْأَرْضُ مِنْ ظِلِّهَا ... وَأَمْسَتْ مَصَابِيحُهَا تَخْتَنِقْ

وَشَقَّتْ بُرودَ الظّلَامِ الْبُرُوقْ ... خَوَاطِفَ مِنْ شِدَّةٍ تَأْتَلِقْ

يَكَادُ سَنَاهَا الشَّدِيدُ السَّرِيعْ ... يَخْطَفُ أبْصَارَنَا والْحَدَقْ

فَمِنْ أينَ شِحْنَةُ ذَا الْكَهْرُبَاءْ؟ ... وَمَا هُوَ خَزَّانُها الْمُتَّسِقْ

فَطَاقَتُهَا فَوْقَ حَدِّ الْحِسَابْ ... لَدَيْنَا فَمَنْ شَاءَ فَلْيَخْتَرِقْ

ولو أن كُتْلَتَهَا جُمِّعَتْ ... عَلَىٰ جَبَلٍ رُبَّما يَحْتَرِقْ

يُهَوِّنُ مِنْ أَمْرِهَا أَنَّهَا ... تَبَدَّدُ فِي جَنَبَاتِ الْأُفُقْ

* * *

وَكَسَّرْنَ كُلَّ سُكُونٍ مُخِيفْ ... رُعُودٌ بِأَرْجَائِهَا تَنْطَلِقْ

فَتَأْتِي بِخَوْفِ الصِّيَاحِ الْمُثِيـ ... ـرِ مِنْ بَعْدِ خوفِ السُّكُونِ الزَّلِقْ[1]

---

(١) الزّلِق: الموضع الذي فيه زلل وسقوط لعدم تماسكه.

فَكَمْ مُلِئَتْ أَنْفُسٌ بِالْوَجِيفْ وَكَمْ مُلِئَتْ أَرْؤُسٌ بالْأَرَقْ

وَكَمْ أَسْرَعَتْ أَنْمُلٌ لِلصِّمَاخْ بِمَا نَالَهَا مِنْ شَدِيدِ الْفَرَقْ

* * *

وَأَفْرَغَتِ السُّحْبُ أَثْقَالَهَا فَسَالَتْ سُيُولٌ وَسُدَّتْ طُرُقْ

وَدَبَّتْ بِمَيْتِ الْبِلَادِ الْحَيَاةْ فَأَهْدَتْ لَنَا الثَّمَرَ الْمُؤْتَلِقْ

تَبَصَّرْتُ بِالحَدَثِ البَاهِرِ

فَآمَنْتُ بِالْخَالِقِ الْقَادِرِ

أُمُورٌ بها لِلْفَتَى الْمُعْتَبِرْ

رَوَائِعُ آيَاتِ رَبِّ الْبَشَرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

* * *

(٦)

الـــريـــاح[١]

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ (سورة البقرة).

فِي النَّسِيمِ الطَّلْقِ أَوْ بَيْنَ الشَّجَرْ ... طَابَتِ الْأَنْفَاسُ يَا أَهْلَ الْفِكَرْ
فِي النَّسِيمِ الطَّلْقِ أَنْفَاسُ الْحَيَاةْ ... تَشْرَحُ الصَّدْرَ وَتُحْيِي وَتَسُرّْ
مَا الَّذِي يَنْتَابُنِي إِنْ حُبِسَتْ ... كُلُّ أَنْفَاسِي بِجُدْرَانِ الْحُجَرْ؟
إِنَّهَا تَصْدَعُ رَأْسِي إِنْ تَدُمْ ... وَبِهَا مِنْ مُوحِشِ الْمَوْتِ نُذُرْ
قَدْ سَأَلْتُ الْبَاحِثَ الْعِلْمِيَّ عَنْ ... سَبَبِ الْأَمْرِ فَأَعْطَانِي الْخَبَرْ
قَالَ: هَلْ تَعْلَمُ مَا فِي «الْأُكْسِجِين» ... مِنْ وَقُودٍ لَهَبِيٍّ ذِي خَطَرْ
هُوَ مَا تَحْتَاجُهُ أَعْمَارُنَا ... مِنْ وَقُودٍ مُسْتَمِرٍّ مُحْتَضَرْ
وَلَهُ ضِمْنَ الرِّيَاحِ نِسْبَةٌ ... إِنْ عَلَتْ أَوْ نَقَصَتْ فِيهَا أَضَرّْ

---

(١) يُطلق الناس كلمة الهواء على الريح. وكلمة الهواء في اللغة العربية تُطلق على الجو ما بين السماء والأرض. وتُطلق على الخواء والخلاء، أي الفراغ الذي لا شيء فيه. «انظر: لسان العرب في مادة هوا». وقد تطلق على الريح كما جاء في الصحاح.

يَـدْخُـلُ الصَّــدْرَ فَيُعْـطِي وَقْــدَهُ وَمَـتَـىٰ أَدَّى الْـمُـهِـمَّــاتِ صَــدَرْ
فِي حَنَــايَا الصَّــدْرِ مَـا يَـطْرُدُهُ فَبَقَــايَـا الْــوَقْدِ «إِكْسِيــدٌ» يَضُــرّْ
هُــوَ لِــلْأَحْـيَــاءِ سُــمٌّ قَــاتِــلٌ وَهْــوَ وَقْــدٌ وَغِــذَاءٌ لِــلشَّــجَــرْ
فَــإِذَا مَــا حَــبَسَــتْــهُ حُــجْــرَةٌ جَلَبَ الْمَــوْتَ لَمِنْ فِيهَــا حَضَــرْ
وَلَـكَـمْ تَـعْـجَـبُ إِذْ تَـعْـلَـمُ مَــا لِنَبَــاتِ الْأَرْضِ مِـنْ جَـمِّ الْأَثَــرْ
إِنَّــهُ يَــأْخُـذُ مِــنْ أَنْـفَــاسِـنَــا ثُـمَّ يُـعْـطِي «الْأُكْسِجِينَ» الْمُعْتَصَــرْ
يَــا لَهَــا مِنْ صَنْعَــةٍ مُــدْهِـشَــةٍ تَمَّ فِيهَــا الْعَـدْلُ مَــوْفُـورَ الْعِبَــرْ
هِيَ فِي الْـكَــوْنِ دَلِيــلٌ بَــاهِــرٌ يَحْـمَـدُ اللَّـهَ. فَهَـلْ مِنْ مُـدَّكِـرْ؟

* * *

تَفَكَّـرْتُ فِي الرِّيـحِ وَقْـدِ الْحَيَـاةْ
فَـآمَـنْـتُ بِــالْـخَــالِقِ الْـمُـقْـتَـدِرْ
فَـتَصْــرِيـفُــهُ عِـنْـدَ مَـنْ يَـعْـتَبِــرْ
يَــدُلُّ عَــلَىٰ الـلَّـهِ رَبِّ الْـبَـشَــرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

* * *

(٧)
الأرض

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴿٦٤﴾﴾ (سورة غافر).

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ (سورة الزخرف).

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ (سورة الحِجْر).

(أ) «أرضنا أمّنا»

أرْضُنَا أُمُّنَا فَمِنْهَا خَرَجْنَا ... وَإِلَيْهَا مِنْ بَعْدِ حِيْنٍ نَعُودُ
كَمْ بِهَا أُمَّةٌ طَوَاهُمْ ثَرَاهَا ... كَمْ لِهٰذِي الْأَجْدَاثِ مَرَّتْ حُشُودُ
وَعَلَيْهَا أَنْسَالُهُمْ تَتَوَالَىٰ ... بَعْضُهُمْ قَائِمٌ وَبَعْضٌ حَصِيدُ
وَحُشُودُ الْأَحْفَادِ تَسْعَىٰ عَلَيْهَا ... مِثْلَمَا كَانَ قَدْ سَعَتْهُ الْجُدُودُ
أَرْضُنَا هٰذِهِ أُعِدَّتْ. أُمِدَّتْ. ... مُهِّدَتْ. ثُبِّتَتْ. رَعَاهَا الْمجِيدُ
دَوْرَةُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ عَلَيْهَا ... وَافَقَتْ مَا بِهِ الْحَيَاةُ تَجُودُ
وَأُمِيلَتْ لَمَّا أُدِيْرَتْ لِتَجْرِي ... فِي فُصُولٍ تَمُرُّ ثُمَّ تَعُودُ
أُقِّتَتْ. أُحْكِمَتْ. فَلاَ الْحرُّ يَقْسُو ... فِي رُبَاهَا وَلَيْسَ يَقْسُو الْجُمُودُ
بِاتِّسَاقٍ وَحِكْمَةٍ وَنِظَامٍ ... دَائِرِيٍّ حُدَّ الزَّمَانُ الْمَدِيدُ

فَغَدَا لِلْحَيَاةِ فِي الْأَرْضِ مَأْوىً   وَقَرَارُ نِعْمَ الْقَرَارُ الْحَمِيدُ
جَلَّ مَنْ أَحْكَمَ النِّظَامَ بِأَيْدٍ   وَرَعَانَا بِهِ عَلَىٰ مَا يُرِيدُ

* * *

بَصُرْتُ بِإِتْقَانِهَا الْبَاهِرِ
فَآمَنْتُ بِالْخَالِقِ الْقَادِرِ
وَفِي الْأَرْضِ للباحِثِ الْمُعْتَبِرْ
رَوَائِعُ آيَاتِ رَبِّ الْبَشَرْ   ... فَآمَنْتُ بِهْ

• • •

(ب) «آيات في الأرض»

﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ۝٣٣﴾ (سورة النازعات).

حَوَادِثُ فِي الْأَرْضِ لَا تَنْتَهِي   تَهُزُّ الْعُقُولَ تُثِيرُ الْعَجَبْ
جِبَالٌ كَأَوْتَادِ شَدِّ الْأَدِيمْ   وَأَرْضٌ مُمَهَّدَةٌ بِالتُّرَبْ
وَأَطْرَافُهَا بِانْتِقَاصٍ تَمُرُّ   إلى الْبَحْرِ والْخَسْفِ عَبْرَ الْحِقَبْ
وَفِيهَا مِنَ الْمَدِّ قَدْرُ الْغَنَاءْ   لِسُكَّانِهَا إنْ أَجَادُوا الطَّلَبْ
إذَا أَنْتَ أَمْعَنْتَ في دَحْوِهَا   وَقَدْ كَشَفَ الْعِلْمُ عَنْهُ الْحُجُبْ
بَدَتْ أَنّها حَيْثُ تَسْعَى تَدُوْرْ   كَسَيْلٍ دَحَا في الْمَسِيلِ الْحَصَبْ
تَبَارَكَ رَبٌّ أَتَمَّ النِّظَامْ   وَأَحْكَمَهُ بِلَطِيفِ السَّبَبْ

* * *

بَصُرْتُ بِإِتْقَانِهِ الْبَاهِرِ
فَآمَنْتُ بِالْخَالِقِ الْقَادِرِ
وَفِي الْأَرْضِ لِلنّاظِرِ الْمُعْتَبِرْ
رَوَائِعُ آيَاتِ رَبِّ الْبَشَرْ   ... فَآمَنْتُ بِهْ

• • •

(ج) «دوران الأرض»

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (سورة يس).

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾ (سورة الزُّمر).

يُعَلِّمُنَا مَسِيرُ الأَرْضِ فِينَا ... بِغَيْرِ السَّعْيِ لاَ تُقْضَىٰ الأُمُورُ
تَدُورُ عَلَىٰ الْفُصُولِ بِكُلِّ عَامٍ ... لِنَجْنِي مَا بِهِ الْخَيْرُ الكَثِيرُ
وَمِحْوَرُهَا عَلَىٰ الْمَلَوَيْنِ دَوْماً ... بِأَضْبَطِ سُرْعَةٍ فِينَا يَحُورُ
فَيَعْكِسُ وَهْمُنَا الأَشْيَاءَ حَتَّىٰ ... نَرَى أَنَّا بِلاَ سَعْيٍ نَمِيرُ
نَظُنُّ الشَّمْسَ دَائِرَةً عَلَيْنَا ... وَيَخْدَعُنَا مِنَ النَّظَرِ السَّفِيرُ
وَإِنَّا حَوْلَهَا ـ وَالأَرْضُ دَوْماً ... تَسِيرُ بِنَا ـ عَلَىٰ فَلَكٍ نَدُورُ
وَنَلْتَمِسُ الْقَضَاءَ وَنَحْنُ نَلْهُو ... وَنُهْمِلُ مَا بِهِ انْعَقَدَ الْمَصِيرُ
ظُنُونٌ لِلْحَيَاةِ مُخَرِّبَاتٌ ... مُعَطِّلَةٌ لِمَا وَهَبَ الْقَدِيرُ
بَصُرْتُ بِحِكْمَةِ الرَّحْمٰنِ فِينَا ... وَأَرْشَدَنِي مِنَ الإِيمَانِ نُورُ
فَنَادَتْ مُهْجَتِي: اللَّهُ رَبِّي ... هُوَ الْحَيُّ الْمُهَيْمِنُ وَالْخَبِيرُ
وَخَرَّتْ كُلُّ ذَرَّاتِي سُجُوداً ... لِعِزَّتِهِ وَعَمَّنِيَ السُّرُورُ
وَفِي ذُلِّي لَهُ أَدْرَكْتُ مَجْدِي ... وَإِنِّي دُونَهُ شَيْءٌ حَقِيرُ

• • •

(د) «الجبـال»

﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ﴿٦﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ﴿٧﴾﴾ (سورة النبأ).

صَعَدْتُ الْجِبَالَ وَجُبْتُ السُّهُولْ ... وَطَوَّفْتُ بَيْنَ ثَنَايَا الْحُقُولْ
وَأَدْهَشَنِي جَبَلٌ رَاسِخٌ ... بِعَزْمِ الشَّبَابِ وَصَبْرِ الْكُهُولْ

تَـفَـكَّـرْتُ فِـيـهِ إذَا وَزْنُـهُ   مُـثَبِّتُ قِشْـرَةِ هَـذِي السُّهُـولْ
تَـفَـكَّـرْتُ فِـيـهِ إِذَا جَـوْفُـهُ   مَسَـارِبُ قَـدْ تَصْـطَفِيهـا السُّيُـولْ
فَتَجْـرِي عُيُـونَـاً تُمِـدُّ الـظِّمَـاءْ   وَتَسْقِي الْحُقُـولَ وَتَشْفِي الْعَلِيـلْ

* * *

بَـصُـرْتُ بِـإِتْقَـانِـهَـا الْبَـاهِـرِ
فَـآمَـنْـتُ بِـالْـخَـالِـقِ الْـقَـادِرِ
فَفِيهَـا لِـذِي النَّـظَرِ الْمُـعْتَبِـرْ
رَوَائِـعُ آيَـاتِ رَبِّ الْـبَـشَـرْ   ... فَآمَنْتُ بِهْ

* * *

(٨)

القمر

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ (سورة نوح).

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ (سورة الْفُرْقَان).

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴿٣٣﴾﴾ (سورة إبْراهيم).

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴿٥﴾ ﴿١٣﴾﴾ (سورة الزُّمَرْ، وسورة فاطِر).

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ (سورة يَس).

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴿٥﴾﴾ (سورة يونس).

كَوْكَبَةٌ تَابِعَةٌ لأَرْضِنَا ... تُمِدُّهَا بِنُورِهَا وَتَحْتَجِبْ
غَرِيبَةٌ أَطْوَارُهَا تَرْفَعُ مِنْ ... حِجَابِهَا شَيْئاً فَشَيْئاً بِأَدَبْ
حَتَّى إذَا مَا كَشَفَتْ عَنْ وَجْهِهَا ... جَمِيعِهِ فِي نِصْفِ شَهْرٍ يُحْتَسَبْ
واسْتَمْتَعَ السَّامِرُ فِي أَنْوارِهَا ... وَنَالَ مِنْ أَلْطَافِهَا مَا يَرْتَقِبْ

عَادَتْ فَأَرْخَتْ كُلَّ يَوْمٍ مَقْطَعاً مِنْ سِتْرِهَا حَتَّىٰ تَوارَتْ بِالْحُجُبْ
فِي كُلِّ يَوْم تَصْطَفِي مَنْزِلَةً تُبْدِي لَنَا فِيهَا النِّصابَ الْمُرْتَقِبْ
فَنَحْسُبُ الشَّهْرَ عَلَىٰ تَوْقِيتِها مِنْ يَوْمِ أَنْ تُهِلَّ حَتَّى تَغْتَرِبْ
وَمَا مَضَىٰ مِنْ شَهْرِنَا وَمَا بَقِي لَهُ لَدَيْهَا مَا يَدُلُّ الْمُحْتَسِبْ
دَقِيقَةُ التَّوْقِيت لا تَخْرِمُ مِنْ أَوْقَاتِهَا ثَانِيَةً عَبْرَ الْحِقَبْ
كَوْكَبَةٌ عَامِلَةٌ دَائِبَةٌ فَلَا تَنِي وَلَا يَمَسُّهَا النَّصَبْ
تَابِعَةٌ لأَرْضِنَا. وَأَرْضُنَا تَابِعَةٌ لِشَمْسِنَا. يَا لَلْعَجَبْ
كَوْكَبَةٌ مُنِيرَةٌ لَيْسَ لَهَا مِنْ ذَاتِهَا ضَوْءٌ جَمِيلٌ مُسْتَحَبّْ
لَكِنَّهَا تَعْكِسُ كَالمِرآةِ مَا تُمِدُّهَا مِنْ وَهَجٍ ذَاتُ اللَّهَبْ
كَوْكَبَةٌ قَدْ لَقَّبُوهَا قَمَراً وَقَدْ حَلا تَذْكِيرُهَا عِنْدَ الْعَرَبْ
ظَنَّ بِهَا الإِنسَانُ مَا لَيْسَ بِهَا فَرَاحَ يَجْتَازُ الْفَضَاءَ بِدَأَبْ
وَحِينَ مَسَّتْ قَدَمَاهُ ظَهْرَهَا رَأَىٰ بِهَا مَا لَمْ يَكُنْ قَدِ ارْتَقَبْ
رَأَىٰ بِهَا قَفْراً وَصَمْتاً مُوحِشاً وَكُتَلاً مِنَ الصُّخُورِ تُجْتَلَبْ
وَلَمْ يَجِدْ فِيهَا حَيَاةً تُرْتَجَىٰ وَلَمْ يَجِدْ فِيهَا الَّذِي كَانَ أَحَبّْ
فَعَادَ لِلأَرْضِ يَشُمُّ تُرْبَهَا وَيَحْتَوِيهَا بِعِنَاقٍ وَحَدَبْ
وَزَادَ حُبُّهُ لَهَا وَقَالَ: يَا قَوْمِ هُنَا أَرْضُكُمُ الَّتِي تُحبّْ
وَكُلُّ مَا مِنْ حَوْلِهَا مُسَخَّرٌ لَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا بِغَيْرِهَا السَّبَبْ

* * *

تَبَصَّرْتُ بِالْقَمَرِ الْبَاهِرِ وَتَقْدِيرِ تَوْقِيتِهِ الظَّاهِرِ
وَتَرْتِيبِ أَوْضَاعِهِ فِي السَّمَاءِ فَآمَنْتُ بِالْخَالِقَ الْقَادِرِ
وَفِيهِ لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَعْتَبِرْ
رَوَائِعُ آيَاتِ رَبِّ الْبَشَرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

* * *

(٩)
السَّــمــاء

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ (سورة الملك).

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ (سورة الذاريات).

سِرْ مَعَ الْمِنْظَارِ فِي الْأُفْقِ الْبَعِيدِ ... وارْقُبِ الْأَفْلاَكَ بِالْبَحْثِ الْمُفِيدْ
وَتَأَمَّلْ فِي الْمَجَرَّاتِ الْعُلاَ ... واتَّئِدْ واسْتَجْلِ بالرأْيِ السَّدِيدْ
وارْجِعِ الْكَرَّةَ والْكَرَّةَ في ... بَصَرٍ بَحَّاثَةٍ جَلْدٍ حَدِيدْ
مَا الَّذِي اسْتَجْلَيْت يَا بَاحِثَنَا ... أَنْتَ فِي الْمَرْصَدِ تَبَّاعُ عَتِيدْ؟
مَا الَّذِي شَاهَدْتَ في الآفَاقِ مِنْ ... مُدْهِشَاتٍ سَاطِعَاتٍ مِنْ بَعِيد؟
كُبْرَيَاتٌ فَوْقَ مَا نَقْدُرُهُ ... مِنْ خَيَال وَاسِعِ الْحَدْسِ مُجِيدْ
جَارِيَاتٌ فِي مَسَارَاتٍ لَهَا ... لَيْسَ فِيْهَا مَا يَنِي أَوْ مَا يَحِيدْ
لَيْسَ فِيهَا مَا طَغَى عَنْ حَدِّهِ ... هِي في الطَّاعَةِ لِلْأَمْرِ الرَّشِيدْ

* * *

أَنْتِ سِيرِي هٰهُنَا لاَ تَخْرُجِي ... عَنْ مَسَارٍ لَكِ في الدَّهْرِ الْمَدِيدْ

* * *

أَنْتِ مُـرِّي فِي جُمُـوعٍ نُـظِّمَتْ   وَاخْـرُجِي دَهْـرَاً وَلِلْعَـوْدِ الْحَمِيـدْ

* * *

أَنْــتِ كُــونِــي أُمَّ أَوْلَادٍ لَــهُــمْ   بِـكِ مَهْمَـا ابْتَعَـدُوا رَبْطُ شَـدِيـدْ

قَــدْ تَــدَلَّتْ مِنْـكِ أَثْــدَاءٌ لَـهُمْ   تَشْخُبُ الضَّـوْءَ عَلَىٰ قَدْرِ الْـوَلِيـدْ

أَيُّـهَــا الْأَبْـنَــاءُ دُوروا حَــوْلَـهَــا   بِــانْتِـظَامٍ مِثْــلَ دَوْرَاتِ الْعَبِيــدْ

واقْـبِسُــوا مِنْهَــا فَـهٰـذِي أُمُّكُـمْ   لَا تَقُولُوا بَعْدَهَا: هَـلْ مِنْ مَزِيْـدْ

* * *

أَنْتِ كُونِي لِلْهُـدَى فِي مَـوْقِـعٍ   أَنْتِ لِلرَّجْمِ ولِلصـدِّ الـسَّـدِيــدْ

أَنْـتِ كُــونِـي شُـهُـبَــاً ثَــاقِـبَــةً   أَنْتِ فَــانْعَي كُــلَّ جَبَّــارٍ عَنِيــدْ

* * *

كَــائِـنَــاتٌ مُــدْهِشَــاتٌ لِـلنُّـهـى   هَــادِيَـاتٌ كُــلَّ ذِي قَلْبٍ رَشِيـدْ

إِنَـهَّــا تَهْـمِسُ فِي قَـلْبِ الَّـذِي   صَـحَّ فِيـه سَمْعُــهُ وَهْـوَ شَهِيــدْ

إِنَّهَــا تَصْـدَحُ فِي سَمْــعِ الَّـذِي   يَـنْشُــدُ الْـحَقَّ بِـعلْوِيّ الـنَّشِيــدْ

إِنَّ مَــنْ أَبْـدَعَـنِــي سَــيَّـرَنِــي   إِنَّــهُ الْـجَـبَّــارُ يُـبْـدِي ويُـعِيــدْ

إِنَّــهُ الْـخَــالِـقُ ذُو الـطَّوْلِ لَــهُ   كُلُّ أَمْرٍ وَهْوَ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيـدْ

هُــوَ ذُو الـسُّـلْطَانِ فِـي عِـزَّتِـهِ   إِنَّــهُ يَـفْعَــلُ فِينَــا مَــا يُـرِيــدْ

* * *

تَـفَـكَّــرْتُ فِـي الْأُفُـقِ الْـبَــاهِــرِ

فَــآمَـنْـتُ بِــالْـخَــالِـقِ الْـقَــادِرِ

وَكَـمْ فِي الـسَّمَــاوَاتِ لِـلْمُعْـتَبِــرْ

رَوَائِــعُ آيَــاتِ رَبِّ الْــبَـشَــرْ   . . . فَآمَنْتُ بِهْ

* * *

(١٠)
الـــنَّـــبـــات

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (سورة النمل).

(أ) «بزور النبات»

عَجِبْتُ لَهَـا بِـزْرَةً فِي التُّـرَابْ ... تَـفَـتَّـقُ عَـنْ قُـبَّـةٍ مِـنْ شَـجَـرْ

تَميسُ بِـأَغْصَـانِهَـا كَـالْعَـرُوسْ ... مُـكَـلَّلَةً بِـبَـدِيـعِ الـزَّهَـرْ

وَتَخْتَـالُ فِي ثَـوْبِهَـا السُّنْـدُسِيّ ... مُـحَلًّى بِـأَحْـلَى عُقُـودِ الثَّـمَـرْ

تَـجُـودُ لِأَضْيَـافِـهَـا بِـالْـعَـطَاءْ ... مِـنَ الـظِّلِّ والـرِّزْقِ لَا تَعْـتَـذِرْ

تَـقُـولُ: كُلُوا ثَـمْـرِي مَـا حَمَـلْتُ أَوْ أَحْـرِقُـوا عُـودِيَ الْمُـنْـكَـسِـرْ

وَكَـمْ تَـسْـتَـضِـيـفُ الـطُّيُـورَ الْحِـسَـانَ تَـجْـذِبُـهُـنَّ بِـنَـفْـحٍ عَـطِرْ

وَكَمْ تَسْتَضِيفُ الـطُّيُـورَ الْحِسَـانَ ... تَـجْـذِبُـهُـنَّ بِـنَـفْـحٍ عَـطِرْ

وَكَمْ أَبْـدَعَتْ «جَوْقَـةً» الطَّيْـرِ فِي ... رُبَـاهَـا الْغِنَـاءَ فَحَـارَتْ فِكَـرْ

وَقَـدْ لَـبِـسَـتْ حُـلْوَ زِيـنَـاتِـهَـا ... فَـطَابَ الـسَّـمَـاعُ وَلَـذَّ الـنَّـظَرْ

* * *

بَصُـرْتُ بِـإِبْـدَاعِهَـا الْبَـاهِـرِ
فَـآمَـنْـتُ بِـالْـخَـالِقِ الْـقَـادِرِ

مَبَـاهِـجُ فِيهَـا لِأَهْـلِ النَّـظَرْ
رَوَائِـعُ آيَـاتِ رَبِّ الْـبَـشَـرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

• • •

(ب) «عجائب أصناف النبات»

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ۝٩٩﴾ (سورة الأنعام).

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣﴾ (سورة طه).

عَجَـائِبُ لَا تَنْتَهِي فِي النَّبَـاتْ ... تَـدُلُّ عَـلَىٰ الْخَـالِـقِ الْمُـقْـتَـدِرْ
عَجَـائِبُ فِي أَصْـلِ تَكْـوِينِـهِ ... عَجَـائِبُ فِي نَجْـمِـهِ وَالشَّـجَـرْ
عَجَـائِبُ لَا تَنْقَضِي فِي الْجُـذُورْ ... وَفِي السُّـوقِ ثُمَّ بِفَيْضِ الثَّـمَـرْ
عَـجَـائِـبُ تَـبْـدُو بِـأَوْرَاقِـهِ ... وَمَـا جَـمَـعَـتْ مِنْ ثُـغُـورٍ كُثُـرْ
نَسِيـجٌ بِـهِ يُـدْهِشُ النَّـاظِـرِينْ ... وَتَـحْـتَـارُ فِـيمَـا حَـوَاهُ الْـفِـكَـرْ
وَمُـخْـتَـلِـفَـاتٌ بِـهِ لَا تُـعَـدُّ ... فَـتَحْـلُو صُنُـوفٌ وَأُخْـرَىٰ تَـمُـرّ
وَكُـلٌّ لَـهُ مِـيـزَةٌ فِي الْـحَيَـا ... ةِ يَـعْـرِفُ قِيـمَتَـهَـا مَنْ خَـبَـرْ

* * *

تَـبَـصَّـرْتُ فِي أَمْـرِهِ الْـبَـاهِـرِ
فَـآمَـنْـتُ بِـالْـخَـالِـقِ الْـقَـادِرِ
نَـبَـاتٌ بِـهِ لِلْفَـتَـىٰ الْـمُـعْـتَـبِـرْ
رَوَائِـعُ آيَـاتِ رَبِّ الْـبَـشَـرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

• • •

(ج) «الورقة الخضراء»

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ﴿٩٩﴾﴾ (سورة الأنعام).

تُحَيِّرُنِي وَرَقَاتُ النَّبَاتْ مَهْمَا تَمُرُّ بِيَ الْأَزْمِنَةْ
تُغُورُ لَهَا مُتْقَنَاتُ الزَّفِيرِ وَأَمَّا الشَّهِيقُ فَمَا أَحْسَنَهْ
تُنَقِّي الْهَوَاءَ. تُعِدُّ الْغِذَاءْ تَمُصُّ الضِّيَاءَ لِكَيْ تَخْزِنَهْ
لِتَطْبُخَ بِالضَّوْءِ مَا اسْتَنْشَقَتْ وَمَا ارْتَشَفَتْ طَبْخَةً مُتْقَنَةْ
أُمُورٌ مُعَقَّدَةٌ فِي الْوُجُودْ تَدُلُّ بِأَوْصَافِهَا الْمُعْلَنَةْ
عَلَىٰ اللَّهِ خَالِقِ هَذَا الْوُجُودْ وَرَاعِيهِ بِالْجُودِ والْهَيْمَنَةْ
فَمَهْمَا انْخَفَضْتَ تَجِدْ مَسْجِداً وَمَهْمَا ارْتَفَعْتَ تَجِدْ مِئْذَنَةْ
وَلَا شَيْءَ إِلَّا لَهُ مَا بِهِ يُسَبِّحُ بِاسْمِ الَّذِي أَتْقَنَهْ

بَصُرْتُ بِإِتْقَانِهَا الْبَاهِرِ
فَآمَنْتُ بِالْخَالِقِ الْقَادِرِ
عَجَائِبُ فِيهَا لِأَهْلِ الْفِكَرْ
رَوَائِعُ آيَاتِ رَبِّ الْبَشَرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

• • •

(د) «الأشجار وثمارها»

﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴿٣﴾﴾ (سورة الرعد).

دَخَلْتُ الْحَدِيقَةَ حِينَ ازْدَهَتْ وَأَبْدَتْ مَفَاتِنَهَا لِلنَّظَرْ
وَفَاحَتْ رَوَائِحُهَا الزَّاكِيَاتْ بِأَنْفَسِ عَاطِرَةٍ تَنْتَشِرْ
وَأَدْنَتْ عَطَاءَاتِهَا الْيَانِعَاتْ بِأَجْمَلِ مَأْكُولَةٍ تَنْتَثِرْ
وَعَابَثَتِ الرِّيحُ بَعْضَ الْغُصُونْ وَهُنَّ تُغَازِلْنَ مَاءَ النَّهَرْ

وَلَــيَّــنَ أَطْــرَافَــهُ الــزَّيْــزَفُــونْ ... لِتَــرْفُــقَ فِــي لَــمْسٍ وَرْدٍ حَــذِرْ
فَــلاَ تُــسْــتَــشَــارَ بِــهِ عِــفَّــةُ ... فَيــطْعَنَ مُــجْتَــازَ حَــدّ الْــخَــطَرْ
وَأَدْرَكَتِ الــطَّيْرُ مَــا قَــدْ جَــرَى ... فَــلَمْ تُخْــفِ سِــرّاً وَلَــمْ تَــنْــتَــظِرْ
وَبَــاحَتْ بِــهِ فِي رُؤُوسِ التِّــلاَلْ ... وَغَنَّتْ بِــهِ فِي رُؤُوسِ الشَّــجَــرْ
وَمِنْ عَجَــبٍ فِي نِــظَامِ الثِّمَــارْ ... وَفِــي كُــلِّ مَــا خَلَقَ الْــمُقْــتَــدِرْ
نِــظَامُ ازْدِوَاجِ الأُصُــولِ الَّــذِي ... يُــشَــابِــهُ أَزْوَاجَنَــا فِــي الْبَــشَــرْ

بَــصُــرْتُ بِــإِتْقَــانِهَــا الْبَــاهِــرِ
فَــآمَــنْــتُ بِــالْــخَــالِقِ الْــقَــادِرِ
ثِــمَــارٌ بِهَــا لِلْفَتَــى الْــمُــعْــتَــبِــرْ
رَوَائِــعُ آيَــاتِ رَبِّ الْــبَــشَــرْ ... فَآمَنْتُ به

• • •

(هـ) «الــثمــرات»

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ﴿٢٧﴾﴾

(سورة فاطر).

نَــرَىٰ الــثَّــمَــرَاتِ بِــأَنْــوَاعِــهَــا ... وَأَشْــكَــالِهَــا وَطُــعُــومٍ حِــسَــانْ
وَأَلْــوَانِهَــا الــزَّاهِيَــاتِ الْــمِــلاَحْ ... كَعِقْــدِ الّــلآلِي وَعِقْــدِ الْجُــمَــانْ
وَعِــقْــدِ الــزُّمُــرُّدِ إِنْ أَتْــقَــنُــوهُ ... وَعِقْــدِ الْعَــقِيــقِ أَوِ الْكَــهْــرَمَــانْ
فَــوَائِــدُهَــا فَــوْقَ حَصْــرِ الــطَّبِيبْ ... وَأَصْنَــافُهَــا فَــوْقَ حَصْــرِ الْجِنَــانْ
وَمَــا قَــدْ يَــجِيءُ بِــأَنْــسَــالِــهَــا ... مُــهَــجَّــنَــةً فَــوْقَ حَــدِّ الــزَّمَــانْ
وَجَــارَانِ كَمْ أَسرفَــا فِي الفُــروقْ ... وَمِــنْ نَــهَــرٍ وَاحِــدٍ يُــسْــقَــيَــانْ
كَمِ اخْتَلَفَــا فِي صِفَاتِ الــطُّعُــومْ ... وَرَغْــمَ اختِــلافِــهِــمَــا يُــحْــمَــدَانْ
فَمَنْ أَبْــدَعَ الــنَّــابِتَــاتِ الْحِــسَــانْ ... وَنَــوَّعَــهَــا بَــيْــنَ سَــامٍ وَدَانْ
وَوَزَّعَ فِــيهَــا فُــرُوقَ الــصِّــفَــاتْ ... عَلَىٰ قَــدْرِ حَاجَــاتِ إِنْسٍ وَجَــانْ

نَـظَرْتُ إِلىٰ سِـرِّهَـا الْبَـاهِـرِ
فَـآمَنْـتُ بِـالْـخَـالِقِ الْـقَـادِرِ
فَفِيـهَـا لِـذِي النَّـظَرِ الْـمُعْـتَبِـرْ
رَوَائِـعُ آيَـاتِ رَبِّ الْـبَـشَـرْ ... فَآمَنْتُ بِهِ

• • •

(و) «شجرة الزيتون»

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ۝٢٠﴾ (سورة الْمُؤْمِنُونَ).

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣٥﴾ (سورة النور).

جَـدِيـرَةٌ بِـالْـمَـدْحِ وَالإِطْـرَاءِ شَـجَـرَةٌ جَـمِـيـلَـةُ الـرُّوَاءِ
مُخْضَـرَّةٌ فِـي الصَّـيْفِ وَالـشِّتَـاءِ تَـنْـبُـتُ بِـالـدُّهْـنِ وَبِـالْـغِـذَاءِ
تَـنْـبُـتُ بِـالـزِّيـنَـةِ وَالـدَّوَاءِ وَزَيْـتُـهَـا مِـنْ شِـدَّةِ الـصَّـفَـاءِ
كَـذَائِـبٍ مِـنْ نَـجْـمَـةٍ زَهْـرَاءِ أَوْشَـكَ أَنْ يُضِيءَ فِي الْأَرْجَـاءِ
وَإِنْ يَـكُنْ فِـي صَـفْـحَـةِ الْإِنَـاءِ لَـمْ يَـدْنُ مِنْـهُ لَـهَبُ الـضِّـيَـاءِ

* * *

شَـجَـرَةٌ أَغْـصَـانُـهَـا اسْـتِـدْفَـاءُ وَزَيْـتُـهَـا الْـغِـذَاءُ وَالـدَّوَاءُ
وَجَـمْـعُـهَـا حَـدِيـقَـةٌ غَـنَّـاءُ فِـي كُـلِّ وَقْتٍ تَـحْـتَـهَـا أَفْـيَـاءُ
رَصِـيـنَـةٌ خَـيِّـرَةٌ مِـعْـطَـاءُ عُيُـونُـهَـا الـسَّـوْدَاءُ وَالْـخَـضْـرَاءُ

أَفْضَلُ مَا يَدَّخِرُ الدَّهْمَاءُ   قَدْ بَارَكَتْهَا الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ
فِي وَسَطِ الْأَرْضِ لَهَا نَمَاءُ   مَا شَرَّقَتْ أَوْ غَرَّبَتْ. عَصْمَاءُ

* * *

تَفَكَّرْتُ فِي صُنْعِهَا الْبَاهِرِ
فَآمَنْتُ بِالْخَالِقِ الْقَادِرِ
فَفِيهَا لِذِي النَّظَرِ الْمُعْتَبِرْ
رَوَائِعُ آيَاتِ رَبِّ الْبَشَرْ   ... فَآمَنْتُ بِهْ

• • •

(ز) «الأقــوات»

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠﴾ (سورة فُصِّلَتْ).

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾ (سورة الذَّارِيَات).

﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۝٣﴾ (سورة فاطِر).

مَرَاشِفُ تَمْتَصُّ حُلْوَ الضِّيَاءْ   لِتَصْنَعَ فِي الْأَرْضِ وَفْرَ الْغِذَاءْ
مِنَ الشَّمْسِ تَجْرِي يَنَابِيعُهُ   فَتَغْمُرُ مَا حَوْلَنَا مِنْ فَضَاءْ
ضِيَاءٌ يَجُوزُ الْفَضَاءَ الْبَعِيدْ   لِيَعْبُرَ مَا حَوْلَنَا مِنْ هَوَاءْ
وَلَوْلَا النَّسِيمُ وَتَكْسِيرُهُ   فُيُوضَ الضِّيَاءِ لَشَدَّ اللِّقَاءْ
وَمَا كَانَ قَدْ جَاءَنَا صَالِحاً   وَمَا كَانَ قَدْ جَاءَنَا فِي صَفَاءْ
وَمَا أَنْبَتَ الْحَقْلُ حُلْوَ النَّبَاتْ   وَمَا كَانَ فِي الْأَرْضِ هَذَا الرُّوَاءْ
وَمَا صَلَحَتْ أَرْضُنَا لِلْحَيَاةْ   عَلَىٰ مَا نَرَاهُ بِهَا مِنْ بَهَاءْ

* * *

تَبَـارَكَ مَنْ أَتْـقَـنَ الْـحَـادِثَـاتْ وَمَـدَّ الْـحَيَـاةَ بِـفَيْضِ الْـعَـطَاءْ
فَـقَـدَّرَ فِـي الْأَرْضِ أَقْـوَاتَـهَـا وَأَوْدَعَـهَـا فِـي تُـرَابٍ وَمَـاءْ
وَلَـكِـنَّـهُ نَـاطَ أَسْـبَـابَـهَـا بِـضَـوْءٍ مَنَـابِعُـهُ فِي الـسَّمَـاءْ

* * *

تَـفَكَّـرْتُ بِـالْـمُـتْـقَـنِ الْـبَـاهِـرِ
فَـآمَـنْـتُ بِـالْـخَـالِـقِ الْـقَـادِرِ
نِـظَامٌ بِـهِ لِـلْفَـتَـى الْـمُـعْـتَـبِـرْ
رَوَائِـعُ آيَـاتِ رَبِّ الْـبَـشَـرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

• • •

(ح) «الــنــار»

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

(سورة الواقعة).

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾

(سورة يٓس)(*).

أَوْرِهَـا وَاحْـذَرْ عَـظِيمَ الْخَـطَرِ وَاقْـتَبِسْ مِنْهَـا وَكُـنْ فِي حَـذَرِ
وَقِ مِـنْـهَـا كُـلَّ مَـا تَـأْكُـلُهُ وَلْـيَكُـنْ إِمْـدَادُهَـا فِـي قَـدَرِ
طَبْعُـهَـا صَعْـبٌ. إِذَا لَامَسْـتَهَـا عُـدْتَ مِنْ مَلْمَسِهَـا بِـالـضَّـرَرِ
وَإِذَا امْـتَـدَّتْ إِلَىٰ مَـا تَـشْتَـهِي أَهْـلَكَتْ بِـالـلَّـهَـبِ الْـمُـسْـتَـعِـرِ

(*) **المفردات**: تُورُونَ: تُشْعِلُون. لِلْمُقْوِين: لِلْمُسَافِرِين. والْقَوَاءُ هُوَ الْقَفْرُ مِنَ الْأَرْض، وَالْمُسَافِرُ فِي الصَّحْرَاءِ يَنْزِل فِي الْقَوَاء.

لَا يَهُنْ عِنْدَكَ مِنْهَا شَرَرٌ ... شَرُّهَا أَوَّلُهُ مِنْ شَرَرِ
أَنْتَ إِنْ أَحْسَنْتَ تَصْرِيفاً لَهَا ... عُدْتَ مِنْهَا بِعَظِيمِ الْأَثَرِ
كَمْ بِهَا نَفْعٌ عَظِيمٌ وَهُدَى ... كَمْ بِهَا مِنْ كَامِنٍ ذِي خَطَرِ
تَدْفَعُ الْقُوَّةَ مِنْ مَكْمَنِهَا ... فَتُبَارِي فَائِقَاتِ الْقُدَرِ
كَمْ بِفِعْلِ النَّارِ نُجْرِي آلَةً ... وَلَكَمْ نُجْلِي[1] بِهَا مِنْ عَسْكَرِ
وَلَكَمْ مَرْكَبَةٍ نُجْرِي بِهَا ... فِي الْفَيَافِي. فِي غِمَارِ الْأَبْحُرِ
فِي فَسِيحِ الْأُفْقِ. فِيمَا فَوْقَهُ ... ثُمَّ لِلْمَرِّيخِ بَعْدَ الْقَمَرِ
وَبِهَا أَقْوَى سِلَاحٍ مُرْهِبٍ ... لَاهِبِ الْغَضْبَةِ أَوْ مُنْفَجِرِ
لَمْ تَكُنْ فِي أَرْضِنَا ظَاهِرَةً ... مِثْلَ غَمْرِ الْبَحْرِ. أَوْ كَالْأَنْهُرِ
إِنَّمَا أَوْدَعَهَا خَالِقُهَا ... قُوَّةً كَامِنَةً فِي الشَّجَرِ
قُوَّةً كَامِنَةً مَدْفُونَةً ... فِي بُحُورِ الزَّيْتِ فِي مُدَّخَرِ
قُوَّةً كَامِنَةً مِنْ شَرَرٍ ... رُبَّمَا نَقْدَحُهُ مِنْ حَجَرِ
قُوَّةً بِالْحَكِّ نَسْتَنْبِطُهَا ... وَنُجَرِّيهَا بِأَقْصَى حَذَرِ
هِيَ فِي الْأَسْلَاكِ تَجْرِي وَفْقَ مَا ... نَبْتَغِي مِنْهَا فَيَا لَلْقَدَرِ
أَفَلَا يَشْهَدُ إِتْقَانٌ بِهَا ... لِلْحَكِيمِ الْخَالِقِ الْمُقْتَدِرِ؟
إِنَّهَا يَوْمَ الْجَزَاءِ دَارُ مَنْ ... أَنْكَرَ الْخَالِقَ رَبَّ الْبَشَرِ
فَلْيَكُنْ ذُو الرَّأْيِ مِنْهَا حَذِراً ... إِنَّ تَقْوَى اللَّهِ حِصْنُ الْحَذِرِ

* * *

بَصُرْتُ بِإِتْقَانِهَا الْبَاهِرِ
فَآمَنْتُ بِالْخَالِقِ الْقَادِرِ
وَفِي النَّارِ لِلْبَاحِثِ الْمدَّكِرْ
رَوَائِعُ آيَاتِ رَبِّ الْبَشَرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

* * *

---

(١) نُجلي: نمحو.

(١١)

الإلزام العقلي

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (سورة الطور).

حَدَثْنَا وَلَمْ نَكُ قَبْلَ الْحُدُوثْ ... وَلاَ شَيْءَ كُنَّا بِمَحْضِ الْعَدَمْ
وَلَيْسَ لَنَا مَوْقِعٌ فِي الْوُجُودْ ... وَرَاءَ الْحُدُودِ بِبَحْرِ الْقِدَمْ
حُدُودُ الزَّمَانِ حُدُودُ الْمَكَانْ ... تَرَىٰ الْحَادِثَاتِ بِهَا تَصْطَدِمْ
فَهَلْ خَلَقَتْ نَفْسَهَا الْحَادِثَاتْ ... بِلاَ أَيِّ شَيْءٍ لَهَا قَدْ عُلِمْ؟
أَمْ انْدَفَعَتْ لِلْوُجُودِ الْكَبِيرْ ... وَلَيْسَ لَهَا خَالِقٌ ذُو حِكَمْ
مِنَ السُّخْفِ مَا ذَكَرَ الْمُلْحِدُونْ ... وَأَدْنَىٰ مِن السُّخْفِ عِنْدَ الْفَهِمْ

* * *

تَبَصَّرْ بِبُرْهَانِ هٰذَا الْوُجُودْ
تُؤْمِنْ بِذِي الْجَبَرُوتِ الْمَجِيدْ
دَلِيلٌ لِذِي النَّظَرِ الْمُعْتَبِرْ
تَضَمَّنَ بُرْهَانَ رَبِّ الْبَشَرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

* * *

(١٢)

الإمـــكـــان

(أ) «إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد»

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾ (سورة إبراهيم).

لَقَـدْ كَـانَ يُمْكِنُ أَنْ لَا نَكُـونْ ... وَيُـمْـكِـنُ إِيـجَـادُ أَبْـدَالِـنَـا
وَكَمْ صُـورَةٍ نَحْنُ نُـزْهَىٰ بِـهَـا ... أَتَـتْـنَـا وَلَـيْـسَـتْ بِـحَـتْـمٍ لَـنَـا
وَكَمْ صُـورَةٍ فِي الْـوُجُـودِ الْكَبِيـرْ ... نَـرَىٰ غَـيْـرَهَـا أَبَـداً مُمْكِـنَـا
وَكَـمْ مُمْـكِنَـاتٍ تَـسَـاوَتْ فَمَـا ... يَـرَىٰ الْـعَـقْـلُ كَـائِـنَهَـا أَوْزَنَـا
وَلَـيْسَ لِـكَـائِـنِـهَـا مِـيـزَةٌ ... تُـرَجِّـحُـهُ من هُـنَـا أَوْ هُـنَـا
فَمَنْ ذَا الَّـذِي رَجَّـحَ الْمُمْكِنَـاتْ ... فَـأَوْجَـدَهَـا وَاقِـعـاً مُـعْـلَنَـا

* * *

تَـبَصَّـرْتُ بِـالْـحَـدَثِ الْـبَـاهِـرِ
فَـآمَـنْـتُ بِـالْـخَـالِـقِ الْـقَـادِرِ
وَفي الْمُمْكِـنَـاتِ لِأَهْـلِ النَّـظَرْ
رَوَائِـعُ آيَـاتِ رَبِّ الْـبَـشَـرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

● ● ●

(ب) «لو نشاء لجعلناه حطاماً»

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ (سورة الواقعة)(*).

نَظَرْتُ إلى كُلّ مَا فِي الْوُجُودْ ... إِذَا كُلّ مَا فِيهِ سَاعٍ لِغَايَةْ
لَهُ حِكْمَةٌ في النِّظَامِ الْكَبِيرْ ... قَدْ أُحْكِمَتْ فِيهِ مُنْذُ الْبِدَايَةْ
وَلَمْ أَرَ شَيْئاً بِهِ مُهْمَلاً ... وَلَمْ أَرَ مَا لَمْ يُحَطْ بِالْعِنَايَةْ
وَلَوْ أَنَّ شَيْئاً بِهِ قَدْ بَدَا ... مُصَادَفَةً لَمْ يَصِلْ لِلنِّهَايَةْ
ظَوَاهِرُ مُحْكَمَةٌ فِي النِّظَامْ ... تُقَدِّمُ لِلنَّاظِرِينَ الهِدَايَةْ
تَدُلُّ عَلَىٰ مُحْكِمٍ قَادِرٍ ... يُحِيطُ مَقَادِيرَهُ بِالْحِمَايَةْ

* * *

تَبَصَّرْتُ بِالْمَظْهَرِ الْبَاهِرِ
فَآمَنْتُ بِالْخَالِقِ الْقَادِرِ
وَفي الْكَوْنِ لِلنَّاظِرِ الْمُعْتَبِرْ
رَوَائِعُ آيَاتِ رَبِّ الْبَشَرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

* * *

(*) **المفردات**: تَفَكَّهُونَ: تتعجَّبُونَ من الحَسْرَةِ وَتَتَنَدَّمُون. مُغْرَمُون: أيْ مُعَذَّبُون.

(١٣)
الإبــداع

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾ (سورة البقرة).

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (سورة المؤمنون).

مَـا يُبْـدِعُ الْمُبْـدِعُـونَ أَجْمَـعْ ... إلَّا وَفـي الْـكَـائِـنَـاتِ أَبْـدَعْ
وَمَـا ارْتَـقَـتْ صَـنْـعَـةٌ لِـقَـوْمٍ ... إلَّا وَفِـي الْـكَـائِـنَـاتِ أَرْفَـعْ
يَـا صَـانِـعِي الـطَّـائِـرَاتِ هَـلَّا ... أَوْلَـدْتُـمُـوهـا بِـأَلْفِ مَـصْـنَـعْ
هَـلْ تُنْشِئُـونَ الـزَّوْجَيْنِ مِنْهَـا ... وَتَـتْـرُكُـونَ الْـبُـطُونَ تَـدْفَـعْ
وَتَـجْـعَـلُونَ الْأَنْـسَـالَ مِـنْـهَـا ... بِـنَـفْـسِـهَـا لِـلْوُجُـودِ تَـنْـبَـعْ
وَلَـوْ صَـنَـعْـتُـمْ مِـثَـالَ مُـخٍّ ... لَمـا كَفَـتْكُـمْ «بَـرْلِيـنُ» أَجْمَـعْ
وَلَـوْ أَرَدْتُـمْ خَـلْقـاً عَـجَـزْتُـمْ ... عَنْ خَلْقِ طَيْـرٍ أَوْ خَلْقِ ضِفْـدَعْ
فَـلَا تَـغُـرَّنَّـكُـمْ نُـفُـوسٌ ... بِمَـا صَنَعْتُـمْ فِي كُـلِّ مَـرْبَـعْ
فَـأَنْـتُـمُـو جَـامِـعُـو قُـوَاهَـا ... وَلِـلْـقُـوىٰ فَـوْقَـهُـنَّ مُـبْـدِعْ
مَـنْ أَنْصَـفَ الْحَـقَّ مَـا تَحَـدَّىٰ ... بِـعُـودِهِ الشَّمْسَ وَهِـيَ تَـسْـطَعْ

* * *

حَـقَـائِـقُ الْـكَـوْنِ شَـاهِـدَاتٌ ... بِـأَنـهـا صَـنْـعَـةُ الْـقَـدِيـرِ
صَـنْـعَـةُ ذِي حِـكْـمَـةٍ وَعِـلْمٍ ... صَـنْـعَـةُ رَبٍّ حَـيٍّ كَـبِـيـرِ

يُـدَبِّـرُ الْأَمْـرَ لَـيْسَ يَـخْـفَـىٰ عَـلَيْـهِ خَـافٍ مِـن الْأُمُـورِ
آمَـنْتُ بِـالـلَّهِ مِـلْءَ فِـكْـرِي وَمِـلْءَ مَـا فِـيَّ مِـنْ ضَـمِـيـرِ
رَضِـيـتُ بِـالـلَّهِ فِـي أُمُـورِي فِي الْحُـزْنِ مِنْهـا وَفِي السُّـرورِ

* * *

(١٤)
التنظيم والإتقــان

﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (سورة النمل).

(أ) «لا نظام وإتقان بالمصادفة»

أَأَفْـقِـدُ عَـقْـلِي وَأَحْـكَـامَـهُ وَأَتْـبَـعُ أَوْهَـامَ مَـنْ أَلْـحَـدا؟
وَأَزْعُـمُ هـٰذَا الـنِّـظَامَ الْـبَـدِيـعْ فِي مَسْرَحِ الكَوْنِ يَمْشِي سُدىٰ؟
فَمِنْ عَبَثٍ يَبْتَـدِي فِي الصُّـعُـودْ إِلَىٰ عَبَثٍ يَنْتَهِي فِـي الـرَّدَى
وَأَزْعُـمُ هـٰذَا النِّـظَامَ الْـعَـجِـيبْ بِمَحْضِ مُصَـادَفَـةٍ قَـدْ بَـدَا؟
وَأَنَّ قَـوَانِـيْـنَـهُ الـصَّـارِمَـاتِ لَـيْسَ لَـهَـا مُـوجِـدُ أَوْجَـدَا
وَأَنَّ الْـحَـيَـاةَ وَمَـا قَـدْ حَـوَتْ أَتَـتْ بِمُصَـادَفَـةٍ فِـي الْـمَـدَىٰ
وَأَنَّ الـنِّـهَـايَـةَ مَـحْضُ الْـفَـنَـاءْ وَعَـوْدُ الْـوُجُـودِ إِلَىٰ مَـا بَـدَا
إِلَىٰ مَـا يُسَـمُّـونَـهُ بـالسَّـدِيـمْ يُـتَـابِـعُ أَطْـوَارَهُ سَـرْمَـدا
مَـزَاعِـمُ تُلْغِي نِـظَامَ الْعُـقُـولْ وَتَـجْـعَـلُ أَرْشَـدَهَـا أَبْـلَدَا
أَلَا رَأْيَ عِنْـدِي وَلَا عَقْـلَ لِـي فَـأَجْـحَـدَ رَبِّـي وَلَا أَحْـمَـدا؟
إِذَا كُنْتُ مِنْ صِنفِ أَهْلِ النُّهَىٰ فَـلَا أُنْـكِـرُ الْخَـالِـقَ الْأَوْحَـدَا
لَقَـدْ تَمَّ إِتْقَـانُ صُنْـعِ الْـوُجُـودْ بِمَـا دَلّ حَتْمـاً عَلَىٰ الْـمُبْـتَـدَا
وَمَـا دَلَّ حَتْمـاً عَـلَىٰ الْمُـنْـتَـهَىٰ وَمَـا أَثْـبَـتَ الْـمُـتْـقِـنَ الْـمُـفْـرَدَا

نِـظَامٌ بِـإِتْـقَـانِـهِ الْـبَـاهِـرِ
يَـدُلُّ عَـلَىٰ الْـوَاحِـدِ الْقَـادِرِ
وَفِي الْكَـوْنِ لِلنَّـاظِـرِ الْمُعْتَبِـرْ
رَوَائِـعُ آيَـاتِ رَبِّ الْـبَـشَـرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

• • •

(ب) «نظام عجيب»

نِـظَامٌ عَـجِـيـبٌ لَـهُ غَـايَـةٌ يُـلاَحِـظُهَـا كُـلُّ مَـنْ يَـعْـقِـلُ
فَـلاَ شَيْءَ فِي الْـكَـوْنِ إِلَّا لَـهُ بِـغَـايَـتِـهِ سَـبَـبٌ مُـوصِـلُ
وَأَجْـزَاءُ فِـي الْكَـوْنِ لَا تَـنْتَـهِي بِهَـا الْكَـوْنُ فِي رَوْعَـةٍ يَكْمُـلُ
فَـلاَ جُـزْءَ إِلَّا لَـهُ حَـاجَـةٌ وَلَا جُـزْءَ إِلَّا لَـهُ مَـدْخَـلُ
بِـهِ يكْمُـلُ الْكُـلُّ فِي حِـكْمَـةٍ رَوَائِـعُـهَـا لِـلنُّـهَـىٰ تُـذْهِـلُ
كَمَـا لَـوْ دَخَلْتَ إِلَىٰ مَعْـمَـلٍ وَرَاعَـكَ بِـالـدَّهْشَـةِ الْمَعْمَـلُ
فَـهَـذا لِـهٰذَا. وَهٰذَا لِـذَا. وَذَاكَ لِـذَاكَ. بِـهِ يَـعْـمَـلُ
وبِـه يَـحْـمُـلُ
فَـمَـنْ ظَـنَّـهُ دُونَـمَـا خَـالِـقٍ فَقَـدْ مَسَّـهُ الـخَبَـلُ الْأَثْـقَـلُ
أَلَا فَـلْيُـراجِـعْ طَـبِـيـبـاً لَـهُ فَهَـلْ جُنَّ؟ أَمْ فِـكْـرُهُ أَحْـوَلُ؟
وَإِنْ هُـوَ ظَـلَّ عَـلَىٰ رَأْيِـهِ مُـصِـرّاً فَـمِـنْ بَقَـرٍ أَجْـهَـلُ

* * *

(١٥)
الـــذرّة والخليّـــة

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ (سورة الذاريات).

(أ) «الــذرّة»

يَقُــولُــونَ قَــوْلاً يَفُــوقُ الْعَجَـبْ ... وَيُــذْهِــلُ مِنْ دَهْشَــةٍ كُــلَّ لُبّْ
أَهُمْ يَصْـدُقُونَ؟ أَهُمْ يَكْــذِبُـونَ؟ ... نَـأَىٰ الْعِلْمُ عَنْ تُـرَّهَـاتِ الْكَـذِبْ
يَقُـولُـونَ: فِي ذَرَّةِ «الْأَيْـدْرُوجِينْ» ... أَخَـفِّ الْأُصُــولِ وَأَدْنَى الــرُّتَـبْ
تَــجَـمَّـعَ آلَافُ آلَافِـهَـا ... بِمِقْـدَارِ مَـا رَأْسُ شَــوْكٍ ثَقَبْ
وَأَنَّ لَهَــا مِثْــلَ وَضْــعِ النَّــوَاةْ ... وَحَــوْلَ الـنَّــوَاةِ مَـدَارٌ عَـجَـبْ
يَــدُورُ بِــهِ «كُــهْـرُبٌ» سَــالِـبٌ ... بِــأَسْــرَعَ مِـمَّــا تَخِـرُّ الشُّهُـبْ
كَـأُنْـمُــوذَجٍ دَقَّ مِـنْ كَــوْكَــبٍ ... يَــدُورُ عَـلَىٰ شَمْسِـهِ فِـي دَأَبْ
وَبَيْـنَ النَّــوَاةِ و «كُـهْــرُوبِـهَــا» ... فَــرَاغٌ فَسِيــحٌ بِحُكْـمِ النِّسَبْ
لَــقَــدْ أَدْرَكُــوهُ وَإِنْ لَــمْ يَــرَوْهْ ... وَذُو الـعِلْمِ يُقْنِعُــهُ مَــا حَسَبْ
وَلَــمْ تُــرَ فِـي «مِـجْـهَــرٍ» ذَرَّةٌ ... وَلَـمْ تُــرَ أَعْمَــالُهَــا عَنْ كَـثَبْ
وَلٰكِنْ وَعَتْهَــا الْعُقُــولُ الْكِبَــارْ ... وَنَــاطَتْ ظَــوَاهِــرَهَــا بِــالسَّبَبْ
وَمِنْ فَـوْقِ ظَاهِـرَةِ «الْأَيْـدروجين» ... ظَــوَاهِــرُ أُخْــرىٰ كَجَيْشٍ لَجِبْ
تُـحَـيِّــرُ أَفْـكَــارَ أَهْــلِ الْـعُـلُومْ ... وَتُــوقِـفُـهُـمْ عِـنْـدَ حَــدِّ الْأَدَبْ
فَتَجْـعَلُهُـمْ يَخْـفِضُــونَ الــرُّؤُوسْ ... وَيَــعْــتَــرِفُــونَ بِــسُــلْطَانِ رَبّْ

وَفِـي غَـوْرِ عَـالَـمِ ذَرَّاتِـنَـا ... بُـحُـورٌ مِنَ الْـعِلْمِ لاَ تُـقْـتَـرَبْ
تَـكِـدُّ الْـعُـقُـولُ وَلاَ تَـنْـتَـهِـي ... وَدُونَ الشَّـوَاطِىءِ قَـامَتْ حُجُبْ
وَخَلْفَ الْحِجَـابِ يَـدٌ تُـرْتَجَى ... تُـدَبِّـر. تَـخْلُقُ عَبْـرَ الْحِـقَـبْ
تُـدَغْـدِغُ أَسْبَـابُـهَـا فِـكْـرَنَـا ... لِـنُـدْرِكَ فَـاعِلَهَـا الْـمُـحْـتَـجِـبْ

* * *

أَمَـا آنَ لِلنَّـاسِ أَنْ يُـؤْمِنُـوا؟! ... أَلَيْسَ لَهُـمْ فِـي نَـعِيـمٍ أَرَبْ؟!
أَمَـا مَسَّهُـمْ مِنْ وَعِيـدِ الإِلَـهْ ... بِـقُـرْآنِـهِ هَـلَعٌ أَوْ رَهَـبْ؟!
أَلَـمْ تَـكْـفِـهِـمْ كُـلُّ آيَـاتِـهِ ... بِهَٰذَا الْـوُجُـودِ؟! فَيَـا لَلْعَجَـبْ
أَيَـمْـلِكُ جَـاحِـدُهُـمْ حِيـنَـمَـا ... يُحِيطُ الْـعَـذَابُ بِـهِ مِنْ هَـرَبْ

* * *

تَـبَـصَّـرْتُ فِـي طَـاقَـةٍ أُودِعَـتْ ... بِـذَرَّاتِ هَٰذَا الْـوُجُـودِ الْكَبِيـرْ
فَـأَدْرَكْـتُ أَنَّ لَـهُ خَـالِـقـاً ... وَأَنَّ إِلَـيْـهِ يَـكُـونُ الْـمَـصِـيـرْ
تَبَـارَكْتَ يَـا خَـالِقَ الْكَـائِنَـاتْ ... فَـإِنَّـكَ أَنْـتَ اللَّطِيفُ الْخَـبِيـرْ

• • •

(ب) «الخـلـيّـة»

مَا أَعْجَبَ الْخَلْقَ إِذَا السِّرُّ اسْتَتَـرْ ... مَـا أَعْجَبَ الْخَلْقَ إِذَا السِّرُّ ظَهَـرْ
إِنَّ الَّـذِي فِي كُتُبِ الْعِلْمِ ذُكِـرْ ... وَفْقَ الـذِي هَـدَىٰ إِلَيْـهِ الْمُخْتَبَـرْ
وَأَكَّـدَتْـهُ ثَـاقِبَـاتٌ مِنْ فِـكَـرْ ... وَأَرْشَـدَتْ إِلَيْـهِ أَبْحَـاثٌ كُـثُـرْ
خَـلِيَّـةٌ أُولَىٰ جَـلِيلَةُ الْـخَـطَرْ ... أَدَقُّ مِـنْ أَدَقِّ مَـا يَـرَىٰ النَّـظَرْ
فِيهَـا سِجِلٌّ كَـامِـلٌ وَمُخْتَصَـرْ ... لِكُـلِّ مَـا يَبْـدُو إِذَا الْخَلْقُ كَبُـرْ
فِيهَـا خَـرِيـطَةُ الْحَيَـاةِ وَالْعُمُـرْ ... فِيهَـا خَـرِيـطَةُ الْفُـؤادِ وَالْفِكَـرْ
فِيهَا صِفَاتُ كُلِّ مَا يَحْوِي الْبَصَرْ ... وَكُلِّ مَا فِي الْجِسْمِ جَلَّ أَوْ صَغُرْ
مِنْ شَكْلِ جِسْمٍ أَوْ عِظَامٍ أَوْ شَعَرْ ... أَوْ حَـالَـةٍ مَـا بَيْنَ أُنْثَى أَوْ ذَكَـرْ

فِيهَــا تَصَــامِيمُ الْبِنَــاءِ الْمُنْتَــظَرْ   مَــا اعْتِيـدَ مِنْ صِفَـاتِـهِ وَمَـا نَـدَرْ
مِنْ أَسْفَلِ النَّبْتِ إِلَىٰ أَسْمَىٰ الشَّجَرْ   مِنْ أَسْفَلِ الْحَيِّ إِلَىٰ أَرْقَى الْبَشَرْ
جَمِيـعُ مَا يَنْمُـو إِذَا الْخَلْقُ ظَهَـرْ   أَوْ كَـانَ فِي الْخَلْقِ لَـهُ بَعْـدُ أَثَـرْ
تَصْمِيمُـهُ ضِمْنَ النَّوَاةِ قَـدْ حُصِـرْ   وَكُــلُّ تَفْصِيـلٍ بِــهِ فِيهَــا ذُكِــرْ
الْكَــائِنُ النَّــامِي لَــدَيْهَـا مُخْتَصَــرْ   مُكَثَّفُ الْـوُجُـودِ يَـا أَهْـلَ النَّــظَرْ
هُلَمَّ فَــاعْجَبُــوا وَكُــلُّ مُـدَّكِــرْ   يَعْجَبُ مِنْ تَصْمِيمِـهَــا وَيَعْتَبِــرْ
قَدْ صَغُرَتْ فَأَعْجَزَتْ دَرْكَ الْبَصَـرْ   وَأُتْقِنَـتْ فَحَـيَّـرَتْ كُــلَّ الْفِـكَــرْ
وَسَبَّحَتْ بِـاسْمِ الْحَكِيمِ الْمُقْتَدِرْ   يَــا وَيْـلَ مَنْ بِقُــدْرَةِ اللَّهِ كَفَــرْ

* * *

جُرْثُومَــةٌ لَـدَىٰ التَّنَــامِي تَنْفَجِـرْ   وَبِــالتَّنَــامِي تَتَنَــاءَىٰ تَنْشَــطِرْ
تَـمُــرُّ فِي أَطْــوَارِهَــا وَتَنْـتَشِــرْ   وَتَصْعَــدُ السُّلَّمَ وَفْـقَ مَــا قُــدِرْ
حَتَّىٰ تَكُـونَ صُـورَةً لِمَـا اخْتُصِـرْ   كُبْـرَىٰ تُكَـابِـدُ الْحَيَـاةَ فِي الْكِبَـرْ

* * *

أَلَيْسَ ذَا التَّصْمِيمُ يَـا أَهْلَ النَّـظَرْ   فِي نُقْطَةِ الْحَيَاةِ مِنْ فِعْلِ الْقَدَرْ؟
مَنْ كَـانَ ذَا عَقْـلٍ وَفِكْـرٍ يَفْتَكِـرْ   آمَنَ بِــالـرَّبِّ الْعَـظِيمِ الْمُقْتَــدِرْ
وَخَــرَّ سَـاجِــداً لَــهُ لَمْ يَنْتَـظِرْ   وَبِــالسُّجُـودِ وَالْخُضُــوعِ يَفْتَخِــرْ
وَبِــالسُّجُـودِ وَالْخُضُــوعِ يَـدَّكِــرْ   وَيَسْــأَلُ اللَّهَ الـنَّعِـيمَ الْـمُنْتَـظَرْ

* * *

(١٦)

سلطان القضاء والقدر

(أ) «أمر اللَّه قدر مقدور»

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ (سورة الأحْزَاب).

أَرَدْتُ فَمَا أَسْعَفَتْنِي الْقُدَرْ ... وَمَا أَنْجَدَتْنِي جُمُوعُ الْبَشَرْ
وَأَعْمَلْتُ مَا مَلَكَتْ حِيلَتِي ... وَسَخَّرْتُ أَذْكَى وَأَدْهَى الْفِكَرْ
فَمَا جَلَبَتْ كُلُّهَا مُنْيَتِي ... وَلَا دَفَعَتْ جَارِيَاتِ الْقَدَرْ
أَرَدْتُ وَكُنْتُ كَمَنْ شَاءَ أَنْ ... يَطِيرَ بِأَجْنِحَةٍ مِنْ حَجَرْ
أَرَدْتُ وَكُنْتُ بِهَذَا الْوُجُودْ ... كَوَحْشٍ وَفِي قَفَصٍ قَدْ حُصِرْ
لَهُ ضِمْنَهُ بَعْضُ حُرِّيَّةٍ ... وَبِالْكَرْهِ عَمَّا سِوَاهُ قُصِرْ
فَإِنْ جَاوَزَ الإِذْنَ نَالَ الْعِقَابْ ... وإِنْ كَسَرَ الطَّوْقَ فَوْرَاً قُهِرْ
يَسِيرُ الطُّمُوحُ مَدَىٰ نَاظِرَيْه ... وَيُثْبِتُهُ قَيْدُهُ وَالْحَذَرْ
وَيُرْثَى لِحَالَتِهِ أَنَّهُ ... طَمُوحٌ ضَعِيفٌ كَشَأْنِ النَّظَرْ
فَلَا نَاظِرَاهُ كَمَدِّ الْيَدَيْنْ ... وَلَا سَاعِدَاهُ كَمَدِّ الْبَصَرْ

* * *

تَأَمَّلْتُ فِي عَجْزِيَ الظَّاهِرِ
فَآمَنْتُ بِالْخَالِقِ الْقَادِرِ
مَقَادِيرُ فِيهَا لِمَنْ يَعْتَبِرْ
رَوَائِعُ آيَاتِ رَبِّ الْبَشَرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

* * *

(ب) «ظواهر القدر في الأنفس»

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ (سورة الذاريات).

رُبَّمَا أَعْجَبَنِي مِنْ هِبَتِي رَأْيِي وَفِكْرِي
وَتَطَاوَلْتُ إِلَىٰ مَنْزِلَةٍ مِنْ فَوْقِ قَدْرِي
وَتَصَوَّرْتُ غُرُوراً أَنَّنِي مَالِكُ أَمْرِي
أَنَّنِي أَظْفَرُ فِيْمَا أَشْتَهِي مِنْ كُلِّ دَهْرِي
أَنَّنِي أَمْتَازُ بِالحِيلَةِ فِي تَيْسِيرِ عُسْرِي
فَإِذَا كُلُّ غُرُورِي خَيْبَةٌ تَقْصِمُ ظَهْرِي
عِنْدَهَا سَاءَلْتُ نَفْسِي: هَلْ أَنَا مَالِكُ أَمْرِي؟
هَلْ أَنَا اخْتَرْتُ وُجُودِي؟ هَلْ أَنَا أَنْشَأْتُ جَذْرِي؟
هَلْ أَنَا صَانِعُ فِكْرِي؟ هَلْ أَنَا حَافِظُ صَدْرِي؟
هَلْ أَنَا أَدْفَعُ عَنِّي رِحْلَتِي الْكُبْرَىٰ لِقَبْرِي؟
مَا لِفِكْرِي غَارِقاً فِي وَحْلِهِ مِنْ فَرْطِ سُكْرِ؟
هَلْ تُرَىٰ يَنْفَعُنِي فِي عِيشَتِي مَذْهَبُ كُفْرِ؟
أَمْ تُرَانِي فِي عَذَابٍ مِنْهُ يُغْرِينِي بِنَحْرِي؟
هٰذِهِ قِصَّةُ نَفْسِي حِينَمَا رَاجَعْتُ فِكْرِي
حِينَمَا رَاجَعْتُ قَلْبِي حِينَمَا أَدْرَكْتُ فَقْرِي

* * *

قِصَّةُ الإِيمَانِ عِنْدِي أَنَّنِي لُذْتُ بِرَبِّي
حينما أَدْرَكْتُ نَفْسِي حِينَمَا رَاجَعْتُ قَلْبِي
فَتَوَجَّهْتُ إِلَىٰ اللَّـ ـهِ بِإِذْعَانِي وَحُبِّي

* * *

وَفِي النَّفْسِ لِلْعَاقِلِ الْمُدَّكِرْ
رَوَائِعُ آيَاتِ رَبِّ الْبَشَرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

* * *

(ج)

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ (سورة الأنعام).

وُلِدْتُ. وُجِدْتُ. وَلَمْ أُسْتَشَرْ وَأَنْمُو وَلاَ حُكْمَ لي في الْقَدَرْ
فَلاَ اخْتَرْتُ جِسْمِي وَلاَ وَصْفَهُ وَلاَ اخْتَرْتُ أَصْلِي وَلاَ الْمُنْحَدَرْ
وَلَيْسَ بِمِلْكِيَ تَغْيِيرُ ذَاتِي وَلَيْسَ بِمِلْكِيَ دَفْعُ الْغِيَرْ
وَكَمْ نِلْتُ مِنْ حَيْثُ لَمْ أَحْتَسِبْ وَكَمْ بِتُّ لَمْ يُغْنِ عِنِّي الْحَذَرْ
وَتَمْتَدُّ نَحْوِي أيَادِي الْمَنُونْ فَأَخْضَعُ لِلْقَاهِرِ الْمُقْتَدِرْ
عَلَىٰ الطَّوْعِ مِنِّي أوِ الْكُرْهِ مِنِّي أُجِيبُ النِّدَاءَ وَلاَ أَقْتَدِرْ

* * *

تَبَصَّرْتُ في عَجْزِيَ الظَّاهِرِ
فَآمَنْتُ بِالْخَالِقِ الْقَادِرِ
أُمُورٌ بِهَا لِلْفَتَى الْمُعْتَبِرْ
رَوَائِعُ آيَاتِ رَبِّ الْبَشَرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

* * *

(د)

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ (سورة القمر).

كُلُّ شَيْءٍ بِقَضَاءٍ وَقَدَرْ مُحْكَمُ الْوَزْنِ بِهِ جَمُّ الْعِبَرْ
كَائِنَاتٌ أُتْقِنَتْ أَسْبَابُهَا حَيَّرَتْ في وَضْعِهَا كُلَّ الْفِكَرْ
حَشَرَاتٌ سُخِّرَتْ خَادِمَةً لِزُهُورٍ وَوُرُودٍ وَثَمَرْ
أَيُّ رَبْطٍ بَيْنَ هٰذَيْنِ لَهُ جَذْبُهُ الآسِرُ يا أَهْلَ النَّظَرْ؟!

* * *

كُــلُّ شَــيْءٍ بِـقَـضَــاءٍ وَقَــدَرْ مُحْكَمُ الْـوَزْنِ مُحَـاطٌ بِـجُـدُرْ
إِنَّــهُ رَبِّي تَـعَــالَـىٰ مَـجْـدُهُ أَتْــقَـنَ الْـخَلْقَ وَأَعْـطَىٰ وَأَمَــرْ
قَــالَ لِـلْحَـيِّ: تَـنَـامَىٰ بِقُـوَى فَــائِـقَــاتٍ وَبِــأَعْـدَادٍ كُـثُـرْ
ثُمَّ بِـالْكَـابِـحِ قَـدْ أَلْـجَمَهَـا عِنْـدَ حَـدٍّ بَعْـدَهُ فَرْطُ الضَّـرَرْ
وَبِـمِيـزَانٍ دَقِـيـقٍ لَـمْ يَـدَعْ شِـدَّةَ الْكَـابِـحِ تُفْنِي أَوْ تَضُـرّ
فَـإِذَا الْـكَـابِـحُ ذُو حَـدٍّ إِذَا جَـازَهُ كَـفَّـتْـهُ أَنْـدَادٌ أُخَـرْ

* * *

إِنّ لِـلْأَرْنَـبِ دَفْـعَـاً هَـائِـلاً بِـمَـوَالِـيـدَ كَـأَمْـثَـالِ الشَّـرَرْ
لَــوْ تَـنَـامَتْ وَفْـقَ مَـا تَحْـمِلُهُ مِنْ قُـواهَا لَمْ تَـدَعْ جَـذْرَ خَضِـرْ
فَـإِذَا الْـكَـابِـحُ جُـرْثُـومٌ لَـهُ خَـطَرٌ فِي الْكَبْـحِ أَدْهَىٰ وَأَمَـرّ
ثُـمَّ لِـلْجُـرْثُـومِ مَـا يَـكْبَحُـهُ وَبِـهِ عُـدِّلَ مِـيـزَانُ الْـقَـدَرْ

* * *

وَمِنَ (الْغُـدَّاتِ) فِي أَجْسَـامِنَـا كَـابِحَـاتٌ لِلنَّمـاءِ الْمُـنْفَـجِـرْ
فَـإِذَا اخْـتَـلَّ بِـهَـا مِـيـزَانُـهـا زَادَ وَزْنُ الْجِسْمِ جِـدّاً أَوْ ضَمُـرْ

* * *

مُتْقَـنَـاتٌ مُـدْهِـشَـاتٌ لِـلنُّهـى هِـيَ فِي الْأَكْـوَانِ آيَـاتٌ غُـرَرْ
نَـاطِقَـاتٌ بِـاسْمِ مَـنْ أَتْقَـنَهَـا شَـاهِـدَاتٌ لِلْحَكِـيمِ الْمُقْـتَـدِرْ

* * *

أَوَ مَـا تَكْفِي اللَّبِيبَ الْمُعْـتَبِـرْ
فَـيُـنَـادِي بِـلِسَـانِ الْـمُـدَّكِـرْ
هٰـذِهِ الآيَـاتُ مِـنْ رَبِّ الْبَـشَـرْ فَبِبُرْهَانَاتِها آمَنْتُ بِهْ

* * *

(هـ) «سببيّات المقادير»

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴿٤٣﴾ ﴾(*) (سورة النور).

أُمُــوراً كَــرِهْتُ وأُخْــرَىٰ حَبَبْتْ ... وَتَــابَعْتُ مَــا أَشْتَهِـي بــالــطَّلَبْ
وَرَاقَــبْــتُ دَهْــرِي وَأَحْــدَاثَــهُ ... ورَاقَبْتُ مَـا اهْتَـاجَ بِـي مِنْ أَرَبْ
فَــأَدْرَكتُ مِنْ تَجْـرِبَــاتِ الـزَّمَــانْ ... وَمِنْ كُـلِّ مَا مَـرَّ بِـي مِنْ عَجَبْ
بِــأَنَّ الْـحَــوادِثَ مَـهْـمَـا تَـهُـنْ ... وَمَهْمَــا تَـدُمْ في تَــوالِي الْحِقَبْ
فَــلاَ بُـدّ مِنْ سَبْقِهَــا بِــالْقَضَــاءْ ... وَلاَ بُــدَّ مِنْ سَبْـقِهَــا بــالـسَّبَبْ
وَكُــلٌّ لَــهُ قَــدَرٌ لاَ يُــرَدّْ ... خَـفِـيٌّ عَـلَيْـنَـا وَرَاءَ الْـحُـجُــبْ
وَكُــلٌّ لــهُ سَبَبٌ فـي الْــوُجُــودْ ... تَبَــدَّى لَنَــا أَوْ نَــأَى واحْـتَجَـبْ

* * *

تَبَصَّــرْتُ في سُنَـنِ الْحَــادِثَــاتْ
تَـسِيــرُ مَـعَ الْـقَــدَرِ الْقَــاهِــرِ
فَــأَذْعَـنْتُ لِـلْوَاحِــدِ الْمُــرْتَـجَـىٰ
وَآمَــنْـتُ بِــالْـخَــالِـقَ الْـقَــادِرِ
نِــظَامٌ بِــهِ لِـلْفَتَـىٰ الْـمُـعْـتَبِــرْ
رَوَائِــعُ آيَــاتِ رَبِّ الْــبَــشَــرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

* * *

(*) المفردات: يُزْجي: يَسُوق. الوَدْق: المَطَر.

(١٧)
الحيـــاة والمــوت

(أ) «الحيـــاة»

﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (سورة السَّجْدة).

كَيْفَ دبَّتْ رُوحُ الْحَيَاةِ فَصَارَتْ ... طِينَةُ الأَرْضِ بِالْحَيَاةِ تُفَاخِرْ
أَتُرَاهَا تَفَاعُلاَتٍ تَمَادَتْ ... فَاسْتَحَالَتْ إِلَىٰ الْحَيَاةِ الْعَنَاصِرْ؟
أم تُرَاهَا مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ جَاءَتْ ... وَسَرَتْ فِي الثَّرَىٰ بِقُدْرَةِ قَادِرْ؟
أَنْكَرَ الْمُلْحِدُونَ ظَاهِرَةَ الْخَلْـ ... ـقِ وَقَالُوا: تَفَاعُلاَتٌ غَوَابِرْ
بَيْدَ أَنَّ الْعِلْمَ الصَّحِيحَ أَتَاهُمْ ... مُبْطِلاً قَوْلَهُمْ بِكُلِّ الظَّوَاهِرْ
قَالَ: لاَ حَيَّ قَادِمٌ دُونَ حَيٍّ ... وَهْوَ مَا أَثْبَتَتْهُ عِنْدِي الْمَخَابِرْ
مُنِيَ الْمُلْحِدُونَ بِالْخِزْيِ لَكِنْ ... ظَلَّ مِنْهُمْ في الْكُفْرِ كُلُّ مُكَابِرْ
إِنْ رَأَىٰ مَوْكِبَ الْعُلُومِ تَوَارَىٰ ... خَافِتَ الصَّوْتِ قَابِعاً في الْمَغَائِرْ
وَهْوَ بَيْنَ الدَّهْمَاءِ يَلْبَسُ ثَوْبَ الْـ ... ـعِلْمِ زُوراً كَأَنَّما الْعِلْمُ كَافِرْ
لَيْسَ لِلْمُلْحِدِ الْمُعَانِدِ إِلاَّ الْـ ... ـكِذْبُ وَالْجُبْنُ مِنْ وَسَائِلِ مَاكِرْ
وَهْوَ بِالْحِقْدِ مُهْلِكٌ وَمُبِيدٌ ... إِنْ رَأَى أَنَّهُ عَلَىٰ النَّاسِ ظَافِرْ

* * *

تَفَكَّرْتُ فِي أَمْرِ هٰذِي الْحَيَاةْ
فَأُرْشِدْتُ لِلْخَالِقَ الْمقْتدِرْ
ظَوَاهِرُ فِيهَا لِمَنْ يَعْتَبِرْ
رَوَائِعُ آيَاتِ رَبِّ الْبَشَرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

* * *

(ب) «الموت»

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠﴾ (سورة الْواقعة).

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۝٧٨﴾ (سورة النساء).

مَنِ الَّذِي يَدْفَعُ عَنِّي الْمَوْتَ إِنْ مَوْتِي حَضَرْ؟
هَلِ الرُّقَىٰ مُؤَخّراتي بِضْعَ سَاعَاتٍ أُخَرْ؟
هَلْ يَحْفَظُ الْحَيَاةَ لي كُلُّ أَطِبَّاءِ الْبَشَرْ؟
هَلْ يَنْفَعُ الدَّواءُ أَوْ تَنْفَعُ آلافُ الإِبَرْ؟
هَلْ يَنْفَعُ الشُّعَاعُ أَوْ تُفِيدُ آلافُ الصُّوَرْ؟
هَلْ عِنْدَهُمْ بَلْسَمُ يُبْقِينِي عَلَى مَرِّ الْعُصُرْ؟
هَلْ عِنْدَهُمْ إِكْسِيرُ للحياةِ يَدْفَعُ الْخَطَرْ؟
هَلْ كَانَ يُغْنِينِي اتِّقَاءُ مَصْرَعِي أَو الْحَذَرْ؟
هَلْ عِنْدَ مَنْ يُحِبُّنِي شَيْءٌ يُطِيلُ لي الْعُمُرْ؟
لَوْ افْتَدَانِي بِالْحَيَا ةِ هَلْ حَيَاتِي تَنْتَظِرْ؟
لَوْ بَذَلَ الدُّنْيَا لأَجْلِي هَلْ قَضَائِي يَزْدَجِرْ؟
هَلْ عِنْدَ أُمِّي وَأَبِي وَزَوْجَتِي لِي مِنْ وَزَرْ؟
هَلْ لِي فِي أَرْجَاءِ هَذَا الْكَوْنِ مِنْ مَوْتِي مَفَرّْ؟

الْـمَـوْتُ وَالْـحَـيَـاةُ مِـنْ أَسْـرارِ سُـلْطَانِ الْـقَـدَرْ
الْـمَـوْتُ وَالْـحَـيَـاةُ مِـنْ آيَـاتِ رَبٍّ مُـقْـتَـدِرْ

* * *

تَبَصَّـرْتُ فِي ضَعْفِنَـا الـظَّاهِـرِ
فَـآمَـنْـتُ بِـالْـخَـالِـقِ الْـقَـادِرِ
وَفِي الْمَـوْتِ لِلنَّـاظِـرِ الْمُعْتَبِـرْ
رَوَائِـعُ آيَـاتِ رَبِّ الْـبَـشَـرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

* * *

(ج) «النطفـة»

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾ (سورة النحل).

كُـنْـتُ يَـوْمَـاً وَاحِـدَاً مِـنْ أَلْـفِ آلَافٍ بِـنُـطْفَـةْ
دَفَـعَـتْـنَـا نُـطْفَـةُ الْـمَـاءِ إِلَـىٰ مَـوْطِـنِ عِـفَّـةْ
فَـتَـسَـابَـقْـنَـا وَلَا نَـدْرِي لِـعَـذْرَاءَ مُـخِـفَّـةْ
هَـبَـطَـتْ مِـنْ بُـرْجِـهَـا الْـعَـالِـي إِلَـىٰ دهـلِـيـزِ غُـرْفَـةْ
تَـرْقُـبُ الإِلْـفَ الَّـذِي يَـفْـتَضُّ يَـوْمَ الْـعُـرْسِ إِلْـفَـهْ
فَـإِذَا بِـي أَسْـبِـقُ الْـجَـمْـعَ إِلَـىٰ الإِلْـفِ بِـطَرْفَـةْ
عِـنْـدَهَـا الإِلْـفُ احْـتَـوَانِـي واتَّـحَـدْنَـا دُونَ كُـلْفَـةْ
والْـتَـقَـىٰ الـشَّـطْرَانِ مِـنَّـا وَأَتَـمَّ الـنِّـصْـفُ نِـصْـفَـهْ
وَعَـبَـرْنَـاهُ مَـضِـيـقَـاً بِـعِـنَـاقٍ وبِـلَهْـفَـةْ
فِـي ثَـمَـانٍ مِـنْ لَـيَـالٍ رَشْـفَـةً مِـنْ بَـعْـدِ رَشْـفَـةْ
وَدَخَـلْـنَـا مَـخْـدَعَ الـزَّوْ جَـيْـنِ نَـسْـتَـنْـشِـقُ عَـرْفَـهْ
وَانْـشَـطَرْنَـا وانْـقَـسَـمْـنَـا وَتَـنَـامَـيْـنَـا بِـخِـفَّـةْ

رِحْلَةٌ مَرَّتْ صُعُوداً ... شُرْفَةً مِنْ بَعْدِ شُرْفَةْ
كُلُّ طَوْرٍ قَدْ مَرَرْنَا ... فِيهِ لَا يَخْرِمُ وَصْفَهْ

فَإِذَا بِي كَائِناً ... حَيَّاً بِبَطْنٍ أَتَرَفَّهْ
ثُمَّ جَاءَ الطَّلْقُ يَدْعُو ... وَرَمَى حَوْلِي عُنْفَهْ

وَمَشَىٰ بِي فِي مَضِيقٍ ... هَيّا فَاخْرُجْ دُونَ وَقْفَةْ
دُونَكَ الْعَيْشَ عَلَىٰ ... الْأَرْضِ فَكَابِدْهُ بِعِفَّةْ

وَحَكِيمٌ قَادِرٌ فِي الْـ ... ـغَيْبِ قَدْ أَوْسَعَ لُطْفَهْ
ثُمَّ لَمَّا اشْتَدَّ عَزْمِي ... وَأَنَا أَمْلِكُ كَفَّهْ

صِرْتُ إِنْسَاناً جَهُولاً ... عُجْبُهُ وَرَّمَ أَنْفَهْ
إِنْ مَشَىٰ صَعَّرَ بَيْنَ ... النَّاسِ خَدَّيْه وَعِطْفَهْ

رُبَّمَا جَادَلَ فِي ... الرَّحمنِ أَوْ أَنْكَرَ عَطْفَه
نَاسِيَاً أَنَّ لَدَيْهِ ... أَمْنَهُ الْحُلْوَ وَخَوْفَهْ

نَاسِيَاً مَا كَانَ فِيهِ ... حِينَمَا قَدْ كَانَ نُطْفَةْ
أَنَا إِنْ أَنْكَرْتُ رَبِّي ... مِثْلُ مَا كُنْتُ وَأَتْفَهْ
كَالَّذي لَا عَقْلَ يَحْمِيهِ ... مِنَ الشَّرِّ وَأَسْفَهْ

* * *

تَأَمَّلْتُ فِي خَلْقِنَا الْبَاهِرِ
فَآمَنْتُ بِالْخَالِقِ الْقَادِرِ
وَفِينَا لِذِي النَّظَرِ الْمُعْتَبِرْ
رَوَائِعُ آيَاتِ رَبِّ الْبَشَرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

* * *

(د) «التزاوج»

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (سورة الروم).

قُوَّةٌ مُدْهِشَةٌ ذَاتُ أَثَرْ ... تَجْذِبُ الزَّوْجَيْنِ أُنْثَى وَذَكَرْ

قُوَّةٌ آسِرَةٌ مُوحِيَةٌ ... تُلْهِمُ الشَّاعِرَ أَحْلَى مَا شَعَرْ

تُلْهِمُ النَّاثِرَ فِي آدَابِهِ ... أَعْذَبَ الْقَوْلِ وَأَقْوَى مَا نَثَرْ

إِنَّ مِنْ آثَارِهَا نَارَ الْهَوَىٰ ... وَلَكَمْ قَلْبًا كَوَتْ حَتَّى انْفَطَرْ

وَالْهَوَىٰ الْعُذْرِيُّ مِنْ غَرْسَاتِهَا ... وَلَهَا فِي النَّاسِ غَرْسَاتٌ أُخَرْ

وَلَكَمْ فَنٍّ جَمِيلٍ خَالِدٍ ... هُو مِنْ غَرَسَاتِهَا بَعْضُ الثَّمَرْ

قُوَّةٌ مِنْ أَجْلِهَا كَمْ حَدَثَتْ ... فِي بَنِي آدَمَ أَحداثٌ كُبَرْ

إِنَّهَا آيَةُ تَأْلِيفٍ بِهَا ... حَفِظَ الرَّحْمَٰنُ أَنْسَالَ الْبَشَرْ

وَبِهَا الْعِفَّةُ فِينَا تُبْتَلَىٰ ... وَبِهَا تُوزَنُ فِي النَّاسِ الْقُدَرْ

هِيَ فِي أَعْمَاقِنَا مَغْرُوزَةٌ ... وَهِيَ مِمَّا غَرَزَتْ كَفُّ الْقَدَرْ

وَبِهَا جَدَّتُنَا قَدْ أَخْرَجَتْ ... جَدَّنَا مِنْ بَاذِخِ الْمَجْدِ الْأَغَرّْ

دَلَّهَا أَغْرَاهُ بِالْأَكْلِ الَّذِي ... حَرَّمَ الرَّحْمَٰنُ مِنْ صِنْفِ شُجَرْ

* * *

تَفَكَّرْتُ فِي أَمْرِ هَٰذِي الْغَرِيزَةِ كَمْ خَلَّفَتْ فِي الْوَرَىٰ مِنْ أَثَرْ

فَآمَنْتُ بِاللَّهِ رَبِّ الْأَنَا ... مِ كَمْ قَدْ هَدَانَا بِشَتَّىٰ الْعِبَرْ

وَفِي جَاذِبِ النَّوْعِ لِلْمُعْتَبِرْ

رَوَائِعُ آيَاتِ رَبِّ الْبَشَرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

* * *

(١٨)
الإنْسَــــان

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ (سورة الذاريات).

(أ) «العقل والقلب»

عَـجِبْتُ لِـعَـقْـلِي وَأَحْـكَـامِـهِ ... وَكَـيْـفَ أَتَـتْـنِـي مَـوَازِيـنُـهُ
وَمِـنْ أَيْـنَ جَـاءَتْ ضَـرُورَاتُـهُ ... وَمِـنْ أَيْـنَ جَـاءَتْ قَـوَانِـيـنُـهُ
فَـلَا أَنَـا أَعْـرِفُ مَـا كُـنْـهُـهُ ... وَمَـا هُـوَ فِي النَّفْسِ تَكْـوِينُـهُ
وَلَـوْ أَنَّـهُ انْـعَـكَـسَـتْ حَـالُـهُ ... لَـكَـانَ مِنَ الْـخَـيْـرِ تَـكْـفِـينُـهُ
نَـشَـاطٌ مِنَ الْـفِـكْـرِ لَا يَـنْـتَـهِي ... وَيَبْقَـى لَـدَى النَّـفْسِ تَـدْوِينُـهُ
مُـدَوَّنَـةُ النَّفْسِ أَقْـوَى الشُّـهُـودْ ... إِذَا الْـمَـرْءُ دَاهَـمَـهُ حِـيـنُـهُ

* * *

عَـجِبْـتُ لِـقَـلْـبِي وَأَهْـوَائِـهِ ... وَكَـيْـفَ تَـجَـمَّـعَ بُـنْـيَـانُـهُ
وَكَـيْـفَ يُـوَجِّـهُـهُ لِـلْـمُـرَادْ ... مِنَ الْـخَـيْـرِ والـشَّـرّ إِيـمَـانُـهُ
وَكَمْ تَلْقَـهُ رِيـشَـةً فِي الْـهَـوَاءْ ... أَهْـوَاؤُهُ هِـي سُـلْطَانُـهُ
عَـوَاطِـفُـهُ ذَاتُ حُـكْـمٍ عَـلَيْـهْ ... وَإِنْ خَـالَفَ الْحُـكْمَ بُـرْهَـانُـهُ
فَـطَوْراً تُـسَـوَّدُ أَفْـرَاحُـهُ ... وَطَـوْراً تُـسَـوَّدُ أَحْـزَانُـهُ
وَكَم تَسْتَبِـدُّ بِـهِ فـي السُّـلُوكْ ... وَفِـيـمَـا يُـفَـكِّـرُ أَشْـجَـانُـهُ

وَكَمْ لِلْمَطَامِعِ مِنْ سَطْوَةٍ عَلَيْهِ بِهَا ضَاعَ وِجْدَانُهُ
وَأَسْبَابُ ذَلِكَ عَزْلُ الْيَقِينْ وَحِينَ تُزَلْزَلُ أَرْكَانُهُ

* * *

تَبَصَّرْتُ فِي حَالِيَ الظَّاهِرِ
فَآمَنْتُ بِالْخَالِقِ الْقَادِرِ
وَفِي النَّفْسِ لِلنَّاظِرِ الْمُعْتَبِرْ
رَوَائِعُ آيَاتِ رَبِّ الْبَشَرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

* * *

(ب) «الحواسّ»

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (سورة النحل).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

(سورة المؤمنون).

ظَوَاهِرُ فِي الْكَوْنِ لَا تَنْحَصِرْ يُحِسُّ بِهَا مِسْمَعِي وَالْبَصَرْ
أَذُوقُ مَطَاعِمَهَا إِنْ أَرَدْتُ وَأَلْمُسُ أَشْيَاءَهَا فِي حَذَرْ
رَوَائِحُهَا تَمْتَطِينَ الْهَوَاءْ وَتَصْحَبْنَهُ حَيْثُمَا يَنْتَشِرْ
فَمِنْهَا أُكُفُّ ومِنهَا أَشُمُّ فَهَذَا قَبِيحٌ وهَذَا عَطِرْ
وَكُلٌّ بِهِ قَاتِلٌ يُتَّقَىٰ وَكُلٌّ بِهِ مَا يُفِيدُ الْبَشَرْ
ظَوَاهِرُ أَصْفُو بِهَا سَاعَةً وَأُخْرَىٰ أَكُونُ بِهَا فِي كَدَرْ
وَحَالِي بِهَا رَاغِبٌ رَاهِبٌ فَحِيناً أُسَاءُ وَحِيناً أُسَرّ
فَمَنْ شَقَّ سَمْعِي وَشَقَّ الْبَصَرْ؟ وَمِنْ أَيْنَ لِي عِلْمُ مَا قَدْ ظَهَرْ؟

وَكَيْفَ أُحِسُّ بِهَذَا الْوُجُودْ؟ وَكَيْفَ أَتَتْنِي الحَوَاسُّ الكُبَرْ؟
مَنَافِذُ مِنْهَا شَهِدْتُ الْوُجُودْ وَكَانَ شُهُودِي لَهُ فِي قَدَرْ
شَهِدْتُ ظَوَاهِرَهُ والسُّطُوحْ وَمَا خَلْفَهَا بِالْحِجَابِ اسْتَتَرْ
هُنَالِكَ أَعْمَلْتُ عَقْلِي الْفَسِيحْ وَرَاءَ الْحُدُودِ وَرَاءَ النَّظَرْ

* * *

فَأَدْرَكْتُ سِرَّ الْوُجُودِ الْكَبِيرْ
فَآمَنْتُ بِالْخَالِقِ الْمُقْتَدِرْ
ظَوَاهِرُ فِيهَا لِأَهْلِ الْفِكَرْ
رَوَائِعُ آيَاتِ رَبِّ الْبَشَرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

* * *

(ج) «البنان»

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ (سورة القيامة).

أَخُطُّ. أَقُصُّ. أَخِيطُ الثِّيَابْ وَأَبْنِي الْبِنَاءَ بِهَذِي الْبَنَانْ
أُمَارِسُ مَا شِئْتُ مِنْ صَنْعَةٍ بِهِنَّ وَتَخْدُمْنَنِي كُلَّ آنْ
بَوَاسِطُ إِنْ شِئْتُ بَسْطَ الْأَكُفّْ قَوَابِضُ تَمَّتْ بِهِنَّ الْيَدَانْ
أَنَامِلُ هُنَّ لِقَبْضِ السُّيُوفْ وَقَبْضِ الرِّمَاحِ وَشَدِّ الْعِنَانْ
وَهُنَّ وَسِيلَةُ ذِي رِيشَةٍ وَذِي قَلَمٍ وَأَخِي صَوْلَجَانْ[1]
وَهُنَّ وَسِيلَةُ ذِي صَنْعَةٍ يُفَاخِرُ بِالْعَبْقَرِيِّ الْحِسَانْ
بِهِنَّ الدِّفَاعُ بِهِنَّ الْهُجُومْ بِهِنَّ الْحُتُوفُ بِهِنَّ الْأَمَانْ
وَهُنَّ لِعُمْيِ الْعُيُونِ الْعُيُونْ وَلِلْبُكْمِ هُنَّ بَدِيلُ اللِّسَانْ
وَأَعْجَبُ شَيْءٍ بِهِنَّ الْخُطُوطْ فَمَا اتَّحَدَتْ فِي الْوَرَى «بَصْمَتَانْ»

---

(١) الصولجان: عصا خاصة فيها عوج يحملها بعض ذوي السلطان.

وَطَبْعَةُ إِبْهَامِنَا خَتْمُنَا يُمَيِّزُنَا مَا تَوَالَى الزَّمَانْ
أَنَامِلُنَا مِنْ بَدِيعِ الْفُنُونْ يُقَصِّرُ عَنْ وَصْفِهِنَّ الْبَيَانْ

* * *

بَصُرْتُ بِإِتْقَانِهَا الْبَاهِرِ
فَآمَنْتُ بِالْخَالِقِ الْقَادِرِ
بَنَاتُ بِهِنَّ لأَهْلِ النَّظَرْ
رَوَائِعُ آيَاتِ رَبِّ الْبَشَرْ ... فآمَنْتُ به

(د) «النوم»

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (سورة الروم).

عَجِبْتُ لِنَفْسِيَ عِنْدَ الْمَنَامْ وفَقْدِي شُعُورِي وَفَقْدِيَ الْكَلَامْ
وَأُمْسِي إِذَا نِمْتُ مَيْتاً فَلاَ أُحِسُّ بِذَاتِي كَأَنِّي حُطَامْ
وَأَسْبَحُ فِي الْحُلْمِ فِي عَالَمٍ عَجِيبِ الرُّؤَى ذِي أُمُورٍ جِسَامْ
لَهُ مَنْطِقٌ وَمَقَايِيسُ لاَ تُقَاسُ بِظَاهِرِ حَالِ الأَنَامْ
فَكَمْ سَرَّنِي فِيهِ مَا لاَ يَسُرّْ وَكَمْ سَاءَنِي فِيهِ حُلْوُ الْمَرَامْ
وَيَبْدُو الْخِصَامُ بِهِ كَالْوِئَامْ وَيَبْدُو الْوِئَامُ بِهِ كَالْخِصَامْ
سَأَلْتُ عَنِ النَوْمِ أَهْلَ الْبُحُوثْ فَأُنْبِئْتُ بِالْمُتْقَنَاتِ الْعِظَامْ
مَلاَيِينُ مُوصَلَةٌ فِي الدِّمَاغْ تُفَصَّلُ فِيهِ لأَجْلِ الْمَنَامْ

* * *

بَصُرْتُ بِإِتْقَانِهَا الْبَاهِرِ
فَآمَنْتُ بِالْخَالِقَ الْقَادِرِ
وَفِي النَّوْمِ لِلنَّاظِرِ الْمُعْتَبِرْ
رَوَائِعُ آيَاتِ رَبِّ الْبَشَرْ ... فَآمَنْتُ بِهْ

* * *

(١٩)
يقظة الإِيمان عند الشدائد

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ (سورة الإِسْراء).

رَكِبْتُ الْبِحَارَ وَأَهْوَالَهَا وَحَمَّلْتُ فِي الْفُلْكِ أَحْمَالَهَا
وَخُضْتُ الْعُبَابَ وَأَمْوَاجَهُ وَقَدْ زُلْزِلَتْ فِيهِ زِلْزَالَهَا
وَهَاجَتْ عَوَاصِفُهُ فِي الضَّبَابْ وَجَرَّتْ لَيَالِيهِ أَذْيَالَهَا
وَخَفَّتْ عَلَىٰ مَوْجِهِ الْجَارِيَاتْ وَقَطَّعَتِ النَّفْسُ آمَالَهَا
وَلَمْ يَبْقَ مِنْ سَبَبٍ يُرْتَجَى وَأَوْقَفَتِ النَّاسُ أَعْمَالَهَا
وَنَادَىٰ الْمُنَادِي: إِلَٰهِي أَغِثْ فَإِنَّكَ وَحْدَكَ تُرْجَىٰ لَهَا
فَأَرْخَىٰ الْمُهَيْمِنُ حَبْلَ النَّجَاةْ وَنَالَ السَّلَامَةَ مَنْ نَالَهَا
وَأَرْسَتْ عَلَىٰ الشَّاطِىء الْمُرْتَجَىٰ وَأَلْقَتْ عَلَىٰ الْبَرِّ أَثْقَالَهَا
وَأَثْنَتْ عَلَىٰ اللَّهِ نَفْسُ الشَّكُورْ وَلَمْ يُنْسِهَا الْأَمْنُ أَحْوَالَهَا
وَكَمْ أَنْفُسٍ جَحَدَتْ رَبَّهَا وَمَرَّتْ تُجَرْجِرُ أَذْيَالَهَا
وَسَاوِسُ شَيْطَانِهَا اسْتَحْوَذَتْ عَلَيْهَا مِنْ الْوَهْمِ فَاجْتَالَهَا
فَيَا وَيْلَهَا أَنْفُساً بِالْجُحُودْ تُقَابِلُ أَنْعُمَ مَنْ عَالَهَا
وَتَتْبَعُ أَوْهَامَهَا الْبَاطِلَاتْ وَتَعْبُدَ بِالذُّلِّ مُغْتَالَهَا

* * *

تَبَصَّرْتُ فِي ثَمَرَاتِ الدُّعَاءْ
وَمَا فِيهِ مِنْ أَثَرٍ بَاهِرِ
لِمَنْ أَلْجَأَتْهُ الصُّروف الشِدَادْ
فَآمَنْتُ بِالْخَالِقِ الْقَادِرِ
فَفيهِ لِكُلِّ فَتَىٰ مُعْتَبِرْ
دَلَائل سُلْطَانِ رَبِّ الْبَشَرْ ... فَآمَنْتُ بِهِ

* * *

(٢٠)
متاع الحياة الدنيا

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ (سورة آل عمران).

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾

(سورة الحَديد).

لذَّةُ الْجِسْمِ ـ إنْ أتَتْ ـ وَمَضَاتُ ... تَلْمُسُ السَّطْحَ مَا لَهَا أَعْمَاقُ
عَابِرَاتٌ تَقْضِي الْمَآرِبَ مِنَّا ... ثُمَّ تَمْضِي وَمَا لَهَا أَعْلاَقُ
قَدْ تَظَلُّ الذِّكْرَىٰ وتِلْكَ خَيَالٌ ... أَوْ أَلِيمَانِ: حَسْرَةٌ وَاحْتِرَاقُ

* * *

لَذَّةَ الأَهْلِ وَالْبَنِينَ شَرَابٌ ... كَمْ بِنَا لَوْعَةٌ لَهُ وَاشْتِيَاقُ
فَإِذَا الْكَأْسُ أُتْرِعَتْ مِنْهُ صَفْواً ... لارْتِشَافٍ فَإِنَّهَا تُهْرَاقُ

* * *

لَذَّةُ الْمَالِ: حِينَ يَمْضِي لِيَقْضِي بَعْضَ حَاجَاتِنَا وَهَذَا افْتِرَاقُ
إِنَّهَا لَا تَكُونُ بِالْجَمْعِ وَالْعَدِّ تَسَاوَىٰ هَٰذَانِ والإِمْلَاقُ[1]
هُوَ هَمٌّ. وَجَمْعُهُ كَدُّ نَفْسٍ وَعَنَاءٌ. وَحِفْظُهُ إِرْهَاقُ
كُلَّمَا زَادَ خَوْفُنَا زَادَ مِنْهُ وَعَلَيْهِ وَمَسَّنَا الإِقْلَاقُ
وَفِرَاقٌ لَهُ عَلَىٰ الْكُرْهِ آتٍ دُونَ رَيْبٍ مَتَىٰ دَعَا الرَّزَّاقُ
وَحِسَابٌ عَلَيْهِ يَوْمَ التَّلَاقِي يَتَوَلَّاهُ رَبُّنَا الْخَلَّاقُ

* * *

لَذَّةُ الْجَاهِ عُلِّقَتْ بِسَرَابٍ وَلَهَا كَمْ تَحَلَّبَتْ أَشْدَاقُ
وَإِلَيْهَا كَمْ هَاجَ شَوْقٌ وَأَضْنَىٰ وَلَهَا كَمْ تَقَطَّعَتْ أَعْنَاقُ
حِينَ يَدْنُو مِنْهَا الْمُكَافِحُ يَحْظَىٰ بِلِقَاءٍ مَا قَلَّ عَنْهُ الْفِرَاقُ
إِنْ أَتَىٰ الْجَاهُ أَقْبَلَ الْهَمُّ فِيهِ فَإِذَا الصَّفْوُ مَاؤُهُ مُهْرَاقُ
هَكَذَا مَطْلَبُ التَّوَهُّمِ إِنْ جَا ءَ تَفَانَى خَيَالُهُ الْعِمْلَاقُ
صُورَةٌ فِي الْهَوَاءِ تُغْرِي بِسَعْدٍ فَيَهِيجُ الْهَوَىٰ وَيَحْلُو السِّبَاقُ
وَيَكِدُّ الْعُشَّاقُ سَعْيَاً إِلَيْهَا أَيُّهُمْ ظَافِرٌ بِهَا سَبَّاقُ
وَالْمُجَلِّي يَنْكَبُّ وَجْدَاً لِيَحْظَىٰ بِعِنَاقٍ فَلَا يَتِمُّ الْعِنَاقُ
بَيْنَ دُنْيَا الْأَوْهَامِ وَالصَّحْوِ مِنْهَا نُفْرَةٌ ذَاتُ قَسْوَةٍ وَافْتِرَاقُ

* * *

لَذَّةُ الصَّحْبِ دُونَ تَقْوَى خِدَاعٌ وَاخْتِلَاسٌ وَحِيلَةٌ وَنِفَاقُ

* * *

هَٰذِهِ مُتْعَةُ الْحَيَاةِ عَلَىٰ الْأَرْ ضِ وَهَٰذَا كِسَاؤُهَا الْبَرَّاقُ

* * *

فَمَنْ اخْتَارَ لَذَّةً لَيْسَ فِيهَا مِنْ عَصِيرِ الْخَيَالِ وَهْمٌ مُرَاقُ
فَلَدَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ وَالْعِلْمُ وَحُبٌّ لِلْخَيْرِ. وَالْأَخْلَاقُ

---

(١) الإملاق: الفقر.

هٰهُنَا لَذَّةُ الْحَيَاةِ لِمَنْ شَاءَ وَفِيهَا يَطِيبُ الاسْتِغْرَاقُ
هِيَ فِي الْأَرْضِ نَفْحَةٌ مِنْ نَعِيمٍ سِيقَ لِلذَّائِقِينَ مِنْهُ مَذَاقُ
وَبِرَحْبِ الْجِنَانِ فِي الْخُلْدِ مِنْهُ نَهَرٌ دَائِمُ الْهَنَا دَفَّاقُ

* * *

يَا فُؤادِي أَنْتَ آلْمَشُوقُ إلى الْخُلْدِ وَأَنْتَ الْمُوَلَّعُ الْخَفَّاقُ
أَنْتَ لِلَّذَّةِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا تَافِهُ الْوَهْمِ طَالِبٌ مُشْتَاقُ
هِيَ فِي الْخُلْدِ قَدْ أُعِدَّتْ وَصِينَتْ وَهِيَ لِلْمُتَّقِي ثَوابٌ يُسَاقُ
أَيُّهَا النَّفْسُ فَاتَّقِي اللَّهَ تَرْضَيْ بِعَطَاءٍ يَمُدُّهُ إغْدَاقُ
إنْ يَكُنْ فِي التُّقَىٰ سِبَاقُكِ يَغْدُو لَكِ فِي الْمَجْدِ وَالنَّعِيمِ انْطِلاَقُ
أَنَا في مُهْجَتِي مِنَ الْعِلْمِ بِاللَّهِ رُسُوخٌ يَمُدُّهُ إِشْرَاقُ
إنَّهُ الْقَادِرُ الْحَكِيمُ لَهُ الأَمْرُ جَمِيْعَاً وَإِنَّهُ الْخَلاَّقُ
أَرتَجِي فَضْلَهُ الْعَمِيمَ وَإِنْ كَانَ بِقَلْبِيَ مِنْ عَدْلِهِ إِشْفَاقُ
لَسْتُ أَرْجُو سِوَاهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِي فَجُودُهُ غَيْدَاقُ
وَطَرِيقُ الْهُدَىٰ إِلَىٰ اللَّهِ قَبْلِي مَرَّ فِيهِ الْكِرَامُ والْحُذَّاقُ
مَرَّ فِيهِ كُلُّ الْعَبَاقِرَةِ الشُّمِّ فَنِعْمَ الْهُدَىٰ وَنِعْمَ الرِّفَاقُ
إِنَّنِي قَدْ صَحَوْتُ مِنْ فَضْلِ رَبِّي فَهَلِ النَّائِمُونَ بَعْدِي أَفَاقُوا
إِنَّ جَنْبَ الطَّرِيقِ أَلْفَ سَبِيلٍ تَتَهَاوىٰ من دُونِهَا أَعْمَاقُ
وَالْجَحِيمُ الْجَحِيْمُ فِي أَسْفَلِ الْعُمْقِ وَفِي الْعُمْقِ لاَهِبٌ دَفَّاقُ
وَهْيَ لِلْكَافِرِينَ دَارُ عَذَابٍ أُحْكِمَتْ فَوْقَهُمْ بِهَا أَغْلاَقُ
وَهْيَ لِلْمُجْرِمِينَ سُوءُ مَصِيرٍ وَلَظَاهَا لَهُمْ جَزَاءٌ وِفَاقُ
فَالنَّجَاةَ النَّجَاةَ هٰذَا صِرَاطُ اللَّهِ فِيهِ النَّجَاةُ وَالتِّرْيَاقُ

* * *

(٢١)
آمنت باللّه وحده

اللَّهُ لا شَيْءَ قَبْلَهْ اللَّهُ لا شَيْءَ بَعْدَهْ آمَنْتُ بِاللَّهِ وَحْدَهْ
هُـوَ الإِلَـهُ الْـمُـمَـجَّـدْ بِـعِـزِّهِ قَـدْ تَـفَـرَّدْ
بِـحُـكْـمِـهِ قَـدْ تَـوَحَّـدْ لَـهُ نَـذِلُّ وَنَـسْـجُـدْ
لَـهُ نُـطِـيعُ وَنَـعْـبُـدْ وَبِـالْـعِـبَـادَةِ نَـسْـعَـدْ
وبِـالـسَّـعَـادَة نَـخْـلُدْ
اللَّهُ لا شَيْءَ قَبْلَهْ اللَّهُ لَا شَيْءَ بَعْدَهْ آمَنْتُ بِاللَّهِ وَحْدَهْ
آمَـنْـتُ بِـالـلَّـهِ وَحْـدَهْ وصُـنْـتُ عَـقْـلِي وَرُشْـدَهْ
مِنْ أَنْ يُـضَـيِّـعَ مَـجْـدَهْ فَـيَـغْـدُوَ الْـكُـفْـرُ قَـصْـدَهْ
أَوْ يُمْسِـيَ الشِّـرْكُ عَـقْـدَهْ أَوِ الـضَّـلَالُ مَـرَدَّهْ
فَتُمْسِيَ الـنَّـارُ مَهْـدَهْ

* * *

مَـا يَـزْعُمُـونَ بِسُخْفِهِم مِنْ تَـافِـهٍ فَلْيَـزْعُـمُـوا
وَلْـيُـلْحِـدُوا بِـالـلَّـهِ وَلْيَتَكَبَّـرُوا وَلْيُـجْـرِمُـوا
وَلْيُشْـرِكُـوا مَـا أَشْـرَكُـوا وَلْـيُـوْهِمُـوا مَـا أَوْهَـمُـوا
وَلْـيَـجْـحَـدُوا الـرَّحْـمَـنَ رَبَّ الـنَّـاسِ وَلْـيَـتَـبَـرَّمُـوا
هُمْ يُهْـرَعُـوْنَ إِلى الشَّقَـاءِ بِـكَـسْـبِـهِـمْ فَـلْـيَـفْـهَـمُـوا
ويُقَـدِّمُـون إِلَىٰ الْـعَـذَابِ نُـفُـوسَـهُـم فَـلْيَـعْـلَـمُـوا

سَــادَاتُهُمْ مِنْ جُنْــدِ إِبْـليــ ـــسَ اللَّعِيْـنِ هُــمُ هُــمُــوا
سَلَكُــوا مَسَــالِكَــهُ وَشَــطْرَ الــمُـهْـلِكَــاتِ تَـقَــدَّمُــوا
وَتَــكَــبَّــروا وَتَــطاوَلُــوا وَتَــمَــرَّدُوا وَتَــهَــجَّــمُــوا
فَـهَــوَوْا بِــوَادِي كُـفْــرِهِـمْ وَتَــقَــسَّــمُــوا وَتَـحَــطَّمُــوا
كُــلٌّ يُــخَــابِطُ دَرْبَــهْ كُــلٌّ يُــلاَعِــنُ حِــزْبَــهْ
وَأَيَّــدَ الــلَّهُ جُــنْــدَهْ وَبَــدَّدَ الــكــفــرَ وَحْــدَهْ
اللَّهُ لا شَيْءَ قَبْلَهْ اللَّهُ لا شَيْءَ بَعْدَهْ آمَنْتُ بِاللَّهِ وَحْدَهْ
وَبِــالــنَّــبِــيِّ مُــحَــمَّــدْ وَبِــالْكِتَــابِ الْـمُـمَـجَّــدْ

* * *

http://www.al-maktabeh.com

خَاتِـمَة

هَذِهِ مَجْمُوْعَةُ الشِّعْرِ الّذِي فَتَحَ اللَّهُ بِهِ فِي هذا الْمَجَال، خِلاَلَ مزدحم من مُخْتَلِفِ الْأَعْمَال، عَلَىٰ أَنّ المضيّ فِي هذا السَّبيل لاَ يكادُ يَنْتَهِي، لِمَنْ يَسَّرَ اللَّهُ لَهُ وَفتح عَلَيْهِ أَبْوَابَ الْفِكْرِ والْعِلْمِ والْقَوْل، فَآيَاتُ اللَّهِ في كَوْنِهِ لَا تَتَنَاهَىٰ، والطّرِيقُ طَوِيل، وَيَفْنَىٰ النَّاسُ وَيَنْتَهِي عُمْرُ الْأَرْضِ وَلاَ تُحْصِي الْخَلاَئِقُ كُلَّ آيَاتِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ الكبير.

واللَّهَ أَسأل أن يَنْفَعَ بِهَا إنّه سَميعٌ مُجيب.

مكة المكرمة
في ١٢ رمضان سنة ١٣٩٩هجرية

عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

فهرس الديوان

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة